

إِتِّخَافُ أَعْلَامِ النَّاسِ بِحِمَالِ أَخْبَارِ حَاضِرَةِ مَكْنَسِ

تأليف

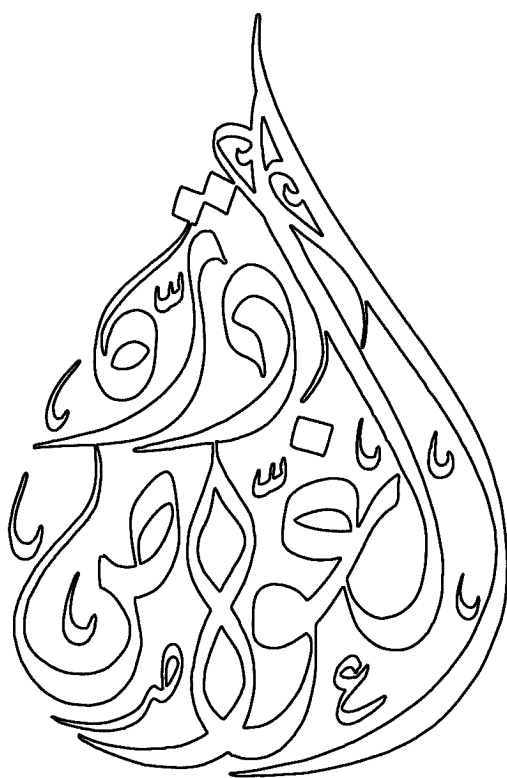
ابن زديان : عبد الرحمن بن محمد السَّجَّامِاسِي

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية



إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس

تأليف

ابن زيدان: عبد الرحمن بن محمد السجلماسي
(١٢٩٠ - ١٣٦٥هـ)

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعة المنيا والإمام بالرياض
ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



الطبعة الاولى

٢٠٠٨ هـ - ١٤٢٩

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الناسر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

٢٥٩٣٦٢٧٧ / فاكس: ٢٥٩٣٨٤١١ - ٢٥٩٢٢٦٢٠

E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

اتحاد اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ج ١
تأليف: ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد المكناسي ، تحقيق: علي عمر
ط ١ - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٨

٥ مج : ٢٤ سم

تكمك : ٦ ٣٨٩ ٣٤١ ٩٧٧

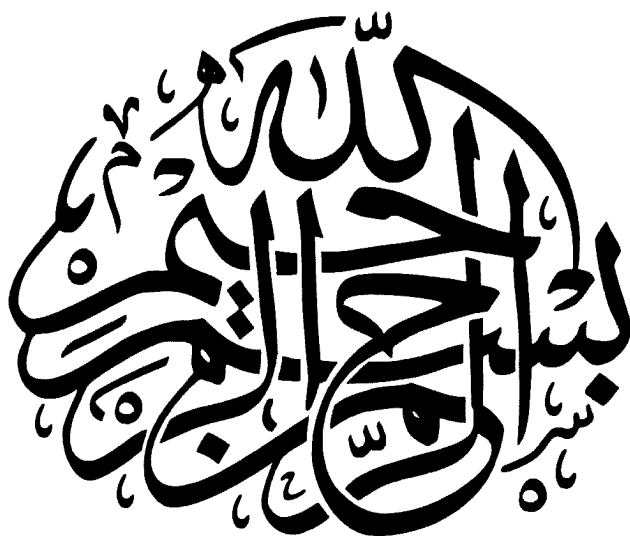
١- الفقهاء - معاجم

أ- عمر ، علي (محقق)

ب- العنوان

ديوى : ٩٢٢،٥٨

رقم الابداع : ٢٠٠٨ / ٧٦٦٦





مقدمة هذه الطبعة

المؤلف وإسهاماته فى الحياة الثقافية بالمغرب:

ابن زيدان: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن الشريف العلوى السجلماسى، أبو زيد: مؤرخ من أعيان المغرب الأقصى ولد سنة ١٢٩٠هـ.

كان السلطان محمد بن يوسف يخاطبه بابن عمنا، نقيب عائلتنا ومؤرخ دولتنا.

ولد ونشأ فى «مكناسة الزيتون»، واستكمل دراسته فى جامعة القرويين بـ«فاس» سنة ١٣٢٤هـ، وولى نقابة الأشراف بـ«مكناس» و«زرهون».

وزار «مصر» حاجا فى سنتى ١٣٣١ - ١٣٥٧، واستقر فى «الدار البيضاء»، يدير المدرسة الحربية المغربية فيها، وتوفى بـ«مكناس» سنة ١٣٦٥هـ.

من كتبه: «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»، وهو الذى نقدم له اليوم، و«الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة»، وديوان شعر، أكثره مدائح نبوية.

وجمع خزانة كتب تعد من أكبر الخزائن فى المغرب.

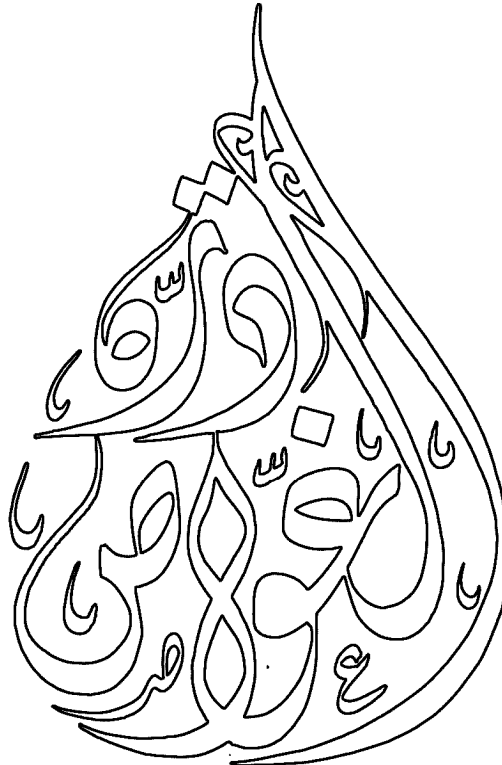
والكتاب الذى نقدم له اليوم يتناول تاريخ مكناس منذ الأجيال القديمة ومنذ ملوكها الأولين حتى عصر المؤلف.

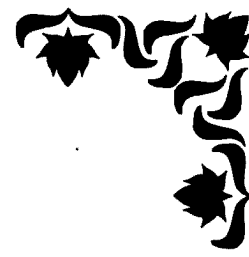
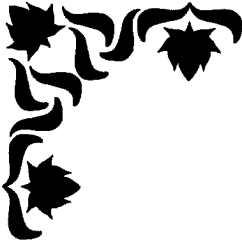
وهو للباحثين قبل غيرهم يجدون فيه ما تفضن عليهم به المراجع الأخرى حيث تناول فى إسهاب تاريخ مكناس وفق منهج لا يتوافر فى المراجع المماثلة.

وقد اعتمدنا فى طبعتنا هذه الطبعة الاولى لهذا الكتاب بالرباط سنة ١٣٤٧هـ، وذلك بعد تنقيحها.

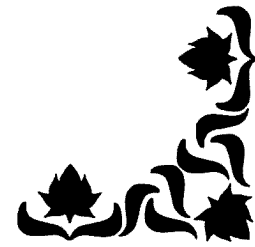
هذا وقد تركنا النص على حاله فى بعض المواد دون تدخل فى تعديل أسلوب الكتاب، وذلك وفق منهج المؤلف حيث أشار إلى ذلك بقوله: «وقد أتينا لك أيها المطالع بالنصوص المتبادلة بين نواب الدول الأجنبية ونواب الحكومة الشريفة فى المؤتمرات السياسية والاجتماعات الرسمية على ما فيها من علل التركيب وركاكة الإنشاء، وعدم التنظيم، محافظة على نص الأصل وعدم تغييره، واعتماداً على همة القارئ اللبيب، الذى لا تعزب عنه الحقيقة، وسترى بقية من ذلك بعد هذا بقريب».

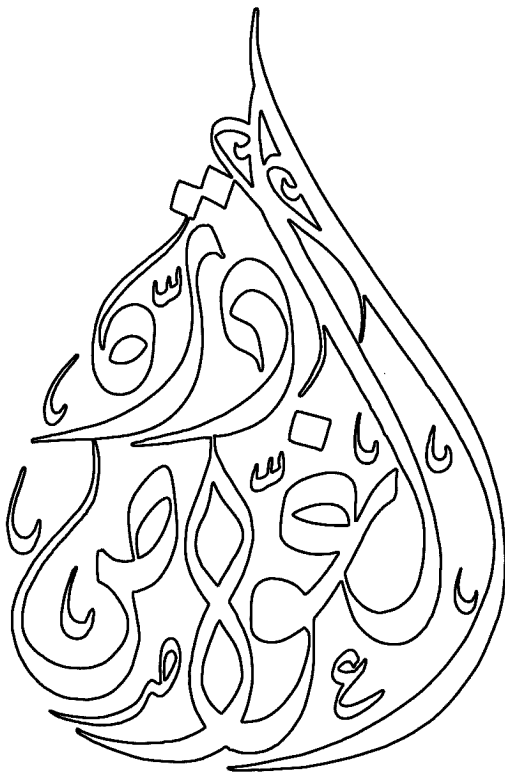
أما ما عدا ذلك فقد قمت بتصويبه عند موضعه، ولم أشر فى تعليقاتى إلى كل ما قمت به من تصويب، وإنما نبهت على بعضه فقط.





الموضوعات والصور
التي صدرت بها طبعة
الرباط سنة ١٣٤٧ هـ







﴿ جلالة السلطان الأعظم سيدي محمد بن يوسف ﴾

﴿ أيد الله نصره وعلاه ﴾

الإهداء

(إلى صاحب الجلالة)

(مولانا السلطان سيدى محمد بن يوسف أيده الله)

أحسن أثر، عن يراعى يؤثر، فيحمد ويشكر، ويقر بفضلله ولا ينكر، مثل
إتحاف أعلام الناس، بجمال حاضرة مكناس، عاصمة فخر جدودك الكرام، واسطة
عقد الملوك العظام، السالك فى تدبير الممالك، أحسن المسالك، السلطان الجليل،
أبو النصر والفدا إسماعيل، وجدك الإمام، الذى خضعت لعزه المشام، أبو زيد
عبد الرحمن بن هشام، قدس الله أرواحهما فى دار السلام.

وبما أن جنابكم المرفوع أمره على المفارق، أحق أن تهدى إليه نفائس الذخائر
والمহারق، قدمته هدية، لسمو جلالتكم الزكية، وكل الرجاء أن يحل لديها محل
القبول والإقبال، وينظر بعين الاحتفاء والاحتفال.

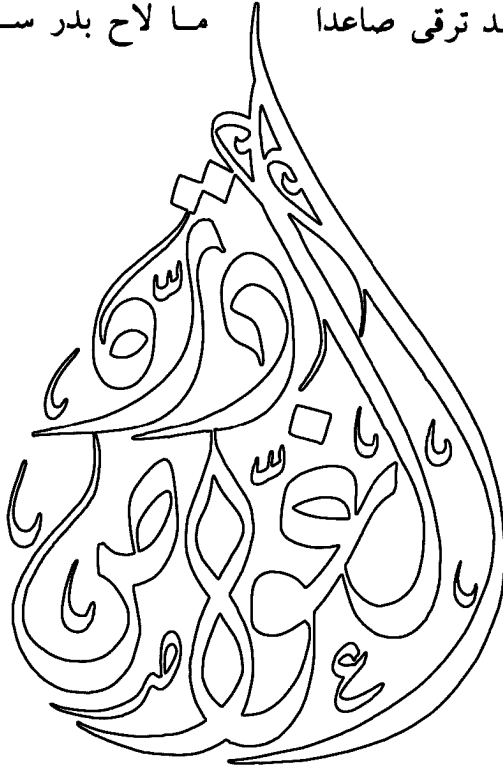
ولا غرو فإنه حسنة من حسنات عصرك، ومفخرة من مفاخر قطرك ونتيجة
اجتهاد أحد أبناء، عائلتك العلية، ومؤرخي دولتك العلوية، فأليكه يا مولاي
هدية، وطرفة سنية، تفخر بحلول ناديك، وينا جيک مهديها ويناديك:

مولاي يا سبط الرسول محمد	من اسمه المحمود من أسمائه
من علمه البحر الذى حارت عقو	ل ذوي النهى والفهم فى إملائه
من حلمه أنسى سماحة أحنف	وتجاور المأمون عن أعدائه
من جوده الغيث الذى لو رامه	معن أقر بعجزه وعنائه
أهدى لحضرتك الشريفة منشدا	يبتى فتى أربا على نظرائه

أهدى له ما حزت من نعمائه)	(أهدى لمجلسه الكريم وإنما
فضل عليه لأنه من مائه)	(كالبحر يطره السحاب وماله
فازوا بنعمة ربهم ورضائه	أهدى كتابا جامعا آثار من
كالروض فى أرواحه وبهائه	أسلافك الغر الآلى أنباؤهم
رحمن مخلص وده وولائه	فاقبل فديتك تحفة من عابد الـ
علياك حسن مديحه وثنائه	ذاك ابن زيدان الذى يزداد فى
عز يفوق النجم سمك بنائه	ولتبق يا مولاي فى نصر وفى
ولأنت من يبقى الهنا ببقائه	فلأنت من تزهو الدنا بوجوده

* * *

وحباك ما ترجوه من آلائه	الله خصك بالسيادة والعلـ
ما لاح بدر ساطعا بسمائه	والى مراقى السعد ترقى صاعدا



C'est avec le plus grand plaisir que j'accepte de présenter les remarquables tableaux qui vous sont adressés par l'historien du Malina. Son auteur se permet d'ajouter deux titres qui vont à la commission d'en tel ouvrage général comme eux est le symbole des traditions géographiques et sociales des niveaux par votre famille dans la région littorale Maline & l'histoire Sultan Moulay Ismaïl le Grand, et qu'une commission de respect des choses se passe tout cela en son temps et pendant collaboration dans l'action sociale du développement du Malina et de Protectorat français contre le Maline les deux les plus modernes pour le développement de notre toujours plus moderne et prospère.

Votre livre s'adresse tout d'abord aux enfants qui savent et cherchent à retrouver en vos pages et par l'illustration, toutes les premières, et, dans les pages suivantes, à ceux de notre chère école de St Louis et, enfin aux parents toujours si intéressés, aux Groupes catholiques, aux associations, aux communautés des enfants de St Louis et, enfin, aux parents de votre ville.

[illegible]

كلمة تقديم

بقلم المشير ليوطي ماريشال فرنسا ووزير حريتها ومقيمها
العام بالمغرب سابقا وعضو المجمع العلمى الفرنسى وهى
كلمة خاطب بها فضيلة المؤلف بما ترجمته:

طوري فى ١٩ غشت ١٩٢٩

صديقى العزيز:

قبلت مع مزيد السرور تقديم كتابكم القيم الذى ألفتموه عن تاريخ مكناس،
وإن لكم من المزايا ما يجعلكم أجدر الناس بالخوض فى هذا المجال، أوليس
اسمكم رمزاً لتلك التقاليد التى اعتنت أسرتكم الكريمة بتتبعها على مر العصور،
أوليسن أسرتكم تتصل مباشرة بعظمة السلطان مولاى إسماعيل الأكبر، وهذا وقد
جمعت مع احترامكم للماضى أفكاراً حديثة قيمة فأظهرتم ذلك بمعاونتكم فى
العمل المشترك بين حكومة المخزن والحماية لترقية ذلك المغرب الذى لا يزيد إلا قوة
ورفاهية.

لقد أحييتم لنا فى فصول عديمة النظير تاريخ مدينتكم منذ الأجيال القديمة
ومنذ ملوكها الأولين، ثم صورتم لنا مجد ملك المولى إسماعيل وكيف شيد
القصور وخطط البساتين فتتبعناه فى عمله المدهش العظيم الذى شمل جميع أطراف
المملكة، وكم يلد لنا أن نتبع أعماله وراء البحار فنحى صلاته الودية مع ملكنا
العظيم لويس الرابع عشر.

إن كتابكم هذا هو للأدباء قبل غيرهم فيجدون فيه ما تضمن عليهم به
المجلدات الكثيرة، ثم هو لتلاميذ مدارسكم وتلاميذ مدرستنا «مدرسة الدار
البيضاء» حيث سيبقى اسمكم محبوبا محترما، ثم هو للفرنسيين الذين سيجدون
فيه ما يقوى إعجابهم بمديتكم.

إننى خصصت لكتابكم «عبر الأس» مكان الشرف بين أعز الكتب لدى وبين
الذكريات التى تحوط بى وتذكرني سنوات ماضية قضيتها بينكم ولا أنساها أبدا -
وتجعلنى دائم الاتصال ببلادكم العزيزة.

ليوطي



تواريخ المغرب

«نبذة صغيرة»

التاريخ أنباء الخلف بأحوال السلف، وهو معيار توزن به أعمال الأمة في هذا الوجود ويعلم منه مكانها بين الأمم غيرها على هذه الأرض، وهو السائق للعزة والدليل الخريت في الدجلة.

وللمغرب تاريخ معروف في إجماله، مملوء بالبطولة، حفيل بالمآثر العظمى والوقائع الفاصلة الكبرى، وصحفه دالة على استبحار عمرانه وتمدن سكانه وإدراكه البسطة في أغراض الحياة ومذاهبها، وبلوغه يفاع المجد وذراً الحضارة، لما قام فيه الأفاضال الذين قادوا الأمم فأحسنوا مقادها وساقوها إلى مواطن العزة فبلغوها ومثله في ذلك كمثل هذه الأقطار المتألف من مجموعها عالم الإسلام ولا سيما وقد كان منها عضوا بارز المكانة محسوس الأثر. و«مراكش» و«فاس» و«سبتة» و«سجلماسة» ثم «مكناسة» حواضر مغربية كان لها شأن في العلم والأدب والحضارة بحيث يصح إدراجها بجانب غيرها من كراسي الإسلام وحواضره في الشرق والغرب.

وقد نشأ التاريخ المغربي متدرجا على ناموس النشوء والارتقاء، فلذلك يغلب على عهوده الأولى أن يكون مؤرخوها المعاصرون لها أجانبا من هذه الديار، ثم لما استقام للبلاد أمرها وبلغت أشدها صار لكل دولة وعصر مؤرخون معاصرون يحفظون للأجيال القادمة أنباء العصور السالفة وينقلون للآتي خبر الذاهب بما استطاعوا من جمع وتدقيق، وأعانهم على ذلك أن جمهورهم كان متصلا بالدولة مطلعا على ما قد يحتاج إليه إذ ليس فيهم - في الغالب - إلا وزير أو كاتب أو نحوهما.

فكان منهم فى عهد المرابطين شاعرهم أبو بكر بن الصيرفى الغرناطى (٥٥٧-) وكان فى عهد المهدي والموحدين مؤرخون منهم: «صاحب الأنساب» فى معرفة الأصحاب أصحاب الإمام المهدي، وأبو بكر بن على الصنهاجى البيذق صاحب «تاريخ الموحدين»، وعبد الواحد بن على التميمى المراكشى مؤلف «المعجب» وغيرهم كالقاضى يوسف بن عمر الإشبلى وابن حمويه السرخسى والقاضى الأكرم على بن يوسف القفطى (٥٦٨-) صاحب تاريخ المغرب ومن تولاها من الموحدين فلما انقرضت دولتهم وقام المربنيون بجليل أعمالهم ونضجت فى عهدهم الحضارة بالمغرب قام بتدوينها أصحاب الذخيرة السنية وروضة النسرين وروض القرطاس وشاعر ذلك العصر الكاتب عبد العزيز المزورى فى نظم السلوك وغيرهم كالسفير الخطيب بن مرزوق فى المسند الصحيح الحسن فى مآثر أبى الحسن وكاتب الدولة ابن خلدون وضيفها ابن الخطيب فى آثاره، ثم دالت الدولة للوطاسيين منهم فما لبثوا بها إلا أياما واستلمها منهم السعديون، فظهر بليغهم الوزير الفشتالى بمناهل الصفا والجزولي بالنفحة المسكية، والرئيس ابن عيسى بالممدود والمقصود من سنا الملك المنصور، وابن القاضي بالمتقى المقصور ودره الحجال، وغيرهم بغير ذلك، ثم صار الأمر للعلويين فكان لهم مثل ما تقدم فكتب عن صدر دولتهم اليفرنى ثم تلاه ابن إبراهيم الدكالي والغزال والضعيف والزباني، ومثله فى الدولة العلوية كمثل ابن القاضي فى الدولة السعدية فى الاعتبار بالتاريخ والتدوين فيه، واكنسوس وابن الحاج والسملالي والسباعي وصاحب الاستقصاء وغير هؤلاء.

ومن المؤرخين طائفة تخللت تلك الأدوار وعاشت فى ظل أفيائها ولكنها انتحت بكتبها ناحية خاصة منها، ولهؤلاء فى ذلك طرق مختلفة وأساليب شتى: فمنهم من كان ذا منزع صوفى فرأى الاقتصار على أخبار الزهاد والمتصوفة، وعددهم فى هذه الأمة كثير ولهم فيها أى تأثير، وتدوين أحوالهم وما يتصل بهم

من قول أو عمل وهؤلاء فريقان: فريق له مؤلفات عامة كتآليف ابن الزيات المراكشي والبادسي والصومعي. وفريق له كتب ورسائل تخص أبا محمد صالحا، وأبا يعزى وأضرابهما ومؤلفات هؤلاء وموضوعاتهم كثيرة.

ومنهم من ألف في أنساب الملوك والقبائل والبيوت الجليلة القدر الكريمة الأصل وأكثر ما ألف في هذا المعنى في أهل فاس وأقله في غيرها من الجهات والكاتبون هنا كثير.

ومنهم أرباب الفهارس والأثبتات وهي تفيد من شاء الاطلاع على حالة المغرب العلمية في الجملة، وقد ألف في ذلك عياض كتابه «الغنية»، ثم ابن رشيد وابن الشاط وعبد المهيمن الحضرمي وأبو زكريا السراج وزروق وابن هلال وابن غازي والمنجور والجادري وابن القاضي وعبد الواحد السجلماسي المراكشي والفاسيون والعراقي ويحيى البكري السوسي والمنجرة واليوسي والمرغيثي والحضيكي والعميري والبنانيان ابن عبد السلام وابن الحسن والتاودي والهشتوكي والورزازي والكوهن وغيرهم.

ومنهم من كتب في طبقات الرجال وتراجم الأعلام كطبقات المالكية للقاضي عياض وتسمى بالمدارك، وقد اختصرها ابن سهل وابن علوان المصري وابن حمادة السبتي تلميذ القاضي وزاد عليها زوائد، وطبقات الأعيان لابن عجيبة ورجال القرن العاشر لابن عسكر وطبقات القرنين الحادي عشر والثاني عشر للقادري ورجال القرن الحادي عشر المسمى بالإعلام بمن مضى وغبر لعبد الله الفاسي وطبقات أهل الحساب والفرائض لابن القاضي وله ذيل علي ابن خلكان هو المسمى «بدره الحجال في أسماء الرجال» وله ذيل آخر على ابن قنفذ من أول المائة الثامنة إلى تمام العاشرة وكذلك ذيل على الصلة أحمد بن فرتون الفاسي (-٦٦٠) وابن عبد الملك المراكشي (٦٣٤-٧٠٣) قاضي أبي يعقوب المربني على مراكش في كتابه «الذيل والتكملة على الموصول والصلة»، وسلك الفتح بعض أدباء المغرب في

قلائده التى خدم بها مجلس الأمير إبراهيم ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثم جمع ابن هانى السبتي كتابا فى شعراء المائة السابعة سماه «الغرة الطالعة» وجاء بعده أبو الوليد ابن الأحم فجعل لأدباء العدو قسما من كتابه نثر الجمان فيمن ضمه وإياهم الزمان، واقتصر العلمى على من لقيه من أدباء عصره فى أنيسه المطرب، ومن هذا الباب ما وضع خاصا ببعض الأفراد الممتازين كاليحمدي وزير مولاى إسماعيل والعياشى زعيم السواحل وأمثالهما من الفضلاء.

ومنهم المؤلفون فى المدائن يذكرون أخبارها وما تقلبت فيه من الأحوال وكيف تداولتها الدول ومن كان فيها من الرجال والأسر النبيلة وقد ألف محمد بن يوسف الوراق القيروانى (٢٩٢-) فى أخبار سجلماصة ونكور والبصرة تأليف حسانا كما يقول ابن حزم. وفى فاس ألف عبد الملك بن موسى الوراق كتابه «المقباس فى أخبار فاس» وألف فى تاريخها ابن حنون وابن عبد الكريم وابن أبى زرع وفى رجالها ابن القاضى وابن الأحمر وابن عيشون والمدرع والفاسى والكنانى وجمع المقرئ كتابا فيمن لقيه من الأعلام بها وبمراكش. وألف ابن أبى بكر الحضرمى السلسل العذب والمنهل الأهل فى سلك من تحلى سلوكهم فى الأربعين من جيل فاس ومكناسة وسلا. وفى سبتة ألف القاضى عياض العيون الستة وهى من كتبه التى لم تتم. وألف غيره بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدول المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب والكوكب الوقاد فيمن دفن بسبتة من العلماء والزهاد. وفى مكناسة ألف ابن جابر نزهة الناظر وابن غازى روضه الهتون والجبلى السنفحات الوردية. وفى زاوية الدلاء ألف الحوات واليارغى. وفى درعة ألف محمد المكى الناصرى الدرر المرصعة.

ولا يزال هذا التاريخ المغربى تعمل فيه الأقلام وتنضب فى تدوينه المحابر وتعمل فيه الليالى والأيام وهو لا يزداد إلا نُدْحَةً فى البحث واستقصاء وتنقيا ومن

ذلك هذه الحركة المباركة التي قام بها ثلة من أرباب الأقلام فى بعض أرجاء المغرب فاختص كل واحد بتدوين تاريخ مدينة من مدنه _ كمراكش وفاس وسلا والرباط وطنجة _ وتبيان ما كان لها من عهد زاهر ومجد غابر وذكر زعماء رجالها الذين كانت لهم يد فى العلم والأدب منها، وجمع ما كان من ذلك متناثرا بعد أن أدركه التلاشى وكاد يصبح مضمحلا داثرا، وهى فكرة حميدة كان سعى أربابها مشكورا وعسى أن تعم أصقاع المغرب فيقوم بتنفيذها من يأنس من نفسه اقتدارا على ولوج هذا الميدان والإجادة من نصيبه منه حتى نرى تلك التواريخ يوما وقد أحكم وضعها وأتقن ترتيبها وجمعها وأصبحت مادة فوارة لتاريخ المغرب العام.

وهذا أثر جليل من ذلك النحو قد جمع فأوعب واستدرك فأعجب وأغرب، وسيكون ولا ريب من أهم مؤلفات المغرب التاريخية وأغزرها مادة وأكثرها إفادة وجمعا، وقد اجتمعت فيه ثلاث من كن فيه كان حقيقا بالامتياز عن غيره والخطوة بالخصوصية ألا وهى، قيمة الكتاب وأهمية الموضوع واقتدار المؤلف فى فنه:

أما عن المؤلف فسماحة الأستاذ النقيب مؤلف هذا الكتاب أحد حملة التاريخ عندنا الذين يقول لسان حالهم:

فجسمى فى دهره ماكث وعقلى فى أول الدهر ناء

وهو غنى بشهرته ومكانته وخزائنه الزيدانية عن زيادة التعريف والتبيين.

وأما عن الموضوع فإن مكناس جمعت بين الطريف والتلبد والقديم والجديد، وهى إحدى حواضر المغرب بعد سجلماسة مركز بنى مدرار وفاس كرسى الأدارسة ومن اقتفاهم ومراكش دار المرابطين ومن بعدهم. وقد مرت عليها أيام كسيت فيها نضارة الحضارة وظللها جلال الملك والإمارة وكانت فيها قلب المغرب ومأوى الوزراء والكتاب والشعراء وأرباب العلوم والصنائع والفنون.

وأما عن الكتاب فإن المؤلف متى كان قائما على فنه مضطلعا بأعبائه منقطعا إليه جاء في كتابه بنتيجة ذلك كله، وفي هذا الكتاب ما لا يكاد يتأتى لغير مؤلفه الإتيان به أو العثور عليه، وقد أحيا الله به مواتا ونشر بإبرازه رفاتا وإن فيه فوائد هي أعز ما يطلب، ووثائق تكشف عن كثير من الأسرار المكتومة وتراجع هي لب التاريخ وحليته، ولولاه ذهبت وكأن لم يكن أربابها شيئا مذكورا إلى ما حلّى به من نادر الصور وقيم الغرر.

وإن أقل ما يجازى به مؤلف وقد أبدى للناس كتابه - بعد أن أنفق عليه من ذهنه ووقته وجهده ويده - أن يقال له: أحسنت وأفدت ولا زال قلمك منهلا.

الرباط ١١ جمادى الثانية ١٣٤٨ عبد الكريم بن الحسنى



الحمد لله حق حمده

وللفقيه الأديب السيد محمد غريط لما وقف على رسم المؤلف:

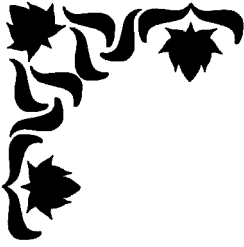
يا مرسل الفكرة فى جنة	أتت من الزهر بألوان
جنة أخبار يتوق لها	من ليس بالمستكبر الجانى
إن شئت أن تبصر مبرزها	نزهة الباب وأعيان
فانظر إلى رسمه تلف به	لوصفه أحسن تبيان
وهو أبو زيد النقيب الذى	ينمو لفرع الملك زيدان





وتفكري فرضي وخير مجالس
بي في انفرادي مطربي ومؤانس
نفع كعيشة عابث متقاعس
عبد الرحمن بن زيدان

علمي غذا روحي وراحة بنيتي
وتدبري راحي وريحاني وكت
وأرى حياتي دون ذلك ما لها



إتخلف أعلام الناس
بجمال أخبار حاضرة مكناس
لابن زيجان





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله

مقدمة المؤلف

حمدا لمن تعالت عظمته عن أن تحيط بها الأخبار. وتقدر في سلطانه
فقصرت الأفهام عن كنهه على مر الأجيال والأعصار. لا يعزب عن علمه ما كان
وما يكون. ولا تخفى عليه خافية من أحوال الظهور والبطون. كل يوم هو في
شأن، وإليه ترجع الشئون. مدارك العقول في موقف الحيرة تحت ذيل القصور.
وتحريرات النقول في قصوى العي على بساط الفتور.

عقل العقل أن يكون محيطا ليس ربي مركبا أو بسيطا
حجب الكل عن دراية كنه وهو بالكون لا يزال محيطا
سبحانه ما أجل بره، وأوسع امتنانه، أسدل على كل مكون قبل نشأته
وبعدها فضله وإحسانه.

لم يخل قط عن إمداد وإيجاد مكون راثقا قد كان أو غاد
فالاعتراف له بالبر يورث أن يزيد من فضله من غير تعداد
فله الشكر ما تحلت الألسن بذكر الوقائع، وقامت في صحائف الأذهان
أخبار الرقائق.

شكرا لرب تعالي وفضله قد توالى
من يصرف العمر منه في طاعة ما تغالي

ونشهد أنه الله الذى لا إله إلا هو شهادة تعصم من الأوهام والشكوك
وترشد الجازم بها إلى الاتباع فى المآخذ والتروك.

تعالى أن يشارك فى صفات وكل خلقه كيف الشريك
تقدس أن تحيط به عقول وجل الله — مولانا المليك

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله الصادق فيما قص من
الأنباء، وأبدى من أسرار من تقدمه من الرسل والأنبياء.

برى الله خير العالمين مكملا وأولى علاه فوق ما منه أملا
وصور منه الشكل غير مشارك على كل موجود جلاه مفضلا

فصل اللهم عليه صلاة تملأ الأرض والسماء، وتدوم بدوام ملكك، فلا يأتى
عليها إحصاء ولا استقصاء، وعلى آله نجوم الاهتداء وأمان الأمة، القاعدين على
صهوة المجد البالغين من كل مقصد همه، وأصحابه الذين نصره وشدوا أزره،
وحملوا عنه إلى من لم يحضره نهيه وأمره.

أما بعد: فيقول خديم العلم والتاريخ عبد الرحمن بن محمد بن عبدالرحمن
ابن على بن محمد بن عبد المالك بن زيدان ابن فخر ملوك المغرب وجد سلاطينه
مولانا إسماعيل بن الشريف الحسنى السجلماسى: إن لله تعالى فى أجيال العوالم
- من مكنون السر وخفى الدقائق - ما لا تحتوى على بيانه فنون المجازات وأنواع
الحقائق، أودع فيها حكما ترجع دون تمام إدراكها الأمانى حسرى، وتقف فى
مشاهد إبداعها فتخر آونة شكرا وأخرى برقائقها سكرى.

كيف وهى مظاهر قدرته الباهرة، وتحليته التى تكل أولاهها والآخرة. فأعقل
الناس من رآها بلب الاعتبار، وعرف أن منها ما سبيله الادكار، وما أبرز
للاختبار، فاعتبروا يا أولى الأبصار، فوقف به ما رأى وسمع من أحوال القرون
الشاسعة، على هدى يجده فى المعاش والمعاد من الأعمال النافعة.

وإن الفن الذى يجمع من ذلك زبدة الأوطاب، ويميز بين ما خبث وطاب، علم التاريخ الذى هو من أجل ما يدخر، وتقدم أهميته ولا تؤخر، يريك من المعلوم موجودا، ومن المقطوع سابقا فصلا ممدودا، حتى كان من انقراض الآن ينطق، وشمس حياته لا زالت تشرق، فلم يفت المتقدم المتأخر إلا بالأشباح والصور، إذا جليت منهم العبر وتليت عليهم السور.

أخبار من سبقوا إدراك عصرهم وجودهم يجتلى فى طى نشرهم
ناجوك دون لسان إذ تبين من حديثهم ما خلا فى مر عمرهم

فاعرف قدره ما بين الفنون، ومتن فخامته إذا تليت المتون، فقد نوه الذكر الحكيم بإنافة شأنه. وقص على المعتبر فائدته وبدائع حسنه، وناهيك بما ضمنه من أسرار، وكشف للألباب من خبايا أستاذه، فقد أرى أخبار المرسلين وحميد سيرهم، وما لقوا من نشأتهم إلى انتقالهم عن عالم الدنيا ورحلتهم، ومن أجل ذلك أمر الله أشرف الموجودات، أن يتأسى بهم فى سنى تلك الحالات فقال: (فبهدهم اقتده).

ولهذا ومثله تصدى الأعلام لتدوينه، والتتقير عن تفصيل حوادثه وشئونه، اقتفاء لما ذكر الله فى الكتاب، وانتحالا لما يستعذب ويستطاب ما بين موجز ومطنب، ومشرق فيه ومغرب.

بيد أنى لم أجد من يشفى العلة، ويرد من الصادى الغلة، بشرح أنباء مكناسة الزيتون، ونظم ما تنائر من درها المكنون، بعد بلاغ الجهد فى القديم والحديث، فيمن يروى مسند ذلك الحديث، وما صنفه إمام المحققين وخاتمهم ابن غازى فى روضه الهتون، نقطة من بحر ولقطة عجلان لا تأتى على البعض من عجائب بيت الملك وسرها المصون، ولا تروى من هو بقيظ الجهل بها صديان،

وعذرا له لأنه أول قارع لأبوابها، وغير مسبوق بشيء يعتبر فى اختراعه من لبابها،
وتلك العادة المحكمة فى أول متكلم.

غير أن له الفضيلة بسبقيته على العالم والمتعلم، فالهجوم على ما يصعب لا
يحكمه إلا البطل، وبعد جناية النحل يجنى العسل، إذ الفضل كل الفضل لمن إذا
الليل عسعس، طرق العقيلة فى حياها وقد أحرق بها الحرس، ومن تكلم بعده فى
شيء من هذا الموضوع فى ديوان فيه أو فى غيره مشروع فعلى أثره عول وبإضاءته
فرع ما فرع وأصل ولم أر منهم من هز لنشر طيها عطفًا ولا من اقتطف من مشكاة
أنوارها قطفًا بل هم عن تدوين شئونها فى انقباض وكل يدعى أنه خالى الوفاض
إجماعًا على الوفاق والتراض، وجنوحًا إلى الزمانة بدلا عن الانتهاض، وما أراهم
إلا لما تكامل فيها الحسن والإحسان، بهتت العقول فكل عنها منهم اللسان وتركوا
القول جملة وتفصيلا، وتساقطوا على غيرها قبيلا فقيلا

تكاثرت الظباء على خداش فما يدري خداش ما يصيد

وليس هذا بالرأى الحميد، ولا بما يلوى اللبيب فيحيد فقد أطبق العقلاء على
أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه أو جلّه.

وطالما رمت الأخذ بهذه القاعدة فأجد النفس عن الجولان فى ذلك الميدان
قاعدة، إذ فقد مواد تقص تلك الأنباء يوجب العجز عن أن تتحمل منها الأعباء
سيما وقد ضن على أغبياء جهلاء هذه المدينة التى كانت كل البلاد من محاسنها
مدينة وتقاعدوا على ما لديهم وطوروا كشحا دون الاقتراح فيه عليهم، مما عسى أن
يظن به خبر ذلك الحى، ونشر ما أصبح الآن منه فى ربة الطى أو له بسالفه أدنى
استمداد، يكون عند النهوض عمدة استعداد، بل آل سؤالى منهم ما أملت من
الدفاتر، أن أصبح ودهم من قبيل العفا الدائر فكان تقلص ظل الوداد نتيجة

القضية، وسهام البين عين المعروف والعطية، ظنا منهم أن العلم منحصر فى الحصول على ذلك الوطر انحصار المبتدأ المعروف بلام الجنس فى الخبر، وما دروا أن فى بذل ما لديهم إنقاذها من البلا ورفعها عن أن يحل بها من الأرضة البلا فجمعوا بين رذيلتي البخل وكنم العلم جمعا، والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

فنهض من إجابته عندى فرض عين، وخلافه فى سماء الوداد كسوف وغين يحثنى بإزعاج على أن أجوب تلك الفجاج لأنظم ما سعت الأيام فى نثره وأكمل من الروض ما يحسب من بتره وأضيف إلى أغراضه ما حدث بعد عصره مرسلا عنان القول غير لاحظ حصره

بدائع تزهو من سناها الخرائد ونظم نثار ما حوته القلائد

أصول لذى التحقيق ييقر باطنا وفى ظاهر الأرقام تلك زوائد

فقلت حملتنى فى قصدك أصرا، وقد فقدت من أبناء العصر تأييدا ونصرا، فلم تزده الإبابة إلا حثا واقتراحا ولا نظم البراهين على الإعواز إلا شغفا وارتياحا فحرك منى ما كان سكن هبوه وقوى عزمى على فتح ما أغلقت جيوبه فأجبتة مستعيذا برى من حسد سابقى ودونى وتربى لاثدا بحوله ومعونته فى السر والنجوى سائلا منه سبحانه أن يجعلنا ممن اعتصم بحبله الأقوى، وأدرجه فى سلك أهل الطاعة والرضا، ووفاه من قصده ما يحب ويرضى.

وعنونه (بإتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس) ولك أن تسميه عبير الآس من روض تاريخ مكناس، أو حسن الاقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس.

ورتبته على مقدمة وأربعة مطالب تهذب علم الشيخ، وتفتح ما أغلق على الطالب.

المقدمة حشوتها من نفيس الفوائد مايعود على الخبير بالصلات والعوائد
وينسى الغرثان^(١) لذيد الموائد والعاشق الولهان محاورة الغيد والخرائد.

والمطلب الأول فى اختطاط البلاد، وذكر الخلاف فى نشأتها بين الرؤساء
والأفراد.

وثانى المطالب فى نعوتها التى أسلت عن الحسناء والحسن، وأنست من
البقاع سواها كل سهل وحزن.

وثالث المطالب فى تفصيل تراجم علمائها وذوى الفضائل والحشيات من
رجالها ووجهائها، وإن انتقلوا إلى غيرها من البلاد، سيان عندي حاضرها والباد.

ورابعها وجيز الإشارة إلى ما توارد عليها من الأحوال وما مر بها من أنواع
الجبور والمحال.

المقدمة

التاريخ لغة: تعيين الوقت مطلقا، وعرفا علم يبحث فيه عما مضى من
سالف الدهور وعن أحوال المتقدمين من الأمم وأسماء المشاهير منهم ومعرفة
أزمנתهم وأمكتهم، وسيرهم وعوائدهم، وما يتعلق بحياتهم ووفياتهم.

وينقسم إلى أثرى وبشرى: فالأول ما قصته الكتب المنزلة، والسنة النبوية،
والثانى ما دونه علماء الأمم من الوقائع والحوادث والحروب، وينقسم أيضا إلى
قديم وحديث، فالقديم: ما كان قبل الإسلام والحديث: ما كان بعده.

وعلى هذا التقسيم جرى جل مؤرخى العرب، ولكل أمة وجيل تقاسيم
اصطلحوا عليها لسنا بصدد التعرض لها، ثم ما دون أو يدون فى التاريخ إما عام
وإما خاص، فقد يقع فى الدول من بدء الدنيا، وقد يختص بالدولة الإسلامية

(١) الغرثان: الجوعان.

مثلا، وقد يكون فى أعمار الأعيان ووفياتهم، وقد يكون فى اختطاط البلدان والمساجد والربط وغير ذلك.

وأما أصل موضوعه فأعمال البشر فى كل زمان ومكان، والفحص عن سير المتقدمين من الملوك والعلماء والصلحاء والوقائع الحربية وغيرها، وحالة المدنية والعمران، وقوة الدول وفشلها، وأسباب تقدمها وتأخرها واضمحلالها.

وأما واضح الأثرى منه فهو الله تبارك وتعالى، أنزله على رسله الكرام فى كتبه الناطقة بالحق وأعظمها القرآن، فقد تكررت فيه أقاصيص المتقدمين وأحوال الماضين وخصوصا مع الأنبياء والمرسلين، حتى قال مولانا تبارك وتعالى فيه خطابا لنبينا ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ...﴾ [سورة هود آية ١٢٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ...﴾ [سورة القمر آية ٤، ٥]. وفى هاتين الآيتين الكريمتين تنبيه على ما يقصده العاقل من الاطلاع على أحوال الماضين والوقوف على سير الغابرين من الاعتبار والاتعاظ والاستبصار، ولذلك نرى القرآن يتفنن فى إيراد القصة الواحدة وإعادتها بأساليب من طرق البلاغة ويبرزها فى صور شتى على قدر ما فيها من وجوه العبر وضروب النظر، حتى احتوى من ذلك على جم مما كان لا يعرف الوجه الواحد من علوم أقاصيصه إلا أفراد الرهبان، ورؤساء الأخبار، ولذلك وصف نبينا ﷺ كتاب ربنا هذا بقوله: «فيه نبأكم وخبر ما كان قبلكم».

وكذلك أوحى الله تعالى من هذا الفن التاريخى إلى أنبيائه - فى غير ما أنزله عليهم من الكتب أيضا - ما لا يستطيع استقصاؤه، وقد حدث نبينا ﷺ من ذلك بما ملأ الدفاتر، وعلى ذلك جرى سلفنا الصالح، فلم يزل الصحابة رضوان الله عنهم يتفاوضون فى حديث من مضى، ويتذكرون فى أخبار من تقدمهم من الأمم، واقتدى بهم فى ذلك سادات التابعين وأتباعهم بإحسان إلى يومنا هذا.

وأما واضح البشرى فهو الإنسان وهو قديم الوضع من عهد نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام، ومأخذ ذلك هو قوله عندما تيقظ من نومته التى ألقاها الله عليه

- ليخلق حواء من ضلعه - كما ورد في التوراة: (هذه عظم عظمى ولحم لحمى) إذ قوله هذه حكاية حادثة شاهدها واقعة حال حققها، ثم ترقى التاريخ بهذا المعنى شيئا فشيئا كسائر العلوم البشرية حتى دون ذلك، وكل شيء يبدو صغيرا ثم ينمو كما هو مشاهد، «سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا».

والتاريخ أيضا بمعنى التوقيت أى تعيين الوقت، كذلك قديم الوضع، فقد روى ابن عساكر فى تاريخه بإسناده إلى الزهرى والشعبى، قالوا: لما أهبط آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة وانتشر بنوه فى الأرض، أرخوا من هبوطه إلى أن بعث الله سيدنا نوحا عليه السلام، فأرخوا من مبعثه إلى وقعة الطوفان، فأرخوا حتى جاءت حادثة نار سيدنا إبراهيم عليه السلام فأرخوا بها.

ثم اجتمع رأى كل أمة من الأمم على شيء، فأرخ الروم واليونان بميلاد إسكندر الرومى، وأرخ المسيحيون بظهور سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وأرخ بنو إسحاق من مبعث نبي إلى مبعث نبي آخر، وأرخ بنو إسماعيل - من بنيان البيت - حين بناه إبراهيم وإسماعيل - حتى تفرقوا، فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بخروجهم ومن بقى بتهامة منهم أرخ بخروج سعد ونهد وجهينة بنى زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤى فأرخوا من موته، ولا زالوا يؤرخون بما كان من الحوادث حتى أتى عام الفيل فجعلوه تاريخا إلى أن حصلت الهجرة فأرخوا بها وبقيت مبدءا للتاريخ الإسلامى إلى الآن^(١).

ويعتبر التاريخ بالليالي، لأن الليل عند العرب سابق على النهار، لأنهم كانوا أميين لا يحسنون الكتابة ولم يعرفوا حساب غيرهم من الأمم، فتمسكوا بظهور الهلال، وإنما يظهر بالليل فجعلوه مبدءا للتاريخ.

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣٠ / ١.

وأما ثمرته فالانتفاع بتذكر الحوادث التي حصلت فى الكون خيرا أو شرا،
والتبصر فى الأمور والاسترشاد بما فات فى كل ما هو آت للتخلى عن الصفات
الذميمة والتحلى بالآداب والأخلاق الحميدة، إذ قصص من قبلنا عبرة لأولى
الآل باب فى أحوال الدين والدنيا وما يعقلها إلا العالمون.

فإذا اطلع العاقل على سير المتقدمين من الأمم الراقية وأخلاقهم وسياساتهم
تأسى بهم وقاس نفسه عليهم، فانتصح بأحوالهم فى دينهم ودنياهم، واكتشف عن
عورات الكاذبين فيجتنب سوء أعمالهم ووخيم منقلبهم، ووقف على أحوال
الصادقين فيقتدي بهم ويحرز لنفسه من معلومات العالمين وتصانيفهم واكتشافاتهم
ما يشحذ ذهنه ويزيد فى قوة إدراكه بأقرب الطرق وأيسرها مما لم يحصل عليه من
سبقه إلا بعد العناء والكد.

وأما فضيلته فهو من أعظم العلوم وأعزها وأشرفها وأنفعها وأجملها وأكملها
فهو أكبر مرب للأذهان ومرق لحالة الإنسان والعمران، وهو فى الحقيقة برنامج ما
مضى وتذكرة ما عناه الأولون من أحوال وتقلبات، وتبصرة لأولى الآل باب فى
المستقبل، وعمر جديد للمطالعين يغنم ولا يهمل وفى فضله قيل:

ألا إن فى التاريخ علما وحكمة	وفيه اعتبار بالقرون الأوائل
إذا لم تكن بالجسم شاهدت من مضى	فبالفضل قد شاهدتهم والشيمائل
لذاك اعتنى بالكتب فيه أئمة	جهايزة أولو التقى والفضائل
وهم كل قاض أو فقيه مدرس	وذو أدب لم يدره باسم جاهل

وقال لسان الدين ابن الخطيب فى صدر أرجوزته رقم الحل فى نظم الدول:

وبعد فالتاريخ والأخبار	فيه لنفس العاقل اعتبار
وفيه للمستبصر استبصار	كيف أتى القوم وكيف صاروا

يجرى على الحاضر حكم الغائب
وينظر الدنيا بعين النبل
وقيل:

إن شئت تكثير عقل فيه مصلحة
فانظر لمعنى المواليد التى اختلفت
وقيل:

ليس بإنسان ولا عاقل
ومن درى أخبار من قبله
وقيل:

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى
وتحسبه قد عاش آخر دهره
فكن عالما أخبار من عاش وانقضى
وقيل:

وما التاريخ إن فكرت إلا
تنادم تارة فيها ملوكا
وأونة تنادم شرب راح
تفيدك حالة الماضين علما
ترى فيها البلاد وساكنيها

فيثبت الحق بسهم صائب
فيترك الجهل لأهل الجهل

لأجلها دارت الأفلاك أدارا
واقرا تواريخ من فى الدهر قد صارا

من لا يعي التاريخ فى صدره
أضاف أعمارا إلى عمره

توهمته قد عاش حيناً من الدهر
إلى الحشر إن أبقي الجميل من الذكر
وكن ذا نوال واغتنم آخر العمر

رياض تجتنى منها ثمارا
وأخرى سادة علما كبارا
أداروا فى مجالسهم عقارا
ولا تألوك نصحا وادكارا
كأنك حاضر معهم جهارا

به يعرف من خلف سير من سلف، ولولاه لجهلت الأنساب، ونسيت الأحساب، وتقطعت الأسباب. ولم يعلم الإنسان أن أصله من تراب ومآله إلى خراب. وقد ضمنت مقالتي التاريخية التي أملتيتها بنادى الخطابة بمكناس خمسة عشر وجها من فضائله فلتنظر ثمة.

وأقوى دليل على فضله وشفوف شرفه بين العلوم وقوع الاستدلال به والاحتجاج فى القرآن الكريم - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - فى قوله جل من قائل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران آية ٦٥] وهذا كما قال العلماء من لطائف الاستدلالات وأنفسها.

وأما حكمه فإنه يكون مطلوبا فى غالب الحالات، وربما كان فرض كفاية، وبالجملة فالقول الفصل ما أفصح به أبو على اليوسى - فى قانونه - إذ قال: كل ما يحتاج فيه إلى شيء من أمور الشرع كتاريخ سكة معلومة، أو مكيال معلوم، أو مسجد عتيق، أو التقى فلان بفلان من الرواة، أو إمكان التقائه، أو كان فلان من المتقدمين أو من المتأخرين أو من الصحابة أو لا، وغير ذلك فهو داخل فى العلوم الشرعية المهمة، وما سوى ذلك بخارج عنها غير أنه إن أفاد فائدة أخرى كالاختبار والاستبصار والاهتزاز بوصف محمود بسماع أخبار من اتصف به من صلاح، أو عبادة، أو زهد، أو شجاعة أو حلم، أو سخاء ونحوه والانتهاء عن مذموم عند ذكر من نعي به، أو تعليم صنعة أو حيلة نافعة، أو غير ذلك من المصالح فهو محمود كسائر العلوم التى ليست من أمور الدين كالحرف والصنائع التى تجلب للإنسان - كما هو مشاهد - جزيل المنافع وذلك إن لم يعطل عما هو أهم منه وإلا فالأهم المقدم.

وأما نسبته إلى غيره من أصول العلوم الأدبية فهو جزئى لها، وهى اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعانى والبيان والعروض والقافية والخط وقرض

الشعر والإنشاء والمحاضرات، نعم الثمانية الأولى أصول، والأربعة بعدها فروع، كما صرح بذلك أبو البقاء فى كلياته وغيره، قال: ومنها التواريخ والبديع ذيل للمعانى والبيان، وقد جمعها الشيخ حسن العطار فى قوله:

نحو وصرف عروض بعده لغة ثم اشتقاق وقرض الشعر إنشاء
كذا المعانى بيان الخط قافية تاريخ هذا العلم العرب إحصاء

وقد توقف الشيخ الأمير فى عد التاريخ من علوم العرب وقوفا مع ظاهر كون الأمية فيهم هى الأصل وعمدة التاريخ الكتابة. ونحن نقول توقفه غير ظاهر، لأن العرب أكثر الناس اعتناء بالمحافظة على معرفة الأنساب وأشد الأمم ولوعا بحكاية الوقائع والأخبار والحروب والقصص، وذلك فى أشعارهم كثير، وغير خاف أن شعر العرب مستودع أخبارها، ففيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وهو ديوانهم الجامع لمآثرهم، وقد جعل الله تعالى أنجيلهم فى صدورهم، وأغناهم بقوة الحفظ وسيلان الأذهان عن الاحتياج للكتابة وما يتبعها من الوسائل، ولو دفعنا عنهم التاريخ بعدم كتابتهم لدفعنا بذلك أيضا عنهم سائر العلوم الأدبية التى لا ينازعهم فيها أحد وذلك باطل بالضرورة، وسترى فى كلام الحسن بن سهل الآتى قريبا أن علم النسب وأيام الناس عربى الأصل وكفى به ردا لتوقف الأمر.

ثم إن إطلاق الأدب على الاثنى عشر المذكورة مولد حدث فى الإسلام كما أفصح بذلك شارح القاموس، فإن علم الأدب لغة هو: تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق. قال أبو زيد الأنصارى: الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل، والأزهرى نحوه كما فى المصباح، ونقل الخفاجى فى العناية عن الجواليقى فى شرح أدب الكاتب أن معناه لغة حسن الأخلاق وفعل المكارم هـ.

وقال ابن خلدون فى مقدمته: هذا العلم يعنى الأدب لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجابة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب مما عساه تحصل به الملكة: من شعر عالى الطبقة، وسجع مَبْثُوثَة^(١) أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة، والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه^(٢).

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهى القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية فى أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية، فاحتاج صاحب هذا الفن حيثذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم هـ^(٣).

ونقل أبو على اليوسى فى محاضراته عن الحسن بن سهل قال: الأدب عشرة أصناف: ثلاثة شهرجانية وهى ضرب العود ولعب الشطرنج واللعب بالصوألجة، وثلاثة أنوشروانية وهى الطب والهندسة والفروسية، وثلاثة عربية وهى الشعر والنسب وأيام الناس، والعاشر مقطعات الحديث والسمر وما يتعاطاه الناس بينهم فى المجالس وهذا عام هـ.

(١) تحرف فى المطبوع إلى «ثبوتة» وصوابه لدى ابن خلدون الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣/١١٣٩.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣/١١٣٩.

وفى نفح الطيب أن علم الأدب فى الأندلس كان مقصورا على ما يحفظ من التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات^(١) الحكايات، قال: وهو أنبل علم عندهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل^(٢).

وإنما كان التاريخ من الفنون الأدبية لأنه أكبر مرشد للتخلق بمكارم الأخلاق ومجانبة أهل الرذائل والنقائص والفرار من الأشرار، ولأنه أقوى معين ومساعد على نمو قوة ملكة الإنشاء نظما ونثرا للاستشهاد بشواهد والاستمداد من فوائده والالتزام بأوامره والانتهاى بنواهيه وزواجه لمن أبصر رشد وأراد الله هدايته.

وأما استمداده فهو إما من الكتب المنزلة كالنوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وإما من أخبار الأنبياء أهل التحقيق والعرفان. وإما من الحوادث المشاهدة بالعيان. والآثار الضخمة العظيمة الشأن. وإما مما دونته رواة الأخبار وأولاه ما نقلته عن مشاهدة وعيان. فإن ذلك يغنى هم كل برهان. ويكسب صاحبه علما يقينا لا يشككه فيه ثان. وإما من الوقائع المسموعة ممن شاهدها من المعاصرين الأعيان.

نعم لا غنى لمن يعول فى النقل على هذا الأصل من اعتبار أحوال المسموع والمسموع منه، أما الأول فبأن يعتبر إمكانه فى نفسه باعتبار العقل والحقيقة فإن دخل فى حيز الإمكان بهذين الطريقتين نظر فيه، واعتبره ثانيا باعتبار حال المسموع منه بأن يكون ثقة غير مغفل فإن لم يكن فيهما مانع فحيث يؤول عليه ويجعله أصلا لديه، وإنما اعتبرنا الإمكان شرطا فى قبول ما جاء من هذه الطريق وفى الحقيقة كل الطرق مثلها لأن غير الممكن لا نظر فيه، إذ هو ملطوم به وجه الآتى به، وأما ما صح عن المعصوم فلا يكون إلا ممكنا إذ:

(١) فى المطبوع «ومستطرفات» والمثبت لدى المرقى فى نفح الطيب الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٢٢.

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

وبهذا يأمن الخائف في هذا الفن من البناء على المستحيل، وإنما اعتبرنا حال المسموع منه لأنه لا التفات لنقل كذب، ولا لمن ليس بضابط، فإنه لا بناء إلا على أساس صحيح، وإلا كان الإنسان عاقبته الخيبة، ومن هنا تعلم أن صاحب هذا الفن لا غنى له عن التبصر في علم الحقائق والرقائق والمهارة في المواد والطرائق حتى يكون ناقدًا بصيرًا، وإمامًا أذى غثه من سمينه كفيلاً خبيراً.

ومن طرق استمداده أيضاً الآثار القديمة والبناءات الضخمة العظيمة كقصر البنت الموجود أثره بالحجر بكسر الحاء وسكون المعروف اليوم بمدائن صالح في وادي القرى على طريق المار من الشام إلى مكة المعظمة، وبقايا الرواق الأعظم، وقصر بصرى حوران، وقلعة صلخد في حوران، وبقايا قصر المشتى، وبقايا القصر الأبيض، وبقايا الأهرام وما بصعيد مصر من الآثار، وما بمصر أيضاً عند أطلال مدينة طيبة القديمة.

وما بالقدس الشريف من بقايا بناء نبي الله سيدنا داود عليه الصلاة والسلام، وما كان شاخصاً من الأطلال قبل، بل وفي الحين الحالي الكائنة بمدينة ويلي^(١) من جبل زرهون المعروفة في زماننا الحاضر بقصر فرعون مع ما اكتشفه علماء الفن من الآثار العجيبة الهائلة ذات البال في هذا العهد هنالك أيضاً وغير ذلك مما يطول.

ومنها السكك المضروبة من ذهب وفضة وغيرهما كورق أهل الكهف، وبعث أحدهم به إلى المدينة كما نص الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونقود السبئيين في اليمن، ونقود الرومانيين الموجودة في الزمن الحاضر بمتحف الآثار المكتشفة بمدينة ويلي المشار لها ووهب اللات وغيرها.

(١) لدى ياقوت: ويلي: مدينة قرب طنجة.

وقد شاهدت عين البعض مما ذكر وصور البعض فى كتب المعتنين بذلك الشأن، وكالرسوم والأعمدة والقوائم الضخمة التى يستدل ببقائها من زمان نشأتها القديم إلى زمان الوقوف عليها على أنها منظور إليها بعين العناية والاعتبار والرعاية والرسوم والأطلال مع ما رقم عليها، وسيمر بك بعض ذلك إن شاء الله فترقب، وكل ما يشهد لحقيقة الأمر ويتنفى به الشك فى حكاية الواقع.

ثم بعد تحصيل الناظر فى هذا الفن لهذه الأصول فعليه أن يعضدها بأصل رابع وهو الثبوت والتحرى ولزوم الصدق وعدم الميل مع غير الحق حتى يتجرد بالكلية، عن الأغراض الشخصية، والمحاباة والحمية، وحكاية غير الواقع ونسبة الأمور والواقع ونسبة الأمور والوقائع لغير أربابها، إذ بالثبوت يثمر مقاله، ويزكو بين البرايا حاله، وبالعلم ينفذ من مهاوى السقوط فى الزلات والأغاليط، وبالأمانة تتنفى عنه الشهوات والأغراض، فيتكلم بلسان الحرية، متجافيا عن الشهوات النفسية، وواقفا عند حد العدل والمدنية.

ولا غرو أن فحول المؤرخين قد استوعبوا أخبار ما تكلموا عليه من أيام الأمم وسطروها على صفحات الدفاتر، ولكن خلطها المتطفلون بدسائس من الباطل لاحظوها بطرف فاتر، ولفقوها بزخارف واهى الروايات، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال فى تلك الحكايات، ولم يرفضوا ترهات الأقاويل، ولم يميزوا بين الصحيح وما ليس عليه تعويل، فتحققهم فى أمرها قليل، وطرف تحقيقهم فى الغالب قليل.

وعن ذلك نشأ ما حشيت به التواريخ من كثرة الدخيل، الذى لا يلتفت إليه إلا سقيم الإدراك عليل، ولا يؤبه به لا فى قبيل ولا فى دبير.

والغرض من التنبيه على هذا تحذير مطالع التواريخ من التعويل على كل قيل، والبناء عليه من غير تفرقة بين صحيح أصيل، وباطل دخيل.

أما الذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة فى التاريخ فهم قليلون، منهم
اليعقوبى فى منتصف القرن الثالث، وابن جرير فى «تاريخ الأمم والملوك» المتوفى
عام عشرة وثلاثمائة، والمسعودى فى تواريخه الثلاث «أخبار الزمن» و«الأوسط»
و«مروج الذهب» المتوفى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، وابن الأثير فى كامل
التواريخ المولود سنة خمس وخمسين وخمسمائة، المتوفى سنة ثلاثين وستمائة.
وابن خلدون فى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المتوفى رمضان سنة ثمان
وثلاثمائة.

وتواريخ هؤلاء من بدء العالم إلى أيامهم، وقد جاء من بعدهم فى كل زمان
ومكان من استدرك ما فاتهم وذيل عليهم بتدوين ما قصرت عنه حياتهم واستمر
ذلك إلى وقتنا هذا وهو ثانى عشرى رجب الفرد الحرام عام تسعة وثلاثين
وثلاثمائة وألف، فكثرت بسبب ذلك موضوعات هذا الفن وتنوعت أساليبه،
وتعددت أسبابه، حتى لو رام أحد تقصى ذلك لعجز.

وقد ذكر المسعودى جملة كبيرة منها وتاريخه لغاية سنة ثلاث وثلاثين
وثلاثمائة فما ظنك بما بعد ذلك.

وقد عد الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار»
جملة صالحة منها، وسرد صاحب «كشف الظنون» من التواريخ فى زمانه ثلاث
عشرة مائة، وقد أوجز إذ لا موقع لهذا العدد فى جانب ما فات من ماض عنه
فأحرى ما هو آت بعده.

فعلى الإنسان أن يستفرغ فى الاستطلاع جهده ولا يوقع نفسه فى ورطة
الحصر، فإنه ما رامه أحد إلا تعدى طوره. وأنى عمره ولم يبلغ غوره. وإن
تعدوا نعمة الله لا تحصوها.

وأما مسائله فهى عبارة عن كليات حكيمية مأخوذة من التمهيد التفصيلى
يهتدى بها فى أحوال الدول ومآل حياتهم، كقولهم: كل دولة لا بد لها من عصبية

فى أول نشأتها، وقولهم: الطمع والترف يؤديان إلى دمار الممالك، وتعطيل المسالك، وقولهم: إن الدول إذا تهملت بالطرف والذخائر وقصرت هممها على الحلى والحلل والفرش الهائلة والمباني المشيدة دل ذلك على تحلل تركيبها واضمحلال ضخامتها وفناء رونقها وحسنها ونقصان كمالها وآل أمرها إلى الاندثار والدمار، وقولهم: العدل سور لا يغرقه ماء ولا تحرقه نار ولا يهدمه منجنيق وقولهم: عدل قائم، خير من عطاء دائم، وقولهم: لا يكون العمران، حيث لا يعدل السلطان، وقولهم: قيمة العدل ملك الأبد وقيمة الجور ذل الحياة، وقولهم: العدل يسع الخلق والجور يقصر عن واحد، وقولهم: من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه، وقولهم: رأس المملكة وأركانها وثبات أحوال الأمة وبنائها العدل والإنصاف، وقولهم: الظلم نقيصة لا يألّفها إلا كل متوحش جاهل، والعدل فضيلة عظيمة لا يتحلى بها إلا كل متمدن عاقل.

العدل روح به تحيا البلاد كما دمارها أبدا بالظلم ينحتم

الظلم شين به التعمير ممتنع والعدل زين به التمهيد ينتظم

وقولهم: إن خير السلاطين من عمل فى أمر الرعية بالعدل والإنصاف ولم يقبل بغى بعضهم على بعض، وقولهم الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أوامره ونواهيه، وقولهم: بالعدل تطول المملكة وتصح الرعية وتكثر العمارة، وقولهم: إذا هم الوالى بالجور وعمل به أدخل الله النقص فى أهل مملكته حتى فى التجارات والزراعات وفى كل شيء، وإذا هم بالخير أو عمل به أدخل الله البركة على أهل مملكته حتى فى التجارات والزراعات وفى كل شيء ويعم البلاد والعباد.

واعلم أن مدار جل هذه الكليات على العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة

النحل آية ٩٠]، وأن العدل هو القسطاس المستقيم فى الرعايا والعوالم، فإن الله تعالى خلق العوالم مختلفة متقابلة متضادة مزدوجة، ويعسوب ثباتها الكفيل بسعادة حياتها هو العدل فيها يربط شئونها بالطريق الوسط، الخالى من التفريط والشطط، فإن ذلك به تطمئن القلوب من الشعوب، وبه ترتبط على التعاضد فى مدلهمات الخطوب، وبضده تنال مهاوى الفشل والتفرق والانذار، وتلاقى الأمة من شقاوة الحياة سائر الأخطار.

فحقيق على كل دولة رامت السعادة والثبات أن تجعل العدل أساس تصرفاتها، ومركز سائر تقلباتها، وأن تتعاهد إصلاح ما اختل من ذلك كل حين، وأن تجعله محور دوائر المراقبة منها على عمر الأوقات والسنين، وليس يتأتى ذلك إلا بإدمان النهضة لتصفح أحوال المتولين، والمبادرة لطرد الظالمين، والضرب على أيديهم، وإظهار مزايا من وجد منهم لطريق العدل سالكا، ولسائر الأغراض الشخصية فى ولايته تاركا، فقد قيل لبعض الحكماء: بم يزول الملك؟ قال: بغش الوزير، وسوء التدبير. وفساد الطوية، وظلم الرعية، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ...﴾ [سورة ص آية ٢٦].

هذا وقد آن أن نتخلص للمقصود فنقول: حيث كان فن التاريخ تقصر الحافظة عن الإحاطة بإفادته، وتنقض خطا القلم عن الإلمام بسائر مهماته، تعين صرف العنان من الإنسان لتحرير ما هو الأهم به فى طوره الآن.

وذلك شيئان أصل تخطيط بلدة أقيم فيها. وأحوال دولة هو الآن بين رجالها، وأهمية الأول هى باعتبار أن جاهل تخطيط بلدته، التى بها مسقط رأسه ومحط رجال أهل جلدته، يكاد مع انتفاء الموانع أن لا يضرب له فى الإنسانية بسهم من فتنه، ويعد ذاхла حتى عن أصل نشأته.

وأهمية الثانى هى باعتبار أن جاهل ما هو بين الأظهر حال، يكاد يحصل اليأس منه بمعرفة ما لمن بعد عنه ممن تقدم من الأحوال. فكانت معرفة الشخص بتخطيط بلدة إقامته، وأحوال رجال دولته، عنوانا كاملا لنجاته، ومحكا واضحا لشفوف قدره ومكانته.

وبهذه الطريقة تعين على أن أجعل إفادة الطالب بملخص تخطيط وتقلبات بلدتنا، ووقائع وأحوال رجال دولتنا، من واجب الحقوق المرعية، والتحف السنية المرضية. فأقول:

من الرازق الوهاب أرجو هداية وتسديد قول بين كل الخليقة
وفتحا قريبا يذهب الرين عن حشا أقام بها عجب وداء ضغينة
ويشرح صدرا ضيقا حرجا بما ألم من الأوزار من سوء سيرة

المطلب الأول

بلدتنا مكناسة الزيتون بكسر الميم كما جزم به ياقوت الحموى فى معجم البلدان والفيروزابادى فى القاموس. وقد تقال بدون هاء عند عدم الإضافة، ولم تكن إضافتها للزيتون مقارنة لنشأتها، وإنما حدثت بعد ذلك عند إنشاء الزيتون بها، وإنما صارت تضاف إليه وقتئذ للتحرر عن مكناسة القبيلة الحالة أحواز تازا التى بينها وبين فاس مائة وثمانية وعشرون كيلو مترا للذهاب من باب الساكمة بالكاف المعقودة أحد أبواب فاس، والساكمة التى ينسب هذا الباب إليها هى امرأة مجذوبة توفيت قرب عام خمسين ومائة وألف ودفنت يسار الخارج من الباب المذكور، فصار الباب ينسب إليها ذلك.

ووجه تسمية بلدتنا بمكناسة سكنى طائفة من القبيلة البربرية الشهيرة بمكناسة بها وذلك فى سالف الدهور ونسبة هذه القبيلة هى لجدهم مكناس بن ورضطيف البربرى، وتلخيص ما فى المقام أن فرقة من قبيلة مكناسة نزل البعض منها شرقى

مدينة فاس وهم الذين أفصحنا سابقا بكون مقرهم أحواز تازا ونزل بعض آخر منها غربى مدينة فاس على مسافة ستين كيلو مترا وهم سكان هذه المدينة فى الأعصر المتقدمة .

وأشار ابن الرقيق إلى أنهم هم الذين أنشئوها، وأن سكانهم أولا كانت فى بيوت الشعر، ثم حملتهم الثروة على التخاصم وإجلاء الأقوى للأضعف، فصاروا بذلك يتخذون الدور بموقع مكناسة ويتابع بعضهم فى ذلك بعضا إلى أن كثرت دورها وصارت من أعظم المدن، وصرح بذلك حسن بن محمد الوزان الغرناطى ثم الفاسى الشهير فى أوربا بجان ليون فى «رحلته» وعليه فنسبتها إليهم لإنشائهم لها وسكانهم بها، وقد كان اختطاطهم لها قديما قبل الإسلام كما أفصح به بعض المؤرخين، وصرح بعض المعاصرين من الأوربيين فى مؤلف له فى مكناسة بأن ذلك كان فى القرن الرابع قبل ميلاد سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وكان تمدنها وقتئذ عبارة عن قرى متعددة كما يأتى عن ابن غازى .

تنبيهان اثنان: الأول: ما سبق من أن بين فاس ومكناسة ستين كيلو مترا هو الذى حرره أهل الفن من الدولة الحامية الآن، وقد حققوا ذلك بعلامات نصبوها على رأس كل عدد كما هو شأنهم فى أمثال ذلك، وعليه فما وقع فى رحلة حسن ابن محمد الوزان من أن بين فاس ومكناس ستة وثلاثين ميلا^(١) وكذا ما وقع فى كتاب فتوحات مولاي رشيد، ومولاي إسماعيل لمؤلفه مويت الفرنسى، من أن بين مكناسة وفاس الجديد ثمانية وأربعين ميلا .

وكذا ما وقع فى الروض الهمتون هنا من قوله مرة إن بين مكناس وفاس نحوًا من ثلاثة برد ونصف برید .

وقوله: مرة أخرى إن بينهما نحو أربعين ميلا . هـ .

(١) وصف إفريقيا لابن الوزان - ص ٢١٩ .

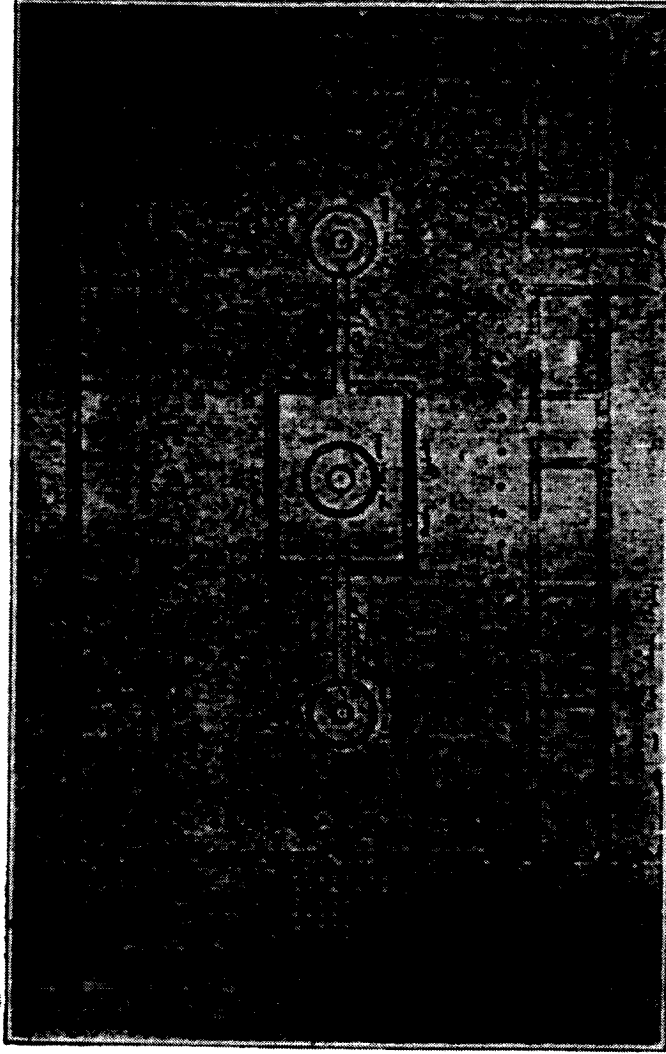
كله مبنى على المتعارف عند أهل كل وقت أو ناحية فى قدر الميل فلإنه يختلف باعتبار ذلك؛ ولذلك وقع الاختلاف فى حد الميل إلى أقوال كثيرة كما فى القاموس وغيره وأيضاً فقد كانت التقديرات مبنية على التقريب غالباً عند المتقدمين، وكذا يقال فى المسافة التى بين تازا وفاس فإن القدر الذى قدرناه فيها هو الذى حرره أهل الفن الآن وحققوه على الوجه السابق، فينبغى أن يختبر به قول الروض هنا إن بينهما نحواً من سبعة برد.

ومن أين طرق التوفيق أن يقال: إن المسافة التى قدر من قدمنا ذكرهم هى باعتبار الطرق التى كانت مطروقة فى أزمنتهم والطرق الموجودة الآن هى غير تلك، لأنها تفارقها تارة وتجامعها أخرى، بحسب ما يقتضيه الخط الهندسى العصرى بالنسبة للسهل والوعر منها كما هو مشاهد وهو جمع حسن والله أعلم.

ولا تظن أن تحرير هذا المبحث لا أهمية له فإن عليه يبنى مشروعية قصر الصلاة وعدمه لقاطع تلك المسافة، وذلك مما كان يتردد فيه أهل العلم لعدم تحرير قدرها.

الثانى: جزم فى الروض هنا بأن مكناسة فرقة من زناتة، والذى جرى عليه ابن خلدون والقلقشندي فى صبح الأعشا وابن الخطيب فى الحلل الموشية وغيرهم أن مكناسة قبيلة مغايرة لزناتة، وإنما جعلت الإضافة للزيتون فارقا لأن الشيء يتميز عن غيره بخاصته التى اختص بها، إما باعتبار الوجود، وإما باعتبار الكثرة، والثانى هو المراد هنا.

فإن مدينتنا هذه كانت امتازت بكثرة زيتونها كثرة تليق بإضافتها إليه، وإنما قيدت بقولى كانت وبقولى كثرة تليق إلخ، لأن تلك الكثرة امتازت بها قبل لم تبقى لهذا العهد ولا فيما قبله بكثير بما توالى عليها من الفتن والأهوال والحروب واختلاف الدول وتقلبات الأحوال، سنة الله التى قد خلت فى أرضه وعباده ولأن



صورة تقريبية تمثل الهيئة التي كان عليها قصر الستينية على عهد
السلطان الأعظم مولاي إسماعيل

زيتون فاس كان يزيد على زيتونها بنحو ثلاثة أعشار وما وقع في كتاب الاستبصار بعجائب الآثار المؤلف سنة سبع وثمانين وخمسمائة من أن زيت مكناسة أكثر زيت في جميع المغرب^(١) يتعين تأويله بما يوافق ما ذكرناه.

قال ابن غازي في روضه: وغارس جل زيتونها وزيتون المقرمدة بفاس وزيتون رباط تازا هو عامل بلاد المغرب محمد بن عبد الله بن واجاج أوائل أيام الموحدين، وقد كان يبلغ ثمن حب زيتونها عام حمله خمسة وثلاثين ألف دينار - أى مائة وخمسة وسبعين ألف فرنك تقريبا باعتبار صرف وقتنا هذا وهو رجب عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف = وذلك قبل أن يستولى على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين^(٢).

قلت: وهذا القدر الذي كان يبلغه ثمن الحب إذ ذاك له بال بالنسبة لذلك الزمان وسكته وسنبيته فيما يأتى بحول الله على مبدأ الدولة الموحدية وعلى وجه نسبتها للتوحيد وابن غازي المذيل بهذا على روضه تأتى ترجمته في المحدثين من رجال مكناسة إن شاء الله.

ومكناسة من البلادات العظيمة كما في شرح القاموس وكتاب الاستبصار ودونك لفظ الاستبصار: وهى من البلادات العتيقة المجيدة، إلى أن قال: وهى من عز^(٣) بلاد المغرب، لها أنظار واسعة^(٤) وقرى عامرة وعمائر متصلة^(٥).

وقال غيره: وكانت المداشر محدقة بها من كل جهة، كل مدشر بمزارعه وغراساته ومرايعه إلى أن ظهر فساد السعيد بن عبد العزيز فى أرض المغرب،

(١) الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ١٨٨.

(٢) الروض الهتون. ص ٥٠.

(٣) فى المطبوع: «أعز» والمثبت من الاستبصار الذى ينقل عنه المصنف.

(٤) فى المطبوع: «متسعة» والمثبت رواية الاستبصار الذى ينقل عنه المصنف.

(٥) الاستبصار، ص ١٨٨.

وذلك فى العشرة الثانية من القرن التاسع، فخلا المداشر وانجلى عنها أهلها، خلا من مداشرها اثنا عشر ألف مدشر والبقاء لله تعالى.

قلت: وهى واسطة عقد عواصم المغرب فاس ومراكش.

واقصر ياقوت الحموى المولد الرومى الأصل البغدادى الدار المتوفى بحلب سنة ست وعشرين وستمائة فى كتابه «معجم البلدان» على أنهار اسم جامع لمدينتين صغيرتين على ثنية بيضاء بينهما حصن [جواد] اختط احدهما يوسف بن تاشفين والأخرى قديمة^(١).

قلت: وكأنه يعنى بالقديمة تاورا المشتمة زمن عمارتها على الحمامات والمسجد الجامع، وغير ذلك مما يأتى لأن الخراب وإن وقع فى مكناسة القديمة سنة خمس وأربعين وخمسمائة فإن تاورا وغيرها عمرت بعد ذلك إلى سنة ست عشرة وستمائة كما يأتى بحول الله فترقب، وقد كان ياقوت فى هذا التاريخ موجوداً وتأخرت وفاته عنه بنحو عشر سنين كما تقدم.

لكن فى «نشق الأزهار» لشمس الدين محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ما نصه: أجل مدائن مكناسة مدينتان إحداها تسمى تاقرت^(٢) وهى مدينة مرتفعة عن الأرض، وشرقها نهر عليه أرحاء بالماء، وبها بساتين، وأهلها ذوو مال وثروة، وإليها ينسب غسل النحل المكناسى.

والمدينة الأخرى تسمى بنى زياد، وهى مدينة عظيمة لم يكن فى المغرب أنزه منها وبها نهر يجرى فى شوارعها وأسواقها ودورها، وبها حمامات وهى مدينة مشهورة.

وكتاب «نشق الأزهار» هذا فرغ مؤلفه من تأليفه فى رابع عشر شعبان عام اثنين وعشرين وتسعمائة هجرية فصاحبه متأخر عن ياقوت، وقد صرح بأن ثانى

(١) معجم البلدان ٥/ ١٨١.

(٢) فى المطبوع: «أكراوت» والمثبت رواية نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤ التى ينقل عنها المصنف.

المدينتين المعبرتين فى مكناس بنى زياد، فمن الجائز أن تكون هى المرادة لياقوت بالمدينة القديمة، ويقوى ذلك ما يأتى عن نزهة المشتاق من أن مكناسة مدينة بنى زياد وأنها مدينة عامرة لها أسواق وحمامات وديار حسنة والمياه تخرق أزقتها، وأنها لم يكن فى أيام الملثم أعمر قطر منها إلخ.

ولا يمكن أن يكون عنى بالقديمة وليلى لأن مدينة وليلى لا تعرف باسم مكناس، وإن كانت مجاورة له، ولأنها كانت بطلت عمارتها وخربت إلا النادر منها قبل ولادة ياقوت بما يزيد على مائتين من السنين، ولأن مكناسة القديمة بربرية كما تقدم وليلى رومانية كما يأتى ولغير ذلك مما سيفصل بعد.

ولا تنافى بين الصغر الموصوفة به مدينة مكناس فى نقل ياقوت وبين العظم الموصوفة به فى نقل شارح القاموس لأن شارح القاموس تأخر زمنه عن زمن ياقوت بالكثير فكل منهما وصفها بما كانت عليه فى زمنه.

وزمن شارح القاموس متأخر عن زمن المولى إسماعيل مصير مكناسة على ما هى عليه من العظم حتى الآن فلذلك وصفها به، وأما المدينة الثانية فى كلام ياقوت فهى الموجودة الآن.

وقول المعجم على ثنية بيضاء قال الراغب: الثنية من الجبل ما يحتاج فى قطعة وسلوكه إلى صعود وحدور فكأنه يثنى السير.

هذا هو الواقع هنا فإن الآتى لمكناسة من ناحية زرهون يكون من عبوره وادى بُورُوح - بضم الباء وسكون الواو وضم الراء بعدها واو ساكنة ثم حاء مهملة - فى صعود إلى أن يدخلها، وكذلك الآتى إليها من ناحية فاس من عبوره وادى وَيَسْلَنَ بفتح الواو وسكون الياء وفتح السين المهملة بعدها وفتح اللام - كذا رأيت - مضبوطا بخط صاحب الروض الهتون - يكون أيضا فى صعود إلى أن يدخلها من سائر أبوابها والخارج منها ينحدر.

وقول المعجم بينهما حصن كأنه يعنى به قصر عامل مكناسة قديما الآتى فى كلام ابن غازى وسيأتى عنه أيضا إطلاق اسم الحصن عليه كما أطلقه ياقوت، والظاهر أن هذا الحصن كان فى زمن ياقوت لازال قائم الجدران فلذلك اعتبره، وإن كان قد خلا قبل ذلك ومستته أيدى التخريب وقت فتح مكناسة الآتى، ثم اضمحل أثره بعد بالكلية، ولا يصح أن يعنى به القصبة الأمرينية لأنها إنما حدثت بعد وفاة ياقوت بما يقرب من خمسين سنة كما يأتى فى محله ولعدم صدق الشبهة عليها فى كلامه.

وقوله اختط إحدهما يوسف بن تاشفين. هـ.

يوسف هذا هو أعظم أمراء المرابطين ولد سنة أربعمائة وتوفى فى مهل محرم فاتح سنة خمسمائة، فيكون عمره على هذا مائة سنة.

وقد صرح ابن غازى بأن المدينة المسماة بمكناسة فى زمنه إنما أحدثها المرابطون بعد ظهور الموحدين، وأول الموحدين ظهوراً المهدي بن تومرت، وهو إنما دخل عاصمة المرابطين مراكش فى صفة ناسك قبل الإمارة عام أربعة عشر وخمسمائة كما قاله غير واحد منهم علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبى زرع من أهل المائة الثامنة فى كتابة الأئيس المطرب.

والأمير وقت دخول المهدي بن تومرت لمراكش هو علي بن يوسف المذكور وأيضا قد اقتصر ابن أبى زرع على أن بناء حصن تاجرارت كان سنة خمس وأربعين وخمسمائة كما يأتى، وحيثذ فكيف يكون مختط المدينة الحادثة هو يوسف وهو قد مات قبل اختطاطها بنحو ست وأربعين سنة، فالصواب أن المختط لها من المرابطين من بعده.

فصل: قال فى الروض وكانت البلاد قبل فتحها ديار كفر مجوس ونصارى، وحاضرتها إذ ذاك مدينة يقال لها وليلى سميت باسم ملكها وليلى، وآثارها عظيمة



آثار مدينة ويلي الألفية

باقية لهذا العهد بأرض خير من ناحية جبل زرهون تعرف اليوم بقصر فرعون، هـ. من خطه^(١).

وقال بعد هذا: وبأسفله - يعنى جبل زرهون - على اثني عشر ميلا من مكناسة بموضع يقال له تازجا أثر بناء عتيق ضخمة يسمى قصر فرعون، وكان ثم سوق غبار يجتمع فيه يوم الأربعاء، وتنسب هذه السوق لوكيلى، ويذكر أن وليلى كان ملك الروم وكان له هناك تلك المدينة، وهى كانت حاضرة تلك البلاد كذا ذكره بعض المؤرخين^(٢).

ولما استولى الفتح على المغرب شمل مدينة وليلى وغيرها وبها نزل السيد الطاهر النقى التقى إدريس بن عبد الله رضى الله تعالى عنه على شيخ أوربة حسبما هو مذكور فى تاريخه من خطه^(٣).

قلت: تازجا ضبطه ابن غازى بفتح الزاى، ومدينة وليلى رومانية فتحها سيدنا عقبة بن نافع عام اثنين وستين، واعتنق أهلها الدين الإسلامى على يد والى سيدنا عمر بن عبد العزيز عام مائة، ثم استقلوا أيام العباسيين وقام بالأمر عبد المجيد الأوربى إلى عام اثنين وسبعين ومائة سنة، وفيه نزلها مولانا إدريس بن عبد الله الكامل ثم بنوه من بعده إلى أن تغلب موسى بن أبى العافية عام خمسة وثلاثمائة، وفى عام خمسين وأربعمائة دخل أميرها مهدي بن يوسف الجزائى فى طاعة يوسف بن تاشفين، وبقيت فى طاعة لمتونة إلى عام واحد وأربعين وخمسمائة، فحاصرها عبد المؤمن بن على الموحدى ولما تمكن منها طمسها وخرّب آثارها.

وفى عام أربعة وخمسين وخمسمائة جدد بالقرب منها حصنا سماه تاقارات، كذا وقفت عليه بخط بعض عدول أعلام مكناسة الأثبات، وسيأتى لنا مزيد كلام ونقد فى ذلك، وكون البلاد كانت ديار كفر إلخ، لا يخالف ما سبق من كون مكناسة بربرية، لأن أنواع الكفر التى ذكرها كلها كانت موجودة فى بربر هذه البلاد.

(١) الروض الهمون - ص ٥١.

(٢) الروض الهمون - ص ٦٩.

(٣) الروض الهمون - ص ٦٩ - ٧٠.

وقول ابن غازى: وكانت البلاد - يعنى بلاد مكناسة وما والاها وما هى منه من بلاد المغرب الأقصى هذا هو المتعين فى محمل كلامه بقريئة قوله: قبل فتحها إلخ، لأنه أشار به للفتح الذى كان فى صدر الإسلام، إذ هو الذى كان فيه أهل البلاد على ما وصفهم به وهو كان عمومياً فى المغرب الأقصى لا فى خصوص مكناس، وبقريئة قوله وحاضرتها إلخ لأن مسمى مكناس لم يكن فى القديم قطراً ولا جهة متسعة فيها الحواضر والبوادر والقواعد وغيرها، وإنما مسماه بلاد مخصوصة فى مساحة معينة ذات قرى بعضهم يطلق على جميعها اسم المدينة كما تقدم عن ابن الرقيق وغيره، وبعضهم يتسامح فيطلق على كل قرية مدينة كما يقع ذلك فى القرطاس وغيره، وبعضها لا يسمح لها بواحد من الإطلاقين كما يأتى عن ابن غازى، وذلك باعتبار تقلبات الأحوال عمارة وخراباً ولما سبق من أن مكناسة سميت باسم مختطيتها وسكانها ولا قاتل بأن مدينة وليلى بناها مكناسة ولا سكنوها بل سيأتى أن مكناسة بمعنى القبيلة هى التى خربت أولاً مدينة وليلى.

فإن قلت قول ابن غازى من قطر مكناسة وضواحيها جبل يقال له زرهون وبأسفله على اثنى عشر ميلاً من مكناسة بموضع يقال له تازجا، أثر بناء عتيق ضخمة يسمى قصر فرعون ويذكر أن وليلى كان ملك الروم، وكان له هناك تلك المدينة إلخ، صريح فى كون مكناسة قطراً من قوله من قطر إلخ، وفى كون زرهون ومن جملته وليلى منه لقوله ومن ضواحيها إلخ، فإن ضواحي البلاد جهاتها.

قلت: لا صراحة فى ذلك ولا متمسك فيه أصلاً، أما قوله قطر مكناسة فليست الإضافة فيه بيانية، وإنما هى على معنى فى أى من القطر الذى فيه مكناسة بقريئة قوله: على اثنى عشر ميلاً من مكناسة، وأما قوله: وضواحيها فإنه تصحيف والذى فى نسخة عتيقة ونواحيها بالنون أى جمع ناحية وعليه فالأمر واضح، إذ النواحي بمعنى الجهات، وهى ظرف متسع لا تعيين فيه. وعلى فرض

أنه لا تصحيف فيه وأن الواقع فى النسخ كلها وضواحيها بالضاد نقول: إنه لا حجة فيه لأن الضواحي لها إطلاقات منها النواحي وحيث أن النسختان متوافقتان، ثم بعد كتبي هذا وقفت على نسخة «الروض الهمتون» التى بخط مؤلفها فإذا فيها ما لفظه: من نظر مكناسة وضواحيها جبلا كبيرا إلخ فانزاح الإشكال من أصله وظهر أن النساخ صحفوا نظر بقطر، وعليه فمعنى كون جبل زرهون من نظر مكناسة أنه تابع لها، ثم إن كلام ابن غازى فى غير موضع مبين للتغاير بين مكناس وزرهون، من ذلك قوله: فى قصر فرعون الذى هو من جملة جبل زرهون أنه على اثنى عشر ميلا من مكناسة إلخ، فهو ظاهر فى مغايرة ما هو من زرهون لمكناسة بل وصريح فى مغايرة قصر فرعون الذى هو مدينة ولىلى عنده لمكناس.

ويعضد ذلك أيضا قوله وهى، أى ولىلى كانت حاضرة تلك البلاد انتهى فإنه مبين للمراد من عبارته الأولى أعنى قوله: وحاضرتها إذ ذاك مدينة إلخ، وأنه لم يرد بها بلاد مكناسة بالخصوص بل هى وما جاورها ويعضده قوله قيل ولم تكن مكناسة فى القديم معدنة وكانت حوائر إلخ، فإنه صريح فى أن مسمى مكناسة مغاير لحاضرة البلاد مدينة ولىلى ويعضده أيضا قوله قبل ذلك: إن مكناسة هى كما وصف ابن الخطيب إذ يقول:

وكفاك شاهد حسنها وجمالها أن أوثرت بالقرب من زرهون

فهو اعتراف منه ومن ابن الخطيب بأن زرهون ليس منها وإنما هو قريب منها وهو كذلك، ويعضده أيضا قوله: قيل ولم يكن لهذه الحوائر قديما مدينة مسورة إلخ، فهو كالصريح فى أن ما كان قديما معدنا مصورا وهو حاضرة البلاد ولىلى ليس من مكناسة إلى غير هذا من نصوصه ونصوص غيره الدالة على المراد، وأن زرهون ولىلى أعنى قصر فرعون لا دخل لهما فى مسمى مكناسة، وحيث فلا يشكل قوله أولا وثانيا أن مدينة ولىلى هى حاضرة البلاد على ما تقرر - والعيان

يغنى فيه عن البيان - من أن مدينة ويليلى هى من جبل زرهون الموالى لمكناسة لا من نفس بلاد مكناسة، ولا يكون فى ذلك أدنى متمسك على أن مكناس القديمة هى مدينة ويليلى كما قد توهم لما بيناه، ولأن ذلك ليس بمعروف، وقد تضافرت^(١) نصوصهم على أن مولانا إدريس الأكبر لما قدم المغرب الأقصى نزل بمدينة ويليلى ولم يقل أحد منهم نزل بمدينة مكناس، ولا صرح أحد من متقدمى المؤرخين بنسبة مدينة ويليلى إلى مكناسة، وعليه فما وقع لبعض المعاصرين من الأوربيين فى مؤلف له وصف فيه مكناس من قوله جعلت مكناس قاعدة وقتية لمولاي إدريس فى القرن التاسع قبل بناء فاس، هـ.

لعل مستنده فيه فهم كلام ابن غازى على غير وجهه، وقد بان لك وجه الحق فيه، وهذا والله أعلم هو الذى أوقع صاحبنا التحرير النقاد أبا عبد الله محمد بوجندار فى الجزم بأن مدينة مكناس القديمة هى المدينة الأثرية التاريخية وهى مدينة ويليلى فى كلماته الذهبية.

وقول ابن غازى سميت باسم ملكها جزم بهذا هنا وتفصي عن بعد ذلك فى قوله ويذكر أن ويليلى إلخ.

وقد رأينا مؤرخى الأوربيين اليوم ينكرون وجود ملك مسمى، بذلك ويقولون: إنه اسم بربري يراد به فى لسان البربر النبات المسمى بالدفلا، هذا أصله عندهم، ثم أطلقوه على المدينة ولعله لكونه كان كثيراً بواديها وانظره مع ما جزم به البكرى فى المسالك، من أن ويليلى هى طنجة بالبربرية، نعم إن كان ويليلى فى لسان البربر يطلق على الأمرين النبات المذكور وطنجة فلا إشكال.

(١) فى المطبوع: «وقد تضافرت» وتضافرو عليه - بالضاد المعجمة - تعاونوا وضافر كل منهم الآخر.

وقول ابن غازى بأرض خير كذا سمي هو محل قصر فرعون فيما نقلناه عنه أولا، وقد سماه فيما نقلناه عنه ثانيا بتارجا، والاسمان معا غير معروفين فى موضع قصر فرعون المعروف بهذا الاسم الآن ولا قبله فيما نعلم، والمعروف إطلاق خير عليه هو الجهة العليا الشرقية المقابلة الداخلى من باب الحجر أحد أبواب زاوية زرهون التى بها ضريح البضعة النبوية الطرية الطيبة الإمام إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن مولانا علي بن أبى طالب، ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت إمام المرسلين وحجة الله على العالمين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه الكرام الطاهرين.

كما أن المعروف بتازجا، هو الجهة العليا غربا التى تلى يمين الداخلى من الباب المذكور للزاوية المذكورة، وما نزل عن الباب المذكور خارجا عنها يقال له تحت تازجا بهذا الاسم الإضافى يعرف حتى الآن، نعم يوجد فى عرصه بعد وادى وليلى هناك أثر قوس كان قائما هناك على هيئة عمل قصر فرعون فيظهر من ذلك أن عمارة قصر فرعون كانت واصله لهذا المحل وأن ابن غازى لذلك أشار بالاسم الثانى، وأن اسم المحل حدث فيه بعد ابن غازى تصرف بما ذكرناه وأما الاسم الأول فالله أعلم كيف وقع له فيه.

وقول ابن غازى فى المنقول عنه أولا من ناحية جبل زرهون اهـ. مع قوله فى المنقول عنه ثانيا وبأسفله يعنى جبل زرهون أسفل منه، وليست هى منه حقيقة، وأظن أن أبا القاسم الزيانى فى رحلته به اقتدى فى قوله أن مدينة وليلى قرب زرهون وليس الأمر كذلك فالصواب قول ابن أبى زرع فى أنيسه، والجزنائى فى جَنَازَهْرُ الآس، والحلبى فى دره، أن مدينة وليلى قاعدة جبل زرهون ومثله ما نقله فى القرطاس عن البرنسى من أن وليلى التى دفن بها المولى إدريس هى من زرهون زاد غيره أنها بالطرف الغربى منه، اهـ.

قلت: والابتداء الطبيعي لجبل زرهون المتميز عن أرض بلاد مكناسة فى طريق الذهاب منها للزاوية المذكورة هو أصل المحل المعروف هناك بعقبة العربى - بفتح العين والراء وياء ساكنة بعد الباء - فكل ما بعد ذلك فهو منه ومن جملته قصر فرعون المعروف بهذا الاسم الآن، وهو فى شمال شرقى مكناسة على ثمانية وعشرين كيلو مترا، وأما ابتداء جبل زرهون فى طريق فاس فهو فيما قاله ليون الإفريقى فى رحلته من أوطاسايس، زاد غيره على أربعة عشر كيلو مترا من فاس .
قال ليون يمتد جبل زرهون للمغرب على مسافة ثلاثين ميلا وعرضه عشرة أميال^(١).

وقال غيره: يمتد للمغرب على أربعين كيلو مترا. قال ليون: وهو بين مدينتين كبيرتين إحداهما شرقية وهى فاس والأخرى غربية وهى مكناس^(٢).

قلت: وليون هذا كان حيا سنة ثلاثين وتسعمائة من الهجرة النبوية واسمه حسن بن محمد الوزان وهو فى الأصل غرناطى، وقرأ بفاس بعد أن سكنها، كان ركب البحر فأسره الطالبيان وذهبوا به لسلطانهم، وهو الذى أسس تعليم العربية برومة، وكان يحسن اللسانين الطاليانى والفيولى، ويعرف عند الأوربيين بجان ليون ورحلته هذه باللسان العجمى فى ثلاثة أجزاء ضخام طبعها المؤرخ شفير الفرنسى فى باريز عام ألف وثمانمائة وخمسة وتسعين مسيحية، وعلق بهوامشها فوائد وتنبيهات من كلام مرمول فى تاريخ إفريقية له وبكلام غيره.

ثم ما قدمناه عن ابن غازى فى مدينة ولىلى وقصر فرعون صريح فى اتحادهما، ومثل ذلك له فى تكميل التقييد، وقد سبقه إلى الجزم بذلك البكرى فى

(١) وصف إفريقية، ص ٢٩٤.

(٢) وصف إفريقية، ص ٢٩٥.

كتاب الاعتبار والرشاطى - بضم الراء - فى اقتباس الأنوار، ومثل ذلك للحلبى فى الدر النفيس وابن زكرى فى شرح همزته وغيرهم.

وقد عين ابن غازى مسمى ذلك باعتبار الموقع بأنه أسفل جبل زرهون، وباعتبار المسافة بأنه على اثنى عشر ميلا وهى أربعة فراسخ من مكناس، كما عين ذلك أيضا بنزول مولاي إدريس به على شيخ أوربة حين ورد من الحجاز، ولا نعلم له مخالفا فى كون نزول مولانا إدريس كان بمدينة وليلى، وإنما الخلاف فى اتحاد مسماها ومسمى قصر فرعون، ففي رحلة ليون^(١) الإفريقى أن وليلى مدينة بناها الرومان قديما على رأس الجبل حين تملكهم بغرناطة وأداروا بها سوراً مبنيا بحجارة كبيرة منحوتة^(٢)، وجعلوا لها أبوابا عالية واسعة، وطول سورها نحو ستة أميال، ثم خربت وأصلحها مولاي إدريس حين ملك بها وبعد موته دفن بها، ولم يبق بها إلا اثنان أو ثلاثة من الديار يسكنها المكلفون بخدمة ضريح مولاي إدريس^(٣).

قال: وبها عينان تسقى بهما غراستها، اهـ.^(٤) فعلق على كلام ليون هذا طابع رحلته المتقدم الذكر ناقلا عن تاريخ إفريقية لمرمول أن وليلى تسمى توليت يعنى بالبربرية، وأن بانيها الرومان على رأس الجبل، وأنها محاطة بسور من الحجر المنجور^(٥) طوله ثمانية كيلو مترا وأن المكناسيين كانوا خربوها وأن مولاي إدريس أصلحها وجعلها عاصمة، ثم خربها يوسف بن تاشفين من المرابطين وحيثئذ تفرق

(١) وصف إفريقيا، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) فى المطبوع: «سوراً وحجراً كبيراً منجوراً» والمثبت رواية ليون الذي ينقل عنه المصنف.

(٣) وصف إفريقيا، ص ٢٩٦.

(٤) وصف إفريقيا، ص ٢٩٦.

(٥) منجور - سبق هذا التعبير من قبل. والنجر فى الأصل: نحت الخشب، والمراد هنا الحجارة المنحوتة.

أهلها فى الجبل وبطلت عمارتها ولم يبق بها إلا نحو خمس عشرة دارا يسكنها الفقهاء القائمون بخدمة الضريح الإدريسي المقصود المزوار من نواحي المغرب وفيها عينان من الماء جاريتان.

زاد شفير أن مدينة ولىلى تسمى فى وقته زاوية مولاي إدريس، اهـ.

وهذا التصريح منه يطابق بعض ما وصفها به ليون ومرمول ككونها فى رأس جبل فإنها أعنى الزاوية الإدريسية كذلك بالنسبة لما نزل عنها وباعتبار حومتى تازجا وخيبر منها لا مطلقا، وكالعينين الجاريتين إن قلنا إن المراد بهما منبعان وسقايتان وإن لم يكن أصلهما داخل البلد فيكون المراد بهما عين خيبر وعين فكة - بفتح الفاء وسكون الكاف بعدها راء مفتوحة ثم هاء ساكنة - فإن ماءهما هو الجارى داخلها، وأن جريان الثانى قاصر على ناحية مخصوصة بخلاف الأول فإن معظم ارتفاع السكان به وكونها لم تكن متمدنة وقتئذ ولا أهلة بالسكان وإنما كان يسكنها خدّمة الضريح، وهذا والله أعلم هو وجه اشتهاؤها باسم الزاوية، إذ لم تكن تستحق فى القديم عنوانا سواه، ولعل كثرة سكانها ووقوع تمدنها، إنما تنافس الناس فيهما بعد أن شيد سيدنا الجدد المولى إسماعيل الضريح الإدريسي فيها وتنافس الملوك حفدته للتذليل عليه فى ذلك حسبما سيمر بك مفصلا، حتى صار من أعظم القصور والمشاهد، وانضم لذلك احترام الملوك للسكان رعايا حرمة الجار، إلى أن صارت إحدى مدن المغرب كما هى عليه الآن، ومن ثم والله أعلم لم يذكرها مؤرخو الأزمنة السالفة فى مدن المغرب كابن الخطيب فى مقامات البلدان وكتاب معيار الاختيار، فى ذكر المعاهد والديار، وفى ربحانة الكتاب، ونجعة المتاب، التى نقل ابن غازى منها آخر روضه والمقرى فى نفح الطيب وكذا الزيانى فى رحلته فإنه تعرض لمدن المغرب ولم يذكر الزاوية فيها بهذا العنوان وإنما ذكر مدينة ولىلى هذا مع تأخر زمنه.

ويكون عمارتها نشأت تدريجاً لأجل الاحترام المذكور صرح فى الأزهار العاطرة وكذا صرح موبت الفرنسى الذى كان أسيراً عند مولاي رشيد ومولاي إسماعيل فى كتابه فتوحات مولاي رشيد ومولاي إسماعيل بأن زَرْهُون لم تكن فيه مدينة فى ذلك الوقت ولم تكن به إلا المداشر، وكذا صرح بذلك ليون فى رحلته، وكل ذلك يعضد أن ابن غازى لم يقصد بما قدمناه عنه الزاوية الإدريسية، وإنما قصد بمدينة وِلَيْلى خصوص المعروف اليوم بقصر فرعون، وهو الذى شيدت فيه الدولة الحامية قصور السكان المكتشفين لآثاره القديمة كل يوم، وحيثُتد يتحقق أن مسمى وِلَيْلى فى كلام ابن غازى خاص بالمعروف اليوم بقصر فرعون، ولا يشمل الزاوية البتة، وإنما أهمل ذكرها مع ذكره لجبل زَرْهُون ولسوقه لكونها غير موجودة على الهيئة التى تستحق الذكر فى تاريخه، ولأن كذلك مسمى وِلَيْلى فى كلام ليون ومرمول فإنه على ما ذيله به شفير، خاص بمسمى الزاوية الآن، ولا تعلق له بالمسمى بقصر فرعون البتة.

فإن قلت حيث كان الأمر هكذا فمن لازمه أن مخالفى ما جرت عليه طائفة ابن غازى يفرقون بين وِلَيْلى وقصر فرعون وحيثُتد فما مسمى قصر فرعون عندهم هل هو المعروف بهذا العنوان الآن أو غيره ؟ قلت قال ليون: قصر فرعون مدينة صغيرة قديمة بناها الرومان على رأس جبل قريب من وِلَيْلى بنحو ثمانية أميال، قال وأهل جبل زَرْهُون يقولون باني قصر فرعون موسى ولم تظهر لى حجة ذلك ولم يوجد فى التاريخ تقدم ملك لفرعون ولا للمصريين على المحل قال: وتوجد حروف لتينية منقوشة فى بعض أحجاره تدل على أن الرومان هم الذين بنوه قال: ويوجد بالمدينة نهران متخالفان كل واحد يأتى من ناحية وأودية المدينة ورباها كلها مغطاة بأشجار الزيتون، وبقرب المدينة غابة يكثر فيها الأسد والنمر^(١) هـ.

فعلق عليه شفير نقلا عن مرمول: يوجد من ناحية من رأس الجبل مدينة صغيرة على بعد اثنى عشر كيلو مترا من وِلَيْلى وأهلها ينسبون لها لفرعون مصر، ولا يوجد فى التاريخ أن فرعون والمصريين ملكوا إفريقية، ومشاهير المؤرخين إنما يسمونها قصر زَرْهُون وتقرأ إلى الآن كتابة قوطية فى بعض سورها تدل على أنها

(١) وصف إفريقيا، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

بناها القوط وبقربها نهران صغيران خروجهما من رأس الجبل، والسهول والرُّبى كلها مغطاة أى بالأشجار، وقد خربت هذه المدينة وقت تخريب تيوليت أى مدينة وليلى، ولم تعمر لكون الأهالى يحيون السكنى بالبادية دون المدن، وبقربها سوق على ربوة يعمر يوم الأربعاء يقصدها المكناسيون والفاسيون ومن بات بها احترس من كثرة الأسد هـ.

ثم نقل شفير عن جغرافية موريطانية الطنجوية لتيسو أن أثر قصر فرعون هو أثر بوليس يعنى نواحي وليلى يدل على ذلك كتابتان فى حجر قال: وهذا الأثر يوجد فى ربوة مستديرة مستطيلة من جبل زرهون وهذه الربوة تمنعها شعبتان عميقتان نحو المشرق والمغرب، وبقربها وادى فرعون يمر نحو الجنوب ويستخرج من هذا الأثر أحجار للبناء منها ما بنيت به باب منصور العليج بمكناس الذى فيه سوارى من الرخام بصنعة عجيبة هـ.

فقول ليون قريب من وليلى إلخ مع قول مرمول على بعد اثنى عشر كيلو مترا من وليلى الخ كلاهما صريح فى مغايرة قصر فرعون الذى قصدا بيانه لوليلى التى تقدم أنها هى الزاوية عندهما، وكذا قول شفير عن مرمول خربت هذه المدينة وقت تخريب تيوليت الخ صريح فى ذلك أيضا ثم وصف ليون ومرمول لها بأنها على رأس جبل يجوز تنزيله على المعروف الآن بقصر فرعون باعتبار ما سفل عنه من الجبل، فإن من نظر لبسيط قصر فرعون صار فى عينيه كأنه على رأس الجبل الذى انحط عنه، وكذا النهران المختلفان فإنهما قد لا ينافيان ذلك التنزيل ويحملان على وادى وليلى والوادى المعروف بوادى الميت، فإنهما بالنظر لقصر فرعون كل واحد يأتى من جهة له ومن رأس جبل فى الظاهر، وإن كانا فى الواقع متحدين فإن الثانى من أصول الأول وإليه صيرورته ودورانه، وكذا يتنزل على ذلك استخراج أحجار البناء منه فإنه لا زال مشاهدا، وكذا لا ينافى ذلك وصف الرُّبى

والسهول بأنها كلها مغطاة بالزيتون فإن بعض ذلك بقربه لا زال كما وصف،
والباقي لعله كان ثم سقط .

وإنما المنافي لذلك ما نقله شفير عن تيسوا من وصفه بأنه على ربوة مستديرة
مستطيلة تمنعها شعبتان عميقتان، فإن هذه الصفات تقرب من المسمى بقصبة
النصراني الكائنة بناحية من الجبل المذكور المكتنفة بين مداشر الهروشى وآيت سيدى
حساين وسيدى أقضات - بسكون القاف وفتح الضاد مشبعة وسكون التاء- بل
هذه برأس الجبل أشبه حتى إن الحال بها يشرف على بسيط سانس ومدينة فاس من
شدة علو موقعها، وكذا وصف قربه من الغابة فإنه بها أشبه، وكذا قربه من السوق
المذكورة وهى المسماة بالسوق القديم الواقعة فى سفح بل وأعلى باب الرملة فإنه
بالقرب من قصبة النصراني أمسّ وكذا تغطية الربى والسهول بالأشجار فإنه بها
أمس وكذا الوصف بالصغر فإنه لائق بها إذ دور سورها المحيط بها يبلغ ستمائة متر
واثنين وعشرين مترا تختص كل جهة من طولها بمائتى متر وعشرين مترا وكل جهة
من عرضها بشرط باقى العدد المذكور واتساع جدرانها متر واحد وخمسون
ستيمترا .

ولا زال غالب جدرانها قائما إلى الآن بخلاف المعروف اليوم بقصر فرعون
فإن دور سوره يقدر بخمس وعشرين مائة متر فهو يزيد على سور قصبة النصراني
بثلاثة أضعافه وشيء .

فائدة: مما أظهره الاكتشاف الحالى داخل محيط سور قصر فرعون هذا أثر
سقاية منحوتة فى الحجر وقد أثرت فيه كثرة الأوانى التى كان يسقى بها منها أثرا
بين الواضوح، وهذا مما يدل على طول العمارة هناك وكثرة السكان، ويوجد هنالك
أيضا قوس عظيم من الحجر المنحوت يسمى قوس النصر لا زال قائما إلى الآن
والأمير الذى أقيم له هذا القوس هو كراكلة، وبانيه ماركيس أصله فينيقى، وكان
على قوس النصر هذا عربة تجرها ستة من الخيل مصورة من النحاس بهيئة كبر

الخیل الطبیعی، ویستفاد من الکتابۃ المرموقۃ فی الحجر هنالك أن ذلک القوس نصب لتذکیر واقعة تاریخیة.

وطول شارع قصر فرعون هذا أربعمائة وخمسة وأربعون مترا، ویقدر سکانه وقت عمارته باثنی عشر ألف نسمة، وبعد قصر فرعون من الزاویة الآن خمسة کیلو مترا تقریبا نبه على ذلک رئیس الآثار القدیمة بالرباط شاتلان القائم على ذلک الاکتشاف فی مقالته الاکتشافیة التی أملاها لجماعة الجغرافیا بالدار البیضاء.

ولنرجع لما کنا فیہ فنقول: وكذا القرب من وادی ولیلی فإن ذلک یصح أيضا لأن القرب نسبی، وبخارج جدارها الغربی عینان صغیرتان یظهر أن أصلهما عین كانت داخلها وردمت بالهدم فتفرق بذلک ماؤها خارجا على منبعین، نعم قصبة النصرانی لیس سورها من الحجر المنجور بل هو کغالب البناات المغربیة المعهودة، ولا هی بالصفة التی یتخرج منها حجر البناء، بل وصولها لا یتأتی الآن للراکب، وإنما یتأتی للراجل لوجود الشعبتین المانعتین.

فالخاص أن الصفات التی وصف بها لیون ومن وافقه مسمى قصر فرعون منها ما لا یقبله إلا مسمى قصر فرعون المعهود الآن، ومنها ما لا یقبله إلا قصبة النصرانی المذكورة، ومنها ما هو محتمل، ثم إن کان مرادهم به قصبة النصرانی وحکمنا حیثئذ بأن الصفات المنافیة لها إنما هی توسع باعتبار ما فی تلك الجهة أو غلط یتوجه البحث معهم حیثئذ بأنهم جعلوا المقصود من مسمى قصر فرعون غیر المعروف به عند الخاص والعام بهذا العنوان فی زمنهم وقبله وبعده إلى الآن، وذلك غیر لائق.

وإن کان مرادهم بقصر فرعون مسماء المعهود وحکمنا بأن ما لا یقبله من الصفات الواقعة فی کلامهم جاریة على ما قدمناه اتجه بحث آخر، وهو أن تفرقتهم بین ولیلی وقصر فرعون وجعل مسمى الأول هو الزاویة لا دلیل علیه.

لا باعتبار الآثار القديمة لفقدائها بالكلية فى الزاوية، وهو موافقون لغيرهم فى أن ولىلى مدينة أثرية قديمة فلم تجز مخالفتهم لغيرهم بعد إجماعهم معهم على هذا بغير دليل.

ولا باعتبار نصوص من تقدمهم من المؤرخين، ولا يقال إنهم تمسكوا فى ذلك بكون الضريح الإدريسى بالزاوية وذلك دليل كونها هى ولىلى من جهة أن تملكه وموته كانا بولىلى بلا خلاف، وما وقع للسهلى من أنه مات بإفريقية يرجع لذلك عند التحقيق لأننا نقول إن من تقدمهم ومن تأخر عنهم من المتأخرين كالبرنسى، وابن أبى زرع والجزنائى، والحلبى، وابن القاضى وغيرهم قد نصوا على أنه وإن كانت ولىلى عاصمة ملكه وبها توفى لم يدفن داخلها، وإنما دفن خارجها بصحراء رابطتها.

وبعضهم يقول رباطها وبعضهم يبدل الصحراء بالصحن فيقول بصحن رابطة باب ولىلى.

وقد حكى فى الأزهار العاطرة تبعاً لغيره اتفاق المؤرخين على مضمون ما تقدم وبإضافة هذه الرابطة لولىلى يجاب عن قول ابن خلدون دفن إدريس بولىلى هـ.

فيكون معناه بمحل مضاف إليها والرابطة كما فى تاج العروس عبارة عن العلة والوصلة واسم لجماعة الخيل المربطة على بلد.

والرباط كما فى القاموس يطلق على معان منها واحد الرباطات المبنية، ومنها ملازمة ثغر العدو، ومنها المحافظة على أوقات الصلاة ومنها حديث فذلکم الرباط هـ.

الحاصل من هذا أنه دفن خارجها بصحراء أى بصحن المحل المتعلق بها إما لعبادة يقيمها أهلها به، وإما للملازمة الحراس من غارة العدو عليها.

فالرباط والرابطة إما حصن أهل العسة على ويلي، وهو الأظهر، وإما متعبد أهلها كصوامع الرهبان التى تكون دائما خارج مدنهم، وأياً ما كان فهى من آثار ويلي، ومن جملة بناء أهلها الذى له تعلق خاص بها، فصحت إضافتها إليها.

وعليه فإن كان مراد من جعل الزاوية هى مدينة ويلي هذا المعنى الذى شرحناه فلا بحث معه إلا من جهة تخصيصه لويلي بالمحل التبعى منها وإهماله للمحل الأولى الأصلية منها، واللائق العكس، ويمكن أن يجاب عن ذلك بجواب لطيف ظريف وهو أن الإهمال الذكرى تابع للإهمال الحسى، فحيث انعكس الحال وصار التبعى عامراً والأصلية خراباً استحق التبعى بعمارته واسترسالها حكم الأولوية والأصالة، واستحق الأصلية بخرابه وانقطاع عمارته حكم التبعية والفرعية، والمنظور إليه غالباً هو المتبوع لا التابع، إلا أن قول ليون ولم يبق بها إلا اثنان أو ثلاثة من الديار الخ. وقول مرمول: ولم يبق بها إلا نحو خمس عشرة داراً إلخ لا يقبله لأن المقالين المذكورين مقتضيان لكون العمارة كانت بها كثيرة وتلك بقيتها للتخريب الذى شرحه مرمول، مع أن ذلك إنما كان فى ويلي الأصلية، ولم يكن فى رابطة صحرائها التى هى ويلي التبعية، وإلا لم تكن صحراء وقت الدفن الإدريسي بها مع أنها كانت صحراء، ولذلك عنون عنها بها ولم تحدث فيها العمارة تدريجاً إلا بعد الدفن كما تقدم، نعم إن كان المحل المسمى رابطة أو رباطاً عبارة عن حصن كما اخترناه سابقاً وأن هذا الحصن كان مشتملاً على دور عديدة وقد شملها التخريب السابق، وبقية دوره هى التى استثناه من تقدم ذكره صح الجواب المذكور ولم يكن فى قول من ذكر ولم يبق إلخ ما ينافيه.

هذا والأقرب عندنا نظراً لما تفصيناه من شواهد الحال وقرائن الآثار، أن قصبة النصرانى، إنما كانت من توابع مدينة ويلي التى هى قصر فرعون المعروف، فمن أطلق عليها قصر فرعون أو ويلي بهذا الاعتبار صح إطلاقه وإلا فلا.

فتحرر من هذه المباحث المتعلقة بمدينة ولىلى التى اعترف ابن غازى بأنها كانت قاعدة البلاد وحاضرتها، أنها من نفس جبل زرهون بل هى قاعدته، وأنها ليست هى مكناسة القديمة، كيف وهى رومانية! ومكناسة القديمة بربرية، وأنها هى التى تعرف الآن بقصر فرعون، وأن الزاوية الإدريسية ليست هى مدينة ولىلى الأصلية، وإنما كان موقعها تابعا لها ومن إضافاتها ومتعلقاتها، فهى من ولىلى تبعا لا أصالة، وأنها لم تكن عامرة كما هى عليه الآن، وإنما تتابعت عمارتها بعد أن شيد المولى إسماعيل الضريح الإدريسى بها، ولذلك لم يتعرض لها ابن الخطيب فى كتبه ولا ابن غازى، ولا من وافقهما طبق ما أشرنا إليه سابقا، وأن اسم الزاوية هو الذى كانت تستحقه قبل العمارة فاستمر عليها بعدها، وأن قصبة النصرانى ليست هى قصر فرعون الأصلية، وإنما هى من إضافاته فيصح إطلاقه عليها تبعا لا استقلالا، ولو لم يكن من دلائل ذلك إلا تعيين كل باسمه الخاص قديما وحديثا لكفى وأن ما خالف ذلك كله إما توسع أو غلط والله أعلم.

ملاحظات:

الأولى: من الغريب ما نقله فى الأزهار العاطرة عن بعض الطلبة من أن مدينة ولىلى هى عين القصر لا قصر فرعون قائلا: لأنه قد خلا قبل البعثة على ما قيل هـ. وعين القصر هذه هى الكائنة بالضفة اليسرى لوادى ولىلى المار أسفل باب الحجر أحد أبواب الزاوية سميت عين القصر لقربها من قصر على مثال بناء قصر فرعون كان قديما هناك ثم سقط وبقى منه قوس، وإليه تنسب عرصة هناك، فيقال عرصة القوس أيضا كما سبقت الإشارة لذلك ولم يوجد هناك أثر لغير هذا القصر وحيثذ فلا يصح أن يكون ذلك المحل هو مدينة ولىلى إلا على سبيل الإضافة والتبعية نظير ما قدمناه، على أن ذلك الطالب بنى دعواه على التفرقة بين ولىلى وقصر فرعون وقد سبق تحرير اتحادهما ورد ما خالفه، وأما تعلق ذلك الطالب

بالقيل الذى حكاه وهو أن وليلى خربت قبل البعثة فهو تعلق بما هو أو هن من بيت العنكبوت لما سبق أن وليلى خزبتها قبيلة مكناسة أولا ولما جاء مولاى إدريس نزل على شيخ أوربة بها ثم لما بايعوه أصلحها وصيرها عاصمة ملكه، ثم لما بنيت مدينة فاس وصارت هى العاصمة تناقصت عمارة وليلى إلى أن خربها يوسف ابن تاشفين وحيثئذ بطلت عمارتها وتفرق أهلها فى الجبل، وقد سبق أن موت ابن تاشفين كانت فاتح القرن الخامس.

ولا يقال إن هذا التقدم لا حجة فيه لما تقدم مما يشير لاضطراب كلام قائله، لكونه جمع بين ما لا يصح تنزيله إلا على الزاوية وبين ما لا يصح تنزيله إلا على وليلى ولكونه جعلهما شيئا واحدا وهما شيآن متغايران فى الواقع، لأننا نقول قد نبهنا فيما سبق على الجمع بين ذلك بأن موقع الزاوية هو من وليلى بحسب التبع والتعلق والإضافة، فلا اضطراب إذن، وإنما على العارف أن ينزل كل شئ فى محله، ولكون نزول مولاى إدريس على أوربة بوليلى التى هى قصر فرعون هو كالمتمفق عليه عند أهل المعرفة، وأما ما يذكر من أن عين القصر لم تكن قبل مولانا إدريس وإنما نبعت بركزه لخربته فى محلها، فهو إن صح لا يعين أن محلها هو نفس مدينة وليلى الأصلية كما لا يخفى.

الثانية: زعم بعض المؤرخين المعاصرين ألا وهو صديقنا الناقد أبو عبد الله محمد بوجندار فى كتابه المذكور آنفا أن الذى خرب مدينة وليلى هو عبد المؤمن الموحدى، وذلك لا يصح ففى الأصل أعنى «الروض الهمتون» أن أمر الموحدى من عبد المؤمن لم يزل يتقوى وسكان الجبال ينزلون إليهم من صياصياها مذعنين، حتى إن من نظر مكناسة وضواحيها جبلا كبيرا مانعا حصينا يقال له زرهون، وفيه من الخلق أمة كثيرة لا تحصى عدة، أرسلوا بيعتهم مع جماعة منهم إلى عبد المؤمن ابن على وهو بين الصخرتين من أحواز تلمسان، وجروا الموحدى على دخول

المغرب وأعانوهم على محاصرة مدينة مكناسة، فكانوا أبدا مبغضين لأهل تلك البلاد وكانوا بسبب سبقهم أحرارا من المغارم كتب لهم بذلك صكوكا كانت بأيديهم ولم يتعرض لأموالهم كما فعل بالأملاك التي أخذت عنوة. هـ من خطه.

وهو صريح فى أن أصل زرهون بايعوا عبد المؤمن قبل دخوله لمغربنا، وفى أنهم كانوا محترمين عنده، وفى أنه ما تعرض لأموالهم ولا لأملاكهم بعد دخوله، وكيف يجتمع مع هذا تخريبه لقاعدة بلادهم مدينة وليلي! وأى موجب بعد ما تقدم يدعوه لذلك!

الثالثة: حيث كان أهل وليلي تفرقوا فى جبل زرهون بسبب تخريب يوسف ابن تاشفين لقاعدة بلادهم مدينة وليلي على ما سبق فى نقل شفير عن مرمول، ومن الواضح أنه ما فعل ذلك بها إلا لتمتعهم بها واستعصائهم عليه فيها، فهم حيثئذ قد ذاقوا وبال مخالفة الملوك ونالتهم خسارتها العظيمة بالفعل، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، والعاقل من اعتبر بالحوادث التى مرت عليه، وأوصلها العلم اليقيني إليه. والسعيد من وعظ بغيره وحيثئذ فبدارهم بالطاعة لمن ظهرت غلبته، وقويت شوكته، وبايعه أكثر الإيالة المغربية ولا سيما مع تظاهره بالعدالة وانتدابه لهد منكرات من قبله وتحصنهم بها من إعادة التشديد عليهم والهلاك والمجاعة هو من حسن تدبيرهم وسداد نظرهم، ولا ملام عليهم فى ذلك، ولا سيما حيث كان ذلك وقت تقلص الدولة المرابطية واضمحلال قوتها وصيرورة الرعية فى حكم الإهمال من جهتها، وفى أيدى الهلاك من جهة الدولة القائمة عليها ففى «شرح القصيد» للشيخ السنوسى من شروط الإمام. قدرته على تنفيذ الأحكام هـ.

وقد نقل ابن يونس وغيره أن مالكا سئل إذا بايع الناس رجلا ثم قام آخر فدعا الناس لبيعته فبايعه بعضهم، فقال: إن كانت بيعة الأول على الخوف فالبيعة للثانى إذا كان عدلا هـ.

وفى «شرح المقاصد» من صار إماما بالقهر والغلبة ينزل بأن يقهره آخر ويغلبه هـ.

وفى البكى السبب المتفق عليه أى فى خلع الإمام كل ما يختل معه مقصود الإمامة هـ.

قال رأس العارفين فى حواشيه فدخل فيه العجز عن القيام بالمصالح وينبغى اعتباره من حيث كونه نسبة وإضافة بحيث يوجد أقدر منه فيولى هـ.

وفى «المواقف» وشرحها وللأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجبه مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين كما كان لهم نصبه لانتظامها وإعلائها هـ.

وأما إعانتهم للموحدين فى محاصرة مكناس فذلك من لازم الطاعة، ومن الواجب فى حق من أبى أن يدخل فيما دخلت فيه الجماعة، وقد نقل ابن عرفة وغير واحد من متأخرى فقهاء المالكية فقها مسلما عن الصقلى وهو ابن يونس أن شيخه القاضى أبا الحسن صوب قول سحنون إن كان الإمام غير عدل وخرج عليه عدل وجب الخروج معه ليظهر دين الله هـ.

كما نقلوا أيضا عن عز الدين كذلك أنه إن كان فسق الإمام القائم أخف من فسق الإمام المقوم عليه ككون المقوم عليه فسقه بانتهاك حرمة الأبخاع، والقائم بأخذ المال بغير حق، فإنه يجوز القتال مع القائم لإقامة ولايته وإدامة نصرته دفعا لما بين مفسدتى الفسوقين ودرءا لما هو أشد من معصية القائم هـ.

قال ابن عرفة: ونحوه خروج فقهاء القيروان مع أبى يزيد الخارج على الثالث من بنى عبيد وهو إسماعيل لكفره وفسق أبى يزيد والكفر أشد هـ.

ونقل شيخ شيوخنا فى اختصار الرهونى عن «شرح المقاصد» ما نصه ابن عبد السلام تجوز إعانة الأخف ظلما على الأثقل كالمتهك للأموال أو الأبخاع على المتهك للدماء هـ.

ووزانه جوار إعانة الأخف مفسدة متطرفة على الأشد، ثم قال: ويجوز -
الدفع عن الأخف ضررا ومفسدة والقتال معه لدفع ما هو أشد هـ.

وعليه فقول خليل فللعدل أى ولو بالإضافة هـ.

ولا خفاء أن حال عبد المؤمن مع المقوم عليه من بقية المرابطين لا يخرج عن
الحال التى تكلم عليها سُحُنُون والحالة التى تكلم عليها عز الدين، وحيثُ فُبُغِضَ
المكناسين للزهرهونيين لأجل مبادرتهم لبيعة عبد المؤمن وإعانتهم له فى حصار
مكناس خارج عن القوانين الشرعية والسياسية، وإنما هو أمرٌ قَادَتْهُمْ إليه طبيعة
النفوس على عاداتها فى مخالف هواها إلا من عصمه الله وقليل ما هم.

ويكفى اللبيب هنا أن يتذكر أن المغرب كله إنما سعد بقيام مولانا إدريس على
بنى العباس فيه، وأن أهل وليلى الذين تفرقوا فى جبل زرهون هم أهل اليد
البيضاء فى تلك الساعة يبدأهم دون غيرهم لمبايعته، وبكون سعادة باقى قبائل
المغرب مكناسة وغيرهم فى ذلك إنما كانت على يدهم وبحسب التبعية لهم ومن
نتائج نصرتهم له وإشهار سيوفهم على كل من انقبض عن طاعته، ولم يحتم
بمعاهدته، فسبقهم إلى ميادين هذه الخيرات عتيق، وقديما آووا منه إلى الركن
الوثيق، فالإنصاف مقابلتهم على ذلك بالشكران، ولله در أبى العباس الحلبي إذ
قال شاكرًا لهم على ذلك ومرتغا بمديحهم فى دره النفيس:

إن مدحت الماجدين أوره	وجد القلب بمدحى أريّه
مدح من أيد إدريس الرضا	ابن طه المصطفى ما أطيبه
ورضا مولى الموالى استوجبوا	إذ أجابوه بما قد طلبه
وامتثال الأمر منهم فيهم	كل فرد منهم قد أوجبه
واحمدن عبد الحميد المرتضى	إذ دعاهم وإليهم حَبَّه

قاتلوا بين يديه جملة	طالبين بره أو قـربه
ليس منهم من فتى عند الوغى	عن قتال خوف موت حجه
بل لقد كان إذا مات الفتى	منهم ألفى بموت طربه
ليس منهم ماجد إلا غدا	لعدو بحسام ضربه
فاحمدن أنصار إدريس الرضا	حمدهم قول المحب استوجه
فعل أنصار بظه فعلوا	مع إدريس الكرام أوربه
ربنا ارحمهم وأدخل جمعهم	جنة الفردوس ذات المرتبه

اهـ.

وليت شعرى أى فضيلة حصلها المكناسيون وقتل من هاتيك الحروب والتفرد بالخلاف سوى الدمار والهلاك للآلاف المستكثرة من النفوس وتخریب البلاد والديار وهتك الحرم وإضاعة الأموال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الرابعة: سبق أن أهل مصر وهم القبط قوم فرعون لم يحفظ فى التاريخ تقدم ملك منهم ولا سلطنة على هذه الديار المغربية، وأن الكتابة الموجودة فى أحجار قصر فرعون الدالة على بانيه ومملكته قديما هى لاتينية وقوطية نسبة للقوط بالواو بعد القاف المضمومة، وهم قبيل قيل إنهم من الإفرنج كما فى تاريخ ابن خلدون وغيره.

وعليه فما وقع فى «الدر النفيس» و«شرح الهمزية» لابن زكرى والأزهار العاطرة من أن قصر فرعون يذكر أنه من بنيان القبط أى بالباء الموحدة الساكنة بعد القاف المكسورة لا تعويل عليه ولا حجة فى اشتهاى ذلك القصر بالإضافة إلى فرعون، لأن الظاهر حمل ذلك على التشبيه، البليغ أى أن ذلك البناء القائم من تلك الأحجار العظيمة المحكمة الترصيف المقتضى للخلود فى العادة هو كبناء فرعون المدعى للربوبية المقتضية للخلود.

الخامسة: جزمنا أولا بأن بين مكناسة وقصر فرعون ثمانية وعشرين كيلو مترا، وبذلك جزم أيضا بعض من ألف في وصف مكناس من الأوربيين المعاصرين اعتماداً على ما تحرر الآن بطريقة في المسافة المذكورة بعد تعيين نهجها وترصيفه، وعليه فما نقلناه بعد ذلك عن ابن غازي من أن بينهما اثني عشر ميلاً يحمل على ما قدمناه في المسافة التي بين فاس ومكناس وفاس وتازا.

السادسة: قول ابن غازي السابق وكان ثم سوق غبار إلخ يعنى في المحل الذى به آثار البناء العتيق الضخم المذكور، وقد نسخ هذا السوق لا باعتبار الزمان ولا باعتبار المكان، وإنما يعمر السوق منذ أدركنا داخل الزاوية يوم السبت وعشية يوم الجمعة، نعم بعد انبساط الحماية كان بعض الحكام أشار بإبراز سوق البهائم لظاهر البلد فحول أولا بإشارته خارج باب عين الرجال منها، ثم نقل لوسعة عين خيبر خارج باب عين فكرة منها وعلى ذلك استمر الحال إلى الآن.

السابعة: بالسودان مدينة تسمى وليلى وأخرى تسمى أوليلي نبه عليهما الزيانى في رحلته، وقد قيل إن وليلى زرهون تسمى بطنجة أيضا حكاه ابن غازي في تكميل التقييد، وكذا كانت تسمى تيوليت وبوليل، وقد يقال بوليس كما تقدم، كما أن مكناسة كانت تسمى صلدا بالصاد وسلدا بالسين، وبحفظ المؤرخ لهذه الأسماء يفهم المراد من عبارات المؤرخين.

الثامنة: علم مما سبق أن قبيلة أوربة هم أهل وليلى في الزمن الإدريسي، وأن أهل وليلى هم الذين تفرقوا بجبل زرهون لما خربت قاعدة جبلهم وحاضرة البلاد وليلى، فيخرج من ذلك أن أهل زرهون هم قبيلة أوربة ولا زال الأوربيون به وخصوصاً بالزاوية منه، وقد حفظت رسومهم القديمة العديدة هذه النسبة لهم، ومنهم أولاد ابن الخياط وأولاد بو يحيى وبيد بعضهم ظهائر ملوكية قديمة باحترامهم وتسويغ بعض الأملاك لهم رعيًا لسابقتهم وهم متمسكون بها إلى الآن،

وعليه فما وقع فى «الروض» هنا بعد ما قدمناه عنه من قوله ويذكر أن أصل أهله
يعنى جبل زرهون روم هـ لا يلتفت إليه وكأنه لذلك أشار بحكايته له بلفظ يذكر
الحاكم بعدم ثبوته .

وقول «الروض» كانت البلاد ديار كفر مجوس ونصارى إلخ، قلت: أما
المجوس فهو فى الأصل معرب منج كوش - بضم الكاف - ومعناه قصير الأذن
عرف به رجل صغير الأذنين كان فى قديم الزمان اخترع دين المجوسية ودعا إليه
فتوبع عليه، ثم بعد زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام نشأ رجل آخر اسمه زرادشت
الفارسى فجرد هذا الدين المجوسى وأظهره وزاد فيه، وعلى يده دخلت الفرس فيه
لثلاثين سنة خلت من ملك ملكهم يستاسب، فتمجسوا حيثئذ عن آخرهم بعد أن
كانوا فى الطور الأول على دين سيدنا نوح عليه السلام، ثم صاروا فى الطور
الثانى لدين الصابئة واستمروا عليه نحو ألف سنة، ثم بعد ذلك صاروا فى طورهم
الثالث للمجوسية بدعوة زرادشت الذى يعتقدون فيه أنه نبي مرسل، وبإعانة
ملكهم يستاسب كما بينا، ومدار دين المجوسية على تعظيم النار وسائر الأنوار
والقول بتركيب العالم من النور والظلمة واعتقاد القدماء الخمسة، وهى عندهم:
البارئ تعالى، وإبليس لعنه الله . والهيلولى، والزمان، والمكان وغير ذلك من
تفاصيل المجوسية كما بينه صاعد الأندلسى فى طبقات الأمم، وقد تولى بسط
تفاصيل هذا وبيان فرق أهله الإمام الشهر ستانى فى «الملل والنحل» وغيره، فمن
تعلق له غرض بها فلينظرها هناك، ومن نحل أهل المجوسية تفضيل الفرس على
العرب وعلى سائر الأمم كذا فى «صبح الأعشى» للقلقشندي المولود سنة ست
وخمسين وسبعمائة المتوفى يوم السبت عاشر جمادى الأخيرة سنة إحدى وعشرين
وثمانمائة .

قلت: وتفضيل المجوس للفرس على غيرهم هو تفضيل لأشراف أهل ملتهم
على الغير اتباعا لحمية الجاهلية لا غير، ولعلمهم بعد دخول الفرس فى الإسلام لا

يقولون بتفضيلهم كفعل اليهود فى تفضيلهم لعبد الله بن سلام قبل علمهم بإسلامه وتنقيصهم له بعده والقضية فى الصحيح، وأما حديث لو كان الإيمان بالثرى لأدركه رجال من فارس يعنى الفرس كما يأتى عن زروق فهو خاص فى خاص ثم هو بيان لفضلهم لا لتفضيلهم.

والنصارى جمع نصران كالندامى جمع ندمان، ونصران صفة مشبهة كعطشان وسكران إلا أنه غير مستعمل، والمستعمل هو نصرانى بزيادة الياء التى للمبالغة، هذا إذا عبر به المفرد الواحد، وإذا أريد التعبير عن الأفراد المتعددة يقال نصارى، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه فى قرية اسمها نصران أو ناصرة فسموا باسمها، أو من اسمها وعلى هذا فالياء ياء نسبة لا زائدة للمبالغة، ثم هى نسبة للملة والدين المسيحى فكل آخذ به فهو نصرانى من أى فريق كان وفى أى بلد كان.

وكذا النسبة فى المجوسى فإنها دينية فكل آخذ بدين المجوس فهو مجوسى أيا كان، ولا كذلك الرومى والفرنجى وأشباههما، فإن النسبة فى ذلك طينية وبلدية لا دينية.

وقرية ناصرة هى بطبرية على ثلاثة عشر ميلا منها، وفى معجم ياقوت وكان فيها مولد عيسى عليه السلام، ومنها اشتق اسم النصارى، وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا يولد بها بكر إلى هذه الغاية، وأن لهم شجرة أترج^(١) على هيئة النساء وللأترجة ثديان وما يشبه اليدين والرجلين وموضع الفرج مفتوح، وأن أمر هذه القرية فى النساء والأترج مستفيض عندهم لا يدفعه دافع وأهل بيت المقدس يابون ذلك ويزعمون أن المسيح إنما وُلد فى بيت لحم، وإنما انتقلت به أمه إلى هذه

(١) الأترج: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، زكي الرائحة، حامض الماء. وهو كثير بأرض العرب، وتبقى ثمرته عليه جميع السنة.

القرية، قال ياقوت: فأما نص الإنجيل فإن فيه أن عيسى ولد فى بيت لحم، وخاف عليه يوسف من هاردوس ملك المجوس فأرى فى منامه أن احمله إلى مصر، فأقام بمصر إلى أن مات هاردوس فقدم به القدس، فأرى فى المنام أن انطلق به إلى الخليل، فأتاها فسكن مدينة تدعى ناصرة^(١).

كذا فى تاج العروس.

قلت: ما فى نص الإنجيل من أن عيسى عليه السلام ولد ببيت لحم به جاءت رواية شداد بن أوس رضى الله عنه فى حديث الإسراء والحديث خرجه الطبرانى والبخارى، وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى وصححه خلافا لإنكار ابن تيمية له وإن كان تابعا فى إنكاره لابن حبان وابن الجوزى فى موضوعاته، وقد وافق على ذلك الذهبى فى الميزان.

لكن كلام هؤلاء إنما هو فى إنكاره من رواية أبى هريرة ومع ذلك فقد قال الحافظ ابن حجر فى «لسان الميزان» إن الموضوع فى تلك الرواية شىء خاص وهو قوله ثم أتى بى إلى الصخرة فقال يا محمد، من هاهنا عرج بك إلى السماء وأما باقى الحديث فقد أتى من طرق أخرى منها الصلاة فى بيت لحم وردت فى حديث شداد بن أوس والله أعلم ثم هذا الذى نقله فى تاج العروس عن ياقوت عن الإنجيل هو فى إنجيل متى إلا أن الذى نقله عنه الشيخ عبد الله الأسلمى أحد أخبار النصارى الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وساقه بواسطته الزيانى فى رحلته هو أن الخائف على عيسى هى أمه مريم، وأنها هى التى أمرها ملك فى المنام بالخروج به لمصر قال وهذا الذى وقع فى إنجيل متى لم يقع فى بقية الأناجيل الأربعة. انظر تمامه فقد استدل بذلك مع غيره على أن متى ساق ذلك فى إنجيله تبعا لبعض الكذابين لا غير.

(١) الخبر بطوله لدى ياقوت - ٢٥١/٥.

فصل: قال فى الروض قيل: ولم تكن مكناسة فى القديم ممدنة وكانت حوائر^(١) كثيرة متفرقة^(٢) وهى تاورا وبنو عطوش، وبنو برنوس، وبنو شاوش، وبنو موسى، وهذه كلها على الضفة الغربية من وادى فلفل المذكور، إلا تاورا فإنها بصفتيه الغربية والشرقية، وغراساتها كلها منتظمة متصل بعضها ببعض لا فاصل بينها، قال: وفلفل يعرف الآن بأبى عمائر، وفيه يقول شيخ شيوخنا الأستاذ أبو عبد الله ابن جابر فى نزهة الناظر:

فلن ترى فى سائر العمائر مثل محاسن أبى العمائر

يمر النهر المذكور من قبلة إلى الجوف قريبا من سورها أصله والله أعلم من جبل فازاز. هـ من خطه ملفقا.

قلت: تاورا بفتح الواو والراء حسبما ضبط ذلك ابن غازى بخطه، ويعنى بكونها أى مكناسة ليست بممدنة أنها لم تكن مجتمعة الديار ولا عامة المنافع ولا منضمة الشمل بسور حافظ كما قدمه.

وإلى وادى أبى العمائر المذكور ينسب باب أبى العمائر من أبواب هذه المدينة، وإنما نسب إليه لقربه منه وعبور الداخل إليه والخارج منه من تلك الناحية عليه، والباب المذكور هو أحد أبواب المدينة وهو واقع فى شمال غربى مستقبل حمرية من باب ضريح الشريف أبى الحسن على بن محمد بن على دعى بمنون أحد رجال العلوم والمعارف المرجوع إليه بالعاصمة قديما المتوفى سنة أربع وخمسين وثمانمائة.

ومركز الباب المذكور الطبيعى هو فى مقابلة باب دار البارود المعدة لتصفية ملح، وهى إحدى آثار فخامة العاصمة قديما وهناك دار بارود أخرى كانت معدة

(١) حوائر: جمع لحائر، وهو المكان المظمن الوسط المرتفع الحروف، ومن ذلك سمو البستان بالحائر.

(٢) فى المطبوع: «مفرقة» والمثبت من الروض الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) الروض الهتون - ص ٤٥، ٥٣.

لصنعه وهى التى موقعها بالمحل بين الباب المحدث عنه وبين الباب الأخرى هناك للمدينة المسماة بباب المرس لوقوع المرس الإسماعيلى الهائل خارجها، وموقع هذا الباب الثانى بالناحية الشرقية ومنه الآن يقع النزول لعيون أبى العمائر وكلتا الدارين من فخامة العاصمة، وقد صارت الدار الثانية التى ينزل من بابها للعيون المذكورة محلا الآن للأشغال العمومية الدولية كما أضيفت الأولى فى العصر الحاضر للجنان العمومى المسمى موقعه فى القديم بالحبول المعد فيما سلف مربضا لبقر الأهالى المتجرين فى بيع اللبن الذى هو من أهم حاجيات تموين العاصمة.

ومن ضروريات مستشفياتها اختار الأقدمون من أهاليها مكان الحبول المذكور لاستقرار بقرهم لما فيه من الجمع بين منفعة القرب والتحصين بسور العاصمة وبابها ودفع مضرة عفوناتها باتصاله بالباب وانفصاله عن غالب المنازل، وحيث جعلت الدولة الحامية المربض المذكور بستانا عموميا وتفرقت جموع بقره بسبب ذلك داخل العاصمة، صارت الانتقادات الطبية تتوجه إلى أرباب ذلك البقر كل حين لاتصال مضرة عفوناته بالأهالى، وقد كان استقرار البقر بالحبول حاجزا عن ذلك الاتصال. وقاضيا على مضاره بالبعد والانفصال.

وباب أبى العمائر المذكور قد هدته الدولة الحامية عند حلولها بالعاصمة المكناسية ولم تبق له عينا ولا أثرًا، والقصد من ذلك إزالة الحاجز بين العاصمة القديمة والمدينة الجديدة الآتى ذكرها حتى لا تسد باب الأولى فى وجه الثانية، ويتيسر سير العربات والسيارات بين المدينتين بدون أدنى حرج ولإمكان المواصلة بينهما فى سائر الأوقات.

ومن هذا الباب يخرج قاصد غابة الزيتون المعروفة بحمرية المحدث بها تخطيط المدينة الجديدة وبخارجه على يمين الذهاب لفاس أو للمدينة الجديدة عيون متدفقة بالزلال العذب الفرات، كانت الدولة الحامية حصتها بالبناء وصانتها عما

كان معششا بها من القذرات، وحجرتها على خاصة الأهالي وعامتهم، وانتقتها لشربها ومن حصلت له رغبة من وجهاء الأهالي فى الورود من موردها المعين طلب الترخيص من لدن الحكومة الأجنبية، فتنافس رؤساء الأهالي وأعيانهم فى التحصيل على الترخيص فى السقى منها، وذلك بعد أن لم تكن لديهم تلك العيون شيئا مذكورا فى ماضى العصور بل كانت تعافها النفوس وتشمئز من الشرب منها القلوب، لأنها كانت محل غسل أوساخ الصوف والثياب الخلقة وأبوال الدواب والمواشى وأرواثها، ولكن النفوس ميالة ومجبولة على حب الجديد. ومحاكاة الطالع السعيد. وحريصة على الاتصال بما منه منعت، كما أنها حريصة على الانفصال عما إليه ألجئت. هذا والمحنكون وذوو المعرفة من قدماء الأهالي كانوا يحققون أن ماء تلك العيون هو وإن كان حسنا فهو أخط رتبة عما رشح له بالنسبة لغيره، ثم لما طال استيطان الفرنسيين بمكناسة أنتج البحث المدقق من عرفائهم أن أحسن ماء يوجد بالبلد خفة وصفاء وعذوبة هو ماء عين تاكما - بالكاف المعقودة- الكائنة شرقى المدينة على مسافة تنيف على أربعمائة متر تقريبا.

فحيثذ صرفت حامية مكناسة وجهتها عن ماء عيون أبى العمائر، وأباحث ورده لمن يريده من وارد وصادر، فضعفت رغبة الأهالي فى السقى من ذلك الماء بعد الحرص الشديد، ورجع لها بعض ما كان بها قبل من المستقذرات كغسل الأثواب الوسخة وأدخلت الدولة الحامية ماء عين تاكما للمدينة الجديدة وقصرته عليها واستغنت به عما سواه، ثم بعد كتيبي هذا أدخل ماء عين تاجما للمدينة الأهلية أيضا لمكناسة واتخذت له سقايات عمومية بأرقتها وأبيع إدخاله للدور لمن تعلقت له به رغبة بالشراء من الإدارة البلدية، وقد كان ماء هذه العين فى سالف الدهور مسوقا للمسجد الأعظم بالعاصمة فى ساقية وسط حائط حذو الوادى فى ناحية ضريح أبى زكرياء الصبان المعروف الآن بسيدى بوز كرى، إلى أن يجرى فى

باب الحفاة وغيره من المسجد المذكور فى الأخدود المعدلة إلى الآن هناك لتطهير أرجل الحفاة الداخلين للمسجد حفظا ونقاوة وإبعادا لأسباب الدنس عن المسجد لما انبنى عليه الدين الحنيفى من النظافة فى سائر وجهاته المقدسة المعضوض عليها بالنواجذ من رؤساء الملة الحنيفية قديما وخصوصا المؤسسين لمعابده، القائمين بتشيد محامده، ولكن لما كانت من سنة الله التى قد خلت فى بلاده وعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا إحالة الأحوال وصيرورة الكل إلى خبر كان، توفرت عوامل الإهمال، الموجبة للخراب والاضمحلال، حتى صار ذلك المجرى وما انبنى عليه نسيا منسيا، وأضيف ماء الساقية للوادی كما أضيف إليه ماء عيون أبى العمائر وغيرها مما هو بإزائه .

والوادی المذكور يسمى فى ماضى الزمان بفلفل وأبى العمائر، وفى حاضره بأسامى متعددة بحسب الأمكنة المار فيها، منها بوفكران، ومنها عين معروف، ومنها در دورة .

وقد تحقق لدينا أن أصل منبعه من الكهف الكائن بقبة جبل بُورَ كُو - بضم الباء وسكون الواو وبعدها وفتح الزاى وتشديد الكاف المعقودة مضمومة - الكائن هو أى الجبل بأقماشن من آيت بورزون فخذ من قبيلة بنى مطير، ويعرف الكهف المشار له بكهف الريح، سمى بذلك لشدة الرياح الصاعدة من جوفه، حتى إنه لا يكاد يمكن الإشراف على قعره ولا يكاد يمكن المشرف عليه أن يمسك نفسه معها عن السقوط فى هوته كذا قيل .

ويسفح هذا الجبل بالمحل المعروف بِمَزْعَتِوَال - بفتح الميم وتشديد الزاى المفتوحة وسكون العين المهملة وكسر التاء وفتح الواو المشبعة بعدها لام ساكنة - عيون، أصل معظمها وأكثرها ماء من الكهف المذكور بدون أدنى ريب يلحق فى ذلك سكان ذلك المحل، قالوا: لأنه مهما سقط بذلك الخرق شيء خرج فى بعض

تلك العيون، وذلك أقوى دليل وأصدق برهان على أن أصلها منه، وهذا المحل لا يعرف اليوم بينى فازاز ولا الجبل المذكور بالنسبة إليهم، أما فى غابر الأزمان وقد كان يطلق فازاز على تلك الجبال كلها حتى جبل آزرو الشهير المعروف، والمحل الذى يعرف اليوم بفازاز عند تلك القبائل البربرية بينه وبين الجبل الذى يخرج منه الماء المذكور مهامه فيحه تنيف على سبعين كيلو مترا.

ومعنى مزعتوال بلسان البربر منفر البقر سمي بذلك لوجود ضريح به إذا مر البقر أمامه نفر وشرذ على ما أخبرنى به غير واحد من الثقات سكان ذلك المحل، ومن أصول منبع بوفكران العظيمة عين معروف ويمتد خمسين كيلو مترا يبلغ منبعه فى اليوم أربعين ألف متر مكعبا على ما حققه بعض الفرنسيين

فصل: قال فى «الروض»^(١): إلا تاورا، فإنها بضفتيه الشرقية والغربية وغراسلتها كلها منتظمة متصل بعضها ببعض لا فاصل بينها، وتاورا أقرب الحوائر من المدينة من جهة باب البراذعيين ومن حوائرها أيضا بنو زياد وتقع غربا من الحوائر المذكورة وليست على الوادى المذكور، لكن لها جدول من نوع ساقية طويلة المسافة صعبة المجرى.

قال: وبينى زياد أيضا عيون يسقون منها بعض أملاكهم، ويسقون بعضها بالساقية المخرجة من وادى فلفل المذكور، وبعضها بعل وكان العنب البعلى بها فى غاية الطيب بموضع هنالك يقال له المتروثى إليه ينسب العنب المتروثى هنالك، قال الأستاذ أبو عبد الله بن جابر فى «نزهة الناظر» بعد ما ذكر أصناف العنب التى بمكناسة:

لكننى أقول دون سـوء ما فاق الأعناب سوى المتروثى

وهو عنب أبيض شديد الحلاوة ولا سيما الأنثى منه، ويذكر أنه من قوته لا يستحيل خمرا إلا عند اعتدال الزمان، ومن غلوهم فيه أنهم يقولون إنه يستصبح

(١) الروض الهتون - ص ٥٣ وما بعدها.

بخميره، وهنالك قرية كان يقال لها قرية الأندلس كانت^(١) من عمل بنى زياد سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون وتناسلوا بها وأقاموا دهرًا لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد^(٢) فإنه تغير لسانه وكانت لهم بالقرية المذكورة كرمات بعل فى أرض رملة حمراء كذا قيل، وهذه القرية والله تعالى أعلم هى المسماة فى هذه الأعصر تلاجدوت، وبها جرى المثل السائر «دار الكرامة يا تلاجدوت» ومنها كان الشيخ أبو الحسن علي بن يوسف التلاجدوتى المدعو بسيدى علي بن يشو، وهو من شيوخ شيخنا الفقيه الحافظ سيدى أبى عبد الله محمد القورى، والخطيب البليغ المصقع سيدى أبى العباس أحمد بن سعيد الحباك الغفجميسى وكلامهم اليوم برطانة البربر المفرطة فى العجمة من خطه.

قلت: أما الساقية الصعبة المجرى فلم يبق لها أثر لهذا العهد، وأما قرية الأندلس المسماة تلاجدوت فلم يبق لها أيضا أثر ولا خبر، وكون مسمى تلاجدوت هو قرية الأندلس يخالفه ما فى كتاب الاستبصار، بعجائب الأمصار، المؤلف سنة سبع وثمانين زخمسمائة، فإن فيه أن من مدن مكناسة الأربعة تلاجدوت^(٣) وتفسيره المحلة، قال: وهو محدث البناء، وهو مشرف على بطاح وبقاع مملوءة بياضا^(٤) كثير الثمار، وأكثرها الزيتون فسميت به، وهذه المدينة عليها سور كبير وأبراج عظيمة، وهى مدينة حفيلة. هـ.

وهذا الذى وصفها به لا ينطبق إلا على تآكرات المدينة الآن، فعليه لها اسمان كل منهما فسر بالمحلة فالله أعلم.

وأما الشيخ أبو الحسن التلاجدوتى والقورى والحباك فستأتى تراجعهم فى محالها بحول الله فترقب.

(١) فى المطبوع: «كانها» والمثبت من الروض الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) فى المطبوع: «البلاد» والمثبت من الروض الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) فى الاستبصار الذى ينقل عنه المصنف «تآكرات» وقد أشار المصنف فيما بعد إلى الاسم الوارد فى الاستبصار. وقال: فعليه لها اسمان كل منهما فسر بالمحلة.

(٤) فى الاستبصار: «مملوءة بفيضات» وفى نسخة أخرى منه بالهامش «بيضات».

فصل: قال في «الروض» وكانت حارة تاورا التي هي أقرب الحوائر إلى المدينة الآن يشقها وادي فلفل ديارها على ضفتيه شرقا وغربا، والغراسات بها وبسائر الحوائر متصلة بالديار، ويتاورا أرحاء كثيرة كان أكثرها يحتوي على أربعة أحجار، وكان من جملتها بيت واحد للزغابشة يحتوي على خمسة أحجار، وكان فيها حمامان اثنان، أحدهما منسوب للزغابشة والثاني للمختص يعرف بحمام أبي الخيار بإزائه عين كبيرة تنسب كذلك لأبي الخيار، ماؤها عذب معين صاف تُسقى به طائفة كبيرة من أملاك تاورا، ومن أملاك من تحتها، وكانت حارة تاورا تنقسم أقساما: قسم يقال له: بنو عيسى ديارهم بالضفة الغربية من الوادي يذكر أنهم أصل بني زغبوش، لكن لا تعلم صحة ذلك، غير أنهم كانوا يجدون في بعض العقود القديمة نسبتهم إلى عيسى بلفظ فلان بن فلان العيسوي، ويستدلون بذلك على أن بني زغبوش من بني عيسى، والله تعالى أعلم^(١).

وقسم بالضفة المذكورة قبله من بني عيسى يقال له بنو يونس ويسمى أيضا هذا القسم تاورا الفوقية، وبهذا القسم كان المسجد الجامع، وبين هذين القسمين موضع عال جدا يعرف بالجهنمية، وقسم بالضفة المذكورة يقال له: فاس الصغيرة، كأنها سميت بذلك لاختراق الماء خلالها كمدينة فاس، وبالضفة الشرقية من الوادي قسم يقال له الجنان الصغير، وقسم يسمى بني أبي نواس، وقسم يسمى حارة بني زغبوش، وحارة الزغابشة، وثم كانت ديار بني محمد بن حماد وغيرهم، وكان ببني زياد حمام وببني مروان حمام يعمران، وكان ببني موسى حمام تعطل قبلهما والله تعالى أعلم. من خطه^(٢).

قلت: أما الحارة فكل محلة دنت منازلها كما في «القاموس»^(٣) وهو معنى قول «المصباح» الحارة المحلة تتصل منازلها، والجمع حارات.

وأما حوائر المعبر به في «الروض» فهو جمع لحائر وهو كما في شرح «القاموس» عن أبي حنيفة المكان الطمئن الوسط المرتفع الحروف، ومن ذلك سموا البستان^(٤) بالحائر. هـ.

(١) الروض الهتون - ص ٥٧.

(٢) الروض الهتون - ص ٥٨.

(٣) القاموس (ح ي ر).

(٤) القاموس (ح ي ر) وانظر لذلك أيضًا: المعجم الوسيط.

وهو منطبق تمام الانطباق على موقع تاورا الطبيعي، فإنها مطمئنة الوسط مرتفعة الجوانب من جهاتها الأربع كالحياض، بسبب لوسطها مسيل ماء الأمطار ضرورة كانت ذات بساتين متعددة تتصل كل دار بيستان كحالة دور سكان الأروى الإسماعيلي ونواحيه فى عصرنا الحاضر.

وحارة تاورا المذكورة وما عطف عليها هي الكائنة شرقا عن يمين الذهاب لزرهون الخارج من باب البراذعيين والحوائر الأخرى عن يساره غربا.

وأما الخارج من باب ترمي الصغيرة أحد أبواب المدينة اليوم وقيدنا بالصغيرة احترازا عن ترمي الكبيرة القصبة الشهيرة الكثيرة السكان الكائنة داخل باب البراذعيين المحدث فيها اليوم الباب الذي أعد لدخول البقر عند إيايه من المسارح فتبقى الحوائر التاورية وما عطف عليها عن يساره.

وجميع تلك الحوائر لا يعرف اليوم إلا بتاورا، إلا حارة بني موسى فلإنها لازالت معروفة باسمها القديم والطريق المارة لزرهون فاصلة بين حوائر تاورا وحوائر بني موسى، وغراسات تلك الحوائر والبساتين الزيتون والتفاح وأنواع الإجاص^(١) والسفرجل^(٢) والرومان والخوخ وأنواع كثيرة من التين لا تكاد توجد في غيرها والمشمش والبرقوق والعنب والتوت الشهي، والليم^(٣).

وقد عفت تلك الحوائر ودرست الأطلال والرسوم، ولم يبق لهذا العهد بالمدينة لنسل سكان تلك الحوائر أثر غير بني حموش المعروفين في الزمن الحاضر بالحمامشة، فإنه لا زال البعض موجودا أعرف واحدا منهم يتعاطي خطة العدالة.

(١) الإجاص: شجر من الفصيلة الوردية، ثمره حلو لذيد، يطلق في سورية وفلسطين وسيناء على الكمثرى وشجرها، وكان يطلق في مصر على البرقوق وشجره.

(٢) السفرجل: شجر مثمر من الفصيلة الوردية.

(٣) الليم: الليمون.

وغير زغبوش المدعوين اليوم بالزغابشة فإن بقية نسلهم موجود بالمدينة اليوم على قلة وما لغيرهما من باقي تلك الشعب والقبائل من بقية فالبقاء لله وحده وكل شيء هالك إلا وجهه، وسنأتي بعد إن شاء الله تعالى على بيان وقت تخريب هذه الحوائر ورجوع العمارة إليها ثم انقطاعها عنها بالكلية.

ومن الحوائر والبساتين الشهيرة في هذه الأعصر بضفتي تاورا: البستان المعروف بعروسة النصراني ولم أدر ما وجه هذه الإضافة وابن شمالك وابن العلام والقادرية وخواش والنجار والحارة وبوخيار ولا زال جل ما ذكر يسقى من وادي أبي العمائر، وبعضها يسقى من عين أبي الخيار المارة الذكر، ولا زال ماؤها العذب المعين يتدفق، وهي إحدى المواضع التي أعدت لغسل الصوف والثياب بعد منع ذلك وإزالته من عيون أبي العمائر السالفة الذكر، كما يسقى أيضا بعض الحوائر المشار لها بماء عيني الغولة وعروسة النصراني وأيس بالكثير ماؤهما ولا يوجد بتاورا اليوم من العيون غير ما ذكر.

ومن أشهر حوائر بني موسى في العصر الحاضر: جنان العريفة ومولاي زيان والظاهر، وبهذه البساتين عيون منهمرة بالعذب الزلال مبنية عليها الصهاريج المهمة تسقي منها غراساتها كما تسقي كغيرها من الساقية المعروفة بقشمارة - بفتح القاف وسكون الشين المعجمة وفتح الميم المشبعة وتشديد الراء مفتوحة بعدها هاء وماء هذه الساقية يخرج من ماء أودية المدينة المضاف ويسقي أيضا بعض تلك الأجنة بماء عيون حربل - بفتح الحاء المهملة وسكون الراء - النابعة أسفل قصبة تولال خارج باب سيدي سعيد أحد أبواب المدينة كما سيمر بك بحول الله.

تنبيه: قد سبق ابن غازي إلى وصف هذه الحوائر الإدريسي في «نزهة المشتاق» فقال: مكناسة مدائن عدة وهي في طريق سلا ومدينة مكناسة هي المسماة

تأقررت^(١) وهي الآن باقية على حالها لم يدركها كبير تغيير، وهي مدينة حسنة مرتفعة على الأرض يجري في^(٢) شرقيها نهر صغير له أرحاء وتتصل بها عمارات وجنات وزروع، وأرضها طيبة، ولها مكاسب وأموال طائلة، ومكناسة سميت باسم مكناس البربري لما نزلها مع بنيه عند حلولهم المغرب، وأقطع^(٣) لكل ابن من بنيه بقعة يعمرها مع ولده، وكل هذه المواضع التي أحلهم بها تتقارب وتتجاوز أمكتتها، وبلاد مكناسة منها التي تعرف ببني زياد وهي مدينة عامرة لها أسواق عامرة وحمامات وديار حسنة والمياه تخرق أزقتها، ولم يكن في أيام الملثم بعد تأقررت أعمر قطرا من بني زياد، وبينهما نحو من ربع ميل، ومنها إلى بني تاورا وتأقررت نحو ذلك وكانت مدينة تاورا^(٤) متحضرة جامعة غامرة وأسواقها كثيرة والصناعات بها نافقة، والنعم والفواكه لا تقضى بها حاجة - أي لكثرتها ورخصتها - والماء يأتيها من جنوبها من نهر كبير فينقسم في أعلاها ويمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها وشوارعها وأكثر دورها^(٥).

وبين تاورا وبني زياد مدينتان صغيرتان إحداهما القصر وهي مدينة صغيرة في الطريق من تأقررت إلى السوق القديمة على رميتي سهم، وهذه المدينة بناها أمير من أمراء الملثمين وجعل لها سورا حصينا وبني بها قصرا حصينا ولم تكن بها أسواق كثيرة، ولا طائل تجارات، وإنما كان ذلك الأمير يسكنها مع جلة بني عمه والمدينة الأخرى في شرقي هذه تعرف ببني عطوش، وهي ديار متصلة وعمارات في بساتين لهم هناك، ولهم أشجار وغللات وزيتون كثير وشجر تين وأعناب وفواكه جمّة وكل ذلك بها رخيص^(٦).

(١) في المطبوع: «تأكررات» والمثبت في نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤، التي ينقل عنها المصنف.

(٢) في المطبوع: «على» والمثبت رواية نزهة المشتاق.

(٣) في المطبوع: «واقطع» والمثبت رواية نزهة المشتاق.

(٤) في نزهة المشتاق: «تاورة».

(٥) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٦) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.

وأسفل هذه المنازل على مجرى الماء الذي يأتي من بني عطوش قبيلة بني
برنوس من مكناسة، وهي في منازل وديار ومزارع وكروم وعمارات وزيتون كثير
وفواكه تباع بالثمن اليسير، وفي شمال قصر أبي موسى سوق يقصد إليها في كل
يوم خميس يجتمع إليه جميع قبائل بني مكناس وتسمى السوق القديمة، ومن قبائل
بني مكناس المجاورة لهذه البلاد بنو سعيد وبنو موسى ويسكنها من غير قبائل
مكناسة، بنو يسيل، ومغيلة، وبنو مصمود، وبنو على، وورياعل، ودمرو،
وأوربة^(١)، وسبغاوة^(٢).

فقوله مدائن عدة قد سمى منها بعد تاقمرت وبني زياد وتاورا والقصر أي
المعنون عنه سابقا بالحصن وبني عطوش، وقد بين تقارب بعضها من بعض بأن بين
واحدة والأخرى نحو ربع ميل، وبعد أن وصف بني زياد وتاورا بذلك بين أن
مدينتي الحصن وبني عطوش واقعتان بينهما، فيكون تباعد هذين المدينتين فيما
بينهما وفيما بين ما هما واقعتان بينه أقل من ذلك بكثير، وأنت تراه قد وصف
العامر والغامر من هذه المدن ولم يعد منها مدينة وكيلي، مع كونها لو كانت من
مكناسة عنده لكانت أولى بالتوصيف من جميع ما ذكر لما تقدم من قدمها، وأنها
مدينة أزلية، وأنها حاضرة البلاد، فدل ذلك على أنه لا يراها منها ولا أن موقعها
من بلاد مكناسة.

وقوله وهي في طريق سلا، يعني للقاصد لها من فاس وأحوازه، وقد صرح
في كلامه الذي اختصرنا ذكره بأن بين فاس ومكناسة أربعين ميلا، وكل ذلك منه

(١) في نزهة المشتاق: «دمر وواربة». وأوربة: قبيلة شهيرة من البربر البرانس، كانت في
القديم تشتمل على بطون وعمائر كثيرة، مثل: جاية، ونفاسة، وزهكوجة، ومزيانة،
ورغوية، ودقيوسة. وقد عظمت تلك البطون فيما بعد حتى صارت في عداد القبائل.
كانت مواطن هذه القبيلة عند دخول الإسلام إلى المغرب بجبل زرهون وما جاوره، وكان
أميرها يدعى سكرديد بن زوغى، ولى عليهم مدة ٧٣ سنة، وأدرك الفتح الإسلامى، ولما
مات سنة ٧١ بقيت زعامة البربر في هذه القبيلة حتى دخل لإدريس الأول المغرب، فتنازل
له إسحاق بن محمد الأوربي عن الإمارة وقام بنصرته، وبعد ذلك اندمجت وربة في
عداد القبائل البربرية واندثر اسمها، ونسب أهلها إلى الجبل الذى يسكنون به (زرهونى -
الزراهنه) ولم يبق يحمل اسمها إلا بطن تحول إلى ناحية تازة واندمج في قبيلة البرانس
(وربة) ولكن بقى ما يذكر بها كأولاد الوريى، وحومة الورية بفاس.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.

تعيين لموقع مكناسة بالجهة والمسافة، حتى يعلم أن ما بعد عن طريق سلا وعن المسافة المذكورة ليس من مكناسة، وقد تضمن وصفه لبعد ما بين مدنها الإشارة لقدر مساحته أيضا حتى لا يقع في وهم أحد اشتباه شمول موقعها بموقع غيرها مما خرج عنها.

وقوله: ومدينة مكناسة يعني أعظم مدنها عمارة وحضارة كما يوخد من قوله ولم يكن في أيام الملثم بعد تاقرت... إلى آخره، أو مراده المدينة القائمة المعروفة بذلك في وقته.

وقوله: الآن، يشير به لتاريخ تأليفه لكتابه المنقول منه، وذلك أواسط القرن السادس من الهجرة كما بينه ابن خلدون في مقدمته وغيره.

وقوله سميت باسم مكناس البربري لما نزلها مع بني^(١)... إلخ، صريح في أن جد القبيلة نفسه نزل بها، فيستفاد من ذلك وجه كونها تسمى تارة مكناس، وتارة مكناسة، وهو أن الأول ملحوظ فيه اسم أكبر الحالين بها، وهو جد القبيلة، والثاني ملحوظ فيه اسم القبيلة.

وقوله ولم يكن في أيام الملثم^(٢)... إلخ، الذي ينصرف إليه هذا الوصف عند الإطلاق هو يوسف بن تاشفين فرد تلك الدولة الكامل أعظم أمراء المرابطين، وإنما قيل له الملثم لكونه كان يستعمل اللثام في وجهه على عادة قومه، وعلى ذلك جرى أمراء بنيه وقومه من بعده، وأيامه كانت في النصف الأخير من القرن الخامس كما علم من تاريخ وفاته الذي قدمناه، وحيث يكون هذا مقتضيا لكون تاقرت كانت موجودة زمن يوسف بن تاشفين، وذلك موافق لما قدمناه عن ياقوت الحموي من أن يوسف هو المختط لمكناس الحادثة أي تاقرت، ولكن قدمنا تصريح ابن غازي من أئمة مكناسة بأن تاقرت إنما اختطت بعد ظهور الموحدين، وذلك إنما كان بعد موت يوسف بسنين، وعليه فيحمل الملثم في عبارته على من اختطت تاقرت في أيامه من أمراء بنيه.

(١) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٤.

وقوله: أعمر قطرا من بني زياد، قد قدم أن بني زياد مدينة محصورة، وذلك يدل على أن مراده بقطرها موقعها ومساحتها لا غير.

وقوله: في الطريق من تاقرت إلى السوق القديمة على رمي سهم^(١)... إلخ، يعني أن مدينة القصر التي هي حصن عامل مكناسة واقعة في طريق السوق القديم، وبينهما وبين تاقرت القدر المذكور وهو رميتا سهم بالثنية.

وقد تحصل من كلامه هذا وما ذكره قبله أن موقع هذا الحصن يعتبر بين كل من تاورا وبني زياد ومن تاقرت والسوق القديم.

وقوله وفي شمال قصر أبي موسى إلى قوله السوق القديمة كذا هو في نسختين اثنتين من نزهة المشتاق قصر بالصاد المهملة وأبي موسى بلفظ الكنية ولا أتتحقق الآن المراد بهما، وقد تقدم البحث عن موقع السوق القديمة فارجع إليه.

وقوله ومن قبائل بني مكناسة المجاورة لهذه البلاد^(٢) إلى قوله وأوربة^(٣)... إلخ صريح في أن هؤلاء خارجون عن موقع مكناسة وإن جاورها، وفي أن من جملتهم أوربة الذين هم أهل زرهون كما تقدم، والله أعلم وأحكم.

فصل قال في الروض: وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار، وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين بلاد المغرب وأحمد^(٤) الله تعالى بسيوفهم نار الفتنة البربرية فانقطعت مطامع رءوس النفاق من بربر المغرب^(٥). من خطه.

قلت: قال بعضهم يشير والله أعلم إلى فتنة جور مغرواة في دولتهم عند اشغالهم بنهب أموال الرعية والفسق وتزويق الأعراض وما لا يحل سماعه.

(١) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٢٤٥.

(٣) في نزهة المشتاق: «وابة».

(٤) في الروض الهتون: «وأحمد».

(٥) الروض الهتون - ص ٥٨.

والبربر: اختلف فيهم اختلافا كثيرا فقليل إنهم من ولد فارق بن بيص بن حام، والبربر يزعمون أنهم من ولد إفريقش بن صيفى الحميري، وزناته منهم تزعم أنهم من لحم، والأصح عند أهل التحقيق أنهم من ولد كنعان، وأنه لما قتل ملكهم جالوت الفلسطيني وتفرقت بنو كنعان قصدت منهم طائفة بلاد المغرب وسكنوا تلك البلاد وهم البربر.

وقبائل البربر كثيرة جدا، منهم كتامة وبلادهم بالجبال من المغرب الأوسط وكتامة هم الذين أقاموا دولة الفاطميين مع أبي عبد الله الشيعي، ومنهم صنهاجة ومن صنهاجة ملوك إفريقية بنو بلكين بن زيري، ومن قبائل البربر زناته وكان منهم ملوك فاس وتلمسان وسجلماسة ولهم الفروسية والشجاعة المشهورة، ومن البربر المصامدة وسكناهم في جبال درن، وهم الذين قاموا بنصر المهدي بن تومرت وبهم ملك عبد المؤمن وبنوه بلاد المغرب وانفرد من المصامدة قبيلة هنتاته - بنون فتاه ثم تاه بعد الألف فهاء السكت - وملك منهم إفريقية والمغرب الأوسط أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، ثم خطب لولده أبي عبد الله محمد بن يحيى بالخلافة واستمر الحال على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، ومن قبائل البربر المشهورة برغواطة ومنازلهم في تامسنا على البحر المحيط، وقيل إن برغواطة منسوبون إلى برغاطي وهو صالح بن طريف اليهودي نسب إلى الموضع الذي نشأ به وهو برغاطة موضع بفحص شريش من بلاد الأندلس، فعربت العرب هذا الاسم، وقالوا برغواط، وقد كانت هذه الفرقة على غير الإسلام وفيهم من تنبأ كذبا وزورا وقد قطع الله دابرهم فلم تبق لهم من باقية.

والبربر مثل العرب في سكنى الصحاري ولهم لسان غير العرب قال ابن سعيد: ولغاتهم ترجع إلى أصول متحدة وتختلف فروعها حتى لا تفهم إلا بترجمان كذا في تاريخ أبي الفداء مع زيادة من غيره.

ودرن بالتحريك جبل عظيم من جبال البربر بالمغرب فيه عدة قبائل وبلدان وقرى، وهو المعروف في كتب المسالك والجغرافيا بالأطلس، ويعرف في كل محل باسم فيعرف في بلاد المصامدة بالكلاوي وهو المطل على مراکش ويعرف بداخلية بلاد البربر بجبل العياشي.

قال ابن سعيد: وهو جبل شاهق مشهور لا يزال عليه الثلج أوله عند البحر المحيط الغربي في المغرب وآخره في جهة الشرق على ثلاثة مراحل من إسكندرية من الديار المصرية ويسمى طرفه الشرق المذكور رأس أوتان فكون امتداده نحو خمسين درجة.

قال ابن خلدون ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالفهم ثم قال: إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراکش وأغمات وتادلا، وعلى البحر المحيط منها بلاد آسفى ومدينة سلا، وفي الجوف عن بلاد مراکش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها، وعلى ساحل البحر المحيط بلدان أصيلا والعرائش، وقد سميت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان. وسيأتي عن ابن سعيد وغيره ما يخالف ما قاله ابن خلدون هنا في تفسير المغرب الأقصى، وفي القاموس وشرحه والبربر جيل من الناس لا تكاد قبائله تنحصر.

قال أبو عبد الله الحميري المتوفى سنة تسعمائة في الروض المعطار في أخبار الأقطار: إنهم والحبشة من ولد حام وقيل إنهم من بقية نسل يوشع بن نون من العماليق الحميرية وهم رهط السميدع وأنه سمع لفظهم فقال ما أكثر بربرتكم وقيل غير ذلك الجمع البرابرة زادوا الهاء فيه إما للعجمة وإما للنسب وهو الصحيح.

قال الجوهري: وإن شئت حذفته، وهم أي أكثر قبائلهم بالمغرب في الجبال من سرس وغيرها متفرقة في أطرافها وهم زناتة وهوارة، وصنهاجة، ونفزة، وكتامة، ولواته، ومديونه، وشباته، وكانوا كلهم بفلسطين مع جالوت فلما قتل تفرقوا كذا في الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر.

وقال البلاذري: حدثني بكر بن الهيثم، قال: سألت عبد الله بن صالح عن البربر فقال: هم يزعمون أنهم من ولد قيس بن عيلان وما جعل الله لقيس من ولد اسمه بر.

وقال أبو المنذر: هم من ولد فاران بن عمليق بن يلمع بن عابر بن شليخ بن لوذ بن سام بن نوح، والأكثر الأشهر أنهم من بقية قوم جالوت وكانت منازلهم فلسطين، فلما قتل جالوت تفرقوا إلى المغرب، أو هم بطنان من حمير صنهاجة وكتامة صاروا إلى البربر أيام فتح والدهم إفريقش الملك بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر، كانوا معه لما قدم المغرب وبني إفريقية، فلما رجع إلى بلاده تخلفوا عنه عمالا له على تلك البلاد فتقووا إلى الآن وتناسلوا، انتهى.

وما أنكره عبد الله بن صالح في نسب البربر هو الذي اقتصر عليه ابن أبي زرع في أنيسة في خصوص زناتة ومنهم بنو مرين، وبين في رفع نسبهم لقيس أن جالوت من حملة أجدادهم، وعلى مثل ذلك اقتصر أيضا ابن الخطيب في الحلل الموشية لكن قال ابن خلدون: إدخال جالوت في نسب البربر خطأ والحق أن جالوت من بني فلسطين أحد شعوب حام وهم إخوة القبط والبربر والحبشة والنوبة كما ذكرنا في نسب أبناء حام، وقد دثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبهما لهذا العهد ولم يبق إلا البربر، واختص اسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم.

والتحقيق الذي لا ينبغي التعويل على غيره أن البربر من ولد كنعان انظر أوائل الجزء السابع من تاريخه فقط بسط فيه رد ما يخالف ذلك معتمدا على ما

حرره إماما الفن حافظا الاندلس أبو محمد ابن حزم وأبو عمر ابن عبد البر قاتلا
فهم ولد كنعان بن حام بن نوح واسم أبيهم مازيغ، انتهى.

وقد جزم الحافظ ابن حجر في الفتح بأن بني مزين من البربر.

ومما يستملح إيراده هنا في مناسبة ذكر هذا الاسم أعنى اسم أبيهم ما ساقه
في الاستقصا من كتاب الجمان إذ قال: لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله
عنه واستفتحت مدينة مصر وكان عليها عمرو بن العاص، قدم عليه ستة نفر من
البربر محلقيين الرؤوس واللحي، فقال لهم عمرو ما أنتم وما الذي جاء بكم؟
قالوا: رغبتنا في الإسلام فجئنا له لأن جدودنا قد أوصونا بذلك، فوجههم عمرو
إلى عمر رضي الله عنهما وكتب إليه بخبرهم، فلما قدموا عليه وهم لا يعرفون
لسان العرب كلمهم الترجمان على لسان عمر، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن
بنو مازيغ، فقال عمر جلسائهم: هل سمعتم قط بهؤلاء؟ فقال شيخ من قريش: يا
أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر بن قيس بن عيلان، خرج مغاضبا لأبيه
وإخواته فقالوا بربر أي أخذ البرية، فقال لهم عمر رضي الله عنه: ما علامتكم في
بلادكم؟ قالوا نكرم الخيل ونهين النساء، فقال لهم عمر: ألكم مدائن؟ قالوا: لا،
قال: ألكم أعلام تهتدون بها؟ قالوا: لا، قال عمر: والله لقد كنت مع رسول الله
ﷺ في بعض غزواته فنظرت إلى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله ﷺ: يا
عمر لا تحزن فإن الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا
حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطرق، ثم قال عمر: فالحمد لله
الذي منّ علي برؤيتهم ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش
القادمة عليه، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يحملهم على مقدمة المسلمين وكانوا
من أفخاذ شتى^(١)، انتهى.

قلت: وهذه الحكاية غريبة جدا فهي في عهدة صاحب الجمان، في أخبار
الزمان، وهو العلامة المؤرخ الأجل المشهور بالشُّطْبِيّ.

(١) الاستقصا ١/ ١٣٠.

وقد استفيد مما تقدم أن أكثر سكان المغرب من قبائل البربر، وعليه فلا ريب أنهم ممن ينسحب عليه ذيل القوم الذين وجدهم ذو القرنين عند مغرب الشمس الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في محكم ذكره لكل ما يعاملون به من الخير وضده كما قال جلت قدرته: ﴿فَاتَّبَعَ سَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ۖ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾ [سورة الكهف آية ٨٥، ٨٦].

قال الشيخ زروق في القواعد: لكل بلاد ما يغلب عليها من الحق والباطل، فإذا أردت أن تعرف صالح بلد أي أن تقف على الحقيقة فيما ينسب إليه من الخير والدين فانظر لباطل أهلها، أي الذي غلب على أهلها من الأوصاف المذمومة شرعا هل هو بريء منه أو لا؟ فإن كان بريئا منه فهو ذاك، أي فهو صالح كما يقال عنه، وإلا بأن كان غير سالم من تلك الأوصاف الرذيلة القبيحة في عين الشرع فلا عبرة به، أي لأن مشاركته لهم في باطلهم هي عنوان مساواته لهم في ضلالهم، فلم يتميز حينئذ عنهم بصلاح حال ولا بزكي من الأفعال، فمن أين يكون صالحا فيهم، وبحسب هذا فاعتبر في أهل المغرب الأقصى من الأوصاف المحمودة شرعا السخاء وحسن الخلق، أي لأن الباطل الغالب على أهله هو الشح وسوء الخلق، فإن وجدته أي فيمن ينسب لصالح منهم فاعلم أنه كما يقولون، وإلا فدع أي لكونه من جملة أهل ذلك الباطل الذين تطلب أنت ضدهم، وفي أهل الأندلس كذلك، وفي أهل المشرق الغيرة لله وسلامة الصدر، لأن الباطل الذي غلب عليهم هو الأضغان والأحقاد وعدم الغيرة الدينية إلى غير ذلك، وقد أشار رسول الله ﷺ لهذا الأصل أي ما غلب على أهل البلاد من خير أو شر فذكر أوصاف البلاد وعوارضها كقوله في المشرق: الفتنة ها هنا. وكذا نجد، وفي الفرس: لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس، وفي أهل اليمن: إنهم ذوو أفتدة. وفي أهل المدينة: إنهم خير الناس مع ما وصفهم الله به من قوله: يحبون من هاجر إليهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: السكينة والوقار في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في أهل الخيل، والغلظة والجفاء في الفدادين، تبع أذنان الإبل والبقر.

وقال عمر رضي الله عنه في إفريقية: بلاد مكر وخديعة.

وقال مولانا جلت قدرته لذي القرنين في أهل المغرب الأقصى ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فدل على استحقاقهم لكل ما يعاملون به من خير أو شر وأنهم لذلك أهل والله أعلم، انتهى. من القواعد بزيادة شرح وإيضاح.

ولا ريب أن البربر من أهل الغنم والخيول، وأنهم من تباع أذنان الإبل والبقر كما هو مشاهد، وعليه فقد توفرت فيهم دواعي الخير والشر كما علم مما تقدم.

ثم إن أشار إليه الشيخ زورق من حمل الآية على التخيير عليه اقتصر أكثر المفسرين. ومنهم من حمل (إِمَّا) فيها على التنويع والتقسيم، ثم الذاهبون إلى الأول اختلفوا في تصويره - وفي طريق تحريره - ففي أبي السعود إما أن تعذب بالقتل من أول الأمر وإما أن تتخذ فيهم حسنا بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع. ثم قال وخير بين القتل والأسر والجواب من باب أسلوب الحكيم، لأن الظاهر التخيير بينهما وهم كفار، ثم قال: ويجوز بأن تكون (إِمَّا)، (وإِمَّا) للتنويع دون التخيير أي وليكن شأنك إما التعذيب وإما الإحسان فالأول لمن بقي على حاله والثاني لمن تاب، انتهى.

وفي الخازن إما أن تعذب بقتل من لم يدخل في الإسلام، وإما أن تتخذ فيهم حسنا، يعني تعفو وتصفح، وقيل: تأسرهم فتعلمهم الهدى خيره الله بين الأمرين، انتهى.

وفي النسفي خير بين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على أمرهم، وإما أن تتخذ فيهم حسنا بإكرامهم وتعليم الشرائع إن آمنوا والتعذيب القتل، واتخاذ الحسنى الأسر، انتهى.

وفي النيسابوري: خيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يتخذ فيهم حسنا وهو تركهم أحياء فاختار الدعوة والاجتهاد، انتهى.

وفي روح البيان أنت مخير في أمرهم بالدعوة إلى الإسلام، إما تعذيبك بالقتل أن أبوا وإما إحسانك بالعفو والأسر، وسماهما إحسانا في مقابلة القتل ويجوز أن يكون إما وإما للتنويع إلى آخر ما سبق عن أبي السعود، انتهى.

وفي البيضاوي فخبّره الله بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكى بقوله قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب - أي بالقتل على كفرهم، وإما أن تتخذ فيهم حسنا - بالإرشاد وتعليم الشرائع.

وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحسانا في مقابلة القتل ويؤيد الأول قوله: (أما من ظلم) إلى (نكرا) أي فاختار الدعوة وقال أما من دعوته فظلم نفسه بالأسرار. ثم قال: ويجوز أن تكون (إما)، (وإما) للتقسيم دون التخيير، انتهى.

وفي البحر، وقوله: إما أن تعذب بالقتل على الكفر، وإما أن تتخذ فيهم حسنا بالحمل على الإيمان والهدى إما أن يكفروا فتعذب وإما أن يؤمنوا فتحسن فعبر في التخيير بالسبب عن السبب.

قال الطبري: إيجاب الحسنى هو أسرهم مع كفرهم، يعني أنه خيره مع كفرهم بين قتلهم وبين أسرهم وتفصيل ذي القرنين أما من ظلم... إلخ يدفع هذا القول، انتهى.

وفي ابن جرير يقول: إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله ويدعونا لذلك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم، وإما أن تتخذ فيهم حسنا، يقول: وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد، انتهى.

وفي الفخر: خير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على كفرهم، وبين المن والعفو عنهم، وهذا التخيير على معني الاجتهاد في أصلح الأمرين، كما خير عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم.

وقال الأكثرون هذا التعذيب هو القتل وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء .

قلت : والتخيير في الآية في أهل المغرب الأقصى على أحد القولين بين التعذيب والإحسان اللذين شرحتهما التفاسير سابقا هو بالنظر لحالهم الكفري وقتئذ أما من صار منهم بعد مسلما فليس إلا الإحسان في حقه باحترام نفسه وماله كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث الصحيح ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها الحديث .

وأما ما يتبادر من قول زورق سابقا ، فدل على استحقاقهم لكل ما يعاملون به من خير أو شر وإنهم لذلك ، انتهى . من كونهم يستحقون ذلك حتى في زمنه الذي هم فيه على الإسلام فيتعين أن يكون محلله ما يستحقونه بالذنوب التي يرتكبونها وقتئذ وإلا فالإسلام عاصم للدم والمال قطعا كما رأيت نص صاحب الشرع عليه فلا تغتر بالظواهر المقطوع بتعطيلها وعدم الوقوف معها ، على أن الآية إنما هي خبر عما قيل لذي القرنين في قوم معينين فلا مساس لها بما فهمه الشيخ زورق .

وقد أشار في «صبح الأعشى» تبعا لابن سعيد إلى ما أوما إليه الشيخ زورق من كون أهل المغرب الأقصى بعد كون الإسلام وصفهم فيهم أوصاف خيرية تقتضي الإحسان وأوصاف شرية تقتضي عدمه بقوله : قد تقدم أن معظم هذه المملكة في الإقليم الثالث أي في بعضه ، قال ابن سعيد : الإقليم الثالث هو صاحب سفك الماء والحسد والقتل والغل وما يتبع ذلك قال وللمغرب الأقصى من ذلك الحظ الأوفر سيما في جهة السوس وجبال درن ، فإن قتل الإنسان عندهم على كلمة وهم بالقتل يفاخرون ، ثم قال : إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التنافس المفرط والحماقة وقلة التغاضي والتهور والمفاتنة ، أما البخل فإنما هو

في أراذلهم بخلاف الأغنياء، فإن في كثير منهم السماحة المفرطة والمفاخرة بإطعام الطعام والاعتناء، بالفاضل والمفضول^(١).

قلت: وما وسم به أهل جبال درن هو الشائع عنهم لحد الآن، وخصوصاً عن جبابرة رؤسائهم، وأما التهور والمفاتنة فقد كان ذلك ديدنا شائعاً في نواحي المغرب الأقصى وخصوصاً عند أهالي البدو من بربره إلى أن أخدمت جل ذلك جيوش الحماية، وهذه السمات وأمثالها هي التي تأهلوا بها بعد الإسلام للدخول تحت قوله تعالى: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾، ولكنهم قد اتصفوا مع ذلك بسمات حسنة التي منها السماحة المتقدمة في كلام ابن سعيد وإن خالفه ما تقدم عن زروق، ويمكن الجمع بينهما بحمل كلام كل واحد منهما على جهة من المغرب الأقصى مخصوصة، وإن أطلق كل واحد منهما في العبارة، ولكن الجمع يتعين عند الإمكان ومنها غير ذلك من الفضائل والفواضل التي امتاز بها المغرب على غيره وحفظها التاريخ، وبمثل ذلك تأهلوا بعد إسلامهم أيضاً للدخول تحت قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، فإن قلت مقتضي التخيير استواء الطرفين مع أن المسلم إذا أتى أحد الأمور الداخلة تحت قول الحديث السابق إلا بحققها من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل معصوم، فقد ارتهن في موجب حد، وقد تقرر أن الحدود لا يسوغ شرعاً التساهل فيها، فأين التخيير حيثذا؟ قلت: التخيير الحقيقي الموافق لظاهر الآية هو فيما عدا ما يوجب حداً من حقوق الإسلام، وأما التخيير فيما يوجب حداً فهو بالنظر إلى قتل النفس حقيقي أيضاً، لأن الولي له العفو فهو مخير، وأما حد الكفر، فإنما يتعين إن لم يتب، وأما إن تاب وراجع الإسلام فلا، وهذا أيضاً تخيير بالنظر إلى مرتكب ذلك بين الرجوع عما صدر منه فيخلي سبيله وبين الاستمرار عليه فيقام عليه الحد فهو تخيير في الجملة.

(١) صبح الأعشى ١٧٨/٥.

وكذا الزاني بعد إحصان، فإنه إن ثبت عليه ذلك بإقرار، له الرجوع عنه، فهو في التخيير على وتيرة الذي قبله يليه، وإن لم يكن تخييراً بالنسبة للحاكم الذي هو مقتضى الآية، ثم إنك إذا أعطيت النظر فيما سبق حقه تجد سائر الأقطار الإسلامية أهلها بهذا الصدد فيهم الخير والشر والفاضل والمفضول، وإنما تمايزت الأقطار والجهات بكون الخير أو الشر الذي في جهة غير ما يكثر منها في جهة أخرى، وهذا هو الذي سبق مشروحاً في كلام زروق.

وبهذا البيان يلوح لك أن آية تخيير ذي القرنين في أهل المغرب حالة كفرهم هي من أعظم مناقب المغرب وأهله، بحيث كانوا بوصف قاض عليهم بالتعذيب لا غير، ومع ذلك نصت الآية على أن العدول عنه لاتخاذ الحسنى فيهم هو أمر لا تأباه قوايلهم، ولا تقصر عن استحقاقه عواملهم، فالشر الحالي وقتئذ وبعدئذ فيهم عارض، والخير هو العرق الأصلي النابض، وكذلك كان ويكون فإنهم لا يدلون دلالة ثقة عارف ماهر على خير إلا وقصوده، ولا يحملون حمل مجد راسخ على صلاح حال إلا وتشبثوا به وألفوه.

ولهذا جاء في بعض روايات حديث الطائفة التي لا تزال ظاهرة على الحق أنها بالمغرب، وعضدت ذلك رواية لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة، واللفظ محمول على حقيقته حتى تدل قرينة على أن المراد خلافه أو يؤدي ظاهره إلى محال، فعند ذلك يتعين صرفه عن الظاهر، على أن الحديث شامل لأهل المغرب حتى على صرفه عن ظاهره في بعض تأويلاته.

هذا ولكون ياقوت الحموي شريكاً ضداً للمغرب وأهله أساء في معجمه حيث تكلم على البربر الذين هم معظم سكانه فأورد آثاراً في ذمهم لا توجد في الأصول المعول عليها، ولا تكاد تصح عند ذوي الأنظار السليمة لمضاداتها للأصول المقطوع بها، ولم يكثر بما ورد في إثم من كذب على النبي ﷺ وكثر سواد ذلك

بكلمات أضافها لابن حوقل التاجر تنبيء عن سفه القائل والناقل، من حيث إن لكل ساقطة لا قطة ونطق الأراذل العوراء

من يعن بالمجد لم ينطق بما سفه ولم يحد عن سبيل المجد والكرم

والعيان مكذب لتلك التقولات، ومنزه للملموزين بها عن سفسافها، والنادر إن وجد لا حكم له، إذ لا يحسب الخلق السيئ على الأمة إلا إذا كان فاشياً عند أفرادها مألوقاً عند جميعهم، يفعل فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشى لومة لائم، لا يخالفه أحد منهم إلا مستتراً، ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور.

فإن كان الخلق السيئ يتصف به فرد أو جماعة يستترون به أو يعلنونه مع اشمزاز الجمهور منهم، كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها، وحيثئذ يكون من الخطأ الفاحش ما ألصقه ياقوت بجنب الأمم البربرية ونبهنا على ذلك هنا لئلا يغتر به الجهول ومن في قلبه مرض ويقع في مهواة مرتعه الوحيم، وقديما حذر الناصحون من الاغترار بكل ما في بطون التواريخ حسبما مر بك فيما أسلفناه من التنبيه على ذلك في المقدمة فلا تغفل.

وقد وقع لصاعد الأندلسي وهو من أهل القرن الخامس في كتاب «طبقات الأمم»^(١) أن البربر خصهم الله بالجهل والطغيان ومراده جهل العلم الفلسفي الذي هو موضوع مدحه وأن البربر لم يستنبطوا شيئاً منه بعقولهم قديماً ولا عرفوا بالمهارة فيه.

وأقول: العلم الفلسفي لم ينفرد البربر بالخلو عنه بل قد شاركهم في الخلو عنه قديماً أمم كثيرة، منهم العرب الذين هم أشرف الأمم حسبما تظاهرت على

(١) طبقات الأمم - ص ١٨.

ذلك الأدلة، وخلق العرب من العلم الفلسفي هو بشهادة صاعد نفسه، إذ قال^(١):
فهذا ما كان العرب من المعرفة، وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئاً منه، ولا
هياً طباعهم للعناية به... إلخ.

وحيث أن الفلسفة إن كانت شرقاً فالمصيبة إذا عمت هانت وإن لم تكن كذلك
وهو دليل خلو شرف الأمم عنها فقد طهرهم الله منها، ولذلك لما فتح الصحابة
رضوان الله عليهم-بلاد فارس زمن ثاني الخلفاء الراشدين الفاروق رضى الله عنه
ووجدوا الكثير من كتب الفلسفة بها، وكتب إليه أمير الجيش سعد بن أبي وقاص
رضى الله عنه يستشيريه فيما يفعل بها؟ أجابه بقوله: اطرحوها في ماء يحوها فإن
يكن فيها خير فقد أغنانا الله بأهدى منه، وإن يكن شراً كفانا الله إياه، انتهى.

فامتثلوا ما أشار به من إعدامها بغرق أو حرق نقله ابن خلدون وغيره.

وأما تفرقة صاعد بين العرب والبربر بأن العرب كانت عارفة بفنون لغتها
فهي مردودة بأن كل أمة ذات لغة كذلك، وشفوف لغة العرب تابع لشفوف أهلها
وتأكد بورود الكتاب والسنة موافقين لها، فإذاً إنما فزع صاعد لإظهار تلك التفرقة
بين العرب وغيرها من الأمم الخالية عن الفلسفة قديماً ليدفع الشناعة اللازمة بأن ما
ذم به البربر واقع في العرب أيضاً، فكأنه يقول العرب وإن خلت عن ذلك فلها
علم في الجملة وليس ذلك بدافع لها عنه، لأنه إنما يمدح بما شرف بنفسه عنده وهو
الفلسفة لا بما شرف بغيره، ولأن البربر لما علموا من الشرع شفوف فنون لغة
العرب سارع علماؤهم إليها حتى حصلوا على ما أدركته العرب منها، وقبل الشرع
لم يتقرر شفوف لغة على أخرى، وكل الأمم كانت على علم من فنون لغتها، فلا
وجه حيثئذ لتلك التفرقة على أنه وإن تستر بتلك التفرقة أولاً فقد وقع في الشناعة
التي فر منها ثانياً بقوله فلم يمنحهم الله... إلخ، فصار ذا ما بذلك للفريقين
وكفاه بذلك قبحاً.

(١) طبقات الأمم - ص ٦١.

وأيضاً شرف الفلسفة إنما هو في الدنيا لا غير، وقد ذم الله تعالى علماً هذه صفة بقوله: يعلمون ظاهراً عن الحياة الدنيا وهم عن الآخرة... إلخ. وكل شرف لا نتيجة له في المآل. فهو في الحقيقة وبال. على أن ابن خلدون قد عقد في الفصل السادس من مقدمته ترجمتين اثنتين بين فيهما بطلان علمي الفلسفة والتنجيم كما أوماً إلى المفاصل التي دخلت على أهل الدين من الفلسفة، وحيث فالفشوف الحقيقي، إنما هو لمن شرفه علمه في الحال والمآل، ولعلماء البربر من ذلك الحظ الوافر والحمد لله.

وناهيك مهم في القرن الثالث وأوائل الرابع بأبي جعفر أحمد بن نصر بن زياد البربري أحد العلماء الراسخين، ومن بهم في حفظ المذهب المالكي يضرب المثل، وبابن القوطية من أئمة العربية وهو من أهل القرن الرابع، وبأبي الحسن الجزيري من أئمة علم الوثائق وهو من أهل القرن السادس، وبشهاب الدين القرافي من أئمة المعقول والمنقول وهو من أهل القرن السابع، وبأبي محمد عبد الله بن أبي بكر الصودي بفتح الصاد من أئمة الحساب والفرائض وهو أيضاً من أهل القرن السابع، وبأبي محمد صالح الفاسي، وأبي محمد التادلي وهما من أئمة الفقه المضروب بهما المثل في حفظه وإتقانه علماً وعملاً، وهما أيضاً من أهل القرن السابع، ومثلهما في ذلك وفي الفرائض الحافظ السطي الأوربي نسبة إلى أوربة - بفتح الهمزة والراء المهملة والباء الموحدة - بطن من البرانس كذا في سبائك الذهب. وهو من أهل القرن الثامن، وبابني الإمام أبي زيد وأبي موسى التلمسانيين من أئمة المعقول والمنقول، وهما من أهل النصف الأول من القرن الثامن، وبالإمامين العارفين سيدي إبراهيم التازي، وسيدي إبراهيم المصمودي وهما ممن حاز طرفاً من القرن التاسع إلى غير هؤلاء ممن حفظ التاريخ شرفهم العلمي.

وقد حقق كونهم من البربر أهل الخبرة بالأنساب، العارفون بالقواعد في هذا

الباب، وأما من تأخر منهم واشتهرت معارفه فى الآفاق كأبي علي اليوسي، وأبي سالم العياشي فهم كثيرون والحمد لله وقد عقد البكري فى المسالك والممالك، ترجمة أتى فيها بنبذة من تدقيق البربر فى السياسة وحسن التلطف فى استخراج الحقوق ممن غمصها والوصول إلى تحصيل المصالح بعد درء المفسد.

وبذلك كله يتبين لك أن القول الفصل فى هذا البساط هو ما نبه عليه صاحب «الاستقصا» إذ قال: البربر من أعظم الأجيال وأعزها ولهم الفخر الذى لا يجهل، والذكر الذى لا يهمل. وقد تعددت فيهم الملوك العظام. وكان لهم القدم الراسخ فى الإسلام. واليد البيضاء فى إعلاء كلمة الله، ومنهم أئمة وعلماء وأولياء وشعراء وأهل المزايا والفضائل^(١)، انتهى.

وبعد أن كتبت ما تقدم وجدت الباقعة أبا زيد ابن خلدون سبق إلى تحرير ذلك فقال: قد ذكرنا من أمر البربر وأخباره ما يشهد بأنه عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوب جانبهم، كثير جمعهم، مظاهرون للأمم العالم وأجياله من العرب والفرس واليونان والروم، وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم فى الخلل الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ومراقبة الشرف والرفعة بين الأمم، ومراعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار، وحماية النزىل، ورعى الوسائل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكارة، والثبات فى الشدائد، وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب، والتجافى عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر الكبير، وتوقير أهل العلم، وحمل الكل وكسب المعدوم، وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة، وإبابة الضيم ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب، وغلبة الملك، بيع النفوس من الله فى نصر دينه فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها، أن قَادَتْهُمْ إلى

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/ ١٢٠.

مراقبي العز وأربت^(١) بهم على ثنايا الملك، حتى علت على الأيدي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم، وأما إقامتهم لرسوم الشريعة، وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم منه ما كان ملاكا لعزهم ومقادا إلى سلطانهم، وقد كان للمبرزين من ملوكهم كيوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن ويعقوب المريني من الاهتمام بالعلم والجهاد وتشجيع المدارس، واختطاط الزوايا وسد الثغور وبذل النفوس في ذات الله، وإنفاق الأموال في سبيل الخير، ومجالسة أهل العلم، وترفع مكانهم، والوقوف عند حد إشاراتهم، والتعرض لشكوى المتظلمين، وإنصاف الرعايا من العامل والضرب على يد أهل الجور ما شهد لهم بها آثارها الباقية بعدهم، وأما وقوع الخوارق فيهم، وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين أهل النفوس القدسية، والعلوم الوهية، ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة كسعيد بن واسول جد بني مدرار ملوك سجلماسة، أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة، وكأبي زيد مخلد ابن كيداد^(٢) اليفرنى الخارج على الشيعة سنة ثنتين وثلاثمائة، وكمندر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة المتوفي عام ثلاثة وثمانين وثلاثمائة، وكأبي محمد بن أبي زيد أحد أعلام المغرب، وككبير علماء أنساب البربر سابق بن سليمان وغيرهم من علماء الفنون^(٣) هذا ملخص الغرض من كلام ابن خلدون وناهيك به في هذا الباب.

تنبيه: ما سبق عن زروق عن سيدنا عمر في إفريقية لا يعارضه ما أورده غير واحد كالبكري في «المسالك والممالك» وابن الدباغ في «معالم الإيمان» من الأحاديث في فضل إفريقية، لأن تلك الأحاديث لم تصح.

(١) في تاريخ ابن خلدون الذي ينقل عنه المصنف «وأوفت».

(٢) في المطبوع: «كيداء» والمثبت عن ابن خلدون.

(٣) الخبر بطوله لدى ابن خلدون في تاريخه ١٠٣/٦ - ١٠٦.

بل قال ابن ناجي في ذيل «معالم الإيمان» بعد إيرادها سمعت شيخنا أبا القاسم البرزلي يقول عن شيخه وشيخنا أبي عبد الله ابن عرفة يغلب على الظن أنها موضوعة .

فصل : وحيث أتينا بشرح ما يتعلق بمن بهم سميت بلدتنا هذه مكناسة فلنرجع لتتميم ذلك بذكر من انضاف إليهم في حلولها وقت تخطيطها فنقول :
قال في «الروض» : وورزِغَة يذكر أن أصل أهلها روم^(١) ، انتهى . قلت :
ورزِغَة - بفتح الواو وسكون الراء وكسر الزاي وسكون الياء وفتح الغين المعجمة بعدها هاء تأنيث .

والروم بالضم ويقال لهم بنو الأصفر جيل معروف يجمع فرقاً شتّى ، واختلفوا في نسبتهم ، ف قيل : هم من ولد الروم بن عيصو بن اسحاق عليه السلام سموا باسم جدهم ، وقيل : سموا روما ، لأنهم كانوا سبعة رأموا فتح دمشق ففتحوها وقتلوا أهلها ، وكان سكانها سكرّة - بفتح الحاء - للعازر بن عمرو بن كبوش بن حام بن نوح عليه السلام والسكرّة الفعللة ثم جعلوا يتقدمون حتى انتهوا إلى أنطاكية ، ثم جاءت بنو العيص فأجلوهم عما افتتحوا وسكنوه حتى انتهوا إلى القسطنطينية فسكنوها فسموا الروم بما رأموا من فتح هذه الكور ، وقيل في وجه تسميتهم غير هذا .

وقد حكى المسعودي في «مروجه» أقاويل ترجع كلها إلى أنهم من ذرية عيصو ، لكن قال ابن خلدون قد أنكر ذلك المحققون ، والصحيح نسبهم إلى يافث .

وقد خطأ ابن حزم قول من نسبهم ليعصو قال : وإنما وقع هذا الغلط لأن موضع بني عيصو الذي يقال له يسعون يسمى أروم فظنوا أن الروم من ذلك الموضع وليس كذلك ، لأن الروم إنما نسبوا إلى روملس^(٢) باني رومة^(٣) ، انتهى .

(١) الروض الهتون - ص ٥٤ .

(٢) في المطبوع : «روماش» والمثبت لدى ابن حزم الذي ينقل عنه المصنف .

(٣) جمهرة أنساب العرب - ص ٥١١ .

قال ابن خلدون: ثم المحققون ينسبون الروم جميعاً إلى يونان الإغريقين منهم واللطيين ويونان معدود في التوراة من ولد يافث لصلبه، انتهى. واقتصر في روح البيان على أن الروم الأولى من ولد يافث والأخيرة من ولد عيصو بن إسحاق... إلخ. قلت: وهذا الذي اقتصر عليه قد نسبه السهيلي قبله لغير واحد فقال في روضه: وليس كل الروم من ولد بني الأصفر فإن الروم الأولى فيما زعموا هم من ولد يونان بن يافث بن نوح والله أعلم بحقائق هذه الأشياء وصحتها، انتهى. فإن صح هذا القول المفصل أمكن الجمع به بين ما نقله ابن خلدون وما نقله غيره ولم يحتج إلى تخطئة ما نقله غير ابن خلدون على كثرتهم.

قال ابن خلدون وأما الإفرنج فنسبهم هروشيوش^(١) مؤرخ الروم إلى غطرما ابن عומר بن يافث. وقال ابن سعيد فيما نقل عن البيهقي وغيره: أن يونان هو ابن علجان بن يافث ولذلك يقال لهم العلوج، ويشاركهم في هذا النسب سائر أهل الشمال من غير الترك، فالإغريقيون من ولد إغريقش بن يونان، والروم من ولد رومي بن يونان، واللطينيون من ولد لطين بن يونان، فالشعوب الثلاثة من ولد^(٢) يونان.

قال: وأعظم من أخذ بدين النصرانية الإفرنج، وقاعدة بلادهم فرنجة ويقولون فرنسة بالسين، وملكهم الفرنسييس وهؤلاء فرنسة أعظم ملوك الفرنجة ومن الفرنجة البنادقة والجلالقة، انتهى كلام ابن خلدون ملخصاً.

وحاصل ما نقله عن ابن سعيد أن اليونان يجمع الروم بفرقهم والإفرنج يفرقهم لأن الإفرنج من جملة أهل الشمال.

وقد حكى المسعودي في مروجه الاتفاق على أن الإفرنج من ولد يافث بن

(١) في المطبوع: «هيورش» والمثبت لدى ابن خلدون ١٨٤/٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٨٤/٢.

نوح إلا أنه لم يعين الواسطة التي يدلون بها إليه وقد سبق بيان واسطتهم في نقل ابن خلدون عن مؤرخ الروم وعن ابن سعيد، وذلك مصرح بأن الروم غير الإفرنج الذين من جملتهم الإفرنسيس.

لكن يشكل على ذلك ظاهر قول الحافظ ابن حجر في فتح الباري: أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين ابن الصائغ الدمشقي، قال حدثني سيف الدين فليح المنصوري، قال أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الإفرنج في شفاعة فقبلها وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت، وقال لي لا تحفك بتحفة سنية، فأخرج لي صندوقًا مصفحًا بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منها كتابًا قد زالت أكثر حروفه وقد التصقت عليه خرقة حرير فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر ما زلنا نتوارثه... إلخ.

ونحوه في عمدة القاري للعيني من غير ذكر سنده فانظر قوله ملك الإفرنج مع قوله هذا كتاب نبيكم إلى جدي... إلخ، فإنه ظاهر في كون هذا الملك من جنس رعيته الفرنج وخصوصا الفرنسيس منهم لما تقدم عن ابن خلدون من أن فرنسا أعظم ملوك الإفرنجية، انتهى.

فتكون الإفرنجية وخصوصا فرنسا منهم من الروم، إذ لا خلاف أن قيصر الذي قال فيه ملك فرنجية في هذه القضية - إنه جده - من عظماء الروم.

وعلى هذا فما وقع في كتاب سيدنا الجدد الأكبر المولى إسماعيل لسلطان فرنسا في حينه وهو لويز الرابع عشر من قوله: أنت من سلالة عظيم الروم الذي كتب له جدنا وسيدنا... إلخ. وكذا ما وقع له في كتابه لسلطان إنكلترا حيث غاضبه قومه وفر إلى سلطان الفرنسيس من قوله له فيه كما خاطب أي النبي ﷺ قيصر ملك الروم جد هذا الملك الذي لجأت إليه، وأنت مقيم لديه... إلخ. كلاهما صحيح.

وفي ذلك كله حجة لما كلف قرره بعض محققي مشايخنا في درسه على البخاري من أن هرقل الذي كتب له ﷺ هو جد للدولة الحامية، انتهى.

والحاصل أن الاعتماد على هذا أولى من الاعتماد على ما نقله ابن خلدون في نسب الإفرنج عن مؤرخ الروم، ويعضد ذلك ما جزم به الشيخ فريد وجدي في «دائرة معارفه» من أن فرنسا أصلها من اللاتينيين، انتهى. واللاتينيون هم اللاتينيون وقد سبق أنهم من الروم، ويعضده أيضاً قول ابن أبي زرع في أنيسه أن ملك الفرنسيس الرومي نزل على تونس ليلة خمس وعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وستمائة قال: وكانت الروم في أربعين ألف فارس ومائة ألف رام ومائة ألف راجل، انتهى.

فأنت تراه جعل ملك الفرنسيس روميا وجعل جنده وقومه روما، وإن كان ابن خلدون أشار للجواب عن مثل هذا بقوله وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقية فمن باب التغليب، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام إلا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية، فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع النصرانية ونقلته الأخبار عن العرب كما هي، فجرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم، وكذا الأمة الذين كانوا بإفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها إنما كانوا من الإفرنجية، انتهى.

ولا يتأتى جوابه هذا فيما ذكره ابن أبي زرع لأنه ليس نقلا عن العرب وقد قبل في الاستقصاء ما اعتمده ابن خلدون فالله أعلم.

قال في «الروض»: وتقع ورزيجة شرقا من نهر فلفل وبينهما مسافة، وفي ولورزيجة حارتان قريبتان منها: بنو مروان وبنو غفجوم، وبنو مروان أقرب إليها، وماؤها من وادي ويسلن من أودية مكناسة وبها عيون^(١)، انتهى. من خطه.

(١) الروض الهتون - ص ٥٤.

قلت: أما غفجوم - فبفتح الغين المعجمة وسكون الفاء وضم الجيم بعدها واو ساكنة فميم - وأما وَيَسْلَنُ - فبفتح الواو وسكون الياء بعدها سين مهملة فلام مفتوحة فنون ساكنة - كما تقدم ولا يعرف في الوقت الحاضر محل بورزيغة يطلق عليه اسم من الأسماء المارة غير زنقة بني مروان بالمحل المعروف في زماننا بحجر الذئب - بفتح الحاء المهملة والجيم - وهو اسم للنهج المار بين البساتين لوادي ويسلن المذكور.

ومن حوائر ورزيغة الشهيرة في الوقت الحاضر السلاوي وبو عشرين ولا يوحد بها في هذا الزمان من العيون غير العين المعروفة بعين الكبير وجميع غراسات حوائرها تسقي من وادي ويسلن المار الذكر، ويسلن هذا هو على طريق المار من العاصمة المكانية لفاس على سبعة كيلو مترات من العاصمة وماء هذا الوادي لا يدخل منه للمدينة شيء.

قال في «الروض» وكانت ورزيغة مخصوصة بالأمن يسكن أهلها الخيمات بالجنات فلا يلحق أحدهم خوف ولا يتوقعه إلا من جهة الأسد خاصة^(١)، اهـ. من خطه.

قلت: ولم يبق لهذا العهد أثر للأسد بها ولو بنواحيها القريبة، نعم يوجد بقبيلة حروان المجاورة للمدينة بالمحل المعروف بأشَمَّاس - بفتح الهمزة والشين وتشديد الميم المشبعة وسكون السين المهملة - كما يوجد أيضاً بالمحل المسمى لديهم ببوعشوش - بضم الباء الموحدة وسكون الواو والعين المهملة وضم الشين المعجمة مشبعة وسكون الشين المعجمة أيضاً - في الغابة ثم على بضع آلاف من الأمتار من المدينة، وسيأتي نص بعض مؤرخي الأورباوين وبين على كثرة وجوده قرب قصر فرعون أيضاً، وحيث فلا التفات لمن يزعم منهم عدم وجوده، ويجزم بأنه لم يبق له اليوم ولا قبله بكثير أثر بهذه الديار المغربية ولا بنواحيها، ويعلل ذلك بضعف

(١) الروض: الهتون - ص ٥٥.

حرارة القطر في هذه الأعصر الأخيرة على ما كانت عليه في الأعصر الغابرة، وبأنه لو بقي له أثر لوجد جلده وتداول بين مجاوري ساحة استقراره وغير ذلك من العلل الواهية.

هذا والأسد ويقال له الليث والضرغام في أسام كثيرة هو من أعظم الحيوانات المفترسة يصطاد عادة بالليل وهو في إفريقيا أكثر وأكبر جسماً منه في آسيا ولا يوجد في أمريكا ولا في الجهة التي تحل فيها الأسلحة النارية.

وكان حدوث هذه الأسلحة بهذه النواحي هو الذي أبعدته منها للمحل الذي ذكرنا.

قال في «حياة الحيوان»: قالوا وللأسد من الصبر على الجوع وقلة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع، ومن شرف نفسه أنه لا يأكل من فريسة غيره فإذا شبع من فريسته تركها ولم يعد إليها وإذا جاع ساءت أخلاقه، وإذا امتلأ من الطعام ارتاض ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب، وقد أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

وأترك حبها من غير بغض	وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام	رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء	إذا كان الكلاب ولغن فيه ^(١)

انتهى.

وقد تعقب الفاضل الشيخ محمد فريد وجدي كلام صاحب حياة الحيوان بما لفظه: نقول يستبعد العقل امتناع الأسد عن ماء ولغ فيه كلب، أولاً لأن الأسد والكلب لا يجتمعان على ماء واحد حتى يرى أحدهما الآخر، وليس للأسد من خصيصة تطلعه على الغيب فتدله على أن كلباً ولغ في هذا الماء أو ذاك، ويظهر لنا أن السبب في هذا القول هو ذلك الشعر، فإن الشاعر لما ذكر ترفع نفسه شبه نفسه ومعرشه بالأسود ونظراءهم بالكلاب، وقرر أن الأسود لا ترد ماء ورد فيه الكلاب،

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري ٣/١.

فجاء الباحث عن طباع الحيوانات فنقل ذلك نقلا وجعله من صفات الأسود الحقيقية وهو خيال، انتهى.

وأقول إن ذلك الانتقاد، الذي لا سند له عند ذلك الفاضل المنتقد سوى ما تخيله من الاستبعاد. لا مسلك له في سبيل السداد: أما أولا: فإن المنتقد لم يزد على الميل للنفي من غير جزم والناقل لذلك قد أثبتته جازما به فله بذلك مزيد علم، فكان إثباته مقدما لا محالة على ميل المنتقد للنفي.

وأما ثانيًا فقله: وليس للأسد من خصيصة... إلخ هو أيضًا نفي بمجرد التَّوَهُّم والتَّخِيل، فإن الأسد ذكر أهل هذا الفن له خصائص جمّة، منها أنه لا يتعرض للمرأة الحائض مع أن الحيض هو أمر باطني في المرأة، وعدم تعرضه للمتصفة به لا يكون إلا بخصيصة توجب للأسد إدراك ذلك كتمييز المتصفة به برائحة أو نحوها، وإذا جوزنا هذا بالنسبة للأسد في حق الحائض لزم أن نجوز ذلك في حقه أيضًا في غيرها كالماء الذي ولغه كلب، على أن مثل هذا موجود حتى في الكلب الذي هو الغاية في الخساسة، فقد جاء فيه أنه لا يلغ في دم مسلم كما في «الشفاء»، ومن البديهي أن تفرقة الكلب بين دم المسلم وغيره لا بد لها من خصيصة تؤدي الكلب إليها، وإذا جاز اتصاف الكلب بمثل هذه الخصيصة فلأن يجوز في أعظم السباع بالأحرى.

وأما ثالثًا: فإن من جملة ما وجه به أهل العلم عدم دخول ملائكة الرحمة لبيت فيه كلب قبح رائحته، انتهى.

ولا مانع من أن توجد بقية هذه الرائحة الشديدة القبح في الماء الذي ورده وولغ فيه، وكفى فيها دليلا للأسد الذي يعافه على كونه ورد ذلك الماء قبله حتى يتجنبه.

وأما رابعاً: فقد قال في «حياة الحيوان»^(١) في الكلب من اقتفاء الأثر وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات، انتهى.

أي ولذلك ترى كلب الصيد لا يزال يتشمم ويقتفي الأثر حتى يخرج الصيد دلالة عليه بأنفاس بدنه وبخار جوفه كما في «عجائب المخلوقات»^(٢).

ولا شك أن الأسد هو أعظم الكلاب كما دلت عليه قصة دعائه ﷺ على عتبة بن أبي لهب بقوله: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فكانت الإجابة بتسليط أسد على المدعو عليه فافترس رأسه.

وأما خامساً: فقول المنتقد ويظهر لنا أن السبب في هذا القول هو ذلك الشعر... إلخ، يرده ما قدمناه عنهم في الحائض وعدم ولوغ الكلب في دم مسلم، فإننا ما رأيناهم ذكروا شعرا في ذلك يدعى استنادهم إليه، مع أن الخاصية المطلعة على ذلك الغيب ثابتة فيهما كما شرحناه، وإذا ثبت للأسد والكلب فيما ذكر فما المانع من ثبوت مثلهما لهما أو لأحدهما في غير ذلك، وبهذا كله يتبين لك أن استبعاد ذلك الفاضل المنتقد ممنوع، وأن دعوى أن مثبت ما استبعده، إنما استند لذلك الشعر مدفوعة، على أننا لو فرضنا أن المستند هو ذلك الشعر لا غير لم يجز تكذيب الشاعر فيه ولا صرف كلامه فيه عن ظاهره إلا ببرهان، لا بمجرد التخمين العاري عن الحجة والبيان، ولو ساغ ذلك لكان كلام الفاضل المنتقد بذلك أولى والله تعالى أعلم.

وتسمى البربر الأسد إزم - بكسر الهمزة وفتح الزاي وسكون الميم - ومن طبعه أنه لا يؤذي الإنسان في حال تمام ميزه وإدراكه غالباً، والغالب على الإنسان فقد الشعور وتمام الذهول عند رؤية الأسد.

(١) حياة الحيوان للدميري ٢/ ٢٧٩.

(٢) عجائب المخلوقات - ص ٣٣٦.

وكما يوجد السبع بالمحليين المذكورين بجروان، يوجد النمر والفهد بهما أيضا وكلاهما ضرب من السباع. الأول يشبه الأسد غير أنه أصغر منه وأخبت أخلاقا وأشجع قلبا منقط جلده بنقط سود يقال له بلسان البربر أغلياس - بفتح الهمزة والغين المعجمة وتسكين اللام بعدها مثناة تحتية - وهو لا يعدو على الإنسان غالبا وإنما يفتك بالمواشي ولا يتخذ محلا لسكناه غير رءوس الشجر.

والثاني ضيق الخلق شديد الغضب طويل النوم يضرب بكثرة نومه المثل فيقال أنوم من فهد، ويسمى بالبربرية ووجل - بواوين أولاهما مفتوحة وثانيتها ساكنة بعدها غين معجمة مفتوحة - ولا يؤذي من الإنسان إلا من هجم عليه بمحله، ويعدو بكثرة على ما سواه، ويوجد الكل بكثرة بقبيلتي زيان وبني مجيلد النازلتين وراء قبيلة جروان.

فصل: قال في «الروض» قيل: ولم يكن لهذه الحوائر قديما مدينة مسورة وكان واليها يسكن قصراً أدركه القدماء خرابا يعرف بقصر ترزجين، ولعل جيمه معقودة، وهو على ربوة من الأرض شرقا من بني زياد، وغرباً من وادي فلفل وجوفا من المدينة الآن. فلما ظهر امر الموحددين أحدث المرابطون على الوادي المذكور غربا منه حصنا سموه تاجرات بالجيم المعقودة وكذلك بقي اسمه، وتفسير هذا اللفظ المحلة أو المجتمع بلسان البربر هكذا قيل^(١)، انتهى. من خطه.

قلت: أما ترزجين - فبتاء مضمومة بلسان بعدها راء مضمومة فزاي ساكنة فجيم مكسورة فياء ساكنة فنون - وكان هذا القصر هو الحصن الذي عناه صاحب معجم البلدان فيما قدمناه عنه من قوله بينهما حصن، انتهى. كما تقدم.

والبينة ظاهرة مما وصفه ابن غازي هنا كما فيما سبق أيضاً على أن ما حكاه ابن غازي هنا من أن مكناسة القديمة وهي التي عبر عنها بالحوائر لم تكن فيها مدينة مسورة، دليل على أن مدينة وكيلى ليست داخلية عنده فيسمى مكناسة

(١) الروض الهتون - ص ٥٩.

القديمة وقد مر بسط ذلك، وأما تاجرات - فبتاء مفتوحة بعدها ألف فجيم فراء
فألف فراء فتاء ساكنة - وما وصف به قصر ترزجين ينطبق تمام الانطباق على
ناحية برج العريفة الشهير الكائن بحارة بني موسى قرب الجنان المنسوب للعريفة
المشار لها أيضاً بالمحل.

فالظاهر أن القصر كان هنالك فخر وأحدث بعده البرج المذكور زمن سيدنا
الجد المولى إسماعيل قدس سره، وإن كان عدم تعيين ابن غازي لقصر ترزجين
بكونه من ورزيعة أو بمجاورته لها وعدوله إلى التجوير بغيرها كما تراه يبعد ما
قلناه كما يبعده أيضاً ما يأتي قريباً في سوق الغبار من كونها إزاء قصر ترزجين
... إلخ، والله أعلم.

وتفسير تاجرات بالمحلة في لسان البربر به جزم ابن خلدون في تاجرات
التي حوز تلمسان فلعل ابن غازي إليه أشار بقليل، وكذلك جزم بذلك الزباني في
رحلته وهو من علماء البربر، وإن كنت قد سألت غير واحد من البربر عن تفسير
تاجرات بالمحلة فنفاه وجزم بعدم وجوده في لسانهم، وأنهم وإنما يقولون المحلة
وبعضهم يقول تمحلت بزيادة مثناة فوقية قبل الميم.

كما أنني بحثت عن لفظ أسكل الآتي قريباً وإطلاقه على مفرد الاهرية
المتخذة من الدوم فجزم بعدم وجود هذا اللفظ عندهم.

ثم قال في «الروض»: وهذا الحصن هو المدينة الموجودة لهذا العهد، فلما
أخذوا في بنائها اجتهدوا فيه وأعجلهم الأمر حتى احتاجوا على ما يحكي إلى
إقامة شقة من سوره بالأهريّة المتخذة من الدوم لادخار الأطعمة، ويسمى واحداً
بلسان البربر أسكل، وملئوها تراباً، وقاتلوا دونها حتى أكملوا البناء بعد ذلك^(١).

وفي القطر الغربي من أبراج سورها برج مبني بالحجر والجيار بناء محكمًا
يسمى برج ليلة، سموه بذلك، لأنه بني من ليلته فيما زعموا، ونقل الوالي بدر بن

(١) الروض الهتون - ص ٥٩ - ٦٠.

ولجوط - بالجيم المعقودة إلى المدينة المذكورة وجوه الناس واغنياءهم ولم يترك من الأقوات شيئاً إلا نقله إليها، وترك جمهور الناس في مواضعهم.

فأول غارة شنها الموحّدون على تلك الأرض بسوق الغبار يوم الأحد، وذلك أنه لما وضعت هذه الموضوعات على الصفة المذكورة من التفرق كانت لهم سوق غبار بإزاء قصر ترزجين المتقدم الذكر، وهو الذي يسمى بالسور القديم - بالراء - أو بالسوق القديم - بالقاف - كما يجرى على السنة الناس اليوم.

ومسجد الحصن المذكور وصومعته لم يزالا قائمين لهذا العهد، وكان أهل القصر وأهل الحوائر يجتمعون إلى تلك السوق كل يوم أحد، فبينما هم يوم أحد قد اجتمعوا وكمّلوا بالسوق المذكورة وهي بأرض مرتفعة إذ أشرفوا على خيل مقبلة إليهم في زي المرابطين اللثم والغفائر القرمزية والمهاميز التاشفينية والسيوف المحلاة والعمائم ذوات الذؤابات فلما رأى القوم هذا الزي، قالوا: تقوية السلطان جاءتنا وسارعوا للقائهم فرحين بهم وهبطوا عن آخرهم، فلما خرجوا عن منع القصر والسوق حسر الفرسان اللثم، ونادوا أبابا يا المهدي! وكان ذلك شعارهم وأجالوا السيوف عليهم، ولم ينج منهم فيما ذكروا أحد وكانوا آلافا - رحمهم الله^(١).

وما زال الناس لهذا العهد يتحدثون أن المقابر التي عند باب مسجد السوق القديم هي مقابر شهداء، فلعلهم هم والله تعالى أعلم^(٢).

وكان الموحّدون حينئذ يسمون الناس المجسمين ويقاتلونهم قتال كفر وكان الناس يسمونهم الخوارج^(٣)، ولم تزل الغارات تشن عليهم فيقتل الرجال وتسبى النساء والذرية وتستباح الأموال، والتضييق يتوالى والمكايد تدبر والحيل تدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم^(٤).

ومن الأخبار التي كانت مشتهرة عند أهل الوطن أنه كان بأحواز تاورا شجرة

(١) الروض الهتون - ص ٦١.

(٢) الروض الهتون - ص ٦١.

(٣) الخوارج: أى المخالفين للمهدي.

(٤) الروض الهتون - ص ٦١.

كبيرة من النشم الأسود المسمى بالتغصاص بأشمام الصادين زايين، وربما يكتبه المتفاصحون، التقصاص - بقاف وصادين - فبينما الناس قد انبسطوا لتدبير أشغالهم ومعايشهم إذ فاجأتهم الخيل وأحاطت بهم فلدجأوا إلى تلك النشمة وظنوا أن النجاة فيها، فتعلق بها منهم خلق كثير، وضم الموحدون الخطب لتلك الشجرة وأضرموا النيران حولها، فسقط كل من كان فيها واحترقوا عن آخرهم، واحترقت النشمة بقيت منها بقية مدة من الزمان، وكانت عند أهل الأوطان من جملة مواظ تلك الفتنة^(١)، انتهى. من خطه.

قلت: ومما يرجع للخبر الأخير ما رأيته في كتاب «أخبار المهدي ابن تومرت» لعصره مؤرخ دولته أبي بكر الصنهاجي المدعو البيدق صحيفة ٦٥: أنه لما خرج المعصوم من فاس نزل بمغيلة عند يوسف بن محمد وعبد الرحمن بن جعفر ثم منها نحو مكناسة، فلما أشرفوا على الكدية البيضاء نظر إلى الكدية فإذا بها مملوءة رجالا ونساء تحت شجرة لوز، قال فدخل المعصوم فيهم ميمنة وميسرة وبددناهم يمينا وشمالا، ثم سار إلى السوق القديم ونزلنا به بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة، انتهى. فلينظر مع ما لابن غازي.

أما الموحدون فهم دولة بني عبد المؤمن من كومة القائمين بمملكة المغرب بعد دولة المرابطين، سماهم بذلك أول قائم بدعوتهم، وهو المهدي بن تومرت لزعمه أن كل من لا يجري على مقتضى العقيدة التي جمعها هو بلسان البربر المبنية على اعتماد طريق الخلف من تأويل التشابه ومنافرة طريق السلف من إقرار نصوص التشابه كما جاءت، فهو كافر مجسم، وأن التوحيد منحصر في أصحابه الذين تعلموا عقيدته، وبهذا السبب أباح لأصحابه قتل من عداهم قتال كفر، وسوغ لهم سباياهم وغنائمهم وسهل على نفسه وعلى أصحابه بذلك سفك دم المسلمين من غير توقف، وارتكب بذلك ذاهية عمياء.

(١) الروض الهتون - ص ٦١ - ٦٢.

وقد كان المرابطون الذين اغتصب هو وأتباعه ملكهم على طريق السلف في اعتقادهم، وكانوا من متانة الدين بالمكان المكين، ومن دوام العدل ما أكسبهم مزيد التمكين، إلا أنهم كانوا على سذاجة بدواة لم تفارقهم.

ومن رشحاتها أن الإمام أبا حامد الغزالي لما صنف في أيامهم كتابه «إحياء علوم الدين» ووصلت نسخة إلى الأندلس وإلى المغرب الأقصى فرآها علماؤه على طرز جديد لم يعهد، أنتجته مهارة أبي حامد في العلوم التي من جملتها علوم الفلسفة، أنكروها وبثوا إنكارها في قلوب أمرائهم المرابطين حتى اتفقوا معهم على التقاط نسخة وجمعها وإحراقها، ونفذ الأمر بذلك بقرطبة من الأندلس، فوصل خبر ذلك إلى الإمام أبي حامد وكان ابن تومرت وقتئذ يتعلم عنده في مدرسته ببغداد فحيثئذ رفع أبو حامد يده إلى السماء ودعا بتمزيق ملك المرابطين كما مزقوه، فعلم ابن تومرت أن دعوة أبي حامد في ذلك دعوة مظلوم لا ترد فقال له: يا إمام، ادع الله أن يجعل ذلك على يدي، سأل ذلك منه مرتين فأجابته الغزالي في الثانية بقوله: اخرج يا شيطان فسيجعل الله ذلك على يدك فخرج قاصدا لذلك في زي ناسك متقشف ينشر العلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلى أن تم له بذلك الناموس الأمر مع ما سبق في علم الله الأزلي من قضاء ابن تومرت أول أمراء الموحدين على دولة المرابطين، مع ما وصفنا من متانة دينهم ومزيد عدلهم وكون أيامهم كانت أيام خصب وفتح بقطع شأفة ملكهم، ومن توغل الموحدين في سفك دماء المسلمين بدون توقف هذه الواقعة التي حكاها ابن غازي التي أوقعوها على غدر وغفلة بعمار السوق القديم من أهل مكناسة الزيتون، فإن قال قائل إن ما جزمتم به من حضور ابن تومرت حين دعاء الغزالي على المرابطين بتمزيق الملك يخالفه توقف صاحب الاستقصا في ذلك حيث عبر بقوله يقال إنه كان حاضرا... إلخ، قلنا: إن صاحب الاستقصا حيث عدم في الجزم المناط. تحرى

في النقل واحتاط، وذلك شأن الفضلاء أهل الصدق والأمانة في هذا البساط، لاسيما وهو إنما كتب ما حنشه ابن خلدون بقوله: ولقي أبا حامد فيما زعموا... إلخ، وأما الانتقاد على الجازم بالمتوقف كما فعل السائل فهو محض غلط إذ المهييع المعروف والمنهج المتبع المؤلف، هو أن من حفظ حجة على من لم يحفظ لا العكس.

والذي جزمنا به هو الذي جزم به الحفاظ قبلنا وقبل صاحب الاستقصاء بأزمة طوال، ودُهورِ خَوَالٍ، ففي الصحيفة الثالثة والثلاثين والمائة من الجزء الأخير من النسخة المطبوعة من «معيار» الحافظ أبي العباس الونشريسي عن ابن القبطان في كتابه «نظم الجمان». فيما سلف من أخبار الزمان. عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس، قال: كنت ببغداد بمدرسة أبي حامد الغزالي فجاء رجل كثر اللحية على رأسه كرزي صوف فدخل المدرسة وحياها بركعتين ثم أقبل على الشيخ أبي حامد فسلم عليه فقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل المغرب الأقصى، قال: دخلت قرطبة، قال: نعم، قال: فما فعل فقهاؤها؟ قال: بخير، قال: هل بلغهم الإحياء؟ قال: نعم، قال: فماذا فعلوا فيه؟ فلزم الرجل الصمت حياء منه، فعزم عليه ليقولن ما طرأ فأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت.

قال: فتغير وجه الشيخ أبي حامد ومد يده إلي الدعاء والطلبة يؤمنون، فقال: اللهم مزق ملكهم كما مزقوه، وأذهب دولتهم كما حرقوه، فقام محمد بن تومرت السوسي الملقب بعد بالمهدي عند قيامه على المرابطين فقال له: أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك علي يدي فتغافل عنه أبو حامد فلما كان بعد جمعة إذا شيخ آخر مثل شكل الأول فسأله أبو حامد فأخبره بمثل الخبر المتقدم فتغير وجهه ودعا بمثل دعائه الأول فقال المهدي علي يدي فقال: اخرج يا شيطان سيجعل الله ذلك على يدك فقبل دعاءه وخرج ابن تومرت من هناك إلى المغرب برسم تحريك الفتن، وقد علم أن دعوة ذلك الشيخ لا ترد فكان من أمره ما كان، انتهى.

وفي كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب». ما مضمونه: وحكي أنه ذكر للغزالي ما فعل بكتبه، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالي حين بلغه ذلك: ليذهبنَّ عن قليل ملكه - يعني فاعل ذلك بكتبه - وليُقتلنَّ ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرا مجلسنا! وكان ابن تومرت يحدث نفسه إذ ذاك بالقيام فقوي طمعه، وكرَّ راجعا من بغداد إلى ما قدر له^(١)، انتهى.

وكان تاريخ هذا الإحراق سنة سبع وخمسمائة هـ.

وعلي هذه الصورة جلبه عنه الشيخ الرهوني في الشهادات من حواشي الزرقاني له مسلما، وإن كانت النسخة المنقول عنها من المعيار وقع فيها إسقاط بعض ما هو ثابت في نقل الرهوني الذي اعتمدناه، وكذا نقل هذه القصة علي الوجه المذكور ابن الخطيب في «الحلل الموشية» إلا أنه أسقط منها قول الغزالي: اخرج يا شيطان... إلخ.

وقد كانت بيعة المهدي بخصوص جبل درن منتصف رمضان عام خمسة عشر وخمسمائة، ومن ذلك الحين ظهر أمره وصارت زحوف أتباعه تهاجم كل من انقبض عن بيعته، ومنهم أهل مكناسة كما نبه عليه ابن غازي فيما تقدم، نعم بناء حصن تاجرات محل المدينة الآن كان سنة خمس وأربعين وخمسمائة كما جزم به ابن أبي زرع، وفيه كان تخريب مكناسة القديمة، وفيه فتح الموحدون مكناسة بعد حصارهم إياها سبع سنين فأزید، كذا عند أبي زرع لكن الذي صحح ابن غازي أن المدة أربع سنين وأشهر، وذلك في إمارة عبد المؤمن بن علي.

قلت: هذا كلامهم في هذا المحل ولي فيه إشكال، وهو أن حصار سبع سنين أو أربع إن كان علي مكناسة القديمة التي أفصح ابن غازي بأنها كانت حوائر غير ممدنة ولا مسورة، فحصار ما كان بهذه الصفة من عدم التحصين لا يستدعي

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب - ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

تطويل المنازلة إلى هذه السنين، لا سيما والحوائر في محل ليس بمنيع، إذ لا تحول دون منازل عتبة كتود ولا جبل عال شديد، كيف وقد قتل منازلهم منهم في أول غارة شنوها عليهم آلاف متعددة في ساعة واحدة كما سبق عن ابن غازي، رد على ذلك ما ذكره واصفو هذا الحصار من أن الموحدين خندقوا علي مكناسة في حصارهم إياها خنادق متعددة، ولا خفاء أن عيش أهل مكناسة علي كثرتهم طول تلك المدة مع هذا الحصار الموصوف بعيد لأن ذلك الطول يهلك الزرع، والظهر، والضرع، وسائر ضروريات العيش.

ومن المعلوم أن الثروة التي تحمي صاحبها من الهلاك مع الطول إنما توجد في كل زمان عند بعض الأفراد لا عند عموم الناس ولا عند جمهورهم، ثم لو فرضنا أن أولئك الأفراد شركوا العموم في منافع ثروتهم، فإن ذلك مع انقطاع المادة يتحول عن قريب بالجميع إلى الإفلاس، فأني يتأتى والحالة هذه الخلاص لمقاومة ذلك الطول: وإن كان الحصار على المدينة الجديدة المحصنة وهي تاجرات كما يصرح بذلك كلام ابن غازي الآتي، فقد سبق عن ابن أبي زرع أنها فتحت في العام الذي بنيت فيه، فأين كانت حيثئذ مدة حصار سنة كاملة فضلا عما زاد عليها؟ ثم كلام ابن غازي في هذا المحل خال عن الترتيب. بعيد عن التحرير والتهذيب، فإنه ذكر أولا بناء تاجرات وأن القتال وقع قبل إكمال سورها، وهذا يقتضي أنها بنيت كلا أو بعضا وقت الحصار، ثم ذكر قضية السوق القديم بعدها وهي دالة علي أن أهل مكناسة وقتئذ لم يكونوا علي أهبة قتال ولا استعداد لحرب، وهذا لا يتأتى إلا قبل الحصار، وهو خلاف ما دل عليه ما سبق من كلامه وكذا هذا التنافر واقع بين ما ذكره في قضية النشمة وما قدمه في بناء تاجرات ولو قدم حكاية السوق القديمة والنشمة على حكاية تاجرات لسلم من هذا التدافع كلامه فتأمل ذلك كله.

وأما برج ليلة الذي ذكره ابن غازي فقد اندثر ولم يبق له الآن رسم ولا
طل، وقد قيد بعضهم علي كلام ابن غازي هنا ما صورته هدم هذا البرج سنة
خمس وتسعين أو أربع وتسعين وزيد موضعه في المدينة حين هدم جميع سورها
وزيد ما وراءه غربا في المدينة، وبقي موضع هذا البرج إلي سنة إحدى وعشرين،
وبني في موضعه الوزير أبو زكريا يحيى المعروف بالمريني سقاية نفيسة ومسجدا فوق
صاباط علي ممر بين الباب الجديد وباب البراذعيين وصومعة، وأوقف عليه أحباسا
كثيرة كما هي عادته تقبل الله منه .

وسميت هذه الزيادة التي وراء السور جناح الأمان، وكان يعرف هذا السور
عند من أدركناه ببرج الانفاض، انتهى .

قلت: أفادني بعض أجلاء فضلاء العصر ممن له معرفة بخطوط الأئمة أن
خط ذلك التقييد والنسخة المقيد علي هوامشها هو خط الفقيه الصالح الرحال أبي
علي الحسن صديق الشيخ السيد صالح الشرقاوي العمري وناسخه، وعليه فلا
ريب أن هدم البرج المذكور كان في دولة سيدنا الجد المولي إسماعيل لأنه هو الذي
هدم سور المدينة، وزاد ما وراءه غربا في المدينة فيكون المراد بسنة خمس في عبارة
التقييد المذكور سنة خمس وتسعين بعد الألف .

والمسجد الذي بناه زكريا لا زال إلي الآن قائم العين والاسم فوق الساباط
المذكور ويعرف بمسجد سيدي يحيى، وقد كان فيما سلف أشرف علي الاندثار،
وفي هذه الأزمنة الحاضرة جدد كما جددت سقايته بعد ما تناولتها أيدي الاندثار
أزمئة طوالا، بعد أن كان تعذر وصول الماء إليها، إلا أنها ليست الآن علي ما
وصفت به من النفاسة، ومن هذا الساباط إلي ناحية الباب الجديد يسمى الآن
سوقة زعبول - بفتح الزاي المعجمة وسكون العين المهملة بعدها باء موحدة فواو
ساكنة فلام - وسوقة مصغر: سوق، ومن هذا المحل إلي مسجد باب البراذعيين

كله يسمى بجناح الأمان وجناح الأمان هو الذي علي يسار المار من باب الجديد إلى مسجد البراذعيين .

وأما ما على اليمين فإنما اكتسب تلك التسمية بالمجاورة، وأما الصومعة التي ذكر فلم يبق لها لهذا العهد رسم ولا رسم، وأما يدّر -بتشديد الدال وسكون الراء- فهو لفظ بربري، معناه بالعربية: يعيش، وولجوط لفظ بربري أيضا معناه بالعربية الشجاع، والمعنى يعيش ابن الشجاع .

وأما سوق الغبار الذي وصفه فلا يعرف له اليوم اسم ولا رسم، نعم ما وصفه ابن غازي به يكاد ينطبق على المحل المعروف بذراع اللوز الكائن خارج باب البراذعيين أحد أبواب العاصمة المكناسية الآن شمال المحل المعروف هناك ببرج العريفة يمتد عنه للغروب، وهو مشرف على حارة تاورا شمالا وعلى حارة بني موسى غربا، وبطرفه أعلى المحل المعروف بباب جمّال - بفتح الجيم وتشديد الميم - أشجار من اللوز والزيتون، وقرب برج العريفة المذكور أثر بناء قديم يعرف الآن بالفنيدق .

وأما قبور الشهداء المشار إليها فهي التي على يمين المار من الباب المذكور لضريح الولي الشهير مولانا عبد الله بن حمد، وعلى يسار المتوجه منها لباب تزيمي أحد أبواب العاصمة أيضا الذاهب في الطريق المعروفة بقصبة الأعواد تصغير قصبة، والمقابر المذكورة تحيط بها أطلال سور قديم وليس ثم أثر صومعة، أما المسجد فلا زال أثره قائم الأطلال ممتلىء بالأزبال والقذرات، موقعه على يمين الخارج من باب البراذعيين بمقربة من قبور الشهداء، وكان به أثر سقاية وقنوات، وربما لا زالت تحت الأزبال إلى الآن، ويطلق الآن اسم السوق القديم على محل بزرهون موقعه بالموضع المعروف باب الرميطة بين الزاوية الإدريسية ومدامر موساوة وحمراوة، والأمغاصيين، إلا أن ما وصف به ابن غازي السوق القديم لا ينطبق على هذا المحل .

فصل: قال في «الروض»: وكانت في المدينة بداوة ثم تمدنت واكتسبت حضارة، وزيد بعد [عام] الستمئة في جامعها الأكبر زيادة ظاهرة، وجلب إليها الماء على ستة أميال من عين طيبة الماء، عجيبة القدر بموضع يقال له تاجما، وأجري الماء إلى الباب [الشرقي] الجوفي من أبواب الجامع وسمي باب الحفافة، وكان متصلا بالباب الذي يسمي لهذا العهد باب الزرائعين، وبنيت قريبا من هذا الجامع دار للوضوء حفيظة على مثال دار الوضوء بفاس، وهذا كله في أيام الموحدين^(١).

وقال إن الإمام أبا زكريا الوطاسي لما دخلها في القرن التاسع جدد بعض رسومها الدارسة وأنشأ بجامعها المجلس المسمي بالأسبوع لكون القراء يختمون فيه القرآن العزيز في كل أسبوع، وأمر بتحويل باب الحفافة إلى قرب دار الوضوء الكبرى التي تقدم ذكرها، ورأي أن ذلك أنسب من الباب الجوفي الذي كان قبل ذلك للحفافة كما تقدم، فلما حفر الصنّاع في الباب الموالي لدار الوضوء المذكورة لينبوا به مجرى للماء وجدوا ذلك هنالك مبنيا بناء متقنا، ولم يكن عند أحد به علم، ولا بقي من مسني المدينة من عنده من ذلك خبر، فقضي الناس العجب من فطنة الأمير المذكور رحمه الله تعالى^(٢).

قال: ويقال بلغت عمارتها إلى أن كان بها أربعمئة مسجد قال الأستاذ ابن جابر: وحول كل مسجد سقاية فالله أعلم من خطه.

قلت: أما أبو زكريا الوطاسي فإن تعبير ابن غازي عنه بالإمام مشعر بأنه كان سلطانا ولم يحفظ التاريخ ذلك فيما علمناه، وأبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسي المريني الفاسي كان في القرن التاسع كما قال، ولكنه إنما كان وزيراً لعبد الحق المريني وكان عادلا، توفي قتيلا غدرا سنة اثنتين وخمسين وثمانمئة، أورد ذكره تقي الدين ابن فهد في لحظ الألاحظ بذيل طبقة الحفاظ^(٣).

(١) الروض الهتون - ص ٧٤ وما بين حاصرتين منه.

(٢) الروض الهتون - ص ٩٥.

(٣) لحظ الألاحظ - ص ٣٤٣.

وكذلك ولي الوزارة لمن ذكر ولده أبو زكريا يحيى بن يحيى المذكور، ولكن هذا لم يكن له من أفعال الخير ما يذكر، بل كانت وزارته شرا على الأمة وعلى عائلته بالخصوص حتى إن وزارته لم تدم إلا سبعين يوما وأعقبها ذبحه وذبح جمهور عائلته، وذلك سنة ثلاث وستين وثمانمائة.

وهناك أبو زكريا وطاسي ثالث، وهو أبو زكريا يحيى بن أبي عبدالله الوطاسي المدعو البرتقالي، وهو أخو السلطان أحمد الوطاسي إلا أنه إنما كان أميراً من قبل أخيه على القصر، توفي فيه أسر السعديين سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة فهو متأخر عن التاريخ الذي ذكره ابن غازي.

وفي كلامه السابق تنبيه على ما كان للمتقدمين من الاعتناء بالمشروعات، فانظر إلى الحد الذي بلغه اعتناء أهل الدين بحال تعبدهم وكل ما ينضاف إليها مما يتوقف عليه المتعبد، وناهيك بما قد بلغ من الاعتناء بماء عين تاجما المتقدمة الذكر من وقوع التحسيس على إصلاح مجاريه حتي لا يقع مانع من وصوله للمسجد الأعظم فمن ذلك دار بحومة القرسطون، إحدى حومات العاصمة، حبستها على ذلك امرأة مكناسية بتاريخ أوائل جمادى الأولى عام خمسة وعشرين ومائة وألف، وذلك في دولة السلطان مولانا إسماعيل، أما نفس العين فقد رأيت التصريح بأن إجراء مائها للمسجد المذكور كان في دولة الموحدين.

وكلام صاحب الروض في باب الحفاة أولا وثانيا صريح في أنه هو الذي أجري إليه الماء أيام الموحدين بعد الستمائة، وهو الواقع جوفي المسجد، ولا شك أن هذا الباب الجوفي هو المعروف بذلك الاسم الآن، وهو المقابل لعنزة المحراب المقابلة لمحراجه على ما في ذلك المحراب من تمام الانحراف عن القبلة.

وعليه فالتحويل الذي فعله الوطاسي لم يستمر، بل رجع بعد ذلك اسم باب الحفاة إلى مسماه أيام الموحدين، واستمر على ذلك إلى الآن وإن خلا عن

المناسبة المعهودة في مثله من أبواب حفاة المساجد، وهي إعطاء ذلك الاسم للباب القريب من باب ديار وضوئها.

وكأن موجب ذلك سهولة وصول الماء من صحن المسجد إلى الباب الجوفي لقربه منه واتصال الصحن به، بخلاف الباب القديم فإن وصول الماء منه إليه ملزوم بطرف من محصر المسجد والمرور المذكور ملزوم لتعاهده بالإصلاح عند موجه، والتعاهد المذكور من لازمه تعذر التعبد في ذلك الطرف من المسجد في أزمنته المتكررة عادة، وإن شئت قلت دائما نظرا لإدمان وجود بلل أقدام الحفاة فيما حاذي الباب المذكور للمسجد الموجب لتعفين حصر المحل بذلك وافتقاء المتعبدين لها، وقد تقرر أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وبه اتجه لك وجه تكرار النسخ في القديم واستمرار العمل على نسخه، مع وجود مناسبة وجه التسمية فيه دون الناسخ، على أن هذه المناسبة وإن فقدت في الناسخ فقد خلفتها فيه مناسبة أخرى وهي موافقته للمعهود في غالب أبواب حفاة المساجد الكبار من كونها جوفية، كبابي الحفاة في القرويين والأندلس بفاس، فإنها نافذة في الصحن وبهذا كله اتضح الحال، وانزاحت كل شبهة عن المجال.

وقول ابن غازي وكان متصلا... إلخ، اسم كان فيه لا يرجع لهذا الباب الذي أجري إليه الماء أيام الموحدين، وإنما يرجع للمسمي باب الحفاة قبل ذلك، وهو القديم الذي وجدت آثار كونه باب الحفاة حين أمر الوطاسي بالتحويل إليه كما بينه بعد، أي وكان باب الحفاة قبل ذلك متصلا... إلخ. فاهتدي إليه الوطاسي بوجود وجه التسمية فيه بعد ذهاب العلم بكونه كان هناك عن جميع أهل البلد من طول العهد بالتحول.

وهذا تسجيل من ابن غازي على أهل بلده بأن إهمال التاريخ بلية قديمة فيهم وفيه إيماء إلى إقامة العذر لنفسه حيث اقتصروا على ذلك التز في روضه هذا

وهو البحر علما، فيكون تقصير غيره معفوا بالأحري كما أومأنا لشيء من ذلك في ديباجة هذا الكتاب.

وبما تقدم بأن لك التثام كلام ابن غازي ومناسبة أوائله لأواخره ومطابقته للواقع الخارجي في كون باب الزرائعين المعروفة بذلك في عهده وكذلك في عهدنا هذا، كان متصلا بباب الحفاة القديم الذي اهتدي إليه الوطّاسي.

وزبدة الخبر أن باب حفاة هذا المسجد الجامع كان أولا هو المقابل لباب دار الضوء وهو المتصل بباب الزرائعين، ثم صار في أيام الموحدين هو الباب الجوفي الذي يدعي بذلك الآن، ثم رده الوطاسي إلى مسماه القديم، ثم رجع بعده في زمن غير معروف لدينا إلى الباب الجوفي، واستمر العمل على ذلك إلى الآن.

والماء الجاري لهذا الباب هو من الصهريج الصغير الواقع في صحن المسجد بمقربة من الخصة هنالك، ويعرف هذا الصهريج اليوم عند العامة بالكسيكيس بالتصغير، وماء هذا الصهريج يمر وسط المسجد في ساقية مزجلة غير مقبوة إلى أن يصل لباب الحفاة، والنهج الذي به هذا الباب يعرف في ماضي الأعصر بالشماعين، وفي حاضرها بقبة العطارين.

وأما مسمى باب الزرائعين فهو البويب الصغير المتصل بباب الحفاة القديم الشرقي المعد هو أي البويب المذكور لدخول المؤذنين ليلا للمسجد ولا أذكر الآن وجه إضافته للزرائعين.

وباب الكنيف المشار له قد حول منذ أعصر خوال وصار في محله، وكان للبيع والابتياح وأحدث لها باب بمنعطف الأصلي القديم، ولا زال قوس ذلك الباب ظاهرا للعيان في أعلى الدكان المذكور محدثا، كما أنه لا زال أثر قنوات باب الحفاة القديم ومحل انصباب فيض مائة للوادي المضاف الكبير المار بالشارع

العمومي إلى الآن، وقد كان باب الزرائعين الماء الجاري كماجوره المتصل به، وبقربه عن يمين داخله أمام درب الفَرَسْطُون - بفتح القاف والراء وسكون السين المهملة وضم الطاء بعدها واو ساكنة فنون - تنور كبير أي مجل يمتلئ من الماء الجاري في البابين المذكورين، وفي أعلى التنور ثقب نافذ لرحاب مستودع المسجد الأعظم يتناول منه الماء القيم بوظيف التوقيت والمؤذنون بحبل ودلو صونا لحرمة المسجد وأخذًا بالأحوط فيما عسي أن يحدث لهم من الحدث الذي لا يبيح دخول المسجد، ولا زالت تلك الآثار المقدسة إلى حد الآن.

ومن ذخائر هذا المستودع الموجودة به إلى الحين الحالي الأسطرباب^(١) البديع الشكل المتقن الصنع مرقوم فيه بخط كوفي ما صورته: الحمد لله حبس هذا الأسطرباب الباشا محمد بن الأشقر على منار الجامع الأعظم من محروسه مكناسة، انتهى.

وفيه بالقلم المشرقي: هذا حبس خديم المقام العالي المولى الإسماعيلي الباشا محمد الأشقر على منار الجامع الأعظم من محروسة مكناسة بتاريخ شقيح، انتهى.

وفي دائرته صنعه محمد بن أحمد البطوطي لطف الله به في سنة شقيح، انتهى.

قلت: والتاريخ المشار له بحروف لفظة شقيح (بشين معجمة فقفاء فياء ومثناة تحت فحاء مهملة) هو عام ثمانية عشر ومائة وألف.

وجملة أبواب المسجد المذكور الآن أحد عشر بابا الثلاثة السالفات الذكر وباب الحجر سميت بذلك لأحجار ثلاث مسبوكات كانت مغروسة بين بابي المسجد والمدرسة المعروفة الآن بالفيلالية وفيما سلف بمدرسة القاضي ومدرسة الشهود، يمر على تلك الأحجار المتوضئ بالمدرسة المذكورة إذا رام الدخول

(١) الأسطرباب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية. ومعرفة الوقت والجهات الأصلية.

للمسجد وكان لهذه الأحجار قِيم على تنظيفها كل حين، وله على ذلك جناية شهرية من الحبس المعين لذلك.

ولم تزل تلك الأحجار قائمة والقيَم على تنظيفها بالمرصاد طبق ما وصف إلى أن رصفت الدولة الحامية ذلك النهج كله بالحجر المنجور في الحين الحالي فأزيلت تلك الأحجار وانقطعت الجناية وأبطل العمل.

وباب الخضر وهو لا يفتح إلا يوم الجمعة ولا أدري ما وجه هذه التسمية ولا العلة في كونه لا يفتح إلا في يوم المذكور.

وباب تربيعة الذهب سمي بذلك لكونه في مقابلة تربيعة القيسارية المعدة الأزمنة الماضية لبيع الحلبي والجواهر الثمينة النفيسة، وكانت محكمة القاضي متصلة بهذا الباب في تلك الأعصر، وهي الآن دكان تباع بها أنواع المتاجر، وهذه الأبواب الخمسة كلها في شرقي المسجد بالنهج المسمى في الماضي بسماط الشهود وفي الحاضر بزقاق ساباط السبع - بسكون الباء.

وباب الخضارين وبجانبه متصلاً به بويب صغير يدخل منه النساء لصلاة الجمعة والمؤذنون ليلاً مثل باب الزرائعين، وهذان البابان هما المقابلان لباب مدرسة الخضارين، وكان بين باب الخضارين هذا وباب المدرسة قبالة حجارات بالأرض على نحو ما كان في باب مدرسة الشهود وباب المسجد قبالتها، وباب سماط الشهود الآن، ويقابل هذا الباب المكتب الذي كان محكمة القضاة فيما سلف، ولم يزل معداً لذلك إلى زمان تولية شيخ بعض شيوخنا العلامة المتضلع النقاد حامل لواء المعقول والمنقول في زمانه سيدي أحمد بن سودة المري خطه القضاء بالعاصمة، وهذا المكتب لا زال إلى الآن قائم العين وسط سماط العدول المذكور، وقد كان هذا السماط فيما سلف وغبر، مُعداً لبيع الخضر، ثم رجع سماطاً لباعة الحرير يعرف بالحرارين، ثم رجع سماطاً للعدول ولا زال كذلك إلى الحين الحالي.

وباب الكتب وإنما اكتسب هذه الإضافة لقربة من المكتبة العلمية، وهو الذي جعل بداخله شيخ الشيوخ القاضي ابن سودة المذكور المحكمة الشرعية بعد أن أهمل المكتب المعد لذلك لدي من تقدمه، ثم اقتفي أثره في اتخاذها لذلك نوابه ومن تولي بعده.

ولم تزل معدة لذلك إلى أن عينت الدولة الحامية المحكمة الشرعية أولا بدار اللب الشهيرة المعقبة على مؤذني الليل بالمسجد دون مؤذني النهار وقفت على رسم تحييسها ولفظه: الحمد لله حضر لدي شهيديه التاجر الأوجه الخير الدين الأرضي الأبر السيد الحاج مسعود ابن المرحوم بفضل الله تعالى السيد الحاج محمد اللب الأندلسي، وأشهدهما على نفسه أنه متي حدث به حادث الموت الذي لا بد منه ولا محيد لكل مخلوق حي عنه، فجميع داره الكائنة بقبلة المسجد الأعظم من الحضرة العلية بالله مكناسة المفتوح بابها للمر الكبير الطالع للحمام الجديد المجاورة له ولزنفقة المزطاري ولد دار حرزوز التي هي الآن على ملك ولد عمه الأرضي الماجد المرتضى الخير الدين السيد الحاج محمد بن إبراهيم اللب النسب تكون حبسا على جميع بنات صلبه، مع زوجه معتقته الحاجه عافية، من تأييت منهن واحتاجت للسكنى تسكن برأسها فقط من غير زوج ولا أولاد، فإن انقرضن عن آخرهن رجعت الدار المذكورة حبسا على أولاد السيد الحاج محمد بن إبراهيم اللب المذكور ذكورا وإناثا، للأنثى شطر ما للذكر في منفعة السكنى وتسكن برأسها من غير أولاد ولا زوج، ثم أولاد الذكور منهم ذكورا منهم وإناثا، ثم عقب الذكور على نحو ما ذكر ووصف طبقة بعد طبقة ما تناسلوا وامتدت فروعهم، ولا يسكن الأبناء مع الآباء ولا من هو أحط رتبة من الأعلى إلا من استحق السكنى لحاجة وفاقه، فيسكن مع من قبله إن حملتهم الدار، وإلا بأن كثروا فيخرج الغني للفقير ولو كان سابقا عنه، ولا يسكن من الإناث إلا من تأييت واحتاجت للسكنى تسكن برأسها فقط كما ذكر، وجميع من ذكر من المحبس عليهم أولا وآخرها يسكن الدار

بنفسه، ولا يكرري لأحد وإن اتسعت واحتاج لمن يسكن معه فيسكن من احتاج للسكني من الطبقة التي بعدها أو التي بعدها، ولا يكرري أحد لأحد فإن انقرضوا عن آخرهم والبقاء لله وحده رجعت الدار حبسا على مؤذني الليل بمنار المسجد المذكور يشتركون في ذلك على حد السواء، ولا يدخل معهم مؤذنو العشاءين في ذلك حبسا مؤبدا ووقفًا مخلدا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، إشهدا صحيحا طوعيا قصد به وجه الله العظيم والدار الآخرة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ولا يخيب لراجيه وقاصده أملا، شهد عليه بذلك عارفا قدره وهو بحال كماله وعرفه وفي أوائل جمادي الثانية عام خمسة وثلاثين ومائة وألف، انتهى.

عينت المحكمة الشرعية الدولة الحامية ثانيا من دور الحبس كان يسكنها في غابر الأعصر مزاور المؤذنين المكلف بالتوقيت وآلاته بالمسجد الأعظم، وآخر من سكنها من أولئك المكلفين السيد الجيلاني الرحالي وإن لم يعط وسم مزوار وبها توفي، كما سكنها قبله قاضي مكناس أبو محمد العباس بن كيران مدة، وكان بابها داخل باب الجنازات الخارجي أحد أبواب المسجد المذكور المقابل - هو أي الباب - لمسجد الحجّاج على يسار الداخل منه للمسجد، تفتّح دفة الباب على بابها رحم الله آبائنا المتقين، ما أشد اعتنائهم واحتياطهم لأمر الدين، اختاروا لسكني الموقت الذي عليه المدار في معرفة أوقات الصلوات التي هي من الدين بمنزلة الرأس من الجسد هذه الدار التي كادت أن تكون من نفس المسجد تسييرا عليه ورفقا به وجمعا له بين مصلحتي المحافظة على القيام بحق الرب المعبود وحق الأهل.

ولما عينت هذه الدار محكمة أغلق بابها الأصلي المشار وأحدث لها باب بالشارع العمومي المار وسط سماط العدول بين باب الكتب المذكور في جملة أبواب المسجد وباب الجنازات.

وهذه الأبواب الخمسة كلها في الجهة الغربية من المسجد الجامع وفي هذا المسجد العظيم المقدار ثريات ثلاثة من الصفر^(١) مكتوب بالدائرة الأولي من كبراهما: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا... إلخ السورة، وفي دائرتها الثانية بعد الاستعاذة والبسملة والصلاة عليه ﷺ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا... إلخ السورة، وفي دائرتها السفلي صنعت هذه الثرية بمدينة فاس حرسها الله للجامع مكناسة شرفه الله بذكره، وكان الفراغ من عملها في العشرين من شهر ذي القعدة عام أربعة وستمائة.

وفيه مائة وثلاثة وأربعون قوسا، ومن الأساطين مائة أسطوانة^(٢) وأربعة وثلاثة أسطوانة وهذا العدد غير شامل للأساطين الملصقات بالجدران.

فائدة: أول من أحدث الأساطين للظلال وهي بجانب مسقفة تظل الناس وتكنهم من الشمس والمطر عبد الملك بن مروان وذلك عام ثمانين، انتهى.

وفي المسجد من الصفوف المصطفة المتباعدة الأكفاف، البالغة في محاسن الأوصاف، تسعة الصف الأول منها عديم النظر في اتساع العرض، إذ عرضه ستة أمتار وأربعة وثمانون سنتيما^(٣)، وهذا القدر لم أر ما يحاكيه في عرض صفوف غيره من المساجد، نعم عرض الصف الأول من جامع المنصور بمراكش يزيد عليه بواحد وأربعين سنتيما إذ عرضه سبعة أمتار وخمسة وعشرون سنتيما، وطوله خمسة وسبعون متر، أما عرض صفوف جامع بني أمية بدمشق الشام فيفوق الجميع إذ عرض كل بلاط من البلاطات الثلاث نحو التسعة أمتار.

وطول مسجدنا المكناسي من جدار المحراب إلى العنزة تسعة وثلاثون مترا وعشرون سنتيما، وعرضه من الجدار الشرقي إلى الجدار الغربي أربعون مترا

(١) الصفر: النحاس الأصفر.

(٢) الأسطوانة: العمود والسارة.

(٣) أي سنتيمتر.

وخمسة وتسعون ستيما، وطول صحنه واحد وعشرون مترا وأربعة عشر ستيما، وعرضه سبعة عشر مترا وواحدا وأربعون ستيما، وعرض الجناح الأيمن خمسة عشر مترا واثنان وعشرون ستيما، وعرض الجناح الأيسر أحد عشر مترا وأربعة عشر ستيما، وعرض كل ربع من أرباع مناره خمسة أمتار وخمسون ستيما، وسعة كل جدار منها متر واحد وسبعون ستيما، وعدد درجها مائة درجة، وثلاث عشرة درجة علو كل درجة عشرون ستيما.

قال في الروض: وكانت الصاعقة نزلت أيامهم يعني - بني مرين - على صومعة جامعها أي مكناسة الأعظم والناس في صلاة العصر فقتلت نحو سبعة رجال وهدت بعض أركان الصومعة ودخلت في تخوم الأرض بباب بإزاء الصومعة يعرف اليوم بباب الزرائعين، فانتدب لبنائها شيخ الإسلام الفقيه أبو عمران موسى بن معلى المعروف بالعبدروسي، واستنجد أهل اليسار منهم فجمعوا من المال ما أصلحوا به ما انثلم من الصومعة المذكورة فيما حدثني به والذي والشيخ المعمر أبو زيد عبد الرحمن النيار موقت الجامع المذكور ومزوار^(١) مؤذنيها، انتهى. من خطه^(٢).

قلت: الصاعقة نار تسقط من السماء لها رعد شديد. قال في روح البيان: ولا دخان لها وتتوالد في السحاب، وهي أقوى نيران هذا العالم فقد تغوص في البحر، وتحرق الحيتان داخله، وعن ابن عباس رفعه: إن الملك الذي يسوق السحاب إذ اشتد غضبه طارت من فيه نار وهي الصاعقة. وعند الحكماء أنها أثر اصطكاك كهربائيتين إحداهما صاعدة والأخرى نازلة.

وعند النيسابوري في تفسير قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا... إلخ، إن القوى الفلكية إذا وقعت على العناصر بإذن الله فحركاتها وخالطتها حصل من اختلاطها موجودات شتى من سحاب ومطر وطل وثلج وبرد

(١) مزوار: هذه التسمية انفردت بها بلاد المغرب، وصاحبها بمثابة صاحب الحسبة في قبيلته.

(٢) الروض الهتون - ص ٩٣.

وريح ورعد وصواعق، وبعد أن بين كيفية تولد ذلك قال: فهذا القدر من الحقائق في هذا المقام لا ضير في معرفتها، بعد أن يعتقد انتهاء أسبابها إلى مدبر الكل سبحانه، انتهى. ونبه بهذا على رد ما شرحه الحكماء الفلاسفة في هذه الحقائق إلى الأصل الأصيل الديني من أنه لا فاعل إلا الله سبحانه، وأن ذلك لا ينافي إجراء الموجودات على ما تقتضيه الحكمة من قرن الأمور بأسبابها العادية.

وقد أشار لمثل ذلك الرازي أيضا عند قوله تعالى: هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا... إلخ، وإن أنكر ذلك عليه أبو حيان قائلا: هذا الرجل غرضه جريان ما تتحله الفلاسفة على مناهج الشريعة وذلك لا يكون أبدا، انتهى.

وبحثه هذا مع الرازي غير وجيه، لأنه لم يقصد تنزيل كلام الحكماء من حيث كونه رأيا لهم على مناهج الشرع، وهم لا يرون ذلك، ولا يقولون بالفاعل المختار وينسبون الأفعال للطبيعة، بل قصده ربط المسببات بأسبابها، وأما ما قدمناه عن النيسابوري فهو بيان لكيفية ربط هذه المسببات بأسبابها العادية التي اقتضتها الحكمة الإلهية وأتقنت كل شيء صنعا من غير تعريج على نسبة ذلك لرأي الحكماء، بل مع التصريح بمنافيه وهو كونه فعلا ومن آثار قدرته وبديع حكمته.

وحيتذ فبحث أبي حيان مع الرازي لا يرد على النيسابوري وعلى ذلك والله أعلم حمل الشيخ زكريا والحافظ السيوطي صنيع البيضاوي في تخريجه أي التزليل في هذه الحقائق على مثل الكيفية التي شرحها النيسابوري، ولذلك أرى كلامه في حواشيهما على تفسيره، وبه يجاب عن تعقب الإبريز بقوله: على ناصر الدين البيضاوي درك في تفسير قوله تعالى: وينزل من السماء من جبال فيها برد بطريقة الفلاسفة، والعجيب من سكوت الحافظ السيوطي في الحاشية على ذلك وكذا شيخ الإسلام زكريا في حاشيته عليه، انتهى. فليتأمل.

قبل والصاعقة تسقط عادة على أرفع شيء وخصوصا البارز كالجبال دون الأرض السهلة والحارة، وقد يؤيد ذلك نزولها هنا على خصوص الصومعة المرتفعة

لكن قال في الإبريز: القول بأن الصاعقة لا تنزل في الأرض السهلة المستوية الحارة غير صحيح، فإننا شاهدناها تنزل في سلجماسة وهي أرض مستوية سهلة حارة صحراء، ولا أحصي كم شاهدناها تنزل فيها.

وقد ذكر السيد في شرح المواقف أن صبيا كان في صحراء فأصاب رجله صاعقة فسقط ساقاه ولم يخرج منه دم، وقد ذكر المفسرون نزولها في الصحراء عند قوله تعالى: ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، انتهى. وترجمة أبي عمران العبدوسي تأتي بعد.

وطول محراب مسجد هذه الصومعة متران اثنان وثمانون سنتيما وعرضه متر واحد وسبعون سنتيما.

وفي الجهة الغربية منه المكتبة العلمية الجامعة لمحاسن الكتب القديمة لولا اختلاس جُلِّ نفائسها ومد اليد العادية في ذخائرها الثمينة وإضاعة باقيها من ولاية الأحباس بعدم التعاهد والإصلاح أولا وتعطيل منفعتها بغلق أبوابها عن القراء ثانيا، حتى آل الأمر بسبب ذلك إلى أن صار الكثير مما بقي من كتبها التي يعز أن توجد في غيرها إلى حد لا ينتفع به أصلا لتمزقه وتلاشييه ووضعه في محل الكناسة والأزبال، وذلك من المفاسد التي لا تباح.

ومن العظائم التي أوقعت في الجناح، مع كون جانب الحبس غنيا، وبتجديد ذلك ورده إلى حال شبابه مليا، وهلا أيقظ ولاية الأحباس فعل الدولة الحامية فيما شيدته من المكتبة العلمية العديدة الماثل بالمدرسة العليا بعاصمة الرباط وجلبت إليها نفائس الكتب المغربية وغيرها، ونصبت بها القيمين المهرة الحازمين المتلقين للقراء في كل حين بأوجه ضاحكة، مع تسهيل مناولة مقصد القارئ منها وإعانتته على نيل بغيته، مع أنك إذا نظرت في مصارف الأحباس تجد الكثير منها يخرج في مقابلة لا شيء، إنما هي أسماء لا حقيقة لمسمياتها، كما تجد العدد الوافر منها

يخرج فيما لا أهمية له في نظر المحبس ولا في نظر الشرع، رد على ذلك وقوع التعذير في كل حين في غير المرموق بعيون أولي الأمر من المساجد ورباعها، فإذا تهدم جانب أو منفعة من منافعه أو ربع ينتفع به فيه مما هو بعيد عن النفات من ذكر ترك نسيا منسيا، حتى تعمل في مجموعته عوامل الخراب ولا يبقى له رسم ولا ظل والأمر لله من قبل ومن بعد، اللهم يا مولانا وفق ولاية أمرنا لما فيه حياة شعبنا، وصلاح ديننا وسددهم وأعنتهم على ذلك.

وأما مجلس الأسبوع الذي ذكر ابن غازي أن الوطاسي أحدثه، فهو الذي في أعلى ساباط الأسبوع المحمول على الجهة العليا من الجدار الشرقي للمسجد الجامع المذكور، وعلى الجدار المقابل لذلك من جدارات مدرسة القاضي المشار لها، وباب هذا المجلس هو في الصف الأول من المسجد، وقد بين ابن غازي وجه تسميته بذلك فيما مر عنه، لكن ذلك الوجه لم يستمر بل خلفه وجه آخر وهو قراءة سبع القرآن به في المصحف الذي حبسه جدنا من قبل الأم فخر الدولة العلوية بعد جده مولانا إسماعيل سيدي محمد بن عبدالله، فمن مناقبه - قدس الله روحه - تحبسه لمصحف عتيق بخط بارع، تراجمه وسوره وأجزاؤه بالقلم الكوفي الذي لا يوجد له مثيل، سفره من ألواح الساج البديع المرصع بالصفائح المموهة بالذهب اللطيفة الشكل، قرأت عقد تحبسه بأول ورقة من ذلك المصحف بتاريخ الثامن عشر من رجب عام سبعة وسبعين ومائة وألف، على خزانة الجامع المذكور.

وفي هذا المصحف كانت تكون قراءة السبع الواحد من القرآن بالمجلس المذكور كل يوم، وافتتاح أولها يوم السبت، وختم آخرها عند جلوس الخطيب على المنبر يوم الجمعة، وتقسيم هذه السباع على النهج المبين في قول القائل:

فإن تشأ فقف على ما قد وقف	عليه خير مرسل مع السلف
وذاك في العقود لا النساء	ويونس وسورة الإسراء
والشعرا وسورة اليقطين	وقافها واختم بالتبيين

ومعنى هذه الأبيات إن أردت أيها القارئ المتعبد بالتلاوة موافقة السنة وعمل سلف الأمة في تعبدك وتلاوتك، فقف وقفا ليس بالواجب عليك في يوم افتتاحك على سورة العقود، وفي ثانيه على سورة يونس، وفي ثالثه على سورة الإسراء وفي رابعه على سورة الشعراء، وفي خامسه على سورة اليقطين، وفي سادسه على سورة قاف، وفي سابعه يكون الختم ويدل لهذا ما في النوع الخامس والثلاثين من الإتقان من أن قراءة القرآن في سبع هي أوسط الأمور وأحسنها، وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم، وما أخرجه الشيخان عن عبدالله بن عمرو، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر، قلت: إني أجد قوة، قال: اقرأه في عشر، قلت: إني أجد قوة قال: «اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك».

وما أخرجه أبو عبيد وغيره من طريق واسع بن حبان^(١)، عن قيس بن أبي صعصعة وليس له غيره أنه قال: يا رسول الله في كم اقرأ القرآن؟ قال: «في خمسة عشر قلت: إني أجد أقوي من ذلك، قال: اقرأه في جمعة».

وقول ابن أبي زيد في الرسالة ومن قرأ القرآن في سبع فذلك حسن، انتهى.

قال الشيخ زروق: يعني أن الختم في كل أسبوع حسن، وعلى ذلك كان السلف فممنهم من يجعلها بين الليل والنهار، ومنهم من يجعل ختمه بالليل وختمه بالنهار فيختمون الليله ليلة الجمعة، والنهارية يوم الاثنين، ويكون ذلك أول الليل وأول النهار يستغفر له الملائكة في بقية يومه، وقد اختلفت طرقهم في التجزئة وأحسنها في اليوم الأول ثلاث سور، وفي الثاني خمس، وفي الثالث سبع، وفي الرابع تسع، وفي الخامس إحدى عشرة، وفي السادس ثلاث عشرة، وفي السابع يختم بقيته إلى أن قال: ومنهم من يجزئ بالأحزاب والآي ونحو ذلك، وكل واسع وفعل السلف أحسن.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء: «قيل إن أحزاب القرآن سبعة،

(١) بفتح المهملة ثم موحدة ثقيلة، قيده ابن حجر في التقریب - ص ٥٠٩.

الحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثاني خمس سور، والحزب الثالث سبع سور،
والحزب الرابع تسع سور، والخامس إحدى عشرة سورة، والسادس ثلاث عشرة
سورة، والسابع المفصل من قاف هكذا حزبه الصحابة، وكانوا يقرءونه كذلك» .

قال العراقي في حديث تحزيب القرآن سبعة أحزاب رواه أبو داود وابن ماجه
من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه قال أوس فسألت أصحاب رسول الله
ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا ثلاثا وخمسا وسبعا وتسعا وإحدى عشرة وثلاث
عشرة وحزب المفصل .

وفي رواية للطبراني فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ كيف كان رسول الله
ﷺ يحزب القرآن؟ فقالوا كان يحزبه ثلاثا فذكره مرفوعا وإسناده حسن، انتهى .

وقال أبو حامد أيضا ينبغي أن يكون الختم ما بين الشهر إلى الجمعة فيكون
إذا أبطأ ختم القرآن في الشهر مرة، وإذا عجل لم ينقص من الجمعة .

ولم يزل العمل مستمرا على قراءة ذلك المصحف بالمجلس المذكور ويختم
في كل أسبوع كما تقدم إلى زمن نظارة ابن عمرو على الأحباس بمكناسة، وقد
كان ناظرا عليها في دولة الأمير المطاع الأمر مولانا الحسن قدس الله روحه في
فرايس الجنان، وابن عمرو هذا، هو الحاج محمد بن عمرو الصنهاجي أصلا،
المكناسي نشأة ودارا ووفاة، كان من رؤساء مكناسة وذوي الوجاهة بها والصيت
الدائع والثروة ذات البال بالنسبة لأهل جلده، تقلب في عدة وظائف مخزنية منها
ولاية رئاسة الأمانة على الأملاك المخزنية، ومنها الولاية على البناءات السلطانية
الحسنية، ومنها الولاية على غير الرشاء من أولاد أفراد أعيان العائلة الملوكية لما
كان له عند الجلالة السلطانية من المكانة، والحمل على الصدق والأمانة، ومنها
ولاية النظر على عموم الأوقاف المكناسية والزرهونية مما عدا الزاوية الإدريسية فقد

كان لها ناظر مستقل، اتفق فى نظارته أن مات القيم بالأسبوع المذكور فى المجلس المشار وحين رام من له النظر فى الأمور الشرعية بمكناس وقتئذ إقامة خلف للقيم المذكور وأمر الناظر أن يجرى له من الأحباس مثل ما كان لمن قبله زعم أن القيم السابق لم يكن له راتب معين فى الحبس، وإنما كان متطوعاً، فكان فى جوابه هذا وامتناعه من دفع الإعانة إبطال ذلك المشروع الحسن، فى ذلك المجلس المستحسن نعم ذلك المجلس هو وإن هجر عن المشروع المتقدم فقد تلافته بقايا السعادة بأن جعل الآن مكتبة علمية على ما سبق فيها، ونسيت المدرسة المتقدمة الذكر للقاضى لكون القاضى أبى على الحسن بن عطية^(١) الونشريسى كان يدرس بها، وأضيفت للشهود لأنها كانت بأعلى سماتهم وهو محل باعة الخضر الآن ويعرف بنهج الخضارين كما تقدمت الإشارة لذلك.

ومؤسس هذه المدرسة هو أبو يوسف المرينى^(٢) كما سيمر بك قريباً، وأضيف الساباط للأسبوع لارتفاع المجلس الأسبوعى السالف الذكر عليه.

وبالمدينة اليوم من المساجد ما بين صين وساقط ومتداع للسقوط نحو ثمانية وسبعين والباقي من العدد السابق عن ابن غازى، منه ما صار دوراً، وبساتين وقصوراً، ومنه ما اندثر ولم يبق له خبر ولا أثر.

والمعد للخطبة منها اليوم اثنا عشر مسجداً ودونك عدّها: ١ المسجد الأعظم المعروف بالجامع الكبير، و٢ المسجد العتيق وهو المعروف بجامع النجارين، و٣ جامع الزيتونة، و٤ جامع باب البراذعين، و٥ مسجد سيدى عبد القادر العلمى، و٦ مسجد سيدى سعيد، و٧ مسجد القصبة السلطانية، و٨ مسجد قصبة هدراش ويعرف بجامع لال خضراء، و٩ مسجد الأزهر الموسوم بجامع الأروى، و١٠ مسجد قصبة بريمة، و١١ مسجد السيد الحاج القدوة الولى الشهير، و١٢ مسجد بقصبة تولال.

(١) فى المطبوع: «أبى الحسن بن عطية» وصوابه لدى الونشريسى فى وفياته فى موسوعة أعلام المغرب ٦٩٢/٢. وانظر لذلك أيضاً: الروض الهتون - ص ٨٨.

(٢) الروض الهتون - ص ٨٨.

وبها من الصوامع التى ينادى بها للصلاة ثمانية وعشرون: ١ صومعة العتق وهو جامع النجارين، و٢ صومعة المسجد الأعظم، و٣ صومعة جامع الزيتونة، و٤ صومعة جامع باب البراذعيين، و٥ صومعة سيدى أحمد بن خضراء، و٦ صومعة سيدى عبد القادر العلمى، و٧ صومعة جامع الصباغين، و٨ صومعة جامع التوتة، و٩ صومعة جامع براكه، و١٠ صومعة جامع ابن عزو، و١١ صومعة جامع الزرقاء، و١٢ صومعة جامع الساباط، و١٣ صومعة سيدى الياورى، و١٤ صومعة جامع القصبة المعروف بلال عودة، و١٥ صومعة الضريح الإسماعيلى، و١٦ صومعة باب مراح، و١٧ و١٨ صومعتان اثنتان بدار المخزن السعيدة، و١٩ صومعة جامع قصبة هدراش المعروف بلال خضراء، و٢٠ صومعة جامع الأروى، و٢١ صومعة سيدى سعيد، و٢٢ صومعة جامع الدار البيضاء بآجدال، و٢٣ صومعة سيدى الحاج القدوة، و٢٤ صومعة بريمة، و٢٥ صومعة جامع سعدون، و٢٦ صومعة سيدى الورزىغى، و٢٧ منار جامع تولال، و٢٨ منار جامع جراوة بالجبابرة.

وبها من السقايات نحو السبعين والباقى أسمى فى خبر كان والبقاء لله وحده.

فصل: قال فى «الروض»: وكان بهذه المدينة فى أيام الموحدين ثلاث حمامات البالى والجديد والصغير، وهى باقية لهذا العهد، وكان أحدث فيها أبو زكريا يحيى بن غُنْصَالْبَه المهاجر المعروف بابن أخت ألفنش فى العشرة الثانية من القرن السابع حماما كبيرا حفيلا محكما فجاء فى غاية الإتقان، وكان أبو زكريا هذا فنشياً، هاجر إلى سلطان الموحدين واستوطن مكناسة مظهراً لدين الإسلام، وكان يسكن بها فى دار كبيرة بشرقى الجامع الأعظم مقابلة لأحد أبوابه تنسب لعلى بن أبى بكر أحد حفاظ الموحدين، [كان] قد ولى العمل بها، وكان أبو زكريا

هذا قائد فرسان يتصرف فى ردع شرار البربر الرحالين، وكان فى زى الموحدين فاعلا للخير محبا فى أهله، وله فى إحداث هذا الحمام مناقب اشتهرت عنه من إرضائه أصحاب الديار التى اشتراها لذلك فى أثمانها وغير ذلك، وعمر هذا الحمام ما شاء الله ثم خرب منذ زمان، وآثاره باقية لهذا العهد عند سوق الغزل منها، وفيه يقول الأستاذ أبو عبد الله بن جابر فى رجزه المسمى بنزهة الناظر:

وإنما الحمام كان الفنش ذاك الذى إذ كان كان العيش

إلى أن قال وقد كان الشيخ أحمد اللحيانى الورتاجنى أيام قيامه بمكناسة أحدث بها حماما حول داره ودثر بعده، ثم عمر لهذا العهد ينسب إليه فيقال له حمام المربنى، وهو الآن رابع حماماتها، انتهى. من خطه^(١).

قلت: قوله غُنْصَالِه هـى - بضم الغين المعجمة وسكون النون وفتح الصاد مشبعة بعدها لام ساكنة فباء مفتوحة فهاء سكت - هكذا ضبطه بخطه.

وسلطان الموحدين الذى كان فى العشرة الثانية من القرن السابع هو المتصر باللة بن الناصر بن يعقوب المنصور، وأما الحمام البالى فإنه لا زال قائم العين إلى الحين الحالى، إلا أنه لا يعرف اليوم بهذا الوصف، وهو المعروف بحمام مولاي عبد الله بن أحمد، ويدل لذلك تصريح بعض المقيادات الحبسية الموثوق بصحة خبرها بذلك ودونك نصها: ومنها أى من العقارات الحبسية الكوشة المتصلة بالحمام البالى المعروف بحمام مولاي عبد الله بن أحمد، انتهى.

وأما الحمام الجديد فإنه لا زال قائم العين معروف الاسم إلى الآن.

وأما الحمام الصغير فلانى لم أقف على تعيين مسماه الآن، إلا أن الغالب على الظن أنه حمام التوتة، إذ هو أصغر حمام يوجد فى البلد مع ظهور قدمه.

وأما حمام أبى زكرياء الفنشى فقد قال بعض من تأخر زمانه فى طرة قيدها

(١) الروض الهتون - ص ٧٥ وما بين حاصرتين منه.

على كلام «الروض» هنا ما لفظه: أدركنا هذا الحمام وقد اتخذ معصرة للزيتون، وبقي كذلك سنين متطاولة والآن جعل محلا لعمل البارود بسويقة باب البراذعين فى قبلة ضريحى الولين سيدى عبد الله الدراوى وسيدى أحمد بن خضراء نفع الله المسلمين ببركاتهما، وما زال الحمام على قبتين محكمتى البناء على أعمدة من الحجر المنحوت، انتهى.

قلت: هذه الأوصاف تنطبق تمام الانطباق على المعصرة القائمة العين الآن المجاورة للفرن الكائن بالسويقة المذكورة المعروفة اليوم بسويقة جباله، ولا زالت إحدى القبتين شاخصة إلى الآن بالمعصرة المذكورة ولم يبق أثر لتلك الأعمدة الحجرية، نعم يوجد ثمَّ بناء بالحجر المنحوت لا يبعد أن يكون هو حجر تلك الأعمدة، كما أن الذى تعطيه القرائن أن ذلك الفرن المتصل بها هو عين القبة الثانية هدمت وبني الفرن فى محلها والله أعلم.

وأمام حمام المرينى فهو الحمام المعروف اليوم بحمام السويقة ويستفاد ما يدل لذلك من بعض التقايد الحبسية الموثوق بخبرها أيضا، إذ فيها تجوير درب الست هنو بحمام المرينى والحمام المجاور لذلك الدرب هو حمام السويقة.

وأما سوق الغزل بالمحل الذى أشار له ابن غازى فلا يعرف الآن، والذى أدركناه موضعه بمقبرة سيدى أحمد الدراوى التى كان يخرج إليها من الباب الذى كان بوسط العشابين خارج باب بريمة، وقد حول حين حلت الفتن وكثر الهرج أواخر الدولة العزيرية إلى زاوية من زوايا بطحاء الهديم وأغلقت باب المقبرة المذكورة خوف هجوم الرعاع على العاصمة منها، وكان غلق هذا الباب فاتح واحد وعشرين وثلاثمائة وألف،- ولا زال سوق الغزل يعمر بالهديم إلى الآن كل صباح.

هذا وعدد حمامات المدينة اليوم أحد عشر ودونك أسماءها: ١ حمام سيدى

ملوك، ٢ حمام التوتة، ٣ حمام تربيعين، ٤ حمام السويقة، ٥ حمام مولاي عبد الله بن أحمد، ٦ حمام باب البراذعين، ٧ حمام مولاي إسماعيل، ٨ حمام لال خضراء، ٩ حمام جامع الزيتونة، ١٠ حمام الجديد، ١١ حمام الحرة ويعرف بحمام سيدى عمرو بو عوادة، ويمكن أن تكون الحرة التى أضيف إليها هذا الحمام هى أم أيمن بنت على البطوئي^(١) أم السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني لأنه كثيرا ما تذكر فى الكتب التاريخية بالحرة والله أعلم.

والذى يعين أنه هو المضاف اليوم لبوعوادة الولي المتبرك به هو ما فى «ممتع الأسماع» ولفظه: أبو حفص عمرو بن عوادة دفين حومة حمام الحرة من مكناسة، وأما الدار التى كان يسكنها الفنشى فوصف ابن غازى لها يقضى بأنها فى موقع مدرسة الشهود المتقدمة الذكر، أو سوق البز المعروفة بالقيسارية.

وعدد دور المدينة الآن ثمانية آلاف دار وخمسمائة وخمسة عشرة دارا.

وعدد دكاكينها أربعة آلاف تقريبا.

وعدد حوماتها تسعة وعشرون وهى حومة حمام الجديد، وزقاق القلمونة، وأروى مزيل، وجامع الزيتونة، وقعر وردة، وفرن النواله، وسيدى أحمد بن خضراء، وعقبة الزرقاء، والتوتة، وتزيمى الكبرى، وتزيمى الصغرى، وجناح الأمان، وزنيقة الأنوار، وجامع النجارين، وظهر السجن، والصباغين، وبريمة، وقصبة هدراش، وباب مراح، وسيدى عمرو الحصينى، وسيدى النجار، والدريية، والستينية، والدار الكبرى، والأروى، والجبابرة، وبنى محمد، والدار البيضاء، والملاح.

وأما بالنظر إلى التقسيم فمكناس كغيره من مدن الإيالة ينقسم كما فى البستان، فى تخطيط البلدان، ثلاثة أقسام: القصبة المولوية، والمدينة الأصلية، والملاح، والسور محيط بالجميع.

(١) بضم الطاء مشددة، فواو وهمزة قبل ياء النسب، قيده صاحب نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٣/ ١٢٨٥.

وعدد أرجاء الماء بها اليوم اثنتان وأربعون، وعدد الأفران اثنان وثلاثون، وعدد الطرازات المعدة لنسج الصوف ثمان وعشرون، وعدد الإصطبلات تسع وأربعون، وعدد معامل الزليج والأواني الخزفية وما شاكلها تسعة عشر.

وعدد سكانها من الأهالي ثمانية وعشرين ألف نسمة ومائتان وسبع على ما أنتجه الإحصاء الأخير، والذي يظهر من تساهل المكلفين بهذا الإحصاء وعدم ضبطهم أن عدد السكان يزيد على ذلك بما ينيف على العشر، وأما عدد سكانها من الإسرائيليين فخمسة آلاف وسبعمائة وثلاثة وستون، وأما سكانها من الفرنسيين المدنيين فألف وتسعمائة، وأما سكانها من الأجانب غير الفرنسيين فسبعمائة وتسعة وخمسون، فجميع السكان على هذا ست وثلاثون ألفا وستمائة وتسع وعشرون، وقد أشرنا إلى أنه لا معول لمن رام التحقيق على هذا الإحصاء فقد أغفل أهله عائلات كثيرة من الأهالي والأجانب.

فصل: قال ابن غازي: وذكر ابن خلدون أن السلطان أبا يوسف المريني لما فرغ من بناء البلد الجديد المسمى بفاس الجديد، أمر ببناء قصبة مكناسة، انتهى من خطه^(١). زاد غيره وجامعها، انتهى. أي أمر ببناء جامع القصبة معها، وزاد ابن خلدون فشرع في بنائها من سنته، انتهى. يعني سنة أربع وسبعين وستمائة كما بينه هو وابن أبي زرع وغيرهما.

والشروع في بناء فاس الجديد اتفقت كلمتهم على أنه كان في شوال من السنة المذكورة زاد في «روضة النسرين» وغيرها أن ركوب ابن يوسف من القصبة القديمة بفاس وخروجه لتأسيس فاس الجديد وحفر، أساسه كان ضحى يوم الأحد ثالث شوال عامه، وزاد ابن أبي زرع أن أمره ببناء قصبة مكناسة كان في شوال المذكور.

قلت: فعلى هذا كان الشروع في فاس الجديد والفراغ منه في ظرف نحو العشرين يوما لا غير، وهو في غاية البعد، والذي عند ابن خلدون أن كمال

(١) الروض الهتون - ص ٨٧ - ٨٨.

بناء المدينة المذكورة وسكنى الأمير المذكور بها كان سنة أربع وسبعين وستمائة، انتهى.

فلم يصرح باليوم والشهر اللذين كان فيهما ذلك، فجاز أن يوافق ما صرح به ابن أبى زرع، وجاز أن يخالفه وهو الظاهر، ويعضد ذلك ما فى الحلل الموشية لابن الخطيب، وهذا لفظ ما فى النسخة المطبوعة الآن منها، وفيها أى فى سنة أربع وسبعين وستمائة ابتدئ بناء البلد الجديد بخارج مدينة فاس وهو المدينة البيضاء وتم فى ذى الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة، انتهى.

والظاهر صحة ما قاله ابن الخطيب، فإن العادة فى البناء الكثير وخصوصا مدينة أن لا يتم إلا فى أعوام، وسيمر بك أن مدة بناء سيدنا الجدد المولى إسماعيل للقصر الكبير بمديتتنا مكناسة ثمانى سنين مع ما كان عليه من ضخامة الملك وشدة الحرص على البناء، مما لا يساويه فيه بل ولا يدانيه بانى فاس الجديد، وسيمر بك فى كلام الزيانى وغيره شاهد ذلك، وفى كلامه زيادة على ما لابن خلدون بتعيين الشهر الذى وقع الفراغ من بناء فاس الجديد فيه وهو ذو الحجة، وفيه مخالفة أيضا لابن أبى زرع فى وقت الشروع فى قبة مكناسة، فصريح كلام ابن أبى زرع أنه كان فى شوال، ومقتضى ما لابن الخطيب أنه فى ذى الحجة وهو الظاهر والله أعلم.

ثم هذه القصة قبة مكناسة المحدث عنها لم يتنازل أحد من المؤرخين فيما رأينا للتصريح بما يحقق تحديدها وتفصيلها، غير أن الشواهد والقرائن التى تعطيها نصوصهم ترشد إلى أن موقعها كان فيما بين منتهى جامع القصة المعروف بهذا الاسم قديما وحديثا وبجامع لآل عودة أيضا، وبين السور الواقع بإزائه الذى هو آخر القصة الإسماعيلية المحيطة بالقصور الملوكية المعدة لسكنى العائلة الآن.

وأما تحقيق حدود القصة المرينية فى هذه المساحة التى أرشدت إليها قرائن

نصوصهم وكذلك الجزم ببقاء شيء من عينها بعد الإضافات الكثيرة والتجديدات الهائلة التي أنشأتها الهمة الإسماعيلية هناك، فهو مما لا سبيل إليه في هذه الأزمنة الحاضرة، وحسب الواقف هنا قبول هذا الخبر التاريخي من غير تطلب لمطابق له خارجا، وسنأتى بحول الله من تفاصيل تأسيسات الجد مولانا إسماعيل وهائل تخطيطاته في قصبته ما يزيح عنك البين، ويدفع عنك فيما سطرناه المين.

نعم جامع القصبة المذكور سيأتى لنا ترشيح أنه هو جامعها المرينى المأمور ببنائه معها، وإن كنا لا نجزم بأن البناء الموجود فيه الآن هو الأصيل وسننبه على ما عينه النص فيه أنه من الأعمال الإسماعيلية أو غيرها والله أعلم.

وأبو يوسف بانى القصبة المذكور، هو أمير المسلمين يعقوب بن الأمير أبى محمد عبد الحق الزناتى المرينى وهو سادس سلاطين الدولة المرينية لقبه القائم بأمر الله والمنصور بالله، مولده سنة تسع وستمائة، وبويع سنة ست وخمسين، وتوفى سنة خمس وثمانين وستمائة، فعمره خمس وسبعون سنة، ومدة ملكه تسعة وعشرون سنة وستة أشهر واثنان وعشرون يوما، كذا فى «روضة النسرين».

وما ذكره فى هذه ملكه يقتضى أن مبايعته كانت قبل فاتح عام ستة وخمسين بستة أشهر، وهو مخالف لما تقدم عنه من أنها سنة ست وخمسين فاعرفه.

صفته: أبيض اللون، تام القد، معتدل الجسم، حسن الوجه والصورة، واسع المنكين، أشيب كأن لحيته قطعة ثلج من بياضها ونورها وإشراقها، وكان شجاعا حازما، من فضائله أنه لم تهزم له راية ولم يقصد عدوا قط إلا قهره، ولا جيشا إلا هزمه، ولا بلداً إلا فتحها.

استرجع سَلاً من يد الإصبان فى ظرف أربعة عشر يوما من احتلالهم بها وذلك سنة ستمائة وثمان وخمسين، وانتصر عليهم الانتصارات الباهظة وغنم غنائم طائلة، وقد نقل بعد وفاته فدفن فى روضة شالة من رباط الفتاح.

تنبيه: قال ابن أبي زرع: ومن تابعه ومن سعادتها يعنى فاسا الجديد وسعادة طالعتها أنها لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء إلا نصر، ولا جيش إلا ظفر، انتهى.

وأقول كم لواء خرج منها فكسر. وجيش فهزم ودمر. والعيان أكبر شاهد وحسبك ما وقع أواخر الدولة العزيرية فى فتنة أبى خمارة التى قضت على ما كان من بقية الرmq بالمغرب، وسيمر بك بحول الله وقوته تفصيل ذلك، نعم إن قصرت تلك المقالة على ما سلف كما هو مقتضى ظاهر لفظها فلا بحث إلا من جهة أن المقالة تقتضى أن عدم وقوع ذلك فى سالفه لأجل خصوصية هناك، مع أن ذلك إنما كان اتفاقيا وإلا لدام، والله أعلم.

ثم قال فى الروض: وبنى السلطان أبو يوسف أيضا بمكناسة مدرسة الشهود التى بأعلى سماطهم هنالك، ويقال لها مدرسة القاضى، لأنها كان يدرس بها القاضى أبو على الحسن بن عطية الونشريسى وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى، ثم نوه بها أبو الحسن المرينى المسمى بأبى الحسنات الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس، فبنى فيها مرافق كثيرة كزاوية القورجّة، وزاوية باب المشاورين وغير ذلك من السقايات والقناطر فى طرقاتها ونحوها، ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة، وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة أبا محمد عبد الله بن أبى الغمر^(١).

فحدثنى والدى - رحمه الله - أنه كان يسمع ممن أدرك من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن رحمه الله تعالى لما أخبر بتمام بنائها جاء إليها ليراها، فقعد على كرسى من كراسى الوضوء حول صهريجها، وجئ بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرقها فى الصهريج قبل أن يطالع بما فيها وأنشد:

لا بأس بالغالى إذا قيل حسن ليس لما قرت به العين ثمن

(١) الروض الهمون - ص ٨٨.

(٢) الروض الهمون - ص ٩٠.

ولما ولى بعده ولده أبو عنان نوه بها أيضا وتفقد أحوالها، وكان من جملة ذلك أن أمر بالاختصار على عشرة من الشهود بها وعزل الباقيين على كثرتهم، انتهى من خطه^(١).

قلت: أما مدرسة القاضى فقد قدمنا بعض ما يتعلق بها وهى المعروفة اليوم بالمدرسة الفيلاية، وكأنها تنسب لمن كان يسكنها من طالبى العلم أهل تافيلالت، وقد نبهنا فيما سبق على أن سماط العدول حول عنها للدكاكين المسندة للجهة التى عن يمين المصلى بالمسجد الأعظم.

وأما أبو الحسن المرينى فهو السلطان أبو الحسن على بن السلطان عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى لقبه المنصور بالله، مولده فى صفر سنة سبع وتسعين وستمائة، وبويع يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وتوفى بجبل هنتانة ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقبرة السعديين الشهيرة بمراكش يوم الأربعاء التالى ليوم وفاته المذكور، ونقل إلى تربة أسلافه بشالة فى اليوم السادس عشر من جمادى الأولى من العام المذكور حسبما هو منقوش فى رخامة على القبر الذى نقل منه بالروضة المذكورة قد وقفت على ذلك بنفسى، ورأيت به عين رأسى.

قال فى «روضة النسرین»: فمدة ملكه عشرون سنة وثلاثة أشهر ويومان اثنان وعمره ستون سنة، انتهى.

وما ذكره فى مدة عمره مخالف لما ذكره فى تاريخ ولادته ووفاته، فإن مقتضاها أن عمره خمس وخمسون سنة ونحو شهرين اثنين لا غير.

صفته: طويل القامة، عظيم الهيكل، معتدل اللحية، حسن الوجه، سالكا سبيل العدل والتقوى، محبا للصالحين، حبيب إليه الطيب.

(١) الروض الهتون - ص ٩١.

تنبيه: قال فى «روضة النسرین» وجميع ما ولد له ما بين ذكور وإناث وسقط وغيره ألف وثمانمائة واثان وستون، أخبرنى بذلك ثقتہ الشيخ المعمر علال بن أمصمود الهسكورى اهـ.

وأبو الحسن هذا هو فخر الدولة المرينية وواسطة عقدها، ومشيد منار مجدها يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه، عهد له بالملك والده.

قال ابن خلدون: ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصة من المشيخة ورجال الدولة لولى عهده الأمير أبى الحسن وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم وبيعتهم. قال: وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبو بن قاسم رئيس الوزعة والمتصرفين، انتهى.

وأبو الحسن هذا هو صاحب وقعة غرق الأساطيل بمرسى بجاية الشهيرة، وكان عدد تلك الأساطيل التى تراكت عليها الأمواج من كل مكان نحو الستمائة أسطول، قال، فى نفح الطيب^(١): إن أساطيل السلطان أبى الحسن كانت نحو الستمائة فهلكت كلها ونجا هو على لوح وهلك كل من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم، منهم: أبو عبد الله محمد بن سليمان السطى شارح الحوفى، ومنهم: أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسى، وتأتى ترجمته فى رجال مكناسة، ومنهم الأستاذ الزواوى أبو العباس وغير واحد.

وكان غرق الأسطول على ساحل الأندلس، وهو الذى استرد جبل الفتح من يد الإصبيان وهو جبل طارق بعد أن أنفق عليه الأموال وصرف إليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، وذلك سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة، وبعد استرجاعه اهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال مال فى بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومحاريبه، وكان

(١) نفح الطيب ٦/٢١٤ - ٢١٥.

بقاء هذا الجبل بيد العدو أربعاً وعشرين سنة، إذا كان استيلاؤهم عليه سنة تسع وسبعمائة، وكانت مدة حصار أبي الحسن له ستة أشهر، وكم خلد في المغربين من مفاخر تستلفت الأنظار، وتبرهن عما كان له من ضخامة الملك والاعتدار، ولم يزل أمره بين نحو وظهور إلى وقعة غرق أساطيله المذكورة ثم صارت ضخامة ملكه بعدها تتراجع ودولته تتناقص إلى أن لبي داعى مولاه.

وأما زاوية القورجة - بتشديد الجيم كما رأيته في خط ابن غازي - فقد عفى منذ أزمته طوال اسمها، وإن بقى إلى الحين الحالى رسمها في الجملة وموقع مسمائها بالمحل المعروف اليوم بعقبة الزيادين، ويقال لها عقبة الزيادي، كان فيما سلف تطاول على جانب منها بعض أولى الأمر وصيره من جملة روض له وذلك الروض هو المعد الآن محكمة للمراقبة المدنية على الحكام الأهليين والشئون البلدية والكوميسارية، وصار طرف آخر من تلك المدرسة معداً لربط الدواب، والفاضل عن ذلك جعل معملاً لطبخ الحبص، وعهدى بمحارباها فيما مر قائم العين، أما الآن فلا أدري. وهذه الأمكنة كلها بيد الأجانب اليوم.

ولا عجب في صدور هذا وما ضارعه من قوم لا يهمهم تعظيم حرمان الله ولا يرفعون عن السعى في تخريبها وانحاء ما أثله حماة الدين من الأعمال الشريفة المبرهنة على شممهم. وعلى همهم. أولئك الذين عاشوا وشغلهم الشاغل إقامة معالم الدين، والمحافظة على كيان عزه المتين.

ومن خرب قلبه من التقوى، ونشأ في عماية وتغذى بلبان الجهل العريق والاستبداد التام واتخذ إلهه هواه فترك بيوت المجد بلاقع. وأدار من بلايا كئوس السم الناقع، وظن الخيانة أمانة، وسفاهة الرأي عبادة وديانة، أنى يستغرب منه صدور ما ذكر من إهانة حرمان الله والتطاول عليها! هذا وسلاطيننا الجلة الأماجد لم تأخذهم سنة في زمن من الأزمنة عن تنبيه رعاياهم وولاة أمرهم، وإعطائهم

الأوامر كل آونة بالتحفظ على الشعائر الإسلامية والأخذ بالحزم فى صيانتها، وكف كل يد عادية رامت التوصل إليها لأغراضها الشخصية.

فمن ذلك ما أصدره أمير المؤمنين السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بن هشام لبعض ولادة أمره. ودونك نص ما كتبه لعامله الطالب محمد بركاش:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، ولفظ ما بداخل الطابع الشريف محمد بن عبد الله وليه خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش، أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فقد تساهل الناس خصوصاً الأغنياء وأهل الوجاهة فى أمر الأحباس حتى صاروا يتوصلون لما أرادوه منها بأى وجه أمكنهم ويجعلون ذلك فى صورة المعاوضة، وصار النظر والقضاة يعتبرونهم فلا يردون إليهم حاجة، حتى انتقل بذلك كثير من الأحباس فبلغ لمولانا الوالد المقدس بالله ذلك فأمر الولاية خصوصاً القضاة الذين لهم دخل فى هذا الأمر بعدم معاوضتها رأساً، وتقرر هذا الأمر بمراكشة وفاس فلا يوجد أحد يعاوض شيئاً منها، وحتى إن تعينت المصلحة فيها فلا بد من رفع أمرها لسيادته ينظر فيها بما اقتضاه نظره ولما ولانا الله سبحانه هذا الأمر اقتضينا أثره فى ذلك وسددنا الأبواب فى وجوه طلابها، على أن هذه المعاوضة إنما قال من قال بها من العلماء على شروط وأين هى تلك الشروط وما تقرر فى هذه المدن أردناه أن يتقرر فى ذلك الثغر السعيد، وها نحن أمرنا القاضى هناك وأكدنا عليه فى عدم الموافقة على المعاوضة رأساً، كما أمرنا وصيفنا القائد محمد بن عبد الكريم الجبورى بأن لا يساعد أحداً عليها بوجه وأعلمناك لتكون على بصيرة وقد توعدنا القاضى والعامل على ذلك والسلام، فى الربع من صفر عام تسعة وسبعين ومائتين وألف هـ.

وأما زاوية باب المشاورين فهى التى بدرب سيدى غريب بمقربة من ضريح سيدى سلامة على يسار الداخل للدرب المذكور من نهج الحماميين، غير أن هذا

الاسم لا يعطى لها الآن ولا يعرفها به أحد، وهى اليوم على حالة يرثى لها
عششت بها الأوساخ والأزبال والقذرات وباضت وفرخت، إذ كانت مدت لها فيما
سلف اليد العادية كسابقتها القورجية فصيرتها إصطبلا لربط الدواب آونة ومربضا
للبقر أخرى من غير رادع ولا زاجر. ولا استحياء من الملك القاهر، مبيد الأكاسرة
وكل جبار عنيد.

وأما المدرسة الجديدة فهى المعروفة اليوم بالبوعنانية نسبة لأبى عنان، ولا
أعرف وجها لهذه النسبة والحال أنها إنما أنشأها والده أبو الحسن وهى مراد ابن
غازى هنا لوجوه:

أحدها: قوله ومن أجل ذلك... إلخ فإنه مشعر بفخامة بنائها وعلو شأنه،
وهذه الصفة لا توجد على الكمال فى غيرها من مدارس مكناس، لا سيما مع ما
سبق عنه من أن باني مدرسة القاضى هو أبو يوسف، فلم يبق الاحتمال حيثث إلا
فى مدرسة الخصارين، وهذا الاحتمال يدفعه كونها على غير الصفة المنوه بها.

ثانيها: تصريحه بأنه بناها على يد قاضيه ابن أبى الغمر وقد وافق ذلك
التنصيب عليه فى سادس أبيات القطعة الشعرية المنحوتة فى جبص محرابها كما
يأتى.

ثالثها: أن التاريخ المعين لبنائها فى البيت السابع من القطعة الآتية الذى كان
ملكا فيه هو أبو الحسن المذكور فهو الأمر بتأسيسها والحاضر عند كمالها وتمام
تخطيطها والعيان فى ذلك كله يغنى عن البيان، فإنه يوجد إلى الحين الحالى
منقوشا على يمين وشمال محراب قبتها ما صورته.

نزه جفونا منك فى مدرسة	أربت على كل سنى ونزهة
لقد تبدت فى فنون وشيها	كروضة غب انسكاب ديمة
أكملها البانى على إتقانها	فكمل الحسن بها وتمت

بأمر مولانا المطاع أمره على العالى الندى الخليفة
من شرف العلم وأعلى قدره وأظهر الحق بكل وجهة
على يدى قاضيه فى مكناسة ابن أبى الغمر الحميد السيرة
عام ثلاثين وستة خلت من بعد سبعمائة للهجرة
فنصر الرحمن من زان بها مكناسة الغرب أتم نصرة
ونفع الذى أقام حسنهما بفضل جد وكريم نية
ما رفعت بيوته فى أرضه وتلى الأذن لها برفعة

وكان مجيء السلطان أبى الحسن لرؤية هذه المدرسة عند انتهاء بنائها من فاس، وقد بقى على ابن غازى التنصيب على ثلاثة المدارس بمكناس الموجودة فيه إلى الآن، وهى مدرسة الخضارين المعروفة بمدرسة مولاي عبد الله بن حمد، وهى المقابلة لسماط العدول الآن مع ظهور قدومها، وسنذكر ما تجدد فيها من المدارس بعد.

ولنذيل ما تقدم بما شيدته الدولة الحالية العلوية شيد الله منارها فى هذه البلدة فنقول: قد بنى بمكناسة الملك المطاع، الذى ملأت جلالته القلوب مهابة ورعبا فى سائر الأصقاع، تاج مفرق الدولة العلوية العلية ومؤسس فخرها ومؤئل مجدها، سيدنا الجد الأكبر المولى إسماعيل برد الله ثراه وفسح له فى عدنه مساجد ومدارس ومعالم دينية، ووسع أكتافها ومهدا ومدنها وأتقنها، وأحكم صنعها، وحصنها بالأسوار الشاهقة والمعازل الضخمة الشامخة، والصقائل والأبراج العديدة ذات البال وأدارها بقصبات عديدة، منها ما هو متصل بسور البلد، ومنها ما هو منفصل عنه كما سيمر بك مفصلا بحول الله.

فمن تأسيساته بها قصوره الفاخرة الجميلة المتنافسة المزرية بدائعها بالبديع وضخامة آثارها بما بناه الأولون على اختلاف عناصرهم، وتباين أديانهم وتباعد

أزمتهم المضروب بهياكلها المدهشة الأمثال بين عظماء الدول سلفا وخلفا الخالدة
الذكر فى بطون تواريخ الأمم السالفة .

فمن تلك القصور التى ما زالت ولا تزال صفحات التاريخ المغربى موشاة
بذكر جمالها وكمالها قصر المحنشة والمدرسة اللذان بهما اليوم القصور السلطانية .
وفيهما سكنى حرم العائلة الملوكية الكريمة فى العصر الحاضر وقبله بكثير .

ومنها داره الكبرى ذات القصور العديدة والمصانع المنيرة المريعة ، والحصون
المدهشة الحصينة ، والأوضاع العجيبة المتناسقة ، والأسوار الضخمة الشامخة الرائقة
فى أعين عشاق الآثار المتجولين من سواح أقطار المعمور ، المستعذبة فى أذواق أولى
الآلاب الرحالين المعتنين المتأملين ، تفيد ذوى الأبصار عبرة وذكرى تقصر النعوت
دون وصفها ، وتنحت البيوت فى جوفها .

قال أبو عبد الله أكنسوس فى «جيشه العرمرم^(١)» : لو شاهد المنصور الذهبى
سوراً واحداً من أسوار السلطان مولانا إسماعيل لعلم أن ما أفنى فيه عمره من
ذلك المنزل المسمى بالبديع ، إنما هو فى التمثيل كدار إبليس التى تباع فى عاشوراء
يلعب بها البنات . ولا تحتاج المشاهدة إلى إقامة البيئات ، انتهى .

تبلغ سعة جل جدرانها متراً ونصفاً ، ويبلغ ارتفاع سمك غالبها خمسة عشر
متراً .

فمن القصور المربعة فى هذه الدار ، الجامعة أصناف المحاسن والفخار ، (قصر
الستينية) الفسيح الفائق ذو المنظر البهيج الذى تجسم فيه الانشراح ، ورفرفت على
طالعه الميمون أعلام الأفراح ، وجر ذيول العجب على الزوراء ، وازدرى بالزاهرة
والزهراء ، وأخجل قباب الشام ، والخورنق والأهرام ، ينيف طوله على مائة متر
وعرضه على خمسين ، كان له أيام شبابه مباح فسيح محيط بجوانبه الأربعة

(١) العرمرم : الجيش الكثير .

محمول السقف على أعمدة الرخام الناصع البياض، على رأس كل عمود كرسى من المرمر البديع المزخرف بالنقش العالى المبرهن على كمال براعة الصانع واقتداره على إبراز كل غريب فتان، تستوقف لطافته الأنظار، ويحير عجب إتيقانه النظار، اصطفت تحت ظل ذلك المباح الظليل أبواب قبب متقابلة بسائر جوانبه الأربعة، تتخللها دور وقصورها فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، تجسمت فيها الأبهة والبهاء، وحير وضعها الهندسى أهل النهى، ورصع فسيح تلك الأرض، طوله والعرض، بالزليج المختلف الألوان، وصهاريج صافى الرخام وجوابيه الباهض جمالها وترتيب نظامها القاذفة عن أنابيها الماء المعين، الذى يغار من صفاته الزئبق واللجين، وألبست جدرانها حلل الجبص الموشاة بأبرع وشي وأغلاه وأعلاه، وتمنطقت بمنطقة من الزليج ذى الألوان المختلفة المذهل بمقتن تطريزه المرصعة عن الرضيع، حوت من كل أصفر فاقع وأحمر قانى وأبيض ناصع وأسود حالك وأخضر وأزرق ما تنشرح بمراءه الصدور، وتنطفئ به لواعج المصدور، لا يقصر ارتفاع تلك المنطقة عن قامة، فى غاية الاستقامة.

بشمال هذا القصر منار يسر الناظرين متجل فى حلة سندسية خضراء، متوج بتاج مموء بخالص الإبريز^(١) تلوح على نواحي القصر منه لوائح السراء.

وجه تسمية هذا القصر بالسطينية وجود قبب بها لها مزيد أبهة وبهاء، ومن جملته كونها مسقفة بالعمل المعروف عند أهل حرفة النجارة بالسطينية فأعطيت التسمية للقصر كله من باب تسمية الكل باسم الجزء الأعظم، وما عدا ذلك وهو جل القباب الإسماعيلية فى سائر قصوره مقبو بالجيار والآجر مزخرف بالجبص البديع النقش.

وفى هذا القصر صار محل سكنى مؤلف هذا الكتاب وفى روضه فيه قال صديقه الحميم الفقيه المؤرخ أبو عبد الله سيدى محمد بوجندار مساجلا للأديب

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

الشهير نابغة لبنان الشيخ رشيد مصوبع وقت اتفاق اجتماعهما بذلك الروض وذلك
ثاني عشر جمادى الأولى عام ستة وثلاثين وثلاثمائة وألف .

أبو جندار:

قم بى إلى اللذات قبل فواتها هذى الرياض الزاهرات فواتها
مصوبع:

نشاتها بعد الفراق لأنها أحييت لنا الأرواح بعد مماتها
أبو جندار:

طاب الغبوق بها على شمس الأصيل طل وطيرها الشادى على دوحاتها
مصوبع:

قد زينت مكناسة بجمالها كالخال زين للدمى وجناتها
أبو جندار:

فكأنما هى جنة الفردوس فيـ ها ما يروق العين من لذاتها
مصوبع:

إن قام يعبس قلب مكروب اسى أهدت لعابس قلبه بسماتها
أبو جندار:

وإذا تنسم طيها ميت الهوى أحياء ما حياه من نسماتها
مصوبع:

حسناتها ليست تعد وحسبنا أن السرور يكون من حسناتها

أبو جندار:

والحسن والإحسان بعض صفاتها والأنس والإيناس بعض هباتها

مصوبع:

نرئو لها فنخال طلعة ربها فى البشر والإشراق من زهراتها

أبو جندار:

ونجار هل حاكت جميل صفاته أو أنه الحاكي جميل صفاتها

مصوبع:

نشرت لنا كفاه من طيب النهى ما كان أطيب من شذا نفحاتها

أبو جندار:

وطوت عواطف قلبه ودأ لنا مثل المدام الصرف فى كاساتها

مصوبع:

لازال بدر علاه فى سمواته يسمو على الجوزاء فى سمواتها

وقال أيضا أبو عبد الله بوجندار مساجلا لصفى ودنا حليف الفضل والأدب
الفقيه سيدى محمد بن اليمنى الناصرى حين اجتماعهما الذى فيه أيضا قال

مفتحا:

ب: لله من مجلس رقت حواشيه وشاه بالحسن والإحسان واشيه

صرى: تغشى قلوب الأولى حلو أساحته من السرور على المدى غواشيه

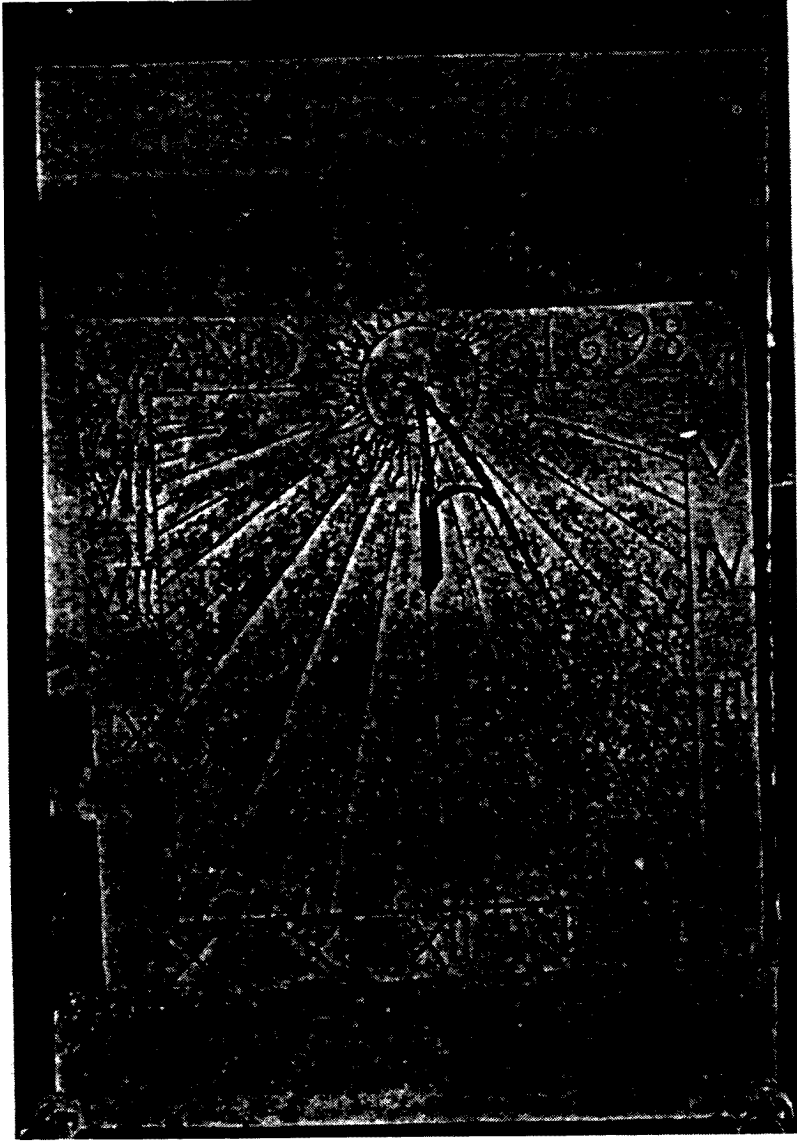
ب: وكيف لا وأريج الروض أرجه بما به تنتشى عقول ناشيه

صرى: أما ترى الروح فى أرجائه رققت زهوا وعجبا ببادى الفضل فاشيه

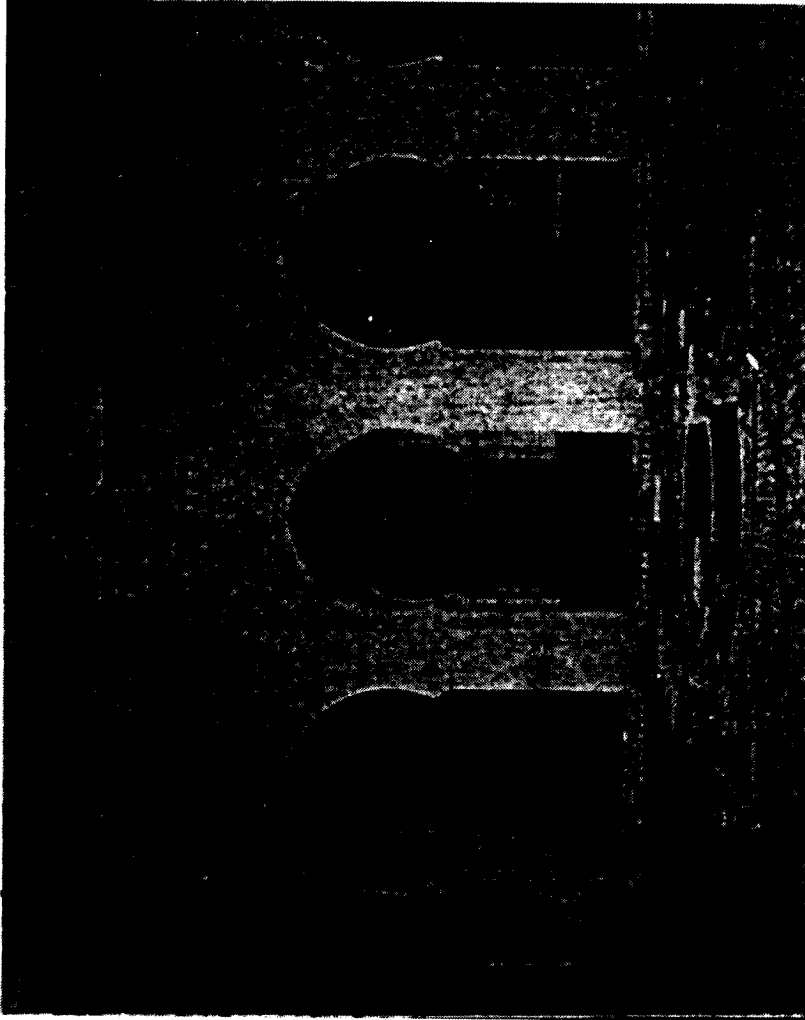
ب: ذاك العلى الذى العلياء تخدمه والسعد يقدمه لدى مماشيه
صرى: بحر العلوم أبو زيد ابن زيدان من بدر العلا فى علاه لا يماشيه
ب: لا زال يرقى من العلياء ذروتها ولا أنيل مناه فيه واشيه
صرى: ما سرى الهم عن أم ساحتها وطاب في مجلس رقت حواشيه
ومنها أعنى القصور الإسماعيلية (قصر النصر) الذى كان أسسه زمن خلافته
فى دولة أخيه السلطان الأفخم مولاى الرشيد، ذلك القصر المتسع الأكثاف المعروف
اليوم بدار لال بانى المحدث الباب بحومة الدرية، بمقربة من مسجد القصبة المملوكية
الذى تقام به الصلاة يوم الجمعة، وبه يكون احتفال الجلالة المولوية لصلاتها عند
حلول ركابها الشريف بالعاصمة المكناسية حتى الآن.

ومنها قصر مولاى زيدان، ومنها قصر الشعشاع ولا يقصر قصر من هذه
القصور عما فصلناه فى القصر السابق قصر الستينية فى الأبهة والزخرفة، وإن
اختلفت أوضاعها فى الاستطالة والتريع، ولا يخلو واحد منها عن صروح
شامخات يشرف منها على ضواحي مناظر مكناس الطبيعية المختلفة الشكل ما بين
منخفض ومرتفع وأرجائه الأريجة، كما أنه لا يخلو واحد منها من مسجد للتعبد
أو مساجد.

فمنها المسجد الأنيق الحافل ذو الصفوف التسعة، والأساطين الرخامية والقبة
ذات الخصة العظيمة التى لازالت قائمة إلى الزمان الحاضر، ومنها يدخل اليوم
للضريح الإسماعيلى، طول هذه القبة كعرضها يبلغ طول هذا المسجد سبعا
وثمانين مترا وعرضه تسعة أمتار وعشرون ستيما، ويعرف هذا المسجد فى العقود
الحبسية بمسجد الرخام، والظاهر أنه إنما كان معدا للصلوات الخمس، فإن ثبت أنه
كان للجمعة احتمال حيث أن يكون هو المراد بمسجد القصبة فى قول أبى القاسم
الزيانى: ولما ضاق مسجد القصبة أسس الجامع الأخضر أكبر منه، انتهى.



الرخامة الشمسية الموجودة الآن بجامع القصبة



صحن مسجد القصبة الإسماعيلية

ويكون الجامع الأخضر هو جامع لال عودة، فيكون كل منهما من تأسيساته ولكن الأظهر كما سنبينه بعد خلاف ذلك، ومع الأسف فقد خرب هذا المسجد وخرب سقوفه ومزقت أبواب بهجته كل ممزق، وفرت أعمدته الرخامية أيدي سبأ ولم يبق منها غير خمسة منها أربعة لازالت قائمة بمحالتها ممثلة لما كان عليه ذلك المسجد من الضخامة، ومنها واحدة ملقاة على الأرض، والمسجد صار بعضه ممرا يدخل منه للضريح المذكور وللضريح المجذوبي في طريق الخراجة التي كان يخرج منها المولى إسماعيل قيد حياته لأداء الخمس في المسجد المذكور والبعض الآخر مقبرة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وجامع لال عودة ينتظم من صفوف خمسة، وجناحين وصحن فسيح ينيف طوله عن خمس وعشرين مترا وعرضه عن ستة عشر، به قبتان إحداها في الجهة الشمالية طولها أحد عشر مترا وعرضها ستة أمتار وستيمات، والأخرى في الجهة الجنوبية طولها سبعة أمتار وستيمات وعرضها ينيف على ستة أمتار، وبوسطه خصة من المرمر واسعة الأكفاف يتفجر منها العذب الفرات ومدرسة بأسطوانة على يمين الداخل ذات بيوت تسعة، وغرفة يصعد إليها بدرج ستة عشر، وبإزاء هذه المدرسة المنار المتقدم الذكر في قصر الستينية يصعد إليه بمائة وإحدى عشرة درجة، وبهذا المنار مستودع معد لآلات التوقيت ولاستقرار القيم بالعمل بها في غاية اللطف تكتنفه منافع ومرافق.

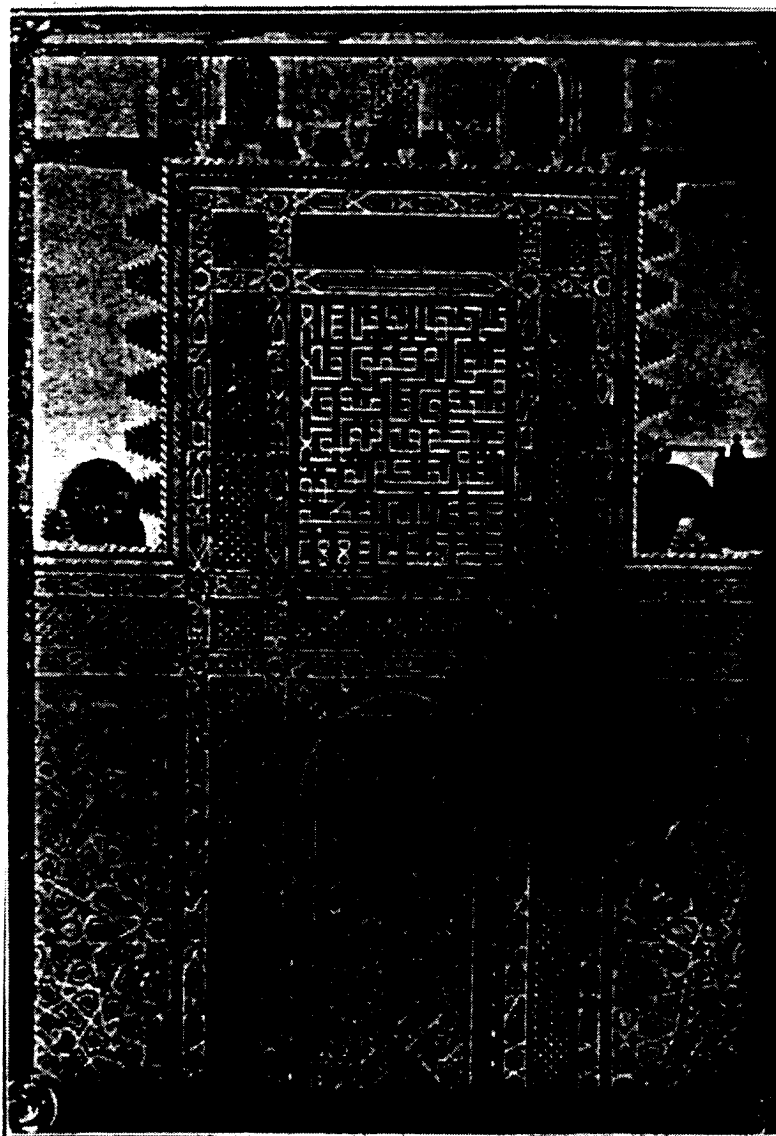
ومن جملة آلات التوقيت العديمة المثال التي لا يوجد لها نظير رخامة شمسية في غاية الإتقان وقد كانت هذه الرخامة الشمسية آية في تحقيق الوقت، فيحكى أن ذلك استمر فيها إلى أن وقعت بين القيم بها وبين القيم بمثل ذلك بمستودع المسجد الأعظم داخل المدينة وهو الميقاتي الشهير السيد الجيلاني الرحالي منافسة في ذلك، حملت الثاني على أن أغرى من عوج شاخص الرخامة المحدث عنها فوق الخلل

فيها بذلك وهذا الخلل الأعوجاجي وإن تلافاه القيم بالنظر في ذلك حينه، وهو الفقيه سيدى الحسن المتونى لكنه مات بعد ذلك فأدرك الرحالى بعد ذلك منيته في تعطيلها ولا زالت معطلة إلى الآن ملقاة في زوايا الإهمال غير مكترث بها، وقد كانت هذه الرخامة من صنع من كان في قبضة الأسر من النصارى العالمين بذلك الفن، ويدل لذلك تاريخها المسيحى المرقوم فيها بالقلم الرومانى وهو عام ثمانية وتسعين وستمائة وألف.

وقد جوز بعض الفرنسيين أن تكون هذه الرخامة مهداة لمولانا الجد من سلطان فرنسا المعاصر له لويز الرابع عشر، وعضد ذلك بما كان بين السلطانين من المواصله، وبما كان لسلطان فرنسا المذكور من الاعتناء بالآلات الشمسية على اختلاف أنواعها حتى كان يدعى بالسلطان الشمسى، فأجبت به بأن هذا الاحتمال يبعده خلوها من نقش اسمى المهدي والمهدي له مع أهمية ذلك فى الموضوع لما فيه من تخليد الفخر للجانيين، ويأنها لو كان الأمر فيها كذلك لكانت على جانب من الزخرفة عظيم، وما ظنك بهدية من أمير عظيم فى قومه لأمير طائر الصيت فى المشارق والمغارب فاستحسن ذلك منى.

وراء المدرسة المشار لها غربا صحن فسيح طوله أمتار ثلاثون وعشرة ستيمات وعرضه سبع وعشرون ونيف، وفى غربه مباح ذو أقواس خمس وأساطين أربع بناؤها باللبن والجيار، خر سقفه فى هذه الأزمنة الأخيرة طول هذا المباح ثمانية عشر مترا ونيف وفى الجانب الشرقى منه سقاية ماء.

ولهذا المسجد بابان باب القصر الستينية المار الذكر - وليس هو الباب الذى تدخل منه الجلالة السلطانية اليوم للمسجد، بل سد ذلك الباب وأدخل فى بيت من بيوت إحدى الدور ولا زال إلى الآن ظاهر الأثر، وإن تنوسي المرور منه وانقطع السبيل الموصل إليه واندثر - وباب نافذ إلى المدينة يدخل منه عامة المصلين من جيش وحشم وأتباع.



باب مقصورة مسجد القصبة

قلت: كذا وصف الباب الثانى من هذا المسجد غير واحد، وقولهم: وباب إلى المدينة إما أن يعنى به بعد الانفصال من باب القصبة الموالي لجهته وهو باب منصور العليج، لأن الجامع المذكور داخله، وإما أن يبقى على ظاهره ويحمل ذلك على أن السور الذى به باب منصور لم يكن وقتئذ، وإما أن يقال إن مراد الزيانى ومن تبعه بالمسجد الأخضر المنتقل إليه من مسجد القصبة المعروف بهذا الاسم اليوم الذى كلامنا فيه، هو جامع الأنوار الكائن عن يسار الخارج من القصبة على باب منصور العليج، والاحتمال الأول بعيد لخروجه عن الظاهر، والثانى أبعد منه لكون الواصفين لباب المسجد الذى الكلام فيه كلهم تأخرت أرمتهم عن تلك البناءات كلها، مع تصريحهم بأن المولى إسماعيل أفرد قصبته عن المدينة وجعل براح الهديم بينهما والثالث موافق لحقيقة وصف البابين، لأن أحدهما وهو الكبير العمومى مفض للمدينة، والثانى وهو باب دويرية الكتب المقابلة الآن لدار أولاد عم الجلالة السلطانية العلامة المرحوم مولانا العباس مفضية للقصبة بلا شبهة، فلم يبق حيثئذ إلا كون جامع الأنوار لا يعرف بالأخضر الذى عبر به الزيانى ومن تبعه، وهذا أمر قريب لأن أسماء الأماكن وما تعرف به تتبدل وتنتقل مع طول الزمان بما يعرض لها كما مر بك كثير من ذلك فى هذا التقييد.

وأما كون جامع الأنوار من الإنشاءات الإسماعيلية فسيبين لك أمره بعد وهناك تأتى بقية هذا المبحث إن شاء الله.

وقد قرأت فى نقش زليج أعلى باب مسجد القصبة القائم الآن ما صورته: الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبد، أمر بعمل هذا الباب المبارك مولانا إسماعيل أمير المؤمنين أيدته الله ونصره، وكان الفراغ من إنشائه أوائل جمادى الثانى سنة تسعين وألف، وفى المسجد الأخضر قال بعض شعراء عصره من قطعة ما لفظه:

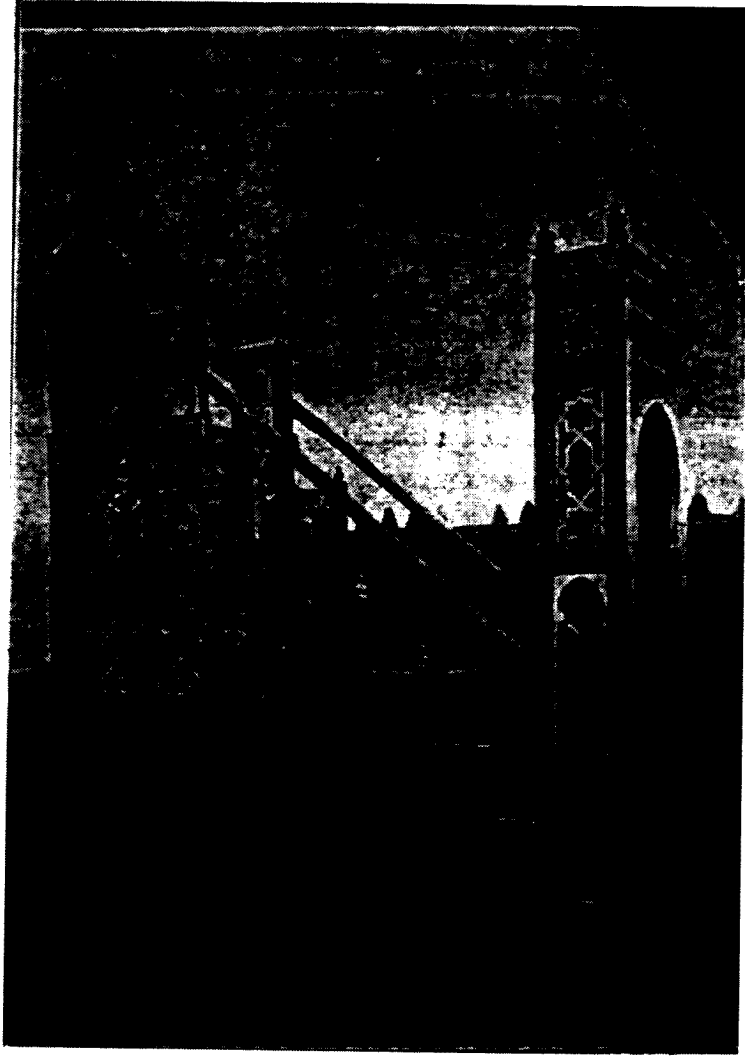
وإن ذكرت مصر بجامع أزهر ففي القبة الخضراء بدور كوامل

وقرأت أعلى باب المقصورة الملوكية في نقش الخشب بالخط الكوفي الرائق من جامع القصبه المذكور ما لفظه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: آية ٧٧] صدق الله العظيم.

صنع هذا عام ثمانية وثمانين وألف بالقلم الغباري، وقد كان أصلح هذا الخشب فسقط الصفر الموالي للألف إما لجهل مباشر الإصلاح أو غلظه، فأوقع الكثير من الناس في الوهم وأن ذلك اللوح صنع عام مائة وثمانية وثمانين، وذلك لا يصح بحال، قال بعضهم: وكل هذا لا يدل على أن أصل جامع لال عودة من الإنشاءات الإسماعيلية، أما المكتوب على الباب فلكونه لا ذكر لبقية الجامع فيه، وأما المكتوب على المقصورة فكذلك إما لكونه كان أنشأها به قبل ضيقه به فأقرت هناك بعد التحول عنه، وإما لكونها نقلت إليه بعد تخريب جامع الأنوار.

وفي هذا المسجد تقام حفلة صلاة الجمعة لدى الملوك أحفاد مولانا إسماعيل إلى الزمان الحاضر والغاية داخلة كما تقدم، وقد لعبت أيدي التلاشي والتخريب أدواراً كثيرة بهذا المسجد رغما على ملازمة ملوكنا الجلة لصلاة الجمعة فيه وقت ما حل ركبهم الشريف بالعاصمة المكناسية، ولولا أن الله تعالى تداركه بذلك حتى رمم أكثره لأصبح كغيره في خبر كان.

ومن قصور الدار الكبرى أيضا قصر الكشاشين، وهو عبارة عن فسيح مستطيل ذي أساطين مصطفة مبنية بالجيار واللبن والحجر عليها أقواس مرتفعة فاقع لونها تسر الناظرين، بعضها قبالة الداخل، وبعضها عن اليمين والشمال كلها مقبوة السقف، كان هذا القصر معدا للطبخ وشثونه وخزن لوازمه وسكنى القيّمات بمباشرة ذلك من وخش الرقيق وحشم الحاشية الملوكية تتخلل هذه القصور وتكتنفها مناهج مستطيلة مقبوة السقف ذات أبهة ومهابة، في سقوفها كوات ينفذ منها



منبر جامع القصبة الإسماعيلية

الضوء لتلك الشوارع التي ساد السكون فيها، من تلك الشوارع ما خر سقفه، ومنها ما هو قائم السقف حتى الآن رغما عن التخریب الذي استأصل شأفة تلك المحاسن، وغير ماء بهجتها الذي كان غير آسن، فمع الأسف خلعت تلك المباني حلل الزينة وتوحشت بعد الأنس تلك الربوع، وأخنى الدهر بجديدها، وتولى متسلط النحس على سعيدها، فانتثر عقد نظامها وتفرقت أنقاضها في أقطار المغرب وبنت منها المساجد والمدارس والرباطات والدور حسبما أفصح بذلك أبو القاسم الزباني في روضته وحفظته لنا تقييد أسلافنا الكرام، وتلقيناه عمن تلقاه منهم وكشطت حلل تلك الجدران التي طالما جرت على المتطاوّل ذيول الإعجاب وبدت عيون كواتها العديدة التي جفت جفونها المنام، لما دهاها حال اطمئنانها من الاغتيال وحق لمن بقي به رمق بعد أن أخذ على حين غفلة أن يتنبه، وبأعين النجوم في السهر يتشبه، وقد حفر هطال دموع تلك العيون في حدود تلك الجدران أخدودا أسفر عن كونه كان وعاء لقنوات مجارى ماء الأمطار المنسدلة من أعلى السطوح إلى أسفل الوادي الساري في تخوم الأرض.

وقد أحاط هذه الدار العظيمة المقدار التي هي في الحقيقة مدينة بالأسوار الضخمة الشاهقة والأبراج والسقائل حتى صارت كأنها مركز حربي هائل. ولَا فَنَدَ (١) إذا قلت: كانت مركزا حربيا من أعظم مراكز العالم الحربية، وقد أدركنا بقية أعمدة الرخام وكراسيه التي كانت محمولة عليها مباحات القصور الملوكية متراكما بعضها فوق بعض، منها ما هو ظاهر، ومنها ما غطاه الثرى يعثر عليه بالحفر، وقد كان الكثير من ذلك ملقى بباب قصر المحنشة، ولم يزل كذلك إلى أن دخلت الدولة الحامية فنقلت بعضه لدور كبراء موظفيها، والبعض الآخر للجنان العمومي الذي أحدثته بالمحل المعروف بالحبول - بفتح الحاء - وقد تلقينا من آبائنا

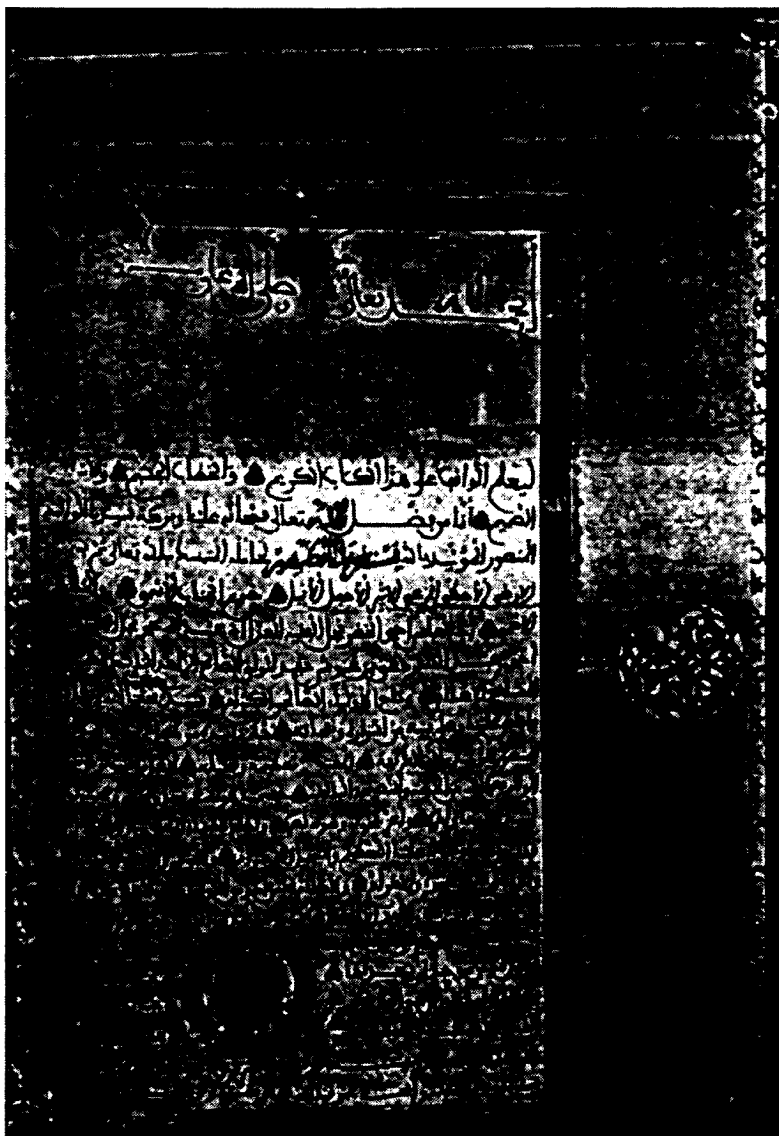
(١) فَنَدَ فَنَدًا: ضعف رأسه من الهرم، وكَذَبَ، وأتى بالباطل.

أنهم تلقوا من آبائهم أن جميع تلك الأعمدة مع كراسيها كان ملقى بقصر الستينية وغيرها من القصور المذكورة، ومنها نقله السلطان المولى الحسن لباب قصر المحنشة المشار له أوائل دولته، وكم اتخذت من ذلك الرخام من جوابي وصهاريج وزليج وألواح لعبات الأبواب وغيرها ورتج وغير ذلك، وفرقت في بقاع المغرب وكثيرا ما كان يقع العثور على الأعمدة والكراسي الرخامية تحت الثرى عند حفر أساس أو غيره في ردم تلك المباحات التي لا زالت الآثار الدالة عليها شاخصة إلى الآن، كما أنه لا زال يعثر على زليج الأرض وقنوات مجاري المياه للصهاريج والجوابي سائر فروع القصور السلطانية عند ما تدعو الحاجة لنقل تراب أو حفر أساس ونحوه.

وكانت مدة الاشتغال في بناء قصور هذه الدار أعني دار الخلافة الموسومة باسم الدار الكبرى حتى الآن ثمانية أعوام، إذ كان الشروع في ابتداء تأسيسها على ما قاله الزباني وغيره بعد وفاة السلطان المولى الرشيد وجلوس السلطان المولى إسماعيل على منصة الملك، قال اليفرنى في «النزهة» وكانت مبايعته رحمه الله في الساعة الثانية من يوم الأربعاء سادس عشر من ذي الحجة متم عام اثنين وثمانين وألف، ووافق ذلك ثالث عشر إبريل، انتهى وقريب منه في «روضة التعريف».

قلت: والذي في «الدر المنتخب» أن مبايعته بفاس كانت في الثانية من زوال يوم الأربعاء الخامس عشر من الشهر المذكور وأن ذلك وافق ثالث إبريل، انتهى. وكون البيعة كانت في الخامس عشر من الشهر المذكور هو الذي في «نشر المثاني»^(١) أيضا.

واقصر في «السلوة» على حكاية الخلاف المذكور في ذلك وأما الزباني في «البستان» وأبو محمد عبد السلام بن الخياط القادري في جزئه فقالا: إن وصول
(١) نشر المثاني - موسوعة أعلام المغرب ١٩٩٩/٥.



خبر موت المولى لرشيد بفاس كان في الخامس عشر من الشهر المذكور وفيه كانت البيعة، انتهى. وفيه تسامح.

وقال صاحب السر الظاهر: إن وفاة الرشيد كانت ثاني عيد الأضحى وأن بيعة المولى إسماعيل كانت في اليوم الخامس من وفاته، انتهى.

وهو محتمل لدخول يوم الوفاة في الأيام الخمسة المذكورة، فيكون قائلًا إن البيعة في الخامس عشر ولزيادة الخمسة عليه، فيكون مارا على أنها في السادس عشر ولعل التحقيق ما جرى عليه صاحب النشر ومن وافقه، وكان انتهاء العمل فيها سنة تسعين وألف ويشهد لذلك ما هو متوج به بابها من الكتابة المتضمنة لتاريخ تمام العمل فيها ودونك نصه:

دار الخلافة لاح نور قبابها تختال بين رياضها وهضابها

فكأنما الأنهار في جناتها يبنى المليك الفخر يوم عبابها

مولاي إسماعيل من جرثومة^(١) نقل الأئمة جده أوصى بها

يا راصدا لطوالع من سعدها فنظام شملك في عضادة بابها

ومن تأسيساته السرداب الهائل الكائن تحت أرض فسيح قبة الخياطين ذو الأساطين المحكمة البناء والأقواس الضخمة الشاهقة، تمر فوقه الركبان، وتجبر الدواب عليه الصخور العظيمة، وتسير السيارات البخارية المشحونة بالأنقال ذات البال آناء الليل وأطراف النهار، بل جعلت فوقه جنات ذات أشجار وبقول وصارت تسقى بالماء كل آونة فلم يؤثر عليه شيء مما ذكر، يعرف هذا البناء اليوم بحبس قارة، ويقال: إنه كان من جملة السجون المعدة للأسارى وغيرهم من أصحاب الجرائم العظيمة يبيتون به ليلا ويخرجون نهارًا للخدمة.

(١) جرثومة الشيء: أصله.

قال أبو القاسم الزياتي: وكان في سجنه من أسارى الكفار خمسة وعشرون ألف أسير ونيف، وكانوا يخدمون في قصوره منهم: الرخامون، والنقاشون، والحجارون، والحدادون، والبناءون، والنجارون، والزواقون، والمهندسون، والمنجمون، والأطباء ولم تسمح نفسه بفداء أسير بمال قط - أي وإنما كان يفدي بعضهم من أسر من المسلمين - وكان في سجنه من أهل الجرائم العظيمة كالسارق والقاطع والقاتل نحو الثلاثين ألفا كلها تقيل بالخدمة مع أسارى الكفار ويبيتون بالسجون والدهاليز تحت الأرض.

قال: وأمر الشيخ الحسن اليوسي مع المعتصم ابنه عام حجمها وهو عام واحد ومائة وألف بأن يبعث النصارى أسرى العرائش لحضرته فبعثوهم وكانوا ألفا وثمانمائة فكان يخدمهم في بناء قصوره - أي الخارجة عن قصور الدار الكبرى لانتهاؤها قبل التاريخ المذكور كما تقدم - من جملة غيرهم من الأسارى والمساجين ومن الليل يبيتون بالدهليز، انتهى.

قلت: استعمل المساجين بالخدمة نهارا وجعلهم بالسجن ليلا هو السنن الذي تفعله الدولة الحامية مع المساجين من الأهالي وكأنها أخذت ذلك من فعل المولى إسماعيل ولا يعرف اليوم الباب الذي كان يدخل منه لهذا السرداب والدخول إليه في الوقت الحاضر، إنما يقع من ثقب في سطحه حذو الجدار المحيط ببراح قبة الخياطين المذكورة من الجهة الغربية.

ومنها الصرح الشاهق المبني فوق ساباط الباب المعروف الآن بباب الرايس ذو الأقواس العشرة، خمسة عن يمين المار فيه، ومثلها عن شماله المحمولة على الأعمدة الحجرية العظيمة التي لا زالت موجودة قائمة لهذا العهد، أربعة عن اليمين ومثلها عن الشمال.

ومنها الصرح الهائل الذي كان فوق القصر المعروف اليوم بأروى الجزيرة الواقع بعقبة الضريح الإسماعيلي أمام مكتب الاستعلامات الآن، والهري العظيم الموجود إلى الوقت الحاضر داخل عرصة البحراوي الشهيرة، كان هذا الهري في زمن السلطان المولى الحسن مُعداً لحزن الخطب والصرحان معا أصبحا في خبر كان، وإنما سمي القصر بأروى الجزيرة لأنه كان معداً لنزول الجزارين الملازمين للحضرة السلطانية في الظعن والإقامة وربط دوابهم به بعد تخريبه فيما خرب وزوال زيتته وقد جدد بعضه الموالي للعقبة المذكورة بعد حلول الدولة الحامية بين أظهرنا.

ومنها القصر المعروف اليوم بين القصب الكائن بباب ابن القاري الداخلي المجاور لجنان البحراوية والأترجية من اللجنة السلطانية.

ومنها القصر المعروف بدار لال صفية الذي به اليوم سكنى أبناء عم الجلالة السلطانية العلامة النقاد مولانا العباس بن عبد الرحمن بن هشام المقابل بابه الحالي لباب منصور العليج.

ومنها الهريان العظيمان الموجودان بإزاء صهريج السواني أحدهما يحتوي على ثلاثمائة وخمس وأربعين أسطوانة طوله مائة ونيف وثمانون مترا وعرضه لا يقل عن تسع وستين مترا، كان هذا الهري على جانب من الضخامة عظيم يشخص للعيان بسطة ملك منشئه ومقدرته على الإتيان بكل عجيب، كان سطحه بمثابة برج عظيم يوضع عليه من الآلات الحربية كل مدهش غريب الشكل، متناه في العظم بالنسبة لزمانه الغابر.

وقد لعبت أيدي البلى بجديده، وخرت سقوفه التي كانت تضاهي شوامخ الجبال، ومع الأسف فلا زالت عوامل الخراب عاملة فيه إلى الوقت الحاضر وهو اليوم وكر للبوم والهوام وأنواع الحشرات، وهذا الهري هو الذي قال فيه

أبو القاسم الزباني: وجعل بها هريا لخزن الزرع مقبو القنايط يسع زرع أهل المغرب كله اهـ.

وقد كان جعل لسطحه طريقا تستوي مع الأرض في بعض الجهات يقال إنها كانت مصعدا للجمال الحاملة للقمح فتذهب بأحمالها فوق السطح حتى يوضع حول الكوة المفتوحة فيه لصب القمح لذلك الهري منها فيستغني بذلك عن فتح باب الهري اللاصق بالأرض إلا عند حصول موجب، ولو لم يكن من آثار عظم ثروة ملكه قدس الله روحه إلا هذا الهري وما أعد له وما ذكر من صفات الخزن فيه لكفى، فكيف وسائر تصرفاته الهائلة إنما هي بعض آثار ثروته البعيدة عن الوصف.

والهري الآخر بإزاء سابقه متصل به لا زال صين السقف حتى اليوم رغما عما نبت عليه من الأشجار حتى صار كأنه غابة من عدم المباشر ومن يهتم بتعاهد إصلاحه، بهذا الهري عدة آبار في غاية العمق ذات مياه عذبة طافية وجعل لكل بئر دولابا عظيما ينقل منه الماء ويصبه في المجاري المعدة له إلى أن يصب بالصهريج صهريج السواني المذكور، يبلغ طول هذا الهري سبعا وسبعين مترا وكسرا، وهو الذي قال فيه أبو القاسم الزباني: وجعل بجواره يعنى جوار الهري المتقدم الذكر سوانى^(١) للماء في غاية العمق مقبو عليها، وفي أعلاها سقالة مستديرة لوضع المدافع والمهاريز ترمي لكل ناحية، اهـ.

قلت: وقد تهدمت تلك السقالة ولم يبق لها في الوقت الحاضر أثر، وجعل بمقربة من هذين الهريين صهريجا كالبحيرة يجتمع فيه الماء الجاري في تلك المجاري تسقى من فيضه رياض وبساتين ينيف طول هذا الصهريج على ثلاثمائة متر، وعرضه على مائة وأربعين، ولم يكن مقصده المحمود في حفر تلك الآبار واختراع

(١) السَّانِيَّةُ: استقت أو أخرجت الماء من البئر ونحوها. والسَّانِيَّةُ الأرض: سَقَّتْهَا.

ذلك الصهرج يرمي لتلك الغاية فقط، بل لغرض أشرف وأسمى وأهم لا يعقله إلا المهرة السياسيون العالمون.

وتلك الغاية هي بقاء سكان المدينة في اطمئنان وأمان في حالتها السلم والحرب مع عتاة البربر، إذ المياه الداخلة للمدينة إنما تأتي من بحبوحة القبائل البربرية، وقد حفظ التاريخ ما كان لهم من التمرد وإبادة الامتثال للأوامر المخزنية وعدم تلقيها بالسمع والطاعة والنظر لمن عداهم، وبالأخص سكان الحواضر بعين الصغار والاحتقار، وأقل ما يتوصلون به لأذاهم صرف مواد المياه عنهم والماء ضروري في حياة عموم الإنسان بل كل شيء حي، ولذلك يرى كل كيس متأمل لا تعذب عن علمه مقاصد العقلاء ذوي الآراء السديدة والأفكار المصيبة، أن مطمح نظر هذا السلطان العظيم الشأن فيما يوطد الأمن ويجلب الراحة لرعيته عموماً ولمن بعاصمة ملكه من السكان خصوصاً، ولذلك تراه بالغ في تحصين هذه القلعة فأحاطها بأسوار عديدة لا يخلو سور منها عن سقائل وأبراج مشحونة بالعدة والعدد، وادخر بها من الأقوات والذخائر والقوة الحربية ما تؤمن معه كل غائلة وتكسر به شوكة كل عاد باغ ومارق عن الطاعة ولزوم الجماعة، ولم يزل يبالغ في التحصين حتى صير عاصمة ملكه حاضرة في بادية وبادية في حاضرة بحيث يمكن لأهلها الاستغناء عن كل ما يجلب إليها من الخارج من زرع وضرع، فلهم من المزارع بداخل سورها ما هو فوق الكفاية لأنواع الحراثة ورعي الماشية والجدران الحصينة وراء الكل ومحيطه بالجميع، والأبواب ذات الأبراج والسقائل المدهشة الحصينة مغلقة في وجوه البغاة ذوي الشقاق.

ولم يكن ذلك لخوف منه ولا لجبن فيه كما توهمه الجهلة الحاسدون ومن في قلبه مرض من الملحين والقاصرين، إذ قد نص التاريخ لنا ما كان مجبولا عليه من الشجاعة والإقدام وقوة الجأش، فقد قال مؤرخ الدولة العلوية أبو القاسم الزباني: وبالشجاعة أدرك السلطان إسماعيل ما أدرك وبلغ ما بلغ رحمه الله،

وكيف يتوهم جبنه وخوفه ذو بصيرة والبربر الذين احتاجت العاصمة إلى كل هذا التحصين من أجلهم، لم يستقر لمحصنها أبي النصر مولانا إسماعيل قرار حتى نهض إليهم وأوقع بهم الإيقاعات التي تحدث التاريخ بها حتى استأصل قوتهم وسلبهم السلاح والكراع وصيرهم عملة لبيت المال ولأهل العاصمة يعيشون في مهنة ذلك لا غير، حتى كانت المرأة تخرج والذمي من وجدة إلى وادي نون ولا يوجد من يسألها من أين وإلى أين، ولم يبق بالمغرب سارق ولا قاطع ومن ظهر عليه شيء وهرب يؤخذ في كل قبيلة مر بها وفي كل قرية، وكلما بات مجهول الحال بحلة أو قرية يشقف بها إلى تبين براءته، وإن تركوه فإنهم يؤاخذون به ويدون ما سرقه واقتطفه من الجرام كالقتل وغيره كما قاله الزباني وغيره، أم كيف يرمي إلى ذلك فكر ذي لب وهو يرى ويسمع ما حفظه التاريخ من أحوال عواصم الدول الكبار من المبالغة في التحصين، حتى إن الأستانة عاصمة تركيا قد أحاط بها بنوها الأولون من الروم قبل حلول تركيا بها جدران ثلاثة عظيمة متوالية في كل جهاتها الثلاثة.

وأما الرابعة فالبحر متصل بها وحتى إن عاصمة مدينة دهلي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالشرق، سورها المحيط بها لا يوجد له نظير.

قال ابن بطوطة وغيره: عرضه أحد عشر ذراعاً ويمشى في داخل السور الفرسان والرجل من أول المدينة إلى آخرها قال: وأسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر وأبراجه كثيرة متقاربة، قال وهي من بناء الكفار وحتى إن تَدْمُر - بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم - إحدى مدن الشام الشهيرة التي بلغت من التوثيق وشدة التحصين ما نسبت به إلى البناء السليماني بمباشرة الجن والشياطين.

وفي توصيف بنائها قال في «معجم البلدان»: هي من عجائب الأبنية، موضوعة على العمدة الرخام، زعم قوم أنها مما بنته الجن لسيدنا سليمان عليه السلام، ونعم الشاهد على ذلك قول النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحدّدها عن الفئند
وخيس^(١) الجن^(٢) إني قد أمرتهم
بينون تدمر بالصفاح والعمد^(٣)

وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما السلام
بأكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه أضافوه إلى
سليمان وإلى الجن^(٤) اهـ. وأصله للجاحظ.

وفي كتاب مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام ما نصه، قالوا: ولكنكم إذا
رأيتم بنيانا عجيبا وجهلتم موضع الحيلة فيه أضفتموه إلى الجن ولم تعانوه بالفكر.
وقال العرجي:

سدت مسامعها لقرع مراحل من نسج جن مثله لا ينسج
اهـ.

وهكذا السور المحيط بأنطاكية فقد تحدث التاريخ بعظمه عرضا وعمقا^(٥).
ولنقصر السير في متسع هذه المهامة، وفيما ذكرناه تنبيه للمصنف من سنة
أوهامه.

على أن مباهاة العظماء من ملوك الجاهلية والإسلام بالبناءات الهائلة أمر
معروف، ومهيع مسلوك غير مخوف، ففي «نفح الطيب»: ولا خفاء أنه أي البناء
يدل على عظم قدر بانيه، ولذلك قال أمير المؤمنين ناصر الدين المرواني باني
الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعض العلماء:

-
- (١) تحرف في المطبوع إلى: «وجيش» وصوابه لدى ياقوت.
(٢) تحرف في المطبوع إلى: «الجنى» وهو غير صحيح عروضيا، وصوابه لدى ياقوت،
والبيتان من بحر البسيط.
(٣) معجم البلدان ١٧/٢.
(٤) معجم البلدان ١٧/٢.
(٥) انظر في ذلك ياقوت، مادة (أنطاكية).

هَمَّ الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسُن البُيان
إن البناء إذا تعاضم قَدْرُهُ أضحى يدلّ على عظيم الشأن^(١)

ومن إنشاءات مولانا إسماعيل في قلعته القصر المسمى لهذا العهد بدار البقر وهو المعنون على بابه بباب مسعود بن العربي، وهو متصل بقصر المحنشة والمدرسة، ومجاور لباب مراح مقر الماليك الملوكية وموقع هذا القصر شرقي صهريج السواني، ومن جهة الجنوب النهج العمومي هناك أضيف القصر للبقر لأن السلطان الأكمل المقدس مولانا الحسن كان جعله مقرا للبقر الحلوب الذي يقام من حليبه في سائر الظروف السنوية تموين الحليب لداره العلية، وكذا جعله مقرا للقيمين بحليبها تحت إشراف أمين حتى يصل لمحله بالدار المولوية ليد المكلف بتقسيطه على أفراد العائلة الملوكية ثمة، والزائد على التقسيط من الزبد المستخرج منه على ما اقتضته أنظاره السمية وأوامره العلية، يجمع ويحمل لجناحه العلى كل سنة حيثما كان من إيالته السعيدة.

والعادة في كل بقرة انقطع حلبها نقلها للعزائب السلطانية ويؤتى بالحلوب بدلها، وبذلك كان الحليب لا ينقطع من الدار السعيدة في سائر فصول السنة، وعلى ذلك استمر العمل إلى آخر الدولة العزيرية، ثم انقطع وفني السكان القيمون وخرب القصر وصار براحا تزرع فيه البقول والخضروات، والعادة المحكمة إلى الوقت الحاضر هي دخول سلطان الوقت عند الإياب من حفلة صلاة الأعياد من باب مسعود المذكور للدار العلية تيمنا بالسعادة التي في اسم من نسب إليه وقد كان عَلَيْهِ السَّلَام يغير الأسماء القبيحة ويحب الفأل الحسن.

ومن فاخر تأسيساته في قلعته الإصطبل بل القصر الذي أعده لربط خيله ذلك القصر الباهي الباهر، الذي لم يزل أثر بنائه التاريخي دينا للأوائل على

(١) نفح الطيب ١/ ٥٢١ ..

الأواخر، ذلك القصر هو المعروف اليوم باسم الأروى ذلك القصر هو الذي أشار إليه أبو القاسم الزياني بقوله: وجعل لها إصطبلًا لربط خيله وبغاله، طوله فرسخ مسقف بدائرة البرشلة على سوارى وأقواس هائلة كل فرس مربوط اثني عشر ألف فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا، يقال إنه كان مربوط اثني عشر ألف فرس مع كل فرس سائس ونصراني من الأسارى لخدمته، وفي هذا الإصطبل ساقية للماء مقبوة الظاهر، وأمام كل فرس محل مفتوح كالمعدة لشربه، وفي وسط هذا الإصطبل قبب متعددة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة اهـ.

وفي هذا الإصطبل هري عظيم على طول الأروى لحزن الشعير المعد للعلف يسع شعير المغربين، وهذا الهري لا زال قائما حتى الآن، إلا أنه قد خرب بعض سقفه، وهذا السقف بعضه الآن مساو لأرض الأروى والبعض الآخر بارز عنها وبه أبوابه، ومن الغريب أن الزياني ومن تبعه لم يتعرضوا لذكره مع كونه من هائل المباني الإسماعيلية التي لا زالت قائمة العين كما ذكرنا. قال أبو القاسم الزياني: ويجوار هذا الإصطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب عجيب طوله فرسخ وعرضه ميلان اهـ.

قلت: صار هذا البستان قبل اليوم دورا للجيش السلطانية، وغالب دوره لا تخلو عن غراسات ويعرف اليوم باسم الزيتون، صار هذا الاسم علما له بالغلبة.

ومن المباني الهائلة بهذا الإصطبل أيضا هيكل الهري المائل الآن فيه وهو هيكل عظيم هائل اشتمل على أهريّة منها هري سبع قبب. وقد دخلنا هري سبع قبب هذا فوجدناه انتصب من بناء مهول مدهش يمثل عظمة بانيه وكمال اقتداره، وبه ست قبب محيطة بالقبة الوسطى العظيمة التي هي سابعة القبب، يقال: إن هذا الهري كان معدا لوضع السلاح الحربي فيه حتى يحتاج إليه، وقد كان السلطان العظيم الشأن المولى حسن عين هذا الهري لحزن البارود ثم بعد مدة طرأ عليه ما

أوجب نقل البارود منه، وذلك الطارئ هو حدوث بلل بارضه لم يعهد فيه قبل فنقل منه ووضع بهري آخر حذوه، ولم يزل مصونا به إلى أن حلت الدولة الحامية وألقتة في صهريج السواني التقمته أفواه قنوات مجاري مياهه أيام امتلائه.

وبطرف هذا الهيكل باب يصعد منه في مطلع بدون درج على هيئة مطلع منار حسان برباط الفتح وجامع الكتبيين بمراكش إلى الصرح العظيم المحمول على هذا الهيكل الفاخر المساوي له طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وهذا الصرح هو المعروف اليوم باسم المنصور، اشتمل على عشرين قبة في كل جهة قبة خمس، الخامسة في كل ربع هي الوسطى وهي أكبر قبة ذلك الربع مع كونها مربعة ومساوية لمقابلتها، وبكل قبة شبك يشرف الناظر منه إما على العاصمة تماماً وبسيطها، وإما على ما حوالها ينيف طول ذلك الصرح والهيكل المحمول هو عليه على مائة متر، وعرضهما سبعون وفي هذا الصرح يقول الكاتب أبو حفص الحراق:

أنا قصر العتاق من الجياد	بناني الله في نحر الأعادي
على يد عبده المنصور حقا	وصلت على القصور بكل نادي
وكيف لا أصول على المباني	وإسماعيل قد أسمى عمادي
وشيدي بتوفيق ويمن	وعمرني بآلات الجهاد
وروع بي الصليب وعابديه	فنال العز من رب العباد
أدام الله ملكه في هناء	وأعقابه إلى يوم التنادي

قلت: قوله بناني - هو بالباء في أوله من البناء ضد الهدم ولا يصح أن يكون بالفاء من الفناء بمعنى العدم، لأنه إنما يتعدى بالهمز وهو في البيت متعدد بنفسه ولأن الإتيان به في طالعة مديح بناء ذلك القصر مما يتشاءم منه لأنه دعاء

بإعدامه، وهو كالمناقي للمقصود. هذا وليس يقصر ارتفاع هذه الهياكل وصرحها عن أربعين مترا وذلك أيام بهجته وشبابه.

ومن المفاخر الإسماعيلية المعصرة الفاخرة البناء الواقعة في الجانب الشرقي من أروى مزيل التي صارت اليوم معملا للصناعة الحديدية، يقال إن زيتون حمرية كان يطحن بهذه المعصرة.

وقد وصف هذه القصة الإسماعيلية بعض من كان مستخدما في بنائها من أساري الأورباوين وهو مويت الفرنسي في كتابيه اللذين وضعهما في وصف المملكتين الرشيدية والإسماعيلية وفتوحاتهما وقضية أسره فيهما فقال: إنها في الجنوب الشرقي للمدينة، وأن ابتداء بنائها عام أربعة وسبعين وستمئة وألف مسيحي، وطولها أكثر من عرضها، كما أن عرضها من الجانب الجنوبي الغربي أقل من عرضها من الجانب الجنوبي الشرقي.

ولها ثلاثة أبواب أعظمها الذي بالجانب الجنوبي الشرقي ويسمى باب الخلاء أي المفضي لخارج المدينة، على جانبيه برجان عظيمان عاليان مربعان على كل واحد منهما ثلاث شرافات على هيئة نور السوسان بنتهما الأسارى عام سبعة وسبعين وستمئة وألف مسيحي. وهذا الباب يقابل المقبرة.

والباب الثاني يسمى باب الحجر لبنائه بالحجر المنحوت وهو المقابل لروى مزين.

والثالث يسمى باب المدينة وهو المقابل لها ثم هذه القصة لها ثلاثة أسوار من جهة الشمال الشرقي عرض أولها ستة أشبار، وعلى طرفيه برجان مربعان ذوا شرافات، وعرض السور الثاني ثلاثون شبرا، وبين هذين السورين فسيح مربع يسمى روى مزين والثلاثون شبرا التي في عرض الحائط الثاني لم تستمر في عرض

الحائط كله، بل أسقط البناءون منها حتى صار البارز منه عشرة أشبار بني على طرفيه جداران صغيران عرضهما ثلاثة أشبار وعلوهما قامة وبينهما داخل الجدار المذكور يطوف على القصبة العبيد الساكنون بالأبراج من غير أن ينظر إليهم أحد لا من داخل القصبة ولا من خارجها.

وأما السور الثالث وهو سور قصر الحريم وهو أعلى من الأولين وبه كوات وفرج وعليه يطوف عبيد الدار المخصيون وليس على القصبة من الجهة الأخرى إلا سور واحد عرضه عشرة أشبار، وله أبراج متينة شاهقة مربعة من جملتها معقلان: أحدهما في جانب القصبة الشرقي، والآخر في جانبها الغربي.

وفي الجانب الجنوبي من هذه القصبة قصبة صغيرة بنيت سنة ثمانين وستمائة وألف مسيحية تسمى الأوداية، عرض أسوارها ستة أشبار، ولها أبراج مربعة بشرفاتها تفضل بين القصبتين مقبرة، قال: وللقصبة الإسماعيلية منظر رائع من بعيد. قال: وتتصل بها مدينة مكناس من الجهة الشمالية الغربية. قال: وفي عام واحد وثمانين وستمائة وألف اشترى مولاي إسماعيل الجنات المجاورة للجنان الذي أنشأه على هيئة أكداك بمراكش، وكان قصده أن يجعل دائرته ثلاثة كيلو مترات، وقد أكمل عمله في شهر واحد استخدم فيه في أبان المطر الغزير الأسارى والعبيد والقواد والأشراف وغيرهم كما خدم فيه بنفسه وكذا خدم بنفسه في بناء قصوره اهـ.

قلت: أما باب الخلاء المذكور فهو المعروف اليوم بباب الرايس، وإنما كان يسمى باب الخلاء زمن خدمة هذا الأسير بالبناءات الإسماعيلية، وإلا فقد صار باب العمارة، وفي وسط القصبة ومن هنا يفهم أنه لم يصف القصبة بتمامها لأنها زادت بعده كثيرا، والباب المفضى للخلاء من تلك الجهة هو باب الناعورة البراني والمقبرة التي أشار لمقابلة باب الرايس لها هي مقبرة سيدى عمرو الحصيني، ومقابلتها له ليست حقيقية، بل هي مقابلة في الجملة لأن الخارج من باب الرايس

تكون المقبرة عن يساره، وقد حال الجدار المار فيه ماء شرب المدينة المقابل لباب القصر الملوكي المسمى بالمدرسة بين المقبرة والباب المذكور.

وأما باب الحجر فإنه لا زال يعرف بهذه الإضافة إلى الآن، وهو الذي يدخل عليه لحومة سيدي النجار ويمر فوقه لحومة الدرية وكلام هذا الأسير فيه يدل على أن باب أبي العمائر الواقع خارج هذا الباب لم يكن في زمنه وكذا باب المرس وإنما حدثا بعده، وهو قد كان المولى إسماعيل مَنَّ عليه بالفكاك من الأسر في جملة سبعين أسيراً عام واحد وثمانين وستمئة وألف مسيحي.

وأما باب المدينة الذي ذكره فهو المعروف بباب منصور العليج، وكلام هذا الأسير نص في كون أصل هذا الباب للمولى إسماعيل فولده مولاي عبد الله إنما نغمه كما يأتي ذلك بحول الله.

وأما القصبة الصغيرة التي قال الأسير إنها في الجانب الجنوبي الشرقي فهي قصبة هدراش، ونسبته إياها للأودية لعل ذلك كان لسكنى الأودية بها أول الأمر، والمقبرة الفاصلة بين القصبتين هي مقبرة الحصيني المتقدمة، وأما قوله: روى مزير، فهو عنده آخره راء، الشائع في السنة العامة آخره نون، والذي يكتبه الموثقون والمتفاصحون آخره لام، ويذكر أن مزير المضاف إليه كان قيما على أروى خصوصية هناك، وهو من أرقاء السدة الملوكية، وبالأسف فقد أصبحت مشيدات هاتيك القصور بلاقع، ولم تلف لتلافي أشلائها من راقع، استعمرتها أنواع العصافير والحشرات ودرست معالم تلك الزينة الثمينة، وخربت تلك القباب بل انمحت آثارها وجعل عاليها سافلها وإلى الله عاقبة الأمور.

ولما وقفت على تلك الرسوم الدارسة، المستوحشة بعد أن كانت مؤنسة، وطلال تدبري في مبداهها والمآل، تذكرت ما أنشأه ابن عربي الحاتمي في كتاب «المسامرات» لما دخل الزاهرة فوجدها بلاقع إذ قال:

ديار بأكناف الملاعب ترتع وما إن لها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فتصمت أحيانا وحيناً ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي فقال على دهر مضى ليس يرجع
وخيل لي أنها تنشدني قول من قال:

الله آخر مدتي فتأخرت حتى رأيت من الزمان عجائباً
وليس ببعيد من طريق الاعتبار أن تكون الحكمة في سرعة تخريب تلك
القصور وغيرها مما يأتي من البناءات الإسماعيلية على عظمها وثخانة بنائها
القاضيتين بالنظر للعادة بتأييدها في الجملة جعل ذلك في مقابلة هدم قصر البديع
الذي كان أسسه بمراكشة السلطان أبو العباس أحمد المنصور السعدى الملقب
الذهبي، لفيضان الذهب في زمانه حتى قيل كانت ببابه أربع عشرة مائة مطرقة
تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلي وشبه ذلك -
المبتدأ تأسيسه في شوال عام ستة وثمانين وتسعمائة، واتصل العمل فيه إلى عام
اثنين وألف ولم يتخلل ذلك فترة، وفي عام تسعة عشر ومائة وألف أمر مولانا
إسماعيل بهدمه فهدمت معالمه، وبددت مراسمه، وغيرت محاسنه وفرق جمع
حسنه وعاد حصيداً كأن لم يغن بالأمس.

قال في «نزهة الحادي» تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب
الجمال مائة وسبعة عشر، وهذا القدر هو الذي بقي فيه البديع قائماً عامراً فإنه فرغ
منه عام اثنين وألف، وشرع في هدمه عام تسعة عشر ومائة وألف، فمدة بقاءه بعد
تمام بنائه مائة وسبعة عشر سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق اهـ،
وكون الجزء من جنس العمل أمر معهود في التصارييف الإلهية في كثير من

الجزئيات، وليس هذا بمزاحم لما أشار البعض إليه فى حكمة هدم البديع من كون أنقاضه صارت بعد هدمه كالراجعة لأصولها، إذ ما من نقطة مغربية إلا وصار إليها فى الأغلب بعض أنقاضه، كما أن القوة المخزنية كانت ألزمت وقت بناء البديع سائر النقط المغربية حمل ما قدرت عليه مما لديها من مقومات بناء قصر البديع المذكور وإيصاله إلى محل بنائه.

قال فى «النزهة» حتى إنه وجدت بطاقة فيها إن فلانا دفع صاعا من جيار حملة من تنبكتو وظف عليه فى غمار الناس اهـ. فكان تفريق أجزائه بعد الهدم وفق ما جمعت عليه حين البناء وذلك أيضا جزاء من جنس العمل جزاء وفاقا والحكم والنكت لا تتزاحم على أن ما ذكره هو حكمة لهدم البديع، وهذا الذى أشرنا إليه هو حكمة لهدم ما شيده سيدنا الجد هادم البديع برد الله ثراه.

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فليعتبر بذلك البصير، وليراقب فيما يأتى وما يذرهُ الآخذ بالنواصي الوارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وليعلم أنه كما يدين يدان.

ومن تأسيساته الفاتكة العجيبة التى لم ينسج على منوالها ناسج مدينة الرياض العنبري، جوار قصبته السعيدة لا زال موقعها إلى الآن بدخول الغاية يعرف لدى الجمهور بالرياض، خارج باب زين العابدين، أخذ أبواب المدينة اليوم، كان عينها لأخواله الأوداية عام ألف وثمان وثمانين كما فى «الروضة السلمانية» وأمرهم ببناء دورهم بها.

وفىها كانت دور العمال والكتاب وذوى الحيشيات من أعيان الدولة، قال أبو القاسم الزباني: وكانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها، وبها آثار أهل دولة مولانا إسماعيل كل من كان له وظيف بخدمته بنى داره بها وتنافس العمال والقواد

في بناء القصور والدور، فقد كان بدار على بن يش أربعة وعشرون حلقة يجمعها باب واحد، وكانت دار عبد الله الروسي وأولاده أعظم منها كانت حومة وأمثالها من القواد، وبنى كل عامل مسجداً في حومته وبوسطها المسجد الأعظم الإسماعيلي ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه وكانت تنفق فيها البضائع التي لا تنفق بغيرها. اهـ.

هذا وقد طارت الركبان وقص التاريخ لنا ما كان لسيدنا الجد الأكبر السلطان المولى إسماعيل من الاهتبال بأمر هذه المدينة مدينة الرياض المذكورة، وما كان لذويها لديه من شفوف المكانة، وناهيك أنها كانت كرسي الوزارة في دولته، بل كانت محط رحال أولي الأمر من رعيته في عصمته، شيد فيها المسجد الأعظم الحافل الذي فاخرت به الأواخر الأوائل، وشيد بها الدور والقصور والأسواق، والحمامات، وغير ذلك من الرباع والعقار، ووقف الجميع على ذلك المسجد الفاخر.

ولقد وقفت في بعض التقايد التي يكاد القطع يحصل بصحتها والعقود القديمة التي لا مطعن فيها على ما صورته: الحمد لله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخيب لمن أخلص له النية أملاً، والصلاة والسلام على سيدنا محمداً آخراً وأولاً، وبعد فإن مولانا أمير المؤمنين، الموفق بتوفيق المعين المتوكل في جميع أموره على رب العالمين، المنتخب من عترة النبي الطاهر لصلاح الدنيا والدين. عز الإسلام والمسلمين. تاج الملوك المجاهدين، الملك الهمام الذي اعتز الإسلام تحت لوائه، ورتع الأنام في ظل هديه الصالح واهتدائه، وأسس قواعد الملك الذي أناف على ثواقب الكواكب شامخ بنائه، ذو المجد الأثيل، والفخر الأصيل. أبو الوليد مولانا إسماعيل، شكر الله أنظاره، وخلد مآثره وآثاره، وعمر بالنصر العزيز منازل ودياره، ابن مولانا الشريف، العلى القدر المنيف، لما وصل

الله لخلافته العلية ما عود، ومتع مما خول وأعان على ما خلد، أعلى الله منار عدلها، وشكر مكارم قولها وفعلها، جاهد في الله حق جهاده، حتى استخلص من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده، وجدد ما اندثر من العماثر، وشيد ما تركه الأوائل للأنام من المآثر، إلى غير ذلك من المآثر الحسان، الدالة على معاليه في كل زمان، اللهم كما نصرت به الدين، وأيدته على أعدائك الكافرين، وجعلته رحمة للعباد، وعصمة للبلاد، ونقمة لأهل الفساد، فأكرم اللهم خلافته العزيزة بطول البقاء، وألزم أوامره وصوارمه أقوم الاضاء.

وحين بواه الله المراتب العلية، والأفعال الزكية المرضية. صرف همته لتشييد المساجد، وتشهير المعاهد، وخصوصا مسجد المدينة العليا الجديدة العنبرية الذي جعل له من الأوقاف داخل المدينة وخارجها ما هو مرسوم بالورقات الثلاث قبل هذه المواليات لها وقف شهيداه الواضعان لاسميهما عقب تاريخه مع ناظر المسجد في حينه، وهو المكرم عبد الوهاب ابن الناظر المكرم عبد العزيز حجاج على عين جميع أوقاف المسجد المذكور عمره الله بدوام ذكره داخل المدينة المذكورة وخارجها، كل وقف منها على انفراده، وحازه معاينة، وجدد الحوز، ولما تحقق عند العلامة القاضي بحضرة مولانا العلية، وخطيب منبرها العالي المخصوص لديه بترفيح المزية. المصروف إليه خطاب القضاة بإيالته الحسنية، قاضي الجماعة، ومصرف الأحكام المطاعة، سيدى محمد أبو مدين بن حسين السوسي ما عليه الناظر المذكور من الحزم، والسعي في المصالح والعزم، أوصاه أن يعمل على ما يقربه عند الله من مرضاته، ويظفر يجزيل مثوباته، وفي أواسط رجب الفرد عام ثمانية ومائة وألف الحمد لله شهد واضع اسمه عقب تاريخه بمعرفة المواضع المقيدة بالقوائم الست بمحوله مع ما في القائمتين أعلاه معرفة تامة كافية ويشهد مع ذلك بأنها محبسة على المسجد الأعظم، من المدينة العليا المختطة عن الإذن العلى بالله

من قبل مولانا المنصور بالله الإمام العدل المعظم المتواضع لذكر الله ورسله، فرع الدولة الحسينية وأمكن ركنها، حامي حمى خلافة الإسلام، مولانا إسماعيل بن مولانا المقدس مولانا الشريف الحسني أمدته الله بعزیز تأييده وبمعونة نصره ورشده آمين .

وهي المسماة بالرياض العنبري عمره الله بدوام ذكره وحرسها حسبما يجري مجراها ولا يحيد عن طريقها وسبيلها مؤبدا ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن عرف ذلك كما ذكر قيد به شهادته في أواخر جمادى الثانية عام ثمانية ومائة وألف، الحمد لله الذي جعل الخلافة شمسا من عنصر النبوة فأضاءت على أديم البسيطة أنوارها، وارتفع إلى السها والفراقد منارها، وتآلق بالإصباح نهارها، ولاحت في سماء المجد بدورها وأقمارها، وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها الشريفة وأخبارها، وفاض لبركتها على أكتاف المعمور خضمها الزاخر وتيارها، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي ظهرت نبوءته قبل ولادته، وبشرت الأحبار والرهبان بعموم رسالته، وخرقت له حجب الآفاق، وفرجت له السبع الطباق، فحاز على كافة الأنبياء والمرسلين خصال السباق، صلى الله عليه وعلى آله والرضى عن أصحابه صلاة كاملة ورضى تاما وسلم كثيرا أثيرا، أما بعد: فإن الله تعالى قد اختار لصلاح هذه المغارب، من سعد به البادي والحاضر والشاهد والغائب، الإمام المنتخب من عترة النبي الذين علوا مناقب ومناصب، ورقوا إلى أشرف المنازل والمراتب، الملك الهمام، حافظ بيضة الإسلام وكافل أمة النبي عليه السلام، صاحب الفتوحات المنسقة النظام، جمال الأنام، تاج الإمارة عز الإسلام، الذي أسفر عن صبح النصر العزيز نصله، واشتمل على خواص الشرف الأصيل جنسه وفصله، وطابت فروع

لما استمد من ريحانتي الجنة أصله، ذا العزم الأمضى، والسعي الأرضي، الملك المنصور أبا المآثر الحسان والمفاخر السلطان المجاهد في سبيل ربه وابتغاء مرضاته، مولانا إسماعيل بلغه الله من رضاه أقصى مسئوله، وأعانه على جهاد عدو الله وعدو رسوله، ابن مولانا الشريف بن مولانا على جدد الله عليهما ملابس الرحمة. وجزاها أفضل ما جزى الصالحين من ملوك هذه الأمة، لما ولاه الله أمر عباده، وبسط يده في أرضه وبلاده، ونصره على أعدائه، وأيده في أرضه بملائكة سمائه، واستقر ملكه الشامخ البناء بمدينة العز مكناسة الغراء، دار ملك الجهاد، وكرسى دار الإمارة المظفرة العساكر والأجناد، عصمها الله ووقاها، وحفظ بها كلمة الإسلام وأبقاها، فلما استقر بها ملكه الأشرف وانعقدت بالنصر العزيز راية الفتوحات على قناة العدل الذي عليه مدار الأمور، وعشا إلى نور سراج الوهاج الخاصة والجمهور، ضاقت المدينة المولوية بجيشه المنصور، أمر أيد الله أمره، وأبد فخره، وأدام تأييده ونصره، ببناء المدينة الجديدة العنبرية المختصة بأمره السلطاني، المؤيد بالتأييد الرباني، لا زال نافذا بعون الله ميسر المآرب، ومطاعا له في جميع أقطار المغارب، فبنيت صانها الله من طوارق الحداث وحاطها من سوء ما يجري به الملوان، وأسس بها مسجدا للخطبة عتيق، وبنى عن أمره العالي البناء الحسن الوثيق، وصل الله عوائد صنعه الجميل لديها، وعمره بدوام الذكر والعبادة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولما كمل بناؤه وأعانه من له القوة والعون سبحانه على ذلك حمد الله تعالى، وأثنى عليه الذي وفقه وأعانه عليه، ورجا كمل الله رجاءه أن يدخل تحت عموم حديث الصادق المصدوق، صلوات الله عليه وهو قوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً بنى الله له قصراً في الجنة»، وقوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً يستغني به وجه الله العظيم بنى الله له مثله في الجنة» وقوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً بنى

الله له في الجنة أوسع منه» إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية. وصحاح الأخبار المصطفية.

وأمر أيد الله أمره عام ستة ومائة بعد ألف بجلب الماء له من عين البيضاء في قادوس مختص به ويكون الموضع الذي يجري فيه القادوس حبسا عليه من العين المذكورة إلى المسجد الجامع المذكور في جميع الأملاك السلطانية، وألزم ناظر المسجد المذكور في حينه وهو المكرم عبد الوهاب بن الناظر المسن المكرم محمد بن عبد العزيز حجاج مع من له النظر العام والأمانة الكاملة في أمر البناءات كلها السلطانية على اختلاف أنواعها وأجناسها بداره العلية حرس الله رفيع اعتبارها، وصان من طوارق الحداث على أبوابها، ناصح خدمته السلطانية، في السريرة والعلانية، وهو الطالب محمد بن الثقة الخير خديم أهل كتاب الله المحب لآل بيت رسول الله ﷺ وعلى آله محمد الكاتب شهر الأندلسي نجارا، الفاسي دارا، ومنشأ وقرارا، بالوقوف التام على خدمة ذلك الماء على أن يصل إلى المسجد الجامع المذكور فوقفا عليه، وصرفا كليتهما إليه، حتى بلغ على مقتضى غرضه السلطاني فجعل نصره الله ثلاثة أرباعه للمسجد الجامع المذكور، والربع الواحد الباقي منه للسقاية التي هنالك بإزاء المسجد.

تقبل الله عمله، وبلغه في نصر الإسلام وصلاح الأنام أمله، ولما علم من قوله ﷺ ما علم من أنه عليه السلام قال: «من بنى لله مسجدا بنى الله له في الجنة أوسع منه» أراد حصول تلك الفضيلة فأمر أيده الله بزيادة صفين اثنين ليوسع بهما، فزيდა على نظر الإمام المقرون بالبركة قبلي المسجد الجامع المذكور وصل الله سعده، وأناله من الثواب الجزيل قصده، والحمد لله ولي التوفيق والتسديد، المتكفل لمن شكره بالمزيد، ولمن توكل عليه بالإعانة والتأييد.

وصلى الله عليه سيدنا محمد نبيه الذي اصطفاه من العبيد، وجعله السبب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد، وعلى آله وصحبه صلاة لا تنقطع أبد الأبد ولا تبيد.

فحبس عليه من الأوقاف بداخل المدينة وخارجها ما يذكر، ويعين ويفسر بعد إن شاء الله، فالذي بداخلها أمنها الله وحماها جميع الدار المتصلة بغربي المسجد المذكور، وجميع الدر ذات البيوت المتصلة بشرقي المسجد المذكور، وجميع الطراز المسند للسقاية الكبرى المنشأة هناك قرب المسجد المذكور وهو الذي صار الآن داراً، وجميع الحمام الجديد المقابل لقبلى المسجد المذكور بفرنه ومنافعه، وجميع الفرن الذي بأعلى الحمام قبلى المسجد المذكور، وجميع النصف الواحد على الشيع في كافة فندق ابن عزور صاحب إفراك في شركيته بالنصف الآخر على مقربة من باب الرياض، المواجه لسيدى سعيد بن أبى بكر نفعنا الله به، وجميع الحوانيت الثلاثة التى بأسفل باب المِيضَاة^(١) مع البيوت المسندة إليه، وجميع الحانوتين المتصلتين بالقنت المواجه لداخل الرياض من بابه الأكبر باب ثلاثة فحول أسفل دار الباشا منصور الرامي، وجميع التسع حوانيت المتصلات بداخل الرياض أمام بابه النافذ لقرب الولى سيدى سعيد، مبدؤهن من الحانوت. الثانية لحانوت القنت المواجه للباب المذكور بصف واحد، وجميع الحانوت الصغرى التي برحبة التبن عن يسار الصاعد غرباً بعد دخوله من الباب المذكور، والذي بخارجها جميع الأربعين حانوتا عن يمين الصاعد لباب المشاوريين، أحد أبواب مكناسة، وجميع موضع الثانى عشر حانوتا المتصلة بها من جهة روضة سيدى عبد الرحمن القرشي، وجميع التسع حوانيت المتصلة بها من أعلى التى بناها حجاج، وكل الحوانيت صف واحد في اعتمار صنعة الذميين، عددها إحدى وستون حانوتا بجميع ما لذلك من المنافع والحرم وكافة الحقوق الداخلة والخارجة، ليصرف من فوائد الحبس ما يفضل عما يحتاج إليه أصله من الوجوه الضروريات مما يبقى أصل الحبس معه محوطاً فيما يحتاج إليه المسجد الجديد المذكور من إصلاح مبانيه ومياهه وحصره وزيت الاستصباح به وراتب القائمين بأموره وغير ذلك مما يحتاج إليه.

(١) المِيضَاة: الإداة فيها ماء يُتَوَضَّأُ به، والموضع يُتَوَضَّأُ فيه.

ومن إنشاءاته المحبسة جميع المكتب المسند إلى المسجد المذكور لتعليم أولاد المسلمين قراءة القرآن، وجميع السقاية التي هناك، صير في بنائها مائة مثقال دون الخشب، وجميع المنجرة المتصلة بالمسجد المذكور لخدمة الخشب لإصلاح المسجد وأوقافه، وصير في جلب الماء من العين البيضاء إلى المسجد المذكور ما يذكر مفصلاً، من ذلك ثمانية وعشرون قنطاراً من الزيت من معصرة مولانا المظفر المنصور، وثمانية وعشرون ألفاً من القادوس الثلثي مدفوع في جملته بيد الفقار ألفاً أوقية اثنان دراهم وأربع كوشات من الجير مدفوع فيها مائة مثقال، وأجرة المعلم القوادسي عن مدة خدمته عشرة أشهر ثلاثمائة أوقية دراهم، وأن المال المدفوع على يد الناظر المذكور في الصفيين اللذين أمر مولانا بزيادتهما قبلي المسجد المذكور صرة من التبر بيعت بمائة وثلاثين مثقالاً دراهم، وكل المال المصير في بنائهما وفي جلب الماء للمسجد المذكور وفي بناء السقاية والمكتب هو من مال مولانا الخاص به.

وحبس نصر الله أعلامه ماء آخر يطوى له قادوسه وحده من الوادي إلى أن يصل للمسجد المذكور. اهـ.

ومع هذا الاهتمام العظيم بتحسين هذا السعي المشكور المكين من هذا الإمام العظيم منشئ مدينة الرياض، حتى تدوم قائمة بنفسها في سائر الشئون والأغراض، لم ينفع حذر من قدر فلم تعش المدينة بكل بناءاتها الدينية والدنيوية إلا خمسا وخمسين سنة قضتها كلها في ازدهاء وازدهار، لا تحوم نحو ساحتها الأكدار، وطالع السعد على أرجائها مشرق، وخميس اليمين والأمانى بأكنافها محقق.

وفي هذه المدينة يقول الفقيه الكاتب أبو حفص عمر الحراق من قصيدة يخاطب بها كتاب الحضرة الإمامية.

أكتاب الإمام لقد سعدتم بآثار لسيدنا سديدة
ذنوتم من قصور أبى المعالى وقد كانت منازلكم بعيدة
وما دار تقرب منه إلا مباركة بلا ريب سعيدة

قال فى «الدر المنتخب المستحسن» وقد أجازاه السلطان على هذه القصيدة بأربعمائة مثقال نفذها له عند عامله الباشا على بن عبد الله الريفى فقبضها منه فى الحال. اهـ.

قلت: هذا وأبيك الكرم ونخوة الملك، فالأربعمائة مثقال فى ذلك الزمان من الأمر ذى البال تقوم بما لا تقوم به اليوم أربعمائة ألف فرنك، ثم لما قضى الله بخرابها ونثر نظام عقد محاسنها، قىض لنقض محكم بنائها السلطان المولى عبد الله نجل مؤسس قواعدها على تقوى من الله ورضوان، فأمر النصارى وغيرهم بهدمه لأمر عرض له فى الحال اعتراه بسببه شبه اختلال، وذلك الأمر هو ما ذكره صاحب «الدر المنتخب» من إنه كان إذا جن الليل اجتمع من سكانها القواد والأعيان وتذكروا الأمور الواقعة فى الآفاق والبلدان، وتذكروا فيما بينهم وإن أرادوا أمرا عليه صمموا ويدبرون الأمر حتى يكون ما عليه عولوا، فنصر مولاى أحمد الذهبى أولا كان فى مدينة الرياض المذكورة، وفيها اتفقوا على عزله ونصر مولاى عبد المالك فى الرواية المشهورة، وفيها عزلوا مولاى عبد المالك وردوا مولاى أحمد، وفيها اجتمع رأيهم على نصر مولاى عبد الله وكان مولاى عبد الله إذا فعل فعلا اجتمعوا وتحدثوا، فكان مولاى عبد الله لأجل ذلك لا يبلغ مناه، وإن أراد مولاى عبد الله أن ييصر أمرا اجتمعوا وقالوا هذا أمر لا نفعله بوجه ولا بحال، فبلغ الخبر لمولاى عبد الله فأعرض عن ذلك الأمر الذى أراد كأنه لم يبق له ببال، وأرسل إلى العبيد الذين بمشرع الرملة ومن كان غائبا من جنوده وكساهم وفرق عليهم الأموال، وزادهم فى الراتب وقدمه لهم على الكمال.

ففى فجر يوم السابع والعشرين من شوال عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف حشد تلك الجنود وأعد آلة الهدم وركب فرسه ووقف على تل مشرف عليها وأمر بالهدم من كل ناحية والناس نيام فمن أسرع وحمل رزقه وقشه نجاً، ومن لامعين له بقى قشه تحت الردم وارتحل الوداية لفاس الجديد مع إخوانهم وتفرق غيرهم بالمدينة، فما مضت عليها عشرة أيام إلا وصارت كدية من تراب يعشش فيها البوم، ولم يبق بها إلا الأسوار والجدران قائمة كما قاله أبو القاسم الزياني وغيره، والبقاء لله وحده، وله سبحانه وتعالى الأمر من قبل ومن بعد.

وقد صارت موقعها من مزارع العاصمة المكناسية ومراعى مواشيها، ولا زالت إلى الوقت الحاضر بعض الأطلال قائمة بها، وقد كانت تلك المزارع فيما سلف معدة لتزول الجيوش السلطانية عند ما يحل ركبها الشريف بالعاصمة المذكورة، وأحدث بها الآن محالاً لسكنى اليهود لضيق حارتهم عنهم.

ومن تأسيساته حارة اليهود التى بها سكناهم الآن، أسسها عام ثلاثة وتسعين وألف كما بتأليف الضعيف وغيره، وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وإسكانهم بالمحل المؤسس لأجلهم فسكنوه، وأخلت دورهم التى كانت وسط دور المسلمين بالمدينة، ثم سكنها أهل تافيلالت الذين بفاس بأمر من السلطان.

ومن تأسيسات مولانا إسماعيل قصبة بريمة التى لازالت قائمة العين والاسم إلى الحين الحالى الواقعة غرباً من قصبة قصور الملك السعيدة، وقد وقفت فى بعض العقود الموثوق بها على بعض ما يتعلق بذلك ونص الغرض منها: كان الجنب العالى بالله مولانا أبو النصر تملك جميع أرض بريمة خارج الحضرة الهاشمية محروسة مكناسة، وأعطى مولانا المنصور ثمنها وأمر ببناء حوانيت خارج باب المشاورين بالثمن المذكور، لكون الأرض المذكورة من أوقاف جامع الخضراء، وفضل من الثمن المذكور من بناء الحوانيت مائة مثقال، وكان المتولى لذلك عن أمر

مولانا المنصور بالله تعالى القائد الأرضى . الأجل الأحظى ، خديم المقام العالى
بالله أبا العباس أحمد بن الأجل الفقيه الأكمل المرحوم بكرم الله سيدى أبى يعزى
العرايشى ، أشهد الآن أنه صير لجانب الحبس فى المائة مثقال كذا فى سنة اثنتى
عشرة ومائة وألف ، اهـ .

ومن تأسيساته قصبة جناح الأمان الشهيرة إلى الآن .

ومنها قصبة قعر وردة التى لازالت قائمة العين والاسم إلى الحين الحالى ،
وكان تأسيسه إيها عام واحد ومائة وألف .

ومنها قنطرة دردورة الشهيرة المعروفة قبل بقنطرة ابن يشو ، أسسها عام واحد
ومائة وألف على ما فى بعض التقايد ، وأنشأ بهذه القنطرة سقاية اهتم بشأنها
اهتماما زائدا حتى حبس عليها عدة أوقاف من ربايع وعقار ، كانت تعرف هذه
السقاية بسقاية الذهب ، ودونك بعض النصوص الشاهدة لما لمنشئها من الاهتمام
والاعتناء بأمرها : الحمد لله شهد لدى شهيديه أمين الدار العالية بالله ، وناظر سائر
الإيالة الشريفة المعلم محمد بن محمد الكاتب الأندلسى أن مولانا المنصور بالله
تعالى مولانا أمير المؤمنين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، مولانا إسماعيل أبد
الله أوامره ، وخلد مفاخره الكريمة ومآثره ، أمين ، حبس جميع الحوش المستدير
بالحيطان - غير ربع واحد منه بلا حائط - الكائن بقصبة تزييمى المجاور من أسفل
الحوش حبس مسجد صواغة الذى بيد الوقاد على وجه الجزاء على إصلاح الماء
المجلوب لسقاية الذهب التى أحدث بناءها مولانا المذكور بقنطرة دردورة خارج
مدينة مكناسة ، وهذا العقد بتاريخ جمادى الأولى عام سبعة عشر ومائة وألف ،
ولما رأى أنجاله ورؤساء أعيان دولته العظيمة ما لمتبوعهم الأمير الطائر الصيت من
الاهتبال والاهتمام بهذه السقاية ، تسارعوا لاقتفاء أثره فى التحسيس عليها ، فحبس
عليها نجله المظفر أبو الحسن مولانا على كوشة وحانوتين حسبما بعقد تحسيس ما

ذكر المؤرخ بعام ثمانية وأربعين ومائة وألف، وحبس عليها خديم مقامه العالى القائد على بن يشو اليازغى عقارا حسبما بعقد وقفت عليه بتاريخ أواسط جمادى الثانية عام سبعة وعشرين ومائة وألف، ومع الأسف فقد اندثرت هذه السقاية وعفت منها الآثار، ولم تنتج لها أحباسها العديدة أدنى وقاية من يد الاضمحلال والاندثار.

ومنها مسجد باب البراذعيين الشهير، وكان تأسيسه له تحت نظر وزيره على ابن يشو، وذلك عام واحد وعشرين ومائة وألف، وهذا التاريخ هو الذى رسم بخشب باب مقصورة المنبر بالجامع المذكور فى أبيات لعمل منبره، ونصّ ذلك:

أنا منبر للذكر والوعظ أنصب دوائى لأمراض القلوب مجرب
ومولاي إسماعيل عز عن امره تأنق فى صنعى الوزير المهذب
على بن يشو راجيا فضل ربه وإن رمت تاريخى بحقّ سيحسب^(١)

ومنها جامع الأنوار المعروف بهذا الاسم إلى الزمان الحاضر الذى بابهُ الأكبر عن يمين الداخل للقبة الإسماعلية من باب منصور العلج، ففى «زهر البستان». فى نسب أخوال سيدنا زيدان بن مولانا إسماعيل، أن مما شيده مولانا إسماعيل مسجد الأنوار الذى هو لأشتات المحاسن جامع، فمن سوارى رخامية يقارب عددها المائتين، ومن صحن بديع الشكل بهى المنظر رحب المتسع عديم النظير بالعدوتين، بوسطه قبة ارتفعت عن أن تقاس بمثال، قائمة على أعمدة من الرخام مختلفة الأشكال، بزواياها الأربع شبايك مصنوعة من الخشب أمسكت بصفائح مذهبة أركانها، أرضها مفروشة بالرخام، وسماؤها وشيت من خشب ملون

(١) فى المطبوع: «وإن رمت تاريخى (شاكك) يحسب» وهو غير صحيح عروضيا. ولعل المناسب ما أثبتناه. والأبيات من الطويل.

منقوش بأبهى من طوق الحمام، يدخل إليها من جهاتها الأربع وبداخلها خصة رخام لم ير الرءون مثلها فى ضخامة الشكل وسعة الدائرة وإحكام صنعة ترصيف ما أحدق بها من الرخام، وبإزاء القبة بئر أحدق به أربع خصص صغار وإلى جنب كل خصة حوض يمتلئ منها، وبإزاء الصحن المذكور بالركن الذى التقى فيه الربع الشرقى بالربع القبلى منار يرقى فيه بغير مدارج، بل بترصيف مستوى المعارج، مطبق الأعلى فلا يصيب فيه المؤذن حر شمس ولا مطر، ولا ينال بصره من محارم المسلمين قطاف وطر.

ومن محاسن هذا الجامع أن أسند إليه بربعه القبلى من حيث اتصاله بالربع الشرقى خزانة الكتب مشملة على قبتين قائمة حلقتها على أربعة قوائم من الرخام، وبها من الكتب العلمية ألوف عديدة... إلخ ما وصفه به مما لا ينطبق إلا على جامع الأنوار المعروف بهذا الاسم الآن وذلك الانطباق وقت شبابه، وقبل انقلابه وإيابه، أما بعد ذلك فلم يبق من دلائل ذلك الانطباق إلا شهرته قديما وحديثا بجامع الأنوار مع ما أدركناه من بقايا دار الوجود الموصوفة فى الجهة الشرقية إلى أن استأصلتها الدولة الحامية، ومع بقايا خزانة الكتب الموصوفة فى كلام زهر البستان، فإن بابها بالمحل المعين فى كلام زهر البستان مع ما سمعته من والدى عن والده رحمهما الله أن تلك الباب هى باب خزانة الكتب الإسماعيلية التى فرق السلطان سيدى محمد بن عبد الله كتبها على مساجد المملكة، وإنما قلت لم يبق من دلائل الانطباق إلا ذلك، لأن جامع الأنوار قد مسخ، وتقلب فى أطوار النحس والمسخ، حتى إنا ما أدركنا شيئا مما وصف من بهجته، ولا بعض ما يمثل حسن صورته، سوى الجدران المحيطة به وأطلال بعض ما عداها، أما ما عدا ذلك فلم ندرك منه رسما ولا طللا وليت هو أنه انتهى عند هذا الحد، ولكنه زاد على ذلك بأن أعدَّ تارة لربط الدواب وأخرى لاستقرار من هم شر من الدواب، وهم

أخلاق أوباش العساكر الذين كانوا يأتون فيه كل الفواحش بكل معنى الكلمة، وآونة يكون سجنًا للمتمردين، وطورًا يجعل خزينًا للشعير، إلى أن حازته الدولة الحامية وصيرته مدرسة لقراءة لغتها وغيرها، ولا ينافى كونه من الإنشاءات الإسماعيلية ما هو منقوش في زليج بأعلى بابه ولفظه: ما للخورنق والبديع كمال... إلخ ما سيمر بك قريبًا بحول الله لأنه إنما أسند في هذه الأبيات لمولاي عبد الله إنشاء حلة تلك الباب لا غير وتلك الحلة وذلك الكمال يحملان على إنشائه بها خاصة تنميقًا وتزويقًا، أما أصل ذلك فهو لوالده المولى إسماعيل لما قدمناه عن زهر البستان من أن المولى إسماعيل هو المنشئ لذلك المسجد بكماله، وقد وصفه بذلك قيد حياة منشئه كما يبنى عنه ما ترجم المولى إسماعيل به في الكتاب المذكور.

وقد قدمنا أن هذا المسجد هو الذى يقوى فى نظرنا أنه المسجد الذى أسسه لما ضاق به مسجد القصبة الذى لازال يعرف بهذا العنوان إلى الآن، وكذا قدمنا أن دليل ذلك قول واصفى المسجد الذى أسسه بعد ضيق الأول وجعل له بابين بابا إلى المدينة... إلخ، فإن الباب الذى للمدينة بدون حاجز لم يوجد إلا فى هذا، ويزاد على ذلك أن ما وصف به «زهر البستان» جامع الأنوار مع قبته أظهر فى وصف الأخضر الذى أطلقه على المؤسس بعد الضيق واصفوه من وصف مسجد القصبة به، وكذلك ما فى بيت ذلك الشاعر السابق وهو قوله فى القبة الخضراء، البيت، القبة الموصوفة فى جامع الأنوار أحق به وأليق، ويتأكد ذلك بكون الزيانى ومن تبعه لم يفصحوا فى البناءات الإسماعيلية بجامع الأنوار بهذا العنوان، مع أنه أحق بالذكر من كل مسجد بناه، لأن ما وصف به زهر البستان بناءه لم يوصف به شيء من المساجد التى شيدها، فدل ذلك على أنه هو مرادهم بقولهم أسس المسجد الأخضر إلى قولهم وجعل له لابين بابا المدينة... إلخ.

ويحمل المسجد الذى وصفنا تهدمه داخل الباب الأول للضريح الإسماعيلي

على أنه كان معدا عند المولى إسماعيل للصلوات الخمس، ومسجد القصة المعروف بهذا الاسم لصلاة الجمعة، وقد يصلى فيه الخمس أيضا عند ما يجده الوقت فى قصر الستينية المتصل به، أو لمقتض آخر، مقتضيات عظم المملكة وشامخ أبهنا.

والظاهر أن ذلك الاحتفال الهائل الذى خص به المولى إسماعيل جامع الأنوار، حتى إنه جعل أعمدته على كثرتها كلها رخاما مع تلك الخصة التى لم ير الرءون مثلها عظما وحسنا وغير ذلك، ولا سيما مع حصول الاستغناء عنه بعد العظمة الإسماعيلية لا بالنظر للمدينة ولا بالنظر للقصة، فتكون خطبة مسجدها مع تخريب هذا رجعت إلى محلها الأصلى والله أعلم. وكان تأسيسه لهذا المسجد العظيم المقدار عام عشرة ومائة وألف كما فى «الدر المنتخب».

ومن إنشاءاته أيضا مسجد الأنوار المعروف فى العصر الحاضر بمسجد سوق السباط، ويدل لذلك ما هو منقوش فى لوح خشب ببعض جدراته ولفظه:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، الحمد لله الذى جعل أهل العلم أنجما يقتدى بهم فى كل وقت وزمان وزين بالاهتداء بهم كل مكان، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد ولد عدنان، وعلى آله وأصحابه ما تتابع الملوان، هذا وإن مولانا المؤيد بالله الهمام محيى الملة والدين، وسالك سبيل الأئمة المهتدين، المجاهدين فى سبيل رب العالمين، أمير المؤمنين، مولانا إسماعيل بن الشريف الحسنى أيدى الله ونصره، لما أنهى إليه أمر المسجد الذين أنشأه الناظر الأسعد، الموفق الأرشد، أبو عبد الله سيدى محمد بن محمد الكاتب القيسى الأندلسى أصلا ونجارا، الفاسى نشأة ودارا، المسمى بمسجد الأنوار أمر نصره الله بإحضار علماء التوقيت العارفين بدلائل القبلة وهم السيد محمد بن عبد الرحمن المرباط والسيد العربى بن عبد السلام الفاسى والسيد حسيت الكامل، والسيد محمد بن سليمان العونى وحضروا بالمسجد المذكور واسعملوا البحث والنظر بطرق علماء الفن والأسطرلابات والدائرة ومقاييس الشمس، فأداهم اجتهادهم إلى أن

المحراب هو سمت مكة شرفها الله تعالى على المشهور، وأن طول مكة سبعة وسبعون درجة، وعرضها اثنان وعشرون درجة، وطول مكناسة خمسة وعشرون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة بتقاطع خطي الطولين والعرضين بالدائرة الهندسية، قيدوا به شهادتهم لسائلها وفي أوائل جمادى الثانية عام اثنين وعشرين ومائة وألف الحمد لله لما ثبت بشهادة أهل العلم المذكورين الواجب تقليدهم للخاص والعام فيما ذكر وجب المصير إليه واتباعه «إذا قالت حذام فصدقوها» وهذا سبيل الحق وطريقه ففي الخبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كل صنعة يرجع فيها إلى صانعها أو كما قال^(١) عليه الصلاة والسلام وكتب سعيد العميري الحمد لله أعلم بأعماله عبد الله تعالى عبد الوهاب العرائشي هـ.

وأسس باب الخميس القائم العين إلى الآن، وهو أحد أبواب مدينة الرياض السالفة الخبر، وذلك عام ثمان وتسعين وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في الزليج المتوج به أعلى الباب المذكور ودونك لفظه:

(١) في هامش المطبوع: قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: «قرأت على أبي القاسم سعيد بن محمد الهمداني عن محمد بن عبد الباقي الأنصاري، قال: كتب إلي أبو عبد الله محمد ابن سلامة القضاعي، حدثنا أبو الحسن علي بن نصر الصباح، حدثني أبو النضر المفضل ابن علي كاتب الراضي، أنه حضر مجلس أبي الحسن بن الفرات وعنده القاضي أبو عمر محمد بن يوسف فسأل عن شيء، فقال القاضي أبو عمر: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بأهلها» وفيه يرد قول أبي الخير السخاوي في المقاصد الحسنة، إنه لم يرد بهذا اللفظ في الحديث، وإن تبعه الشيباني في تمييز الطيب، والبيروتي في أسنى المطالب، ويقويه شاهدا له ما أخرجه أحمد عن طلق بن علي، قال بنيت المسجد مع رسول الله ﷺ فكان يقول: قربوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم له مساً. وفي رواية ابن حبان فقلت: يا رسول الله، أنقل كما ينقلون؟ قال: لا، ولكن اخلط لهم الطين فأنت أعلم به. وما أخرجه أبو داود عن سعد قال: مرضت مرضاً فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي، وقال لي: إنك رجل مفثود، فأنت الحارث بن كلدة من ثقيف فإنه يتطيب. وهو يدل على جواز الاستعانة بأهل الذمة في الطب كما في الإصابة. وعلى كل حال:

فكل أمر له قوم به عرفوا فاندب لكل مهم أهل بلواه

انتهى مصحح.

وفي حواشي كنز العمال ١٠٨/٣ أن طلق بن علي بن المنذر، هو أبو علي اليمامي، وفد على النبي ﷺ وعمل معه في بناء المسجد، وروى عنه.

أنا الباب السعيد سموت فخرا سمو البدر فى الفلك السعيد
سنا مولاي إسماعيل يبدو على ذاتى المنوطة بالسعود
ففى وقت سعيد قد بنانى وورخ نشأتى (جود المشيد)
وأسس باب الجديد على ما فى بعض التقايد الموثوق بصحتها عام خمس
ومائة وألف.

وجدد المسجد الأعظم عام سبعة ومائة وألف، وكان انتهاء العمل فيه عام
تسعة ومائة وألف، ويشهد لذلك ما هو منقوش فى لوح خشب بباب المقصورة
التى يخرج منها الخطيب بالمسجد المذكور ولفظه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم،
بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الذين آمنوا أركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم
وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، صدق الله العظيم، وبلغ رسوله المصطفى الكريم
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، أمر بتجديد هذا المسجد الأعظم
مولانا إسماعيل بن الشريف أيدته الله عام سبعة ومائة وألف، وكان الفراغ منه عام
تسعة ومائة وألف:

يا أيها المنظر الجديد زينك الطالع السعيد
وقر منك الأمير عينا ومات من غيظك العنيد
وما هو منقوش بأعلى السقاية من المسجد المذكور ولفظه: الحمد لله وحده
وصلى الله على من لا نبي بعده.

تأمل بعد حمد الله حسنى وصل على محمد الشفيع
فما أبصرت فى الدنيا كشكلى أذكر زهر أيام الربيع
وللوراد أسقى سلسبىلا فلى فخر بذاك على الجميع
بجامعنا الكبير سموت فخرا علا شرفى بجانبها المنيع
بأمر إمامنا المنصور شادورا بنائي الرائق الأبهى الرفيع
وتاريخى أمعطاش هنيئا وقاك الله من ظما وجوع

وما هو منقوش بخشب عززته البديعة الإتقان العجيبة الصنع اللطيفة المنظر
ودونك لفظ ما هو منقوش فى الجهة الموالية للصحن:

ذى عروس من المحاسن تجلى	باليواقيت وشحت والآلي
وسراج الملوك بالغرب اسما	عيل من دأبه اكتساب المعالي
كان عن أمره المطاع وجودى	كن له حافظا أيا خير والي

وما هو منقوش بها أيضا ولفظه:

بحمد الله يفتح الكلام	كذاك صلاة ربى والسلام
على المختار مع آل وصحب	كعرف المسك ما انسكب الغمام
أدم يا رب عز الدين وانصر	إماما لا يعادله إمام

وما هو منقوش بدائرة هذه العنزة من الجهة المذكورة أيضا ولفظه:

أعوذ بالله من الشيطا الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر
والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا
يابس إلا فى كتاب مبين، وبوسط هذه الدائرة ما لفظه:

لك الحمد يا أله والأمر كله	فصل على سر الوجود محمد
إمام الورى طرا وقبله آدم	نبى أتى بالخمس فى كل مسجد
ومعجزة القرآن أكبر آية	فطوبى لمن يتلوه عند تهجد
على العنزات الفضل لي لتقرري	بمكناسة دار الإمام المؤيد
وجامعة أكرم بيت إلها	فكم حله من عالم متعبد
وتاريخ إنشائي وإظهار بهجتى	وحسنى فشا مجد تراه بمشهد
وصل إله العرش فى كل لحظة	على أحمد الهادى وأشرف سيد

ومنقوش بدائرة هذه العنزة أيضا من الجهة المقابلة لمحراب المسجد الداخلى ما لفظه :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [آل عمران] إلى غير هذا مما هو منقوش بالقلم الكوفى وغيره فى هذه العنزة المباركة .

وجدت مدرسة الشهود المتقدمة الذكر عام ثلاثين ومائة وألف، ودليل ذلك ما هو منقوش بها على جدارها الشرقى قبالة الداخل وذلك فى زليج أخضر على صورة محراب ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

بحمد إلهى أبتدى وصلاته	على أحمد المختار طول المدى تترا
تأمل جمالى كى ترى الآية الكبرى	أحاكى لزهر فى السنا والعللا زهرا
تأنق فى البيان والوشى صانعى	أنا منزل القراء حزت بذا فخرا
عن أمر أمير المؤمنين الذى سما	بنسبته للمصطفى وعلا قدرا
أبى النصر إسماعيل كمل بهجتى	بناظره السهل قد سهل الأمرا
سليل العلا مزاج عبد الرحيم من	بإتقانه الأوقاف يلتمس الأجر
وكملت عام الألف مع مائة ورد	ثلاثين شهر المولد أحبيب به شهرا

فقوله كمل بهجتى... إلخ، معناه بتجديد إصلاحها وتنميقها.

وقد غلط فى فهمه بعض المتأخرين واغتر به صاحب «الدر المنتخب المستحسن» فقال: قال بعض المتأخرين: وأما المدرسة التى عن يسار المقابل لمحراب المسجد الكبير المقابلة بابها لباب المسجد فقد رأيت تاريخها فى رخامة مقابلة

للخصة، وأن أمير المؤمنين مولانا إسماعيل هو الذى بناها نصه نظماً: بحمد إلهي... إلخ، الأبيات المارة ولا شك فى خطأ هذا النقل، إذ تقدم بناء هذه المدرسة وهى المعروفة بمدرسة القاضى وبمدرسة الشهود وذكرها فى «رَوْض» ابن غازى أشهر من نار على علم، كما أنه أخطأ فى نسبة التاريخ للرخامة، فإن الأبيات التى بها التاريخ إنما هى منقوشة هناك فى زليج أخضر كما قدمنا، وكفى بالعيان برهاناً، وأشنع من هذا أن صاحب «الدر المنتخب» المذكور ما ذكر هذا الذى قدمناه عنه حتى قدم متصلاً به أن مدرسة القاضى والشهود بانيها هو أبو يوسف الميرنى، ومعلوم خارجاً أنها هى التى عن يسار المقابل للمحراب المذكور، ثم أثره ذكر أن باني التى على اليسار المذكور هو المولى إسماعيل، وهذا أقوى دليل على أنه لا يتصور أن المدرسة المذكورة هى التى على اليسار المذكور، فلم يميز بين مدرسة الشهود والقاضى وبين المدرسة الجديدة فى كلام ابن غازى، وظن أن التى على اليسار هى غير مسمى مدرسة الشهود فخلط، وما حرر ولا ضبط.

(رجع) والمولى إسماعيل هو الذى نصب المنبر المرونق بالمسجد الأعظم الموجود لهذا العهد يوم الجمعة ثانى عيد الأضحى عام اثنى عشر ومائة وألف على ما فى بعض التقايد التاريخية.

وجدد مسجد سهب الملح وهو المعروف اليوم باسم مسجد ابن عزو على يد المسن المكرم السيد عبد الرحمن بن أحمد بن عزو، كما وقفت على ذلك فى بعض التقايد، وكان تجديده له عام واحد وثمانين وألف.

(فائدة) قال القلقشندي: أول من عمل المنبر فى الإسلام سيدنا تميم الدارى عمله للنبي ﷺ، وكان قد رأى منابر الكنائس بالشام. (١) اهـ.

قلت: ويدل له ما فى أبي داود عن الحسن بن على عن إبراهيم بن أبي داود عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما بدن قال له تميم الدارى: ألا أتخذ لك منبراً تجمع أو تحمل عليه عظامك؟ قال: «بلى»، فاتخذ له منبراً مرقطين. اهـ.

وما فى طبقات ابن سعد من حديث أبى هريرة وغيره، قال كان النبي ﷺ

(١) صبح الأعشى ١/ ٤٢١.

يخطب يوم الجمعة إلى جذع، فقال: إن القيام يشقّ علىّ، فقال تميم الدارى: ألا أعمل لك منبرا كما رأيته بالشام؟ فشاور النبي ﷺ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذوه، فقال العباس بن عبد المطلب: إن لي غلاما يقال له كلابٌ أعمل الناس، فقال النبي ﷺ: مره أن يعمل، فعمله درجتين ومقعدا، ثم جاء به فوضعه في موضعه. (١) اهـ.

وتميم هذا هو أيضا أول من أسرج السراج في المسجد كما في «الإصابة» (٢) من رواية الطبراني.

(رجع) ومن تأسيسات الأمير المذكور بناء قنطرة السيد على بن منصور الشهير، الآتي الذكر بحول الله، وكان تأسيسه إياها عام أربعة ومائة وألف. ومنها القبة التي أمام المدرسة الجديدة الشهيرة اليوم بالبوعنانية عام تسعة ومائة وألف.

وجدد ضريح الولي المتبرك به سيدي يوسف الشريف أحد الصلحاء الذين ضمتهم داره الكبرى المتقدمة الوصف، وكان تجديده له عام ألف ومائة واثنين وعشرين ويدل له ما هو منقوش في رخامة بضريح الولي المذكور نقشا بديعا ودونك لفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، هذا ضريح الولي الصالح أبو المحاسن سيدي يوسف الشريف الشهير بأبي قنادل نفعنا الله ببركاته آمين، أمر بتجديد هذا الضريح المبارك الملك الإمام الجليل أبو النصر مولانا إسماعيل أيده الله ونصره أوائل المحرم ففتح سنة ١١٢٢ هـ.

هكذا بالقلم الفاسي، ويوجد هذا الضريح وراء دفة الباب للدار المذكورة دار الخلافة على يسار الداخل.

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٢١٥/١.

(٢) الإصابة ٣٦٨/١.

ومنها ضريح الولي الصالح المولى أحمد الشبلي رضي الله عنه وأرضاه،
ويدل لذلك ما هو منقوش بأعلى القوس الواقع يسار الذهاب من نهج القبابين
لضريح سيدي عبد الواحد الأشقر المجاور هو أي القوس للسقاية يسار الذهاب منه
لضريح الشبلي المذكور ولفظه:

يا ناظرا حرم الولي أحمد الـ شبلي وحسن جماله المتوقد
مولاي إسماعيل أسسه وهو تاج الملوك ونجل آل محمد

ومثله أيضا باللفظ ما بأعلى القوس الذي يذهب منه للضريح المذكور الآتي
من ساباط الزمراني.

وضريح سيدي عبد الله القصري الولي الشهير.

وأسس جامع الزيتونة عام تسعة وتسعين وألف كما صرح بذلك صاحب
الدر المنتخب المستحسن، ونصب منبرها في التاريخ المذكور وشاهده ما هو منقوش
عليه الآن ولفظه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم،
وصلّى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا: ﴿يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب] صنع هذا المنبر المبارك عام
تسع وتسعين وألف، وقد كان سرادق ملكه في هذا التاريخ على الأنام ممدودا
وأنت ترى سائر الآثار الدينية وخصوصا في عاصمته التي قصرنا الكلام فيها إنما
كانت تبرز عن أوامره وهذا منها.

ومن تأسيسات مبانيه القصبات العديدة المحيطة بعاصمته المتصل منها بسور
البلد والمنفصل عنه.

فمن المتصل القصبات الثلاث المتقدمة وهي: بريمة، وجناح الأمان، وقعر
وردة ومنها القصة المعروفة بقصة هدراش وقد سبق بيان موقعها وتاريخ بنائها،
ولا زالت قائمة أهلة إلى الآن.

ومنها القصبة المعروفة اليوم بقصبة سيدى سعيد، خارج باب وجه العروس المعروف اليوم بباب الملاح، أحد أبواب المدينة، ولا زالت قائمة أهلة أيضا إلى الآن.

ومنها القصبة المعروفة بتزيمي الكبرى خارج باب البراذعين القديمة التي موقعها الآن عن يسار الداخل لباب البراذعين الجديد، وهو الذي يعنون عنه بهذا الاسم الآن، فالجدار الذهاب عن اليسار المذكور من الباب الجديد المذكور إلى الباب القديم أمامه هو لقصبة تزيمي الكبرى المذكورة، والباب الذي عن يسار الداخل للباب القديم المذكور هو لها وبين البابين البراح الذي يباع فيه الخشب الآن كل يوم جمعة بعد الصلاة، ولا زالت هذه القصبة قائمة أهلة أيضا إلى الآن ولفظ تزيمي - بكسر أوله وثانيه المعجم بعده ياء ساكنة وميم مكسورة بعدها ياء ساكنة - هو اسم لقبيلة من عمل سجلماسة نقلت لسكنى القصبة المذكورة.

ومن القصبات المنفصلة التي أسسها سيدنا الجد المولى إسماعيل حوالي مكناسة وعلى مقربة منها قصبة الكدارة بكاف معقودة وقصبة حرطان - بفتح الحاء المهملة وسكون الراء وفتح الطاء المشبعة ثم نون - وقصبة المولى المستضىء. وقصبة بوفكران.

وقصبة المنزه.

أما قصبة الكدارة فنسبتها لفرقة من فرق الجيوش المولوية أنزله بها مؤسسها على ضريحه صيب الرحمات وموقع هذه القصبة في الجهة الجنوبية من المدينة وهي الآن خراب بيد المكلف بالأملاك المخزنية يكتريها منه من شاء لكون عمارتها الأصلية بطلت.

وأما قصبة حرطان فموقعها غربا من المدينة يسكنها فريق من قبيلة الخلط، وأصل الخلط من العرب لا من البربر كان نقلهم السلطان سيدي محمد زمن خلافته عن والده السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام في شهر قعدة الحرام عام سبعين ومائتين وألف على القول الصحيح من بلاد سفيان وبني مالك وأحوار

العرائش وعددهم إذ ذاك مائتان وثمانية عشر نفرا وأنزلهم بأرض مكس - بفتح الميم والكاف المشددة بعدها سين مهملة - وزكّوطة - بفتح الزاى المعجمة وضم الكاف المعقودة مشددة بعدها واو ساكنة ثم طاء فهاء ساكنة - وأضافهم إلى الجيش البخاري، ثم صار يلحق بهم إخوانهم من القبيلة المذكورة إلى أن صار عددهم ألفا وخمسمائة، ثم نقلهم إلى وادي الشجرة مع القصبّة المذكورة ونقل من القصبّة والوادي المذكورين من كان بهما من أهل تادلا وأنزلهم بأرض مكس، ولا زال بها نسلهم إلى الزمان الحاضر.

وأما قصبّة مولاي المستضيء فموقعها غرب المدينة قرب قصبّة حرطان، وليس بها اليوم إلا البوم وأنواع الحشرات، ولذلك تعرف بالخالية، قالوا: ووجه إضافتها للمولى المستضيء أن السلطان المولى إسماعيل كان مخيما في بعض أسفاره بالمحل الذي موقعها به، فجاء الطلق لبعض حظايه ثم فولدت المولى المستضيء، وأقام السلطان هنالك مدة نفاسها، وفي ذلك الوقت أمر ببناء القصبّة، كذا تلقّيته من غير واحد من ذوي السن العالية.

وأما قصبّة بوفكران، فإضافتها للوادي الشهير الداخل للمدينة يسكنها اليوم فريق من الأشراف العلويين، تقع في جهة الشمال من المدينة على مسافة ثمانية عشر كيلو مترا، وبمقربة منها قصبّة المنزه يسكنها مثل سابقتها فريق من العلويين.

ومنها أنه لما تملك أرض حمرية التي كانت تسمى قبل بأبي حفص بالمعاوضة الشرعية مع مالکها حسبما وقفت عليه في نسخة مسجّلة ثابتة نصّ ظهير تقديم النائب في عقدها بعد الافتتاح:

من عبد الله تعالى أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، المجاهد في سبيله ناصر الدين مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف الحسنی، ونص الطابع: اليمن والإقبال اليمن والإقبال اليمن والإقبال إسماعيل بن الشريف الحسنی رعاہ الله، أيد الله تعالى بعزیز نصره وأمره، وظفر عساكره، وخلد في الصالحات

مآثره، وأسعد بمنه موارده ومصادره، آمين آمين، قدمنا بحول الله وقوته خديم جانبنا العالى، والنجد الذى أحرز من اشتراط النباهة والنجابة المقدم والتالى، القائد الأوجه، الأثير الأنبه، الأحفل الأرضى، الحازم الأحظى، القائد علي بن يعقوب اليوسفى المكناسى دارا، وصل الله أنجاده وأحرس على المسالك الحميدة والمساعى الجميلة إصداره وإيراده، لحيازة الأراضى التى لنا بحوز حضرتنا العالية بالله مكناسة وبيان حدودها وتعيينها وإخراجها من يد من كانت وعلى عقد المعاوضة فيما يظهر له منها غيرها التى هى على ملك أناس المتصلة بأراضينا المجاورة ل حضرتنا المذكورة، وعلى الصلاح فى ذلك والسداد تقديما أمضاء بعلائه وكساه رائق هلاله، لعلنا بأنه أهل لما إليه قدمناه، وأحق بما أسديناه إليه وأوليناه، والله يصل توفيقه، ويجعل السداد والنجح رفيقه، بمنه والسلام وفى يوم الأحد رابع وعشرين المحرم الحرام فاتح سنة ثلاث وتسعين وألف عرفنا الله خير وبركاته. اهـ.

ونص المعاوضة: الحمد لله انعقدت المعاوضة ببركة الله تعالى بين الشريف الأوجه الخير الأنزه الأحظى الأنقى السيد محمد دعي بسيدي حمّ بن إدريس بن وحود الحسنى المنونى، وبين القائد الحاج علي بن يعقوب المذكور أعلاه النائب عمن ذكر أعلاه بحكم ما ذكر أعلاه فى جميع الأرض المعروفة بأبى حفص المشتملة على سقى وبعل، التى على ملك الشريف المذكور الكائنة خارج باب القورجة، أحد أبواب مدينة مكناس، يحدها سهب الطبال والطريق الممرور عليها لفاس، وتتصل بساقية خنفر وبطريق عين الشلوقى، وفى جميع الأرض التى للجانب العلى البعل الكائنة ببركة خارج باب البراذعيين من المدينة المذكورة، يحدها الأرض المعروفة ليوسف النحال قبلة ومقطع الرياح غربا، ويحدها أرض سيدي علي بن قاسم الشريف المنونى من الجهتين، والطريق الآتية من قبور الطوال وتتصل بأرض عزوز التى على ملك الشريف المذكور أولا، وذلك بأن أخرج

الشريف المذكور نفس ملكيته عن أرض أبى حفص التى كانت له عوضا عن أرض بركة التى صارت له بسبب المعاوضة المذكورة، كما أخرج القائد المذكور نفس ملكية المنوب عنه عن أرض بركة، التى صارت للشريف عوضا عن الأرض التى صارت للجانب العالى المعروفة بأبى حفص المشتملة على سقي وبعل، معاوضة صحيحة تامة بتلة بة على سنة المسلمين فى معاوضتهم، ومرجع دركهم، وتملك كل واحد ما صار له عوضا عما صار عنه تملكا تاما على السنة فى ذلك، والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضا صحيحا كما يجب من ناب عن نفسه فعن نفسه ومن ناب عن غيره فعنه عرفا قدره، شهد به عليهما بحال كمال الإشهاد وعرفهما أواخر القعدة من عام ستة وتسعين وألف الحق فيه والطريق الآتية من قبور الطوال صح به شهد عليهما بما ذكر أواخر صفر اثنين ومائة وألف، أحمد بن محمد لطف الله به وعبد السلام بن محمد. اهـ.

غرسها^(١) كلها بأشجار الزيتون حتى تمت فيها مائة ألف شجرة من الزيتون ثم حبسها على الحرمين الشريفين، ثم لما توالى على مكناس ما توالى بعده رحمه الله من الهرج والمرج، وشبت نيران الفتى بين أولاده، وتمكن عيى العبيد على البلاد والعباد ومد الفساد والخراب فى الأرض أطنابه، كان مما امتدت إليه اليد بالحرق والقطع هذه الغاية، حتى تلفت من شجرها كمية ذات بال، ولما تمهدت البلاد، وانقادت العباد لسيدى محمد بن عبد الله واستتب الأمن وخضعت له الرقاب وانكسرت راية أهل الزيغ والفساد، قام على ساق من رتق ما انتجته تلك الفتى من الفتق، فكان من جملة ما تلافاه بهمته الفعالة إحياء ما اندثر من تلك الأشجار، بإعادة غرس ما قلع وحرق منها حتى رجعت لشبابها، ثم بعد ذلك فصل التحجيس، فجعل النصف حبسا على الحرمين الشريفين تختص المدينة المنورة على منورها أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالثلثين، ومكة المشرفة بالثلث،

(١) جواب قوله: لما تملك... إلخ، المتقدم.

والنصف الآخر للمسجد الأعظم بمكناس يخرج منه كل سنة نحو الخمسمائة فرنك، يوجه منها خمسة وثلاثون فرنكا ونصف الفرنك تقريبا لجد العائلة المالكة مولانا علي الشريف دفين سجلماصة، تصرف فى مهمات الروضة والطلبة الذين يقرءون الحزب ودلائل الخيرات، والمؤذنين وقيم الروضة وطعام ليلة المولد النبوى، ومنها ثلاثة عشر فرنكا تقريبا توزع على الطلبة الموظفين لقراءة الحزب والصلاة على النبى ﷺ على قبر والده المحبس الثانى وأعمامه بروضة أبى زكرياء الصبان نفع الله به، وقد كان لهذا القدر التأفة الآن إذ ذاك شأن وبال، كما يخرج من النصف المذكور كل يوم رطل زيتا لضريح سيدى أبى يعزى ورطل لضريح مولانا إدريس الأزهر بانى فاس رضى الله عنهم جميعا وعنا بهم آمين.

ومنها أى الآثار الإسماعيلية جر الماء من بوفكران لزيتون حميرية فى ساقية وسط جدار ضخمة لازالت بقاياها جهة باب القرمود وسيدى الشريف الوافى لهذا العهد.

ومنها بناؤه الجدار المحيط بغاية حميرية، ولا زال بعضه قائما إلى الآن.

ومنها جر ساقية لجنان العريفة طوطو ببنى موسى فى جدار عميق إلى أن يمر ماؤها فوق أقواس باب ثلاثة فحول التى هد منها قوس فى هذا التاريخ، والعريفة طوطو هذه هى: بنت بوشتى السفينانى، كانت عريفة للمولى إسماعيل وخلفت أولاداً منهم: القائد قاسم المجاهد، والحاج سليمان، وهنية المدعوة بالنسيم والتومية، وقد كان المولى زين العابدين بن المولى إسماعيل تزوج بالنسيم المذكورة فولدت له الشاد بالله، ومليكة وخلفت العريفة المذكورة أموالاً طائلة من العقار وغيره بمكناسة وغيرها.

ومن تأسيسات المولى إسماعيل ومآثره الخالدة الثالثة الضريح الإدريسي الأفخر، والمشهد العلوى الأنور، الواقع بزواوية جبل زرهون التى قال غير واحد من أئمة الدين، حملة شريعة سيد الأولين والآخرين، بتفضيلها على سائر الأقطار

المغربية، لضمها جسد هذه البضعة الطرية، وكان تأسيسه لذلك المشهد الفاخر،
الزهى الزاهر، سنة عشر ومائة وألف.

ويدل لذلك ما هو منقوش فى الرخامة الأولى المثبتة فى الجدار المواجه
للداخل من باب قبة الضريح الإدريسي زاده الله بهاء ونورا ودونك لفظه:

هذه روضة بها خير هاد	بضعة المصطفى وعين الرشاد
ملك طهر الإله به الغر	ب من الشرك والشقا والعناد
واستقامت له الحشود وقد كا	نت زمانا بالغى فى كل واد
فإذا ما نسبته فرسول اللد	ه فى القرب رابع الأجداد
وتأدب فأنت ما بين صوم	وصلاة وسنة وجهاد
وتلطف فأنت ضيف إمام	فى حماء علاج كل فؤاد
خصه خالق الخلائق بالفض	ل وأحيا به أقاصى البلاد
فسل الله ما تشاء من الفض	ل فليس لفضله من نفاذ
وتوسل بالمولى إدريس واقصد	فى علاه بلوغ كل مراد
وابتهل للإله فى نصر مولى	شأنه السعى فى صلاح العباد
شاد هذا المقام والفعل منه	خالص لكريمه الجواد
عام ألف ومية بعد عشر	من سنين السرور والإسعاد

وهذا تاريخ بناء نفس الضريح، وأما باب حفاته المقابل للباب المعروف هناك
بباب المعراض، فكان تمامه فى السنة التى بعد التاريخ المذكور اتصالا كما يدل له
المنقوش فى الزليج أعلى باب الحفاة المذكور ولفظه:

هذا مقام الحسنى الذى وصل أهل الله من بابه
 أنشأه السلطان محتسبا لله فى موصول أسبابه
 على يد الكاتب فى (أيقش) ناظر الأحباش فى آلائه
 بشرى لمن قد جاءه زائرا ومرغ الخد فى أعتابه^(١)
 اهـ.

على ما فى البيت الثالث مما لا يجوز فى الصناعة الشعرية وعلى ما فى البيت الرابع من المبالغة الشعرية التى لا ينبغى الاغترار بها، إذ لا يجوز فى الشريعة الإسلامية تمرير الحدود بالأعتاب كيفما كانت، وقد عده ابن حجر الهيثمى بل وما هو أدنى منه من الكبائر، هذا إن لم يقصد به العبادة وإلا فهو كفر كما فى غير ما ديوان.

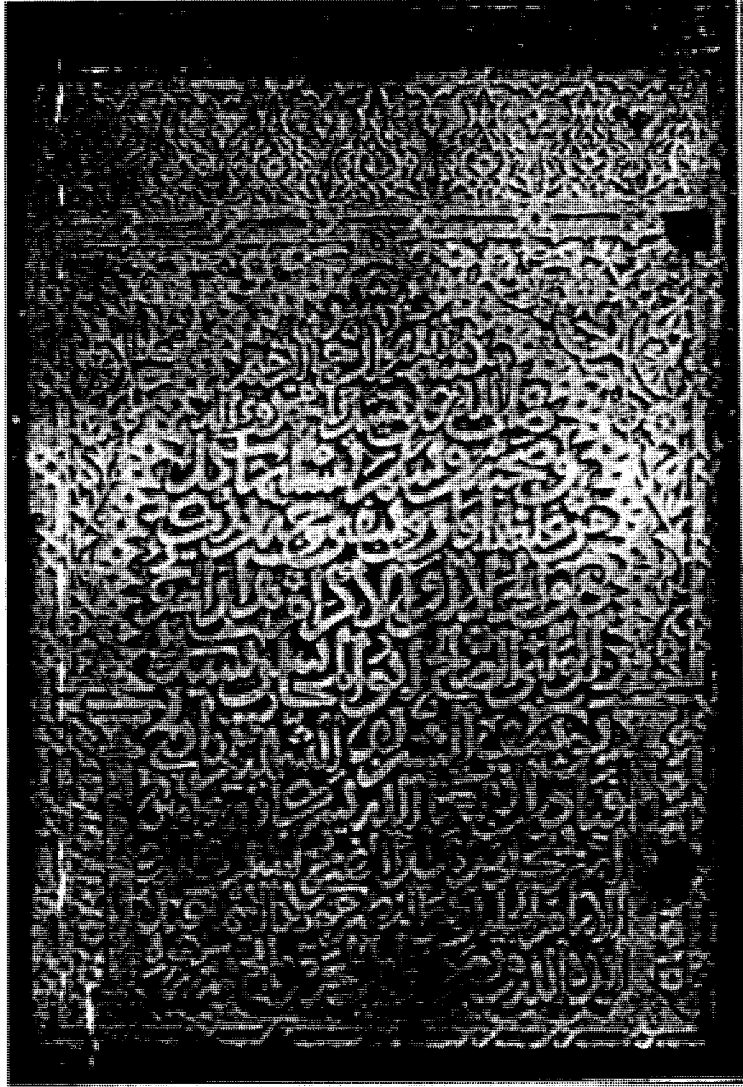
وقد ذكر الشيخ زروق فى «قواعده» أن الزيادة لا تجوز إذا كان هناك منكر من تقبيل جدران القبر وغيرها، فكيف بالتمرير، والتاريخ المذنور هو المشار إليه بلفظ أيقش، اهـ.

قلت: انظر هذا مع ما وقع لصاحب البستان وغيره من أن البناء كان سنة اثنين وثلاثين ومائة وألف، وتيقن أن الحق ما نقلناه، وبالدليل القاطع أيدناه.

وما هو منقوش فى خشب بيباب المدرسة المعدة لسكنى الطلبة المهاجرين لقراءة العلم والقرآن الكريم المقابلة لباب الحفاة المذكور، ولفظه: النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا إسماعيل أمير المؤمنين، لكن هذه الخشبة يجوز أن تكون من أنقاض الدار الإسماعيلية الكبرى التى جلبها سيدى محمد بن عبد الله مثل رخامتى خدى باب القبة كما يأتى.

وما هو منقوش فى خشب مظل باب المسجد الإدريسى المتصل هو أى الباب

(١) بعض الأبيات غير سليم ونبه المصنف على ذلك عقب ذكرها.



رخامة ضريح أبي القناديل سيدي يوسف الشريف

بالجدار الشرقى من المدرسة المذكورة ولفظه: النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا إسماعيل أمير المؤمنين، فإن قلت المسجد المذكور قديم ليس لمولانا إسماعيل فيه غير يد التجديد والتنميق. قال الحلبي فى الدر النفيس: أما المسجد الجامع الذى حذاء الروضة فقديم والله أعلم؛ أنه من عهد مولانا إدريس فيما يظهر ولم أقف على خبر أمره، ولكن فهمت ذلك بالعرف المألوف أن المسجد بنى بقرب قبره المبارك كما يفعل بقبور الصالحين وقيل إنه محدث. اهـ.

قلت: يمكن أن البناء الحالى هو بناء للمولى إسماعيل أحدثه بعد زمن تأليف الحلبي وعليه فلا مخالفة وقوله وقيل: إنه محدث يعنى أحدثه غير المولى إسماعيل لأن الحلبي كان فى زمانه وألف تأليفه المذكور قبل بناء المولى إسماعيل لهذا الضريح، وكان فراغه من تأليف الدر النفيس يوم الأربعاء العشرين من ربيع الثانى سنة ثمان وتسعين وألف.

ثم بعد كتبتى هذا وقفت فى الدر المنتخب على ما لفظه: ثم بنى جامع الخطبة الكبير المتصل بمولانا إدريس بزrehون وهذا لا شك فيه ولا تردد، ورتب رواتبها، وجعل لها ما هو معلوم للمساجد العظام، واشترى بذلك فضلا يبقى على التأييد، يعم الأهل والآباء والوليد، إذ ذاك من الأعمال التى لا تنقطع بالمنية، وتبلغ فاعلها فى الدارين غاية الأمنية، ثم بنى المنار وشيده ورتب فيه المؤذنين ووقت لهم الأوقات، وعلم القائم بذلك ما يحتاج إليه فى سائر الحالات، ونصب لهم ما يحتاجون إليه من الآلات، ثم بنى المدرسة المتصلة بما ذكر على الشكل الذى هو الآن معروف، ورتب فيها طلبة للقراءة على الأمر المألوف، ثم بنى دار الوضوء وجلب إليها الماء وأحسن فى ذلك وأتقنها، وبنى دورا ومكاتب ومواضع عديدة لتزول الزوار والضعفاء والأضياف وأعلنها، ثم بنى المساجد والمكاتب لتعليم الصبيان، ووقف على ذلك أوقافا عالية الأثمان، وبين لمن يقوم بكل وظيف ما له

من الأوقاف المختصة به وما يشترك فيه اثنان، ثم بنى الحوانيت والفندق والحمام والسقايات، وأجرى الماء فى سائر النواحي والجهات، وبنى قبة سيدى راشد المتقدم ذكره، وبنى حول ذلك بناءات ثم أدار البناء على الجميع ليطمئن الزائر والسكن ولا يخشى العاهات، وبنى قنطرة الوادى وقنطرة أخرى بناحية قصر فرعون وسهل الطرقات، وأمر ببناء الدور فى المواضع المرتفعات، وذلك كله على يد خادمه الباشا ابن الأشقر، وبعض كتابه ومن له الأمر.

وعند ذلك رغب الناس فى سكنى زَرْهُون، وصار منازل الأشراف وأهل الفضل والدين، وإن كان قديما هو مأوى الصالحين، ومحل إجابة السائلين وملجأ الراغبين، لكن كان غير مقصود للسكنى، وبوجود مولانا إسماعيل صار يغبط السكنى فيه الناس، وتقصده القبائل والرؤساء من سائر القبائل والأجناس.

وحين تم بناؤه على الوجه الذى أراده السلطان، وزاره ورأى ذلك بالعيان، ورأى عمارته واعتباط الناس فى البنيان، سجد لله شكرا، وحمد الله على عادته سرا وجهرا. اهـ.

وإنما تعرضنا هنا لذكر هذا الضريح الأعظم فى جملة تأسيسات مولانا الجد مولانا إسماعيل بعاصمته المكناسة لأن متبوعنا الإمام ابن غازى تعرض لذكر صاحبه ولذكر عاصمة ملكه التى كانت حاضرة البلاد مدينة وليلى ولكون المحل من جملة الأحواز المكناسية، وهذا هو ملحظ ما نأتى به بعد إن شاء الله مما يتعلق بزهرهون وأهله.

وأما باقى بناءاته فى غير مكناسة فقد أتينا على جملة صالحة منها فى كتابنا المنزع اللطيف مفصلة وما أشرنا إليه من التأسيسات المتقدمة من هذا الإمام فى العاصمة المكناسية، فإنما هو قُلٌّ من كُثْرٍ، إذ لا نسبة لما انهد منها واندثر أثره مع ما بقى منها مما مر بك.

قال أبو القاسم الزباني: ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر جهدهم وما أكملوا نصفها مدة من نحو مائة سنة. اهـ.

قلت: ولا زالت يد التخريب عاملة إلى الحين الحالى فى تلك الحصون والأسوار الهائلة.

ولضخامة الآثار الإسماعيلية وانتشارها فى سائر الأقطار المغربية، توهم بعض الجاهلين أن ذلك فوق مقدور البشر وأنه من عمل الجان، وليس الأمر كما توهم أولئك الأغبياء، وإنما بناءات مولانا إسماعيل الهائلة أثر من آثار على همته، ووافر ثروته، وعظم دولته، ونفوذ كلمته، وكمال اقتداره، وحزمه وصرامته، فى سائر أطواره، ولذلك أشرت مبانيه بما بناه الفراعنة والأكاسرة حتى قال بعض حذاق الشعراء:

لقد بنت الملوك بناء فخر	به ذكرت على مر الدهور
وأبنية الإمام أبى الفداء	سليل المصطفى الليث الهصور
أتم ضخامة وأجل قدرا	وأجمل منظراً أبهى قصور
وفى كل البلاد له حصون	لتأمين المسافرين فى المرور
ولو قيست مبانيه بما قد	بناه من تقدم فى عصور
لكان لها اعتزاز وافتخار	ببهجة حسننها وبنا الأمير
فدونك فاستمع قولى مصيخا	فإن مقالتي ليست بزور
وفى مكناسة الغرا دليل	كمثل الشمس فى صفة الظهور
فرحمة ربنا عدد الرمال	على ملك تسامى عن نظير

وقال الوزير ابن إدريس:

قال للذين استعظموا من جهلهم إيوان كسرى أو بنا الأهرام
لم بين ملك قد تقدم ما بنى مولاى إسماعيل فى الإسلام
وقال صديقنا المؤرخ النقاد أبو عبد الله محمد بوجندار الرباطى مساجلا
صديقنا الفقيه الأديب الكامل أبا عبد الله محمد بن اليمنى الناصرى وكان ابتداؤها
من الأول إذ قال:

مآثر إسماعيل أسمى المآثر ففاخر بما شاهدت منها وكاثر
ونزه جفونا فى محاسن صنعها تجد مفخرا يسمو جميع المفاخر
مفاخر إلا أنهن بدائع بدائع إلا أنها صنع ماهر
مصانع إلا أنهن نواصع نواصع إلا أنها كالزواهر
فعج بى رعاك الله نحو ضريح من غدت عن مزايا ملكه خير سافر
مزايا غدت علوية علوية علت بمليك كامل الفضل وافر

وقول الوزير ابن إدريس لم بين ملك... إلخ، إشارة إلى تعصيد قول مؤرخ
الدولة العلوية أبى القاسم الزيانى إن مبانى المولى إسماعيل بقلعة مكناسة وقصوره
ومساجده ومدارسه وبساتينه شيء تذهل عند مشاهدته العقول، وتعجز عنه قدر
الدول القديمة والحديثة، قال: ولا تلحق ضخامة مبانيه ما بنى كسرى فى المدائن،
ولا الفراعنة فى مصر، ولا الروم برومة والقسطنطينية، ولا اليونان بأنطاكية
والإسكندرية، ولا العماليق بالشام، ولا ما بناه بنو أمية ولا بنو العباس ولا
العبيدون ولا المرابطون ولا الموحدون، ولا بنو مرين، ولا السعديون، قال: ولقد
شاهدت الكثير من آثار الدول المذكورة فما رأيت أثرا أعظم من آثاره وأضخم من

بنائه، وأكثر من قصوره لأن من بنى من هذه الدول إنما يعتنى بتشيد قصر وتنميته، والمولى إسماعيل لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا على عشرين، بل جعل مباني الدول كلها فى بطن قلعته بمكناسة كما يقال: كل الصيد فى جوف الفرا. اهـ.

وقد تابع الزيانى على مقاله هذا من نسج على منواله كصاحبى «الجيش العرمم» و«الاستقصاء» وعليه جرى الوزير ابن إدريس كما رأيت.

وأما تعقب بعض فضلاء العصر وهو الشيخ محمد فريد وجدى ما فى الاستقصاء بقوله نقول فى هذا الكلام غلو عظيم لا يصح أن يصدر من مؤرخ على أنه يدلُّ فى الجملة على ما كان لهذا السلطان من المباني العظيمة. اهـ. فغير سديد لأن الغلو مدفوع بما بينه الزيانى من اقتصار كل دولة على تشيد بناء عظيم خاص، والمولى إسماعيل شيد فى بناءاته الضخمة الهائلة ما يوازي بناء كل دولة، وجمع ذلك فى قلعته فصارت قلعته جامعة لا يماثل ما شيدته الدول كلها، وهذا شيء انفرد به دونهم فاستحق بذلك تفضيل جملة مشيداته على ما شيده كل فرد منهم، إذ لم يتفق لفرد من تلك الدول من كثير المباني الضخمة المثلثة لسائر مباني من عداه من الدول ما اتفق للمولى إسماعيل، فأين الغلو فى ذلك حيثذا! وأين ادعاء أن ذلك لا يصدر من مؤرخ! كيف وقد صدر عن مؤرخين كما رأيت وأولهم الزيانى، ما أعلن بذلك حتى أخبر بمشاهدته لمباني الفريقين فريق الدولة الإسماعيلية وفريق من عداها من الدول المتقدمة عليها فى أقطار المعمور، وجناب الشيخ الفاضل المعترض ليس معه إلا تحكيم الاستبعاد، الخالى عما يدعمه من وجوه الاستناد، وذلك هو منشأ الفساد، على أنه سيوافيك فى ترجمة المولى إسماعيل من مشيداته فى الأقطار المغربية الخارجة عن مكناسة ما يزيح عنك كل تشكيك وشبهة.

هذا والذي حدانا لشرح نقض ذلك الانتقاد، زيادة المنتقد قوله لا يصدر عن مؤرخ المعنونة بأن الغلو المنتقد به غير مقبول، لخروجه عن مناهج المعقول، أما لو طوى بساط تلك الزيادة المفسدة واقتصر على مجرد التنبيه على الغلو لقبلناه، وحملناه على الفرد المقبول عند سماسرة الفن ولم يعأوا بمن خالفهم فأباه، وقلنا حيثئذ بمجالات المديح التي لا غنى للمؤرخ عنها هي معدن ذلك وماواه.

(تنبيه) علم مما سبق اهتمام المولى إسماعيل وغيره ممن تقدمه من ملوك المغرب بتشيد المساجد العظيمة والمدارس البهية والمشاهد العلية وتجديدهم لما وهى من ذلك تجديداً أرفع مما كان، لكن مع التجافى فى الجملة عن الإسراف وعدم التجاوز عن حدود الإمكان.

وعليه فما وقع فى رحلة الزيانى بعد بيان فخامة مسجد السلطان حسن بمصر من قوله: فرحم الله أفاضل الملوك الذين درجوا، والذين من خلفهم على مناهجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم ووصول الدعاء ممن بعدهم إليهم، ولم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد والخانات، ويبالغون فى تعظيمها ويتنافسون فى ذلك ويبادرون إلى إصلاح ما وهى منها.

وأما مغربنا فلا تكاد ترى فى مدنه مسجداً عظيماً قد أحدث بل مهدوما قد جدد، أو واهياً قد أصلح، بل إن سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنياً برخام أن يعاد بجص وأجر، وإن كان مجصصاً أن يعاد بطين، بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير من كل لون رقعة، وما أرى سبب ما لمغربنا من الوهن إلا أمثال هذا من عدم تعظيم الله ولو فى الأمور الظاهرة، فضلاً عن الباطنة، ولم يعتن بإقامة معالم الدين إلا أمير المؤمنين سيدنا محمد بن عبد الله فقد شيد بمدنه مساجد ومدارس ورباطات، واقتفى آثاره فى ذلك سلطاننا مولانا سليمان فى تشيد معالم الدين بكل مدينة. اهـ.

قلت: هذا مخالف للحقيقة، وبعيد عن سوى الطريقة، أما تأتق أهل المشرق في بناء المساجد في ينكر، وأما مبالغتهم في تعظيمها فإن عني بتأتق البناء فهو ما تقدم وإن عني تعظيم الحرمات الشرعية فيها الذى نسب ضده لأهل المغرب فهو من مجازفاته المعهودة منه رحمه الله، فإن المقرر والمعهود عند الثقات وأفاضل الرحالين عكسه، وقد قدمنا فى الكلام على البربر وأهل المغرب كلام الشيخ زروق فى قواعده «الناصر» على أن الغيرة الدينية عزيزة فى المشرق ولا توجد إلا فى أهل الخصوصية من أهله.

وقد نبه أبو سالم العياشى فى «رحلته» على ما يعضد ذلك من تهاون المشرقيين بحرمات المساجد، وإذا لم تكن حرمات المساجد قائمة وبأنواع التعبدات التى بنيت لها آهلة، فأى ثمرة للمبالغة فى تزويقها وتنميقها! هذا لو كان ذلك التزويق مأذونا فيه شرعا، فكيف وقد أباه الكثير من السلف، وكراهته هى مشهور مذهب أهل المغرب وهو مذهب مالك.

وفى صحيح البخارى أن سيدنا عمر بن الخطاب أمر ببناء المسجد وقال: أكنُ الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر ففتن الناس. وقال أنس: يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا، وقال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم.

قال القسطلانى: فيه كراهة زخرفة المساجد لاشتغال قلب المصلى بذلك أو لصرف المال فى غير وجهه. اهـ.

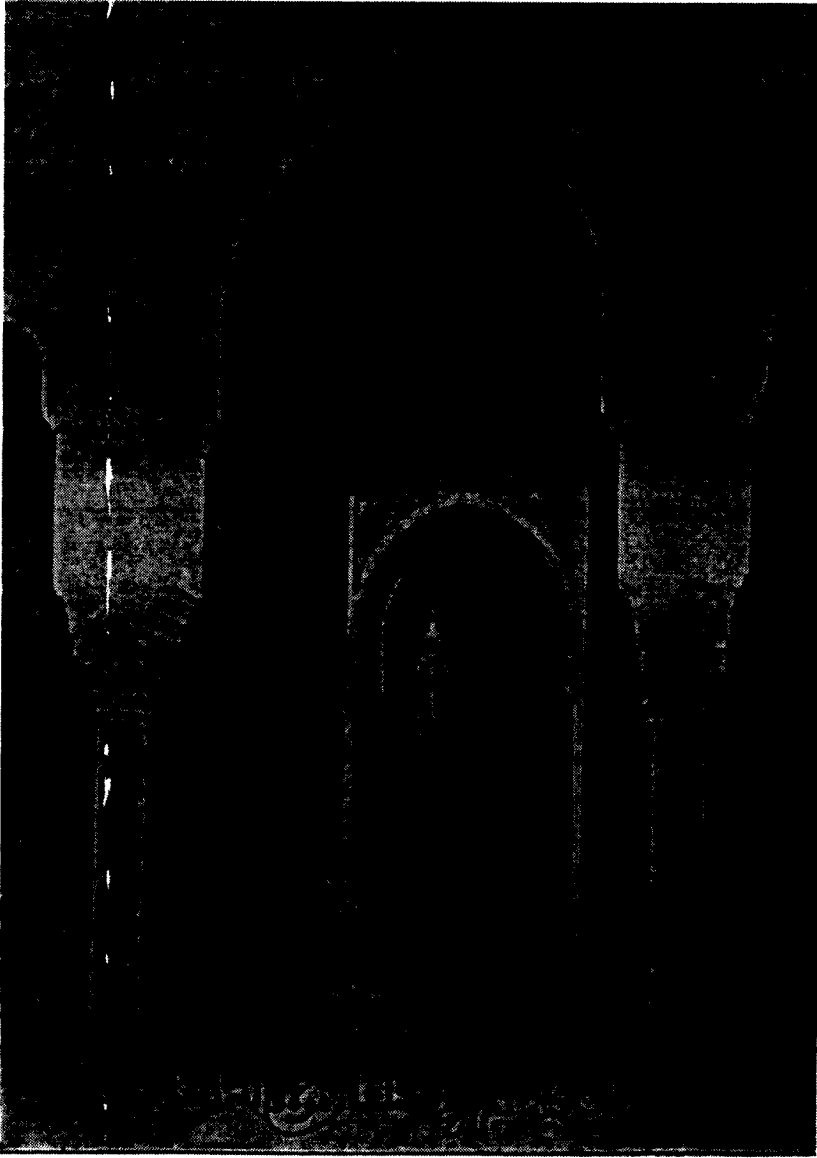
وقال الخطيب ابن مرزوق فى «شرح العمدة»: وقعت المسألة بمجلس أمير المؤمنين أبى الحسن المرىنى فى المسجد الجامع الذى أنشأه بظاهر تلمسان بضريح سيدى أبى مدين، إذ زوقت قبلته وذبحت، فأفتى أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام ومن حضر من أئمة المغرب بزواله وأبيت لهم ذلك، قال: والحق منعه ابتداء وأما

بعد عمله فلا أرى أن يزال، وقد أمر أمير المؤمنين بإزالة ما قرب من المصلى من ذلك، قال: وهذه المسألة مما عمت به البلوى، لا سيما في بلاد المشرق، انظر المعيار فانظر قوله: مما عمت به البلوى لا سيما في بلاد المشرق، فهو ضد ما جازف به الزباني من مدح أهل المشرق به، ثم استثناه خصوص سيدى محمد بن عبد الله ومولاي سليمان يدل على أنه قصد المولى إسماعيل فى الدخول فى الذم الذى ذكره، وربما كان هو المقصود عنده به، وأنت ترى مما تقدم كثرة ما شيده من المعاهد الدينية فى خصوص مكناس وفى ترجمته المتزع اللطيف بعض ما شيده فى غيره والله المرشد بفضله.

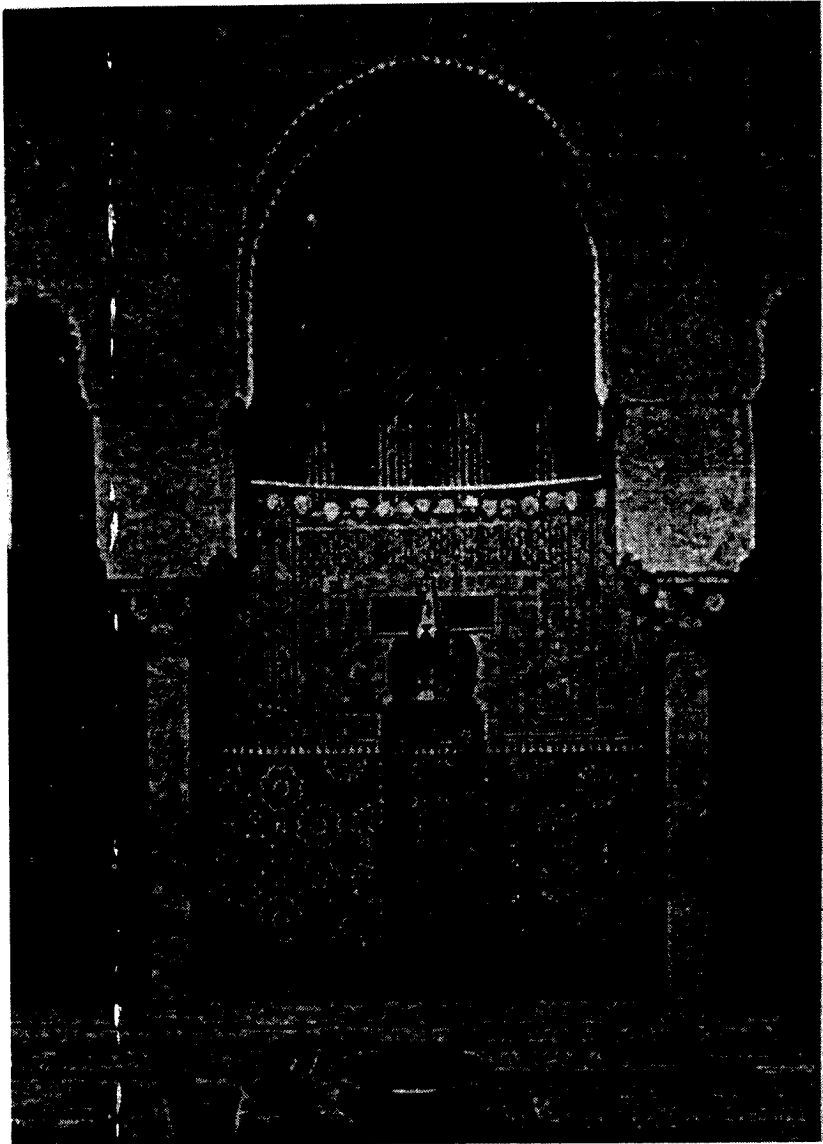
هذا وقول ابن مرزوق وأما بعد عمله فلا أرى أن يزال لا وجه له حيث إنه ممنوع ابتداء، والعلة هى شغل المصلى كما هو فى كلام عمر، فالواجب هو زوال ذلك الشاغل والإقلاع عن ذلك المنهى عنه فالحق مع ابنى الإمام لا يقال فى زواله إضاعة المال بلا فائدة، لأننا نقول وفى بقائه ضياع المال مع مفسدة شغل المصلى ودوام ارتكاب المنهى عنه.

وإذ قد أتينا على ما بلغه علمنا وما شاهدناه مما أسسه المولى إسماعيل من عظيم المباني والغروس بعاصمته مكناسة الزيتون فلنعطف للتنبيه على ما أسسه فيها أيضا الملوك من بنيه وحفدته وعائلتهم الكريمة فنقول:

من تأسيسات السلطان الأصيل العريق المجد والفخار مولانا أحمد الملقب الذهبى بمكناسة ضريح والده الإمام الجليل، أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، ذلك الضريح الذى أصبح فى باب الإتيان آية، البالغ فى التنميق والتنسيق الغاية، ذلك الضريح المحكم الصنع، العجيب الوضع، المنتظم من قبة لا نظير لها فى الأقطار المغربية بل ولا الشرقية فيما أعلم، يقال إنه اخترع بناءها على الشكل والهيئة التى كان عليها افراج والده صاحب الضريح المذكور الذى كان معدا لديه فى حركاته



باب قبة ضريح السلطان مولاي إسماعيل



دويرية الشريح الإسماعيلي ومحرابها

لدى أسفاره وتجولاته فى إيالته لتوطيد الأمن، وكسر صولة المتمردين، وبخدى باب هذه القبة الزكية البهية لوحتان رخاما بديعتان منقوشتان أبدع نقش وأعلاه، طول كل واحدة مترا وسبع وستون سنتيما وعرضها خمس وتسعون سنتيما منقوش فى أعلى التى عن يمين الداخل ما لفظه :

باب ضريح إمام الغرب ذا فبه بدر الهناء ونجم الدين قد غابا

وبأعلى التى على اليسار ما لفظه :

فافسح له يا عظيم المن منزلة فى الخلد وافتح إلى الغفران أبوابا
وبراح أمام هذه القبة طوله عشرة أمتار وعرضه كذلك محيط بمباحات أربع
محمولة على اثنى عشر أسطوانة من بديع المرمز، وبوسطه خصة مرمرية لطيفة
الشكل، وبهذا البراح أيضا قبة فى الجهة الجنوبية تقابل قبة الضريح تعرف باسم
الخراجة لكون الإمام أبى النصر مولانا إسماعيل كان يخرج منها من داره العلية إلى
المسجد الذى وصفنا تهدمه الكائن الآن داخل الباب الأول للضريح الإسماعيلي،
وهو الذى كان يؤدى فيه الصلوات الخمس كما أشرنا لترشيحه سابقاً، وحذو هذه
الخراجة قوس صغير بمثابة بيت القنادل بالجانب الغربى منها، وبإزائه بهو يقابله فى
الجانب الشرقى محراب الصلاة وتحيط بجدران الضريح والبراح المربع أمامها منطقة
من الزليج المرصع أبدع ترصيع وأتقنه، ينيف ارتفاع تلك المنطقة على متر وبأعلى
منطقة زليج قبة الضريح قصيدة رائقة منقوشة فى زليج أسود بخط بديع رائق
محيط بدائرة القبة، شاهدة بأن مولانا أحمد المذكور هو البانى والمؤسس لذلك
المشهد الحفيل الفائق، بيد أنه ضاع أول تلك القصيدة وآخرها، ووقع اختلال فى
أواسطها ودونك لفظ ما هو موجود منها الآن مع إصلاح يسير فعلى يمين الداخل :

فتح المدائن والحصون بجنده	وجهاده وحسامه البتار
نشر العطا غفر الخطا ستر الغطا	أغضى الحيا من حلمه الستار
مد الأمان على الأنام بظله	وشقى الحيا من كفه المدرار
قل للمفاخر لا تفاخر واعترف	لكماله بالعجز والإقصار
ماذا تقول لفضل آل محمد	وهم الغياث لكل خطب طارى
وهم الكرام إذا حلت بجاههم	وهم الأمان لأرضهم والجار
وهم هم من أمهم وأبوهم	متوسلين بجاههم للبارى
من ذا يعد على فضلا فى الورى	وأنا طويت المجد تحت جدار
فلى الفخار على المباني كلها	آثاره تنبيك عن أخبار
قد شادنى البانى ولله ما بنى	وأطال فى سمك السماء منار
وأنا لى شرفا وفخرا باذخا	وبالانتساب له علا مقدار
خير الملوك من البرية كلها	الذهبي أحمد نخبة الأخيار
غيث البلاد إذا البلاد قد أمحلت	غوث الأنام لكل هول عار
جبر الإله به الأنام وصدعها	وكسَّابه فى الفضل من هو عار
ورث الخلافة عن أبيه وإنه	أهل لها من سائر الأنظار
عقلا ودينا سؤددا وشجاعة	حزما وعزما دائم الأمطار
يغنى إذا أعطى وإن هو قد سطا	فتخاف فتكته أسود الضارى
ما مات والده المخلف مثله	فكأنه ما غاب عن أبصار
حسب على حسب تكامل مجده	وكذا ذوو الأحساب والأقدار

أبقاك مولانا لنصرة دينه	ظلا ظليلا فى سما الأمصار
تغشاك ألطاف الإله ونصره	يتلو عليك معالى الإظهار
وسواك مفضول وقدرك فاضل	وعلاك فوق الكل فى الأسطار
ما رام شأوك فى العلا مسابق	إلا وكنت أبا السنا المضممار
فعلى ضريح أبيك رضوان الإل	ه وألف ألف سلامه المعطار
وسقاه مولانا شآيب الرضا	تغشاه بالآصال والأبكار
فى عام (لباشوق) داع إلهه	قد صار فى كرم مع الأبرار

وقول البيت الثانى: ستر الغطا معناه إما ستر السوء من قولهم فعل به ما غطاه أى ساءه كمال فى المحكم، وإما ستر الكثير من قولهم ماء غاط أى كثير كما فى تاج العروس، أو ضمن ستر الغطا انسداله إن لم يكن الأصل سدل فتصحف على الكاتب وهذا الاحتمال أظهر وقع تصحيف أو لم يقع، وقول السابع وهم هم من أمهم وأبوهم يقرأ من يكسر الميم فى قوله من أمهم ويكون قوله وأبوهم مبتدأ خبره محذوف أى كذلك، وعلى يسار الداخل منها ما لفظه:

تاج الملوك إمامهم وضياؤهم	سبط الرسول ونبعة المختار
مولای إسماعيل خير بيوتها	نجل الشريف وطلعة الأسرار
بيت المكارم والسيادة والندى	قطب الجلالة معدن الإكبار
ورث المجادة كابرًا عن كابر	والمجد مجدهم بلا إنكار
قد طالما عبد الإله بليله	ونهاره وسطا على الفجار
جبر الكسير وكم أسير قد فدى	بنفائس الأموال والأحجار
وبنى المساجد والمدارس طائعا	متواضعا للمليكه الجبار
كم عفر الوجه الكريم على الثرى	بسجوده شكرا بلا استكبار

انتهى .

تبرج أعلى سطح هذه القبة بزيينة حلة قرموده المزدرى بالزبرجد فى الاخضرار، تعلو تلك الحلة السندسية طاسات خمس من صفر مموهة بخالص الإبريز منتظمة فى قضيب من حديد سفلاها هى أكبرها والتى تليها دونها فى الكبر وهكذا، وعلى رأس ذلك القضيب لوح حديد لطيف مغشى بورقة من خالص الذهب يعرف ذلك اللوح باسم الخلاة منقوش فى إحدى جهتيها ما لفظه:

هذه رتب الكمال تبدت ولواء النبى خير البرية

وفى الجهة الأخرى ما لفظه:

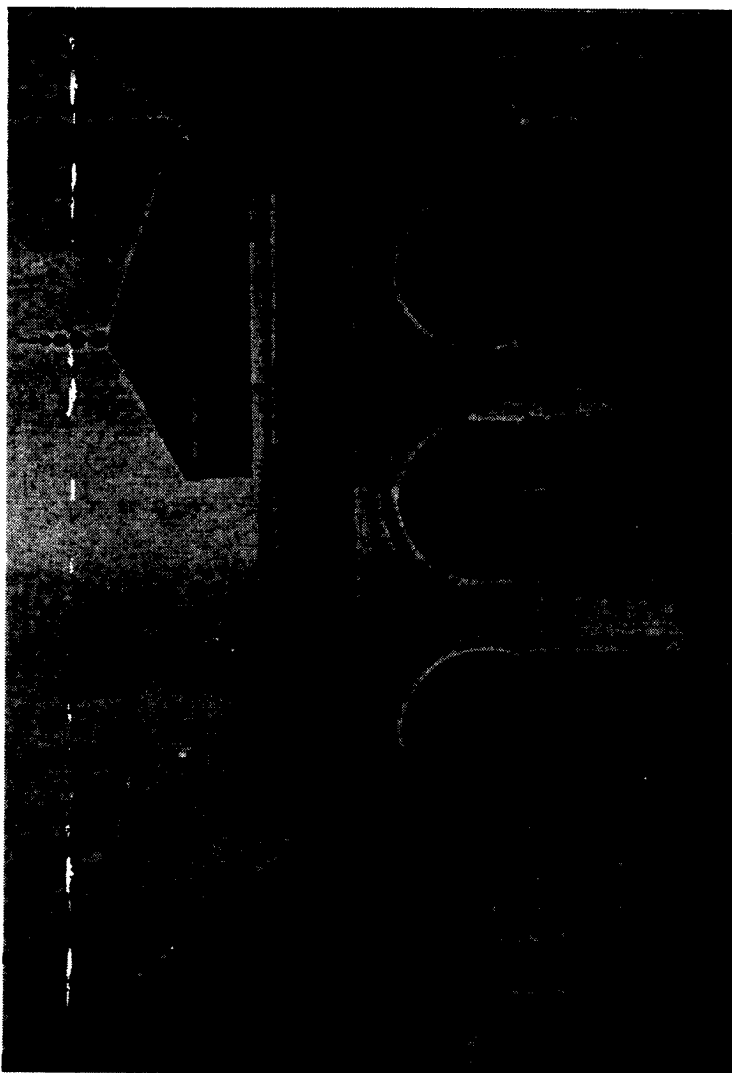
فالتمس من شذاه أطيب نشر واغتتم طيبه بحسن الطوية

كان يعتقد كثير من الناس أن ذلك اللوح كله من خالص الذهب ويزعمون أنه كان لبعض حظايا الجنب المملوكى الإسماعيلى لما لى مولاي، إسماعيل داعى مولاه وبنى ضريحه على الوصف المذكور أمرت بجعله ثم، ولم يزل ذلك الاعتقاد ساريا فى الناس حتى اعوج ذلك القضيب الحديدى الذى ركبت فيه تلك الطاسات الصفر وذلك اللوح المغشى بسبب هبوب عواصف الرياح توالى ثلاثة أيام أقلعت الأشجار، وكان ذلك فى ثانى عشر جمادى الأولى عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف، فعند ذلك أنزل ذلك القضيب بقصد إصلاحه فكشف الغيب أن اللوح إنما هو من حديد مغشى بالذهب وقد أعيد تمويه ما يحتاج للتمويه من تلك الطاسات لكن جاء التمويه الجديد بالنسبة للقديم بمثابة تشويه، إذ الأول قد مرت عليه قرون والثلوج تتراكم عليه وغزير الأمطار وعواصف الرياح تحمل إليه من الغبار، ما يغطى بهجته ويستتر بريقه ولمعانه عن الأبصار، ومع ذلك فلم يؤثر ذلك أدنى تأثير، ويجد بباب الدويرية المذكورة باسم البراح السالفة الوصف زليج مكتوب فى نفس ترديجه ما لفظه:

لساكنها السلامة والسعادة بطول الدهر ما غنت حمامه
وعز لايدانيه هوان وإقبال إلى يوم القيامة
وما لفظه أيضا:

ألا إن دخلت القصر فانظر محاسنى وهل أبصرت عيناك مثل هذا الخد
تبارك الله ما أرق شمائلى على من الرحمن عز بلا حد
انتهى .

وقد اختلست فى هذه الأيام الأخيرة زليجتان بهما البيت الأول وهو
لسكانها . . إلخ، ويوجد خارج هذه الدويرة صحن فسيح طوله أمتار ثلاثون ونيف
وعرضه أربعة عشر مترا به مباحان: أحدهما فى الجهة الشرقية والآخر قبالة
بالجانب الغربى، ومزارعة يصعد إليها بدرج خمس يشرف منها على قبة الضريح
الأقدس على تلك المزارعة شباك من حديد مموه بالذهب، وذلك فى الجانب
الشرقى، وفى الجانب الشمالى من هذا الصحن قبة بها قبور بعض حرم السلطان
المولى إسماعيل وبعض أنجاله وأحفاده تعرف هذه القبة بقبة الحاجبات، وفى قبالتها
من الجهة الجنوبية ضريح العارف الكامل السيد عبد الرحمن المعروف بالمجذوب،
وبوسط الصحن المشار أمام الضريح المجذوبى بئر حفرتة امرأة بمال من صداقتها
بقرب عام ستة وخمسين وألف كما فى «ابتهاج القلوب» ويأتى فى ترجمة
المجذوب بعض ما يتعلق بروضته المذكورة، وبعد الصحن المحدث عنه يوجد
صحن آخر طوله يقرب من العشرة أمتار، وعرضه كذلك، بجانبه الشرقى صفة
يقال إن بها مدفن الفرس الذى كان يركبه الشيخ المجذوب وحملت عليه جثته لمحل
إقباره المشار، ومن هذا الصحن يخرج لمسجد صلاة الخمس المحدث عنه آفا الذى
بابه الأصلى القديم هو المعروف اليوم باسم باب مولاى إسماعيل، فإذا أراد
الإنسان زيارة ذلك الضريح الأنور كلما وصل لصحن من الصحنون المارة الوصف
يصعد فى درج، وهكذا إلى أن يصل قبة الضريح .



صحن البير بالضريح الإسماعيلي

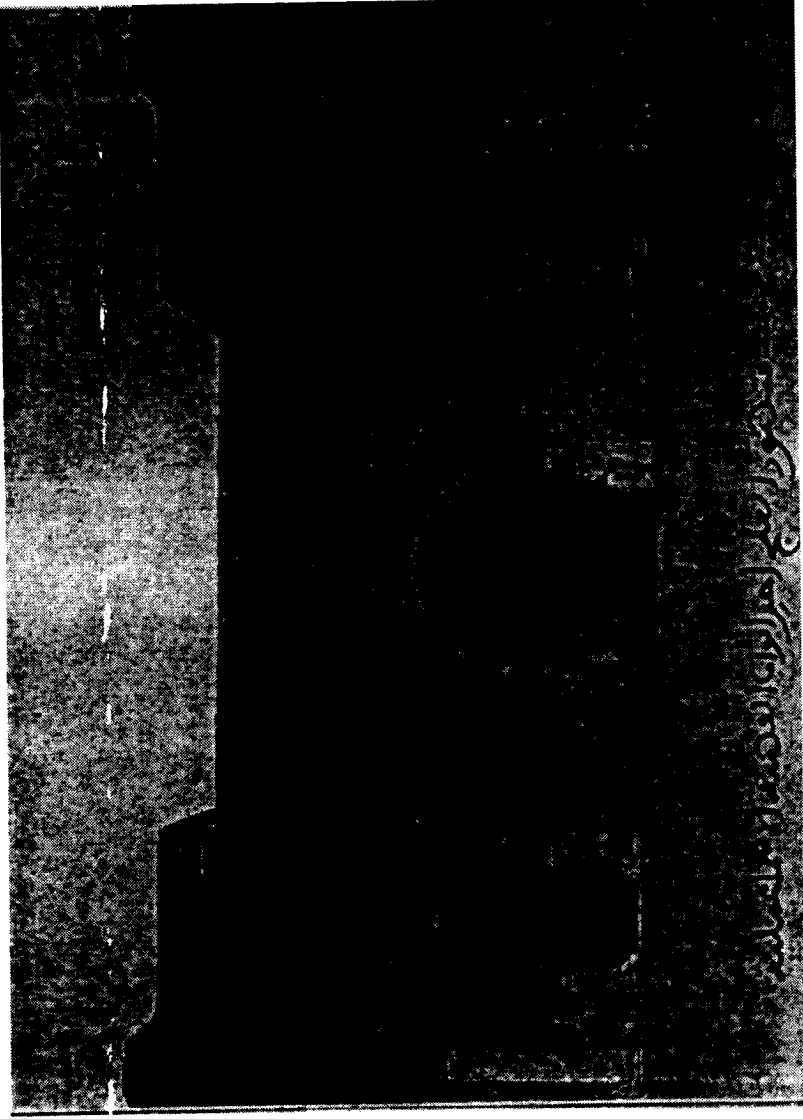
ولأجل هذا العلو وارتفاع بقعة الموقع تتراءى تلك القبة المتبرجة بحلقتها الزبرجدية وتاجها المغشى بالذهب من مسافة ليست بالقريبة من سائر نواحي جهات البلد، لا يرى الرائي أعلى منها ولا أروق في النظر، يغشاها نور نبوي تقر به أعين المحبين، ويكون قذى في جفون المارقين والملحدين.

ومن تأسيسات السلطان مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل بهذه العاصمة الفاخرة تنميق باب جامع الأنوار الشهير الواسع الأكناف الواقع بين باب زين العابدين أحد أبواب المدينة الآن، وباب منصور العليج، وكان تأسيسه لذلك عام ستة وأربعين ومائة وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج بخط بارع على الباب المذكور ولفظه:

ما للخورنق والبديع كمال	شرفي بمنشئ حلتي وكمالي
مولاي عبد الله من دانت له	شم الأنوف أجلة الأقيال
حسبي من الفخر المخلد أنني	أثر له والسعد في الإقبال
وقتي (مشكوق) كل نفس ودها	تحظى به موصولة الآمال

وقد قدمنا أن أصل الجامع المذكور بكماله من أعظم منشآت والده المولى إسماعيل وشرحنا القول في ذلك بما له وما عليه فارجع إليه.

ومن تأسيساته أيضا تجديد باب القصبة الإسماعيلية المعروف باسم. باب منصور العليج على الطرز الذي هو عليه الآن على إصلاح للدولة الحامية فيما كان تصدع منه إصلاحا لم يغير ما كانت عليه، وهذا الباب أبت الأقطار المغربية أن تعززه بثان فهو وحيد الحسن بين أترابه، أنشأ تجديده عام أربعة وأربعين ومائة وألف وشاهد ذلك ما هو منقوش في زليج أسود بخط مشرقى بارع في أعلى ذلك الباب ولفظه: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده:



منظر باب منصور العليج أحد أبواب القسبة الإسماعيلية

طلعت مطالع سعادها أبراجي وأضاء في فلك الجمال سراجي
 وحللت من أوج المعالي صهوة تسمو على الصهوات والآراج
 بوجود من أحيا الوجود وجوده وأناره بسراجـه الوهاج
 من شاد بالنصر العزيز قواعدي وأدار بالفتح المبين رتاجي
 بيت النبوة والجلالة والعلا كهف الضعيف وغنية المحتاج
 مولاي عبد الله متى أضحي به الـ إسلام معقود اللوا والتاج
 ملك يطاع محبة ومهابة فتجيء في زمر وفي أفواج
 في كل صالحة آثار تو فيق تنادي باسمه وتناجي
 فانظر وقس ما غاب عنك بما ترى هذا قياس صادق الإنتاج
 هل ورخت مثلي (دمشق^{١٤٤}) أو وشت صنعى يد صنعاء في ديباجي
 أم خـصت الإسكندرية بالذي يصفون من عمد ومن أزاج
 أم في الملوك نظير مولانا الذي هو للعباد كفاية الأماج
 فالله يقيه لرحمة خلقه ولغيثها بالصيب الشجاج
 والله ييقى دينه بوجوده بادي المعالم واضح المنهاج
 ونوافل الخيرات تجبى نحوه من مغنم وهدية وخـراج
 وتحية المولى السلام تحفه مسكية النفحات والآراج

أشار بحروف لفظة دمشق للتاريخ المشار له . والآماج - بالفتح - جمع أمج
 بالفتح أيضا وهو الحر والعطش كما في القاموس^(١).

(١) انظر القاموس (أ م ج).

ومن تأسيسات السلطان الأعظم، والملاذ الأفخم، سيدي محمد بن عبد الله بقلعة مكناسة عاصمة ملك جده المولى إسماعيل المسجد الأزهر، الرافل في حلل الأبهة والفخار، ذلك المسجد الحافل الفاخر المعروف اليوم باسم جامع الأروى، وكان تأسيسه له عام تسعة وثمانين ومائة وألف، وشاهد ذلك ما هو منقوش في الجبص على يمين المحراب وشماله ودونك لفظه:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا محراب مبارك سعيد قد بناه بمسجدنا سيدنا ومولانا المنصور بالله المحروس بعين رعاية الله المجاهد في سبيل رب العالمين، المتوكل على الله القوي المتين، محمد بن عبد الله ابن إسماعيل في عام تسع وثمانين ومائة وألف. اهـ.

يتنظم هذا المسجد من صفوف أربعة ذات أقواس محمولة على أربعة وأربعين سارية مبنية بالجيار واللبن، وصحن فسيح لا يوجد له نظير في القطر المغربي فيما أعلم، طول هذا المسجد ثمان وثمانون مترا ونيف، وعرضه ستون مترا، بوسط صحنه الرحب جابية من أصفى المرمز، وأعلاه من أكبر وأوسع ما أنت راء جوانبها الأربع أعني ما اتصل بها من الصحن مفروشة بزليج الرخام البديع، وباقي الصحن مفروش بالزليج الملون الفاتن الباهي.

ولهذا المسجد ثلاثة أبواب لعموم المصلين أحدها في الجهة الغربية، وثانيها في الجانب الشمالي، وثالثها في الجانب الجنوبي وبويب صغير بالجانب الشمالي من الصف الأول يختص السلطان بالدخول منه لكيلا يقع في ورطة تخطي رقاب المصلين، ومع الأسف فقد أهمل هذا المسجد إهمالا ليس عليه من مزيد حتى عشش فيه عرمرم الخراب والتلاشي والدمار وباض وفرخ، رغما عن كونه تقام فيه الجمعة والجماعة، وكونه من المعاهد الإسلامية السامية ذات البال، اندثر زليج أرضه ونبت الكلا في صحنه، وتكاثف، ونبت الكرم في خشب سقفه الذي كان على جانب من الزينة والزخرفة عظيم، هذا فيما بطن منه، فما ظنك بما ظهر من سطحه إلى غير هذا مما لا أذكره.

وبخارج الباب الشمالي من هذا المسجد توجد مدرسة تحتوي على بيوت ستة وثلاثين عن اليمين والشمال بوسطها خصة لطيفة وبئر، وبآخرها قبة بديعة الشكل كانت على جانب من الزخرفة والنقش عظيم، وبهذه المدرسة منار المسجد المحدث عنه، كما يوجد خارج الباب الجنوبي مرحاض حافل محتو على خمس وعشرين مِضْأة، بوسط صحنه صهريج للماء مستطيل كان في غاية اللطف، وخارج هذا المرحاض في جداره الشرقي صهريج مستطيل طوله نحو المترين منحوت في حجرة واحدة، ومع الأسف فقد أصبحت بهجة ذلك كله في خبر كان، ومدت الأيدي العادية لاختلاس مآته.

وقد كان السلطان المولى الحسن في عزمه إحياء هذا المعهد الإسلامي الذي هو من آثار أسلافه الكرام وأياديهم البيضاء ورده إلى شبابه وشرع في ذلك بالفعل ولكن حالت المنية بينه وبين بلوغ مراده، ولولا تلافيه بجبر بعض ذلك الصدع لخرت سقوفه ولأصبح أحدوثة في خبر كان.

ومن تأسيسات الأمير سيدي محمد هذا قصره البهيج الموسوم باسم الدار البيضاء محل المدرسة الحربية الآن المعدة لتعليم ضباط المغاربة، أسس بهذا القصر الشامخ مسجدا منتظما من صفوف أربعة وصحن، وجعل له منارا ومستودعا لوضع آلات التوقيت، وأسس بجانبه الشرقي مدرسة لطيفة وأحاط السور بالفسيح الطويل العريض المعروف باسم أجدال، وأسس بصدر هذا الفسيح قبة مرونقة بديعة على جانب من الإتقان والتزيق مكين، وجعل بإزائها حماما له باب ينفذ إليها وكنيها، وكل ما يحتاج إليه من منافع ومرافق بحيث لا يحتاج القاطن فيها إلى الخروج منها لما تدعو إليه الحاجة اللازمة للإنسان أعد هذه القبة لفسحته، والجلوس لسماع مظالم رعيته، وأعد البسيط المذكور أمامها لرعي إناث الخيل العتاق أطلقها تغدو في مروجها وتروح إذ كان له ولوع تام بانتقاء الصافنات الجياد، وجلبها من كل صوب، وتربيتها والإنتاج منها.

وأسس بجوار هذا القصر جناني أسويط الكبير والصغير، وجنان باب القزدير، وجنان ابن حليلة وعروسة السنطرجية، والعروسة الجديدة حذوها المعروفة بالبحراوية وحبس جنان ابن حليلة المذكور مع العرصتين المشار لهما على المسجد الأعظم، ودونك نص عقد التحبیس:

الحمد لله حبس مولانا الإمام، السلطان المؤيد الهمام، ناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، صدر الأفاضل المقدام، علم الأعلام، وابن سيد الأنام، العلامة الشهير، الداركة النحرير، صاحب الفتوحات الإلهية، والمواهب الربانية، الذي أشرق الوجود بكریم محياه، أمير المؤمنين سيدي محمد ابن أمير المؤمنين مولانا عبد الله ابن السلطان الجليل، الماجد الأئيل، مولانا إسماعيل، أدام الله عزه ونصره، وخلد في الصالحات ذكره، جميع جنان ابن حليلة وجميع عروسة السنطرجية وجميع العروسة الجديدة المجاورة لها والجميع داخل القصبة السعيدة على المسجد الأعظم من مكناسة تحبیساً مؤبداً، ووفقاً مخلصاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وولي الانتقام منه، تقبل الله من مولانا عمله، وبلغه سؤله وأمله، وبسط للناظر الأحظي السيد الحاج الطيب ابن السيد أبي القاسم المسطاسي يد الحوز على ذلك يتصرف فيه للحبس المذكور من بيع غلته وعلاجه مهل رمضان عام اثنين ومائتين وألف.

وقد أفردت الكلام على ماضي هذا القصر الملوكي وحاضره وعلى الأجنة المحتفة به بما يهم القارئ في رسالة مستقلة.

وأسس مسجد قصبة هدراس السالفة الذكر، ويعرف هذا المسجد اليوم بجامع لال خضراء، وقد تقدم لنا أنه من المساجد التي تقام بها الجمعة، وينتظم هذا المسجد من بلاطين وجناحين وأسس به كنفا وحماماً بمقربة منه.

قلت: هكذا ذكر تأسيسه لهذا المسجد الزياني ومن تابعه، وانظره مع ما

قدمناه عن ذلك العقد القديم الموثوق به، من أن أرض بريمة كانت من أوقاف جامع الخضرا، ثم انتقلت للمولى إسماعيل... إلخ، وليس يعرف بمكناس جامع الخضرا غير هذا، فالظاهر أن سيدي محمد بن عبد الله جدد بناءه لا أنه أنشأ تأسيسه والله أعلم.

وأسس ضريح الشيخ محمد بن عيسى الشهير بالشيخ الكامل المتبرك به حيا وميتا، دفين خارج الباب المعروف باسم باب السبية، أحد أبواب العاصمة المكناسية يقال إنه بناه من أنقاض ما هده من الدار الكبرى دار الخلافة الإسماعيلية المارة الذكر، وكان تأسيسه له عام ألف ومائة وتسعين، يدل لذلك ما هو منقوش داخل مزار الضريح المذكور ولفظه:

أشاد أمير المؤمنين محمد علاه فلا زال العلي يؤيده
وجاء علي أيدي ابن وعزيز طالعا يؤيده (نصر وفتح واسعده)

أشار للتاريخ المشار بحروف نصر وفتح واسعده، وما يوجد أيضا في نقش الجبص فوق المنطقة الزليجية المحيطة بجدار قبة الضريح ولفظه:

نزه جفونك في المشيد العالي	لترى بدائع نشائي وكمالي
ما زهر أيام الربيع ووشي صن	عاء يشابه حسن جيدي الحالي
حزت البهاء بجمع كل محاسن	من ذا يزاحم رفعتي وجمالي
أو ما ابن عيسى القطب هذا من له	سر شهير فاق كل جلال
بحر تلاطم موجه بعناية	ومهابة وسعادة ونوال
قصاده خصوا بنيل مرامهم	في عاجل أو آجل ومآل
لا يعرفن الضيم عبد يحتمي	في حادث الدنيا له بظلال

قد سالت كل السموم جميع من
غياث من في الأرض يهتف باسمه
أنزل به كل المنى تجدد الذي
من يستقم لا ينكرن ما قد يرى
أمؤمل المعروف هذا منهل
لكن كأس شرابه التسليم والـ
كم كربة ومضايق قد فرجت
وغريب أوطان توطأ حبه
ووضع قدر قد رفعت حضيضه
وبذا الإمام فزر تراه تبركا
إن الإمام محمد بن محمد الـ
كم من مزايا نالها ظهرت كما
من ذاك أن أمر الخديم محمدا
واشتد في أمر الأمير محمد
قد حاز من حسن القوام لطافة
واستنجز الأنصاف من كل غاية
وقل لمن رام ارتقاء كماله
ولقد أتيت بما بدا أعلا الرضا
ثم الصلاة على الشفيح محمد

يعزى له في سهلها وجبال
ومفرج الأزمت والأوحال
أملت من وجود ومن إفضال
فحذار كل تعرض وجدال
من جاءه يسقي بعذب زلال
ظن الجميل وصادق الإقبال
بركاته بتضرع وسؤال
فاقتاد ما يبغيه من آمال
فوق النجوم فتال حسن منال
مولاي عبد المالك المفضال
يهادي الرسول به استقامة حالي
أمن الورى بجلال ذي الإجلال
ولد العزيز بمبرز الأشكال
بينا ضريح مكثر الأفعال
أقسم بأنه فاقد الأمثال
إن الصواب موضح الأقوال
قصر فلا تدن بغير وصال
فلعله من صالح الأعمال
عين الوجود نهاية الإكمال

ولا يخفى ما في هذه القصيدة من التغالي الذي لا يكاد يخلو منه مديح في الغالب .

وبني قبة ضريح سيدي سعيد أبي عثمان .

وأسس مدرسة الشاوية وهي الواقعة أمام الداخل من المدينة لباب منصور العليج شرقاً أحد أبواب القصبة الشهير، وهي المجاورة للباب المحدث لقصر الستينية المار الوصف، وبهذه المدرسة قرأت القرآن العظيم، وبها قرأه آباؤنا وأسلافنا الكرام برد الله ثراهم، ولقد تخرج بها من حملته منهم ما يناهز الألف، ومنا منهم إلا من له الخط الرائق الفائق، ولا زالت هذه المدرسة إلى حد الآن مكتبا لتعليم الصبيان ومسجدا لعبادة الرحمن، وقد كان الدهر أخنى عليها وبقيت في زوايا الإهمال دهرًا طويلا إلى أن خرت سقوف صفوفها، واغتصب محرابها، ولعبت بجدرانها أيدي البلى، ونبتت بأرضها الكروم، وعششت بها البوم، وتكاثر أنواع الطيور، وأخيراً صارت مقبرة معدة للدفن، وفي هذه الأزمنة الحاضرة أصلح ما يواجه الداخل منها .

وقد كان أول من انتدب لإصلاحه والذي قدس الله ثراه، فابتدأ مباشرة ذلك من ماله الخالص له ثم بعده أتم جانب الحبس ما كان ابتداءه من الإصلاح وبقي ما وراء ذلك وهو معظم المدرسة على ما وصفناه من الخراب والإهمال، مع توفر مادة الأحباس، إذ للمسجد الأعظم وما أضيف إليه من المساجد التي من جملتها المدرسة التي كلامنا فيها بالعاصمة المكناسية من الرباع ما بين دور ودكاكين وإصطبلات ومعاصر وديار الصابون وطرقات وحمامات ما قوم ثمن رقبته في أوائل رجب الفرد الحرام عام ألف وثلاثمائة وواحد وثلاثين بمائة ألف ريال وتسعة وأربعين ألف ريال ومائتي ريال وأربعين ريالا ونصف ريال .

وفي منفعته ثلاثة عشر ألف بليون ومائة وثمانية وخمسون بليونا، وفي مدخوله الشهري ثلاث وثلاثون مائة مثقال وستون مثقالا، وثلاث أواق ونصف

الأوقية حسبما وقفت عليه في صك الإشهاد بذلك بتاريخ أوائل رجب عام ألف وثلاثمائة وواحد وثلاثين .

وله من الأوقاف خارج المدينة بين بلادات وزيتون وجنات ما قومت رقبته بخمسة ألف ريال وخمسة وثمانين ألف ريال وسبعمئة ريال واثنين وسبعين ريالا حسبما وقفت على ذلك أيضا في صك تقويم العراف المرجوع إليهم في ذلك بالتاريخ المتقدم .

ولمساجد السور من الأوقاف بداخل المدينة من حوايت وديار وفنادق ومعاصر وغير ذلك ما قومت رقبته بثمانية وتسعين ألف ريال ومائة ريال بالافراد وتسعة وخمسين ريالا، وفي المنفعة عشرة آلاف بليون وخمسة بليون وسبعة وخمسين ريالا، وفي المنفعة عشرة آلاف بليون وخمسمائة بليون وسبعة وستون بليون وفي المدخول خمس وثلاثون مائة مئقال وأربعة وثلاثين مئقالا وثمان مئقالا حسبما وقفت عليه في عقد الإشهاد بذلك بالتاريخ المتقدم، وهذا خارج عن الأحباس الصغرى وما انضم إليها وعن أحباس مولاى عبد الله بن حمد، بل وعن المعاوضات التى وقعت في أرض حمرية ومدخولاتها .

وكذلك أسس السلطان سيدى محمد بن عبد الله أيضا بالقصبة مسجد باب مراح ومناره، وباب مراح هذا هو المعد إلى اليوم لسكنى ممالك الجنب السلطاني، وموقعه ما بين قصر المحنشة السعيدة وصهريج السواني المحدث عنه سابقا، وجوار جنان ابن حليلة الشهير، وجدد ما افتقر للتجديد من المسجد الأعظم، وجدد بناء مناره وذلك عام سبعين ومائة وألف، ويدل له ما هو مكتوب في نقش زليج بجدار المنار المذكور في الجهة الموالية للصحن ودونك لفظه:

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده .

بنى هذا المنار أمير صدق محمد الرضا في عام (عشق)
وجدد فيه مسجده فحازت به مكناسة قصبات سبق
أشار للتاريخ المذكور بحروف لفظة عشق، وجدد مسجد باب البراذعين
المذكور فيما مر كما جدد ضريح الولي الشهير سيدي سعيد المَشْنَزَائِي ومسجده:
تنبيه: عدّ أبو القاسم الزياني من جملة ما شيده السلطان سيدي محمد بن
عبد الله من المعاهد الدينية مسجد سيدي سعيد المذكور، ومسجد بريمة، ومدرسته،
ومدرسة الصهريج، وقد تبعه على ذلك صاحباً «الجيش» و«الاستقصاء».

قلت: ويتعين حمل كلامهم في ذلك على تشييد الإصلاح والترميم، وإلا
فقد قدمنا أن مؤسس تلك المعاهد الثلاثة الأولى ومشيد بناءاتها هو جده مولانا
إسماعيل، وقد أَلَمْنَا بشواهد ذلك في تأسيسات المباني الإسماعيلية، كما أن
الزياني وتابعيه قد أغفلوا من مباني سيدي محمد بن عبد الله بعاصمة جده مكناسة
ما نبهناك عليه هنا فلتكن من ذلك على ذكر.

وأما مدرسة الصهريج فلا يعرف لها اليوم أثر ولا موقع، بعد أن كانت هي
وغيرها من مدارس الدولة العلوية المتقدمة الذكر أهلة بما بنيت له، معتني بسكانها
بمحافظة سلاطيننا على تفقد رواتبهم، ومن ذلك ما أصدره الإمام الذي افتخرت به
الأواخر على الأوائل والمغارب على المشارق السلطان العادل سيدي محمد بن عبد
الله لناظر الأحباس بهذه العاصمة ونصه:

نأمر أحباس مكناسة الحاج الطيب المسطاسي أن يجعل طلبة باب مراح في
المرتب مثل المدارس الست، وهي: مدرسة الدار البيضاء، ومدرسة باب مراح
ومدرسة قصبة هدراش، ومدرسة الصهريج، ومدرسة جامع الشاوية، ومدرسة

سيدنا ومولانا إسماعيل رحمه الله بحسب سبع أواقي لكل واحد من الطلبة المذكورين في الشهر، ومثقال للمؤذن، وخمس عشرة أوقية للإمام، وخبزة لكل واحد في اليوم من عند الزياتينية كما تقدم لك أمرنا بذلك وراتبهم من الأحباس، كما هو مرسوم عندك ولا فرق بين الطلبة المذكورين فكلهم في ذلك سواء.

وأما طلبة مدرسة الأوداية فلا يقبضون إلا الراتب فقط، كما أمرناك قبل، وأما الخبز فلا تعطهم شيئاً لأنهم في ديارهم ومع أهلهم هنالك، والسلام في ثاني عشر شوال من سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف.

ومن تمامه أن الخبز المذكور يكون من أربعة في الرطل، وكل ما يدفع الزياتينية من الخبز، فأعطهم خط يدك والسلام. اهـ.

فيمثل هذا الاعتناء من أمراء الملة كانت معالم الدين قائمة، وبه دامت المحافظة عليها حساً ومعنى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن تأسيسات سيدي محمد بن عبد الله أيضاً ما جده بالضريح الإدريسي الأكبر المقدس، قال شيخنا الشريف البركة العلامة الأqed سيدي محمد بن جعفر الكتاني في كتابه «الأزهار العاطرة الأنفاس» ما لفظه ثم لما ولي السلطان الأسعد، الهمام الأصعد، الأنوه الأرشد، مولانا محمد بن عبد الله بن مولانا إسماعيل المذكور، جدد بناء هذه القبة وما هو متصل بها مرة أخرى، وجلب لها المرمر الحسن مما كان بدار جده بمكناسة الزيتون، وبالف في إتقان ذلك وإحكام عمله، وكان بناؤه له على ما هو مرقوم إلى الآن بالقلم الغباري برتاج دفة باب القبة المذكور سنة ثمانية وثمانين ومائة وألف. اهـ.

قلت: رتاج الدفة الذي به التاريخ المشار له هو الأسفل عن يمين الداخل للقبة، ولا زال ذلك التاريخ إلى الآن مفروشا فوقه الحصر لا تمكن رؤيته إلا برفع

الحصير عنه، ولعل من آثار هذا التجديد اللوحتين القائمتين في خدي باب القبة
المصنوعين من المرمر الرفيع المنقوش في يناها ما صورته:

يا ناظرا بهجتي الله يراعا

أمر بعمله مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف عام ألف وسبع وثمانين . اهـ .
وفي يسراهما ما صورته:

أبشر بما ترتجي من خير مولاكا

فرغ من عمل هذا سنة سبع وثمانين وألف لمولانا إسماعيل أيده الله بعزير
نصره . اهـ .

فإن هذا التاريخ متقدم على تاريخ بناء المولى إسماعيل للقبة الإدريسية بنحو
ثلاث وعشرين سنة كما قدم علم مما قدمناه، مع كون تاريخ اللوحين لا مزيد فيه
على أنهما معمولان للمولى إسماعيل، وذلك يؤذن بأنه كان عملهما لقصور نفسه
فنقلهما حفيده مولانا محمد بن عبد الله لخدي القبة الإدريسية لما جدد ما احتاج
للتجديد منها، وليساهما بأصلين فيها ولا مصنوعين لأجلها، وإلا لكان تاريخهما
موافقا لتاريخ البناء الإسماعيلي المتقدم للقبة، ولكن فيه أيضا ما يؤذن بأن
إنشاءهما للضريح الإدريسي، على أن تجديد مولانا محمد بن عبد الله لنفس قبة
الضريح هو عندنا الآن مجمل، لأنه لا دليل عندنا على أنه جددتها بعد أن نقضها
من أصلها، فتكون الرخامة التي في مواجهة الداخل المكتوب فيها ذلك القصيد
المختوم ببيان تاريخ المولى إسماعيل لبناء القبة، إنما أعيد إلى محله بعد التجديد،
أو إنما كان التجديد في بعضهما، فيكون رخام ذلك القصيد لم ينزل عن محله منذ
وضعه البناء الإسماعيلي بذلك المحل، والعادة قاضية بهذا، فإنه يبعد كل البعد أن
يحتاج الضريح كله إلى التجديد في المدة التي بين السلطانين مولانا إسماعيل

وسيدي محمد، مع متانة الأبنية الإسماعيلية ومزيد اعتنائه بإتقان الأضرحة، ومع هذا فعلم الحقيقة عند الله تعالى.

ومن المتصل بالقبة الساحة أمامها المحيطة من جهاتها الأربع بالمباحات الأنيقة المحمولة على اثني عشر عموداً من الأعمدة الرخامية البديعة، وبوسط الصحن المحيط بتلك المباحات خصّة تقذف من جوفها المعين الفرات المزدري باللجين صفاء، ويوجد بجدار الجهة الشرقية بهذا البراح محراب للصلاة يقابله بالجهة الغربية باب بيت القناديل، وبالجهة الشمالية باب لدار الزاوية بهيج أنيق، يقابل باب قبة الضريح الأقدس.

ودار الزاوية هذه أسست وأعدت لسكنى المنقطعات من الشريفات وجراية النفقة عليهم، وعلى طلبة المدرسة هنالك، والملازمين لدار الأضياف المعدة لسكنى المنقطعين والغرباء والفقراء من الرجال، وكانت دار الزاوية المذكورة يؤكل فيها كل يوم بضميمة ما يضاف إليها نحو خمسة أمداد من القمح وما يلزم ذلك من إدام^(١) وحطب وتوابل، وكان معظم ما يقام به ذلك أعشار سكان الزاوية الإدرسية، وبعض المداشر التابعة لها حبا وزيتونا، وبسبب ذلك كانت تعظم ثروتها في بعض السنين حتى يكون لها المطامير العديدة موفرة حبا، والخزائن مملوءة زيتا.

وكانت الملوك تنفذ من مدخولات دار الزاوية هذه إعانات قمحية وزيتية شهرية لبعض ذوى الحاجات وبالأخص الأشراف، كما كانت تفرق الخبز المستعمل هناك، وكذلك الكسكوسون على ديار المضطرين من آل البيت بالزاوية، وبسبب ذلك وجدت الأيدي العادية سببا إلى الاستيلاء منها على ما لا تستحقه، حتى أفضى ذلك إلى إغلاق باب دار الزاوية بعض السنين في وجوه المستحقين، وبقي من كان تجري عليه النفقة منها يتكفف الناس للإجحاف كثرة الخارج في غير

(١) الإدام: ما يُستمرُّ به الخبز.

وجوهه من مدخولها حتى استسلف لها بأمر المخزن، ولم يوجد ما يرد منه السلف لكون الأعشار التي كانت منفذة لها إنما هي أعشار بعض العامة، وهم المقيمون بالزاوية والمجاورون لها وبقية الزراينة كانت تدفع أعشارها بمكناس، وأما الشرفاء فقد كانت الملوك تسوغ لهم دفع أعشارهم لضعفائهم وتكل ذلك لأمانتهم، فلما رأى ذلك كثير من العامة تسارعوا لادعاء النسب النبوي الطاهر وفتحوا الطريق لتمشية ذلك وقبوله منهم وتأييد دعاويهم الباطلة ببذل المال لأولي الأمر، فأل ذلك إلى الإجحاف بدار الزاوية وإلى غلقها بالكلية كما تقدم، وهكذا عاقبة كل أمر أسند إلى غير أهله.

ثم لما رأى ذلك متأخرو الولاية والنظار اختصروا خارجها حتى ردوه لنحو خمس الخارج قبل، وصار لا يعطى منه إلا للمقيمين بدار الزاوية المذكورة مع طلبة المدرسة والقليل من المساكين المقيمين بدار الأضياف، ويدفع قليل منه لبعض محتاجي الشرفاء الساكنين بالزاوية، ثم لما أحدث الترتيب وقطع المخزن النظر عن التداخل في الزكاة لم يبق لدار الزاوية داخل إلا من بعض الأصول المحبسة عليها وخارجها يضعف عن القيام بخارجها، فكان المخزن بعد اختياره لذلك صار يؤدي لها مما يجيبه من الضرائب كل سنة خمسة عشر ألف بسيطة لتتميم الخارج اللازم لها، وكانت صورة الطعام المستعمل فيها في سائر الظروف المتقدمة أن القمح يطحن ثم تزال نخالته القوية بالغربال، وما عدا ذلك يستعمل منه الخبز والكسكوسون من غير تصفية، بل الغالب أن لبابه يستولي عليه نصف الخبزة السوقية وهو الذي يفرق على من عدا طلبة المدرسة ونوع فوقه، وهو الذي يدفع للطلبة.

ثم لما حسنت حالة الأحباس وتوفرت مادة ماليتها في الأقطار المغربية على يد المخزن حيث جعل لها وزارة خاصة تحت نظرها نظار ومراقبون، وعظم وفر

الأحباس بكل بلد، جاء وزير الأحباس المشار له لاختبار الأحوال بالزاوية وتعاهد الشتون، وذلك يوم الخميس فاتح صفر عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وحين شاهد حالة الخبز والكسكوسون الموصوفة أنكر ذلك وأباه، وأمر في الحين بأن يكون يشتري ذلك صافيا من السوق وتكون الخبزة لا تنقص عن السوقية، كما أمر باشتراء قدر معين لها من اللحم وتوابعه كل يوم ليطبخ مع الكسكوسون، وقد كان اللحم قبل ذلك لا يشتري لها إلا يوم السبت الذي يعمر فيه السوق هنالك، فكان ذلك من أعظم حسناته، وإنما فسد ما فسد بإهمال الولاية، وتقاعسهم عن القيام بمثل هذه النهضة، ألهمنا الله وإياهم الرشد في الحال والآت.

ودار الأضياف المشار لها هي الواقعة في أسراك وهي الأولى عن يسار الداخل للحرم الإدريسي من باب المعراض الشهير، وتلك الدار عبارة عن مربع محيط بمباحات أربع محتو على عدة بيوت وكنيف حافل.

ومن تأسيسات الأمير الفخيم الليث الهصور مولانا اليزيد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل الزيادة الواقعة في الجهة الغربية من المسجد الإدريسي، يفصل بينها وبين المسجد القديم الصحن، وذلك عام أربعة ومائتين وألف، ويدل له ما هو منقوش في خشب بباب المسجد المذكور ودونك لفظه:

يا سائلا عمن بنى طلعتي ومن لدين الله شكلي يشيد

أنشأني المولى الملك الرضى محمد المهدي الإمام اليزيد

أعطاه مولانا جميع المنى وزاده نصرا وفتحاً يزيد

ونشأتني من رام تاريخها فلأنني (رشد) أراه يزيد

أشار بلفظ رشد للتاريخ المذكور، ويدل له أيضا اختلاف البناء القديم مع الزيادة في الشكل.

ومنها أيضا المسجد الشهير بجامع مولاي اليزيد إلى الآن بالزاوية المذكورة
موقع هذا المسجد بالحومة المعروفة بتارجا من الزاوية المشار لها، تقام بهذا المسجد
الجماعة والجمعة.

ومنها الدار الجديدة وهي قصبة سكنى الأشراف العلميين الآن بزاوية زرهون
كان أنشأها لسكناء ولكنها لم تكمل في حياته.

ومن آثار السلطان العالم العامل الخاشع مولانا سليمان بن محمد بن عبد
الله بن إسماعيل الدار المعروفة اليوم بالدار الجديدة مع روضها، جوار جده المولى
إسماعيل، وتلك الدار وروضها بها الآن إدارة شئون حاكم الأحواز المكناسية وما
يضاف إليها.

ومنها تلافية بالتجديد والترميم والإصلاح ما افتقر لذلك من القصور
السلطانية المحنشة، والمدرسة وما انضم إليهما، قال أبو القاسم انزياني عاطفا على
ما أسسه وشيده المولى سليمان بالأقطار المغربية كما ستقف عليه مفصلا في ترجمته
بحول الله ما لفظه: ثم جدد قصور الملك لمكناسة بعد تلاشيها. اهـ.

قلت: مراده بالقصور قصر المحنشة، والمدرسة وما أضيف إليهما، أما قصور
الدار الكبرى دار خلافة جده الأعلى فإنها إذ ذاك كانت خربة بيد بعض أفراد
العائلة الملوكية الإسماعيلية، خربها والده سيدي محمد بن عبد الله وسلمها لمن
استحقها من العائلة المذكورة حيث قاموا بطلب حقوقهم وراموا السكنى بدار
والدهم، ولم يجد السلطان سيدي محمد بن عبد الله مناصا من ذلك لما لهم من
الحق في بيت مال المسلمين، ورأى أن تسليمها لهم على بهجتها وضخامتها الملوكية
التي مر بك بعض وصفها ليس من العدل والإنصاف في شيء لتعلق حقوق غيرهم
من الخاصة والعامة ببيت المال.

ولذلك مَدَّ يَدَ الهدم والتخريب فيها لإزالة كل ما له قيمة، ولما صيرها بلاقع ولم يبق بها غير شاهق الجدران المنسلخة عن كل زينة وما لا قيمة له توجب الالتفات نحوها، فعند ذلك سلمها لهم فتملكوها وبنوا فيها دورهم وأنشأوا بها غراسات متعددة واستقروا بها، ولا زال بها عقبهم إلى الحين الحالي يتصرفون فيها بالبيع والابتيع وسائر أنواع التصرفات.

ومن تأسيسات هذا السلطان الجليل المقدار مولانا سليمان السقايات التي على يمين ويسار الداخل من الباب المقابل لباب المعراض الشهير بالحرم الإدريسي بالزاوية، وكان تأسيسه لها عام ثمانية وعشرين ومائتين وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج مثبت بالجدار الذي به السقايتان اللتان عن يمين الداخل ودونك لفظه:

تأمل بهجتي وبديع حسني	وما ألبست من حلل البهاء
تجد عزّي ومجدي وارتفاعي	يفوق البدر في أفق السماء
جمعت من المحاسن كل فرد	وأعظمها جوار أبي العلاء
إمام الغرب إدريس ذي المعالي	سليل الأكرمين ذوي الوفاء
وقمت بباب روضته بجد	أطهر زائريه بطيب ماء
ياذن إمامنا الأسمى بنوني	وتاريخي (تجلت بالسناء)

أشار للتاريخ المذكور بحروف تجلّيت بالسناء.

ومن تأسيسات الأمير الأورع السلطان مولانا عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بالعاصمة الإسماعيلية قبب الخشب البديعة الشكل العجيبة المثال المعروفة باسم الخيمة، وهي الواقعة بجنان ابن حلّيمة في الجهة الشرقية منه المحمولة على ساقية وادي بوفكران التي يجري فيها ماءه الداخل

للمدينة، وهذه القبة تحتوى على مباحات ثلاث محمولة على الأعمدة الخشبية، وثلاثة بيوت وبهو بوسطها إلى ما يتبع ذلك من منافع ومرافق، وجعل في الساقية المذكورة أمام المباح الجنوبي دولبا يحمل الماء من الساقية ويصبه في القنوات الموصلة له للخصبة الواقعة أمام المباح المذكور وإلى غيرها من الفروع التي يجري فيها الماء، ثم مع السقاية التي أسفل القبة المذكورة ويصعد لهذه القبة بدرج، وتحيط بجوانبها الثلاثة أبواب الزجاج الملون تتركب هذه الأبواب هناك وقت حلول السلطان بالعاصمة المكناسية، وعند سفره تزال وتصان بالخزائن السلطانية إلى أن يعود من سفره فترجع لمحلها، وعلى هذا استمرار العمل إلى أواخر الدولة العزيرية.

ومنها إنشاء الباب الثاني لجامع القصبة المار الذكر والمباح داخله المشار له آنفاً.

ومنها المباح الواقع على يسار الخارج من باب منصور العليج لبطحاء الهديم المحمول هو أي المباح على أساطين ستة حجرية، وكان إنشاءؤه إياه على يد عاصمة سلفه المكناسية الباشا الأنصح القائد الجيلاني بن العواد الشهير، وكان ذلك المباح مُعداً لجلوس أعيان الجيوش المظفرة وذوي الحيشيات منها في أوقات الأحكام المخزنية، حيث إن باب منصور العليج المذكور كان هو المحكمة الرسمية لباشا مكناس، يجلس به لفصل الخصوم وسماع المظالم كل يوم صباحاً ومساءً، وبهذه المحكمة الواقعة بباب قصبة الدار العالية بالله كانت العادة جارية في كل يوم جمعة يتناول الباشا وقواد اراحي الجيش الغداء أثر الفراغ من أداء فريضة الجمعة بجامع القصبة المار الذكر، وصائر ذلك من بيت المال ولم يزل العمل مستمرا على ذلك إلى انصرام دولة السلطان مولاي عبد العزيز، كما كانت العادة جارية بأن سائر الاحتفالات والأفراح المخزنية الرسمية التي تقام تحت رئاسة الباشا إنما تكون بالباب المذكور، واستقر على ذلك الحال إلى أواخر الدولة الحفيظية.

ومن تأسيساته المباحان خارج باب قصر المحنشة السعيدة المحمولان على

اثنين وثلاثين عموداً من الأعمدة الحجرية، وأعدهما لجلوس الموظفين ورؤساء رجال البساط الملوكى وذوي الحشيات وقت جلوس السلطان للنظر في أمور الرعية كل غدو ورواح عندما يكون جنبه بالقصر المذكور، وعند جلوسه في غيره من القصور السلطانية، أو نهوض ركابه الشريف من العاصمة يعمّر الحرس المباحين المذكورين ليلاً ونهاراً ظعن السلطان أو أقام، ومع الأسف فقد استولى الخراب على تلك المباحات وعمّا قريب يستأصل شأفتها إن لم تتداركها يد الإصلاح.

ومن آثاره إقامته لمسجد ومنار ضريح الولي الشهير مولانا عبد القادر بن محمد بن بلقاسم العلمي، ونقل الخطبة من مسجد سيدي أحمد بن خضراء إلى مسجده وذلك بعد وفاة صاحب الضريح، ووفاته كانت يوم الاثنين وقيل الجمعة سادس عشري رمضان المعظم سنة ست وستين ومائتين وألف.

كما أن السلطان مولانا عبد الرحمن المذكور هو الأمر والمنشئ لأحباس المسجد المذكور، وذلك من متخلف الولي سيدي عبد القادر المذكور حسبما تضمن ذلك ظهير له شريف هذه صورته:

خدينا الأرضي الناظر الطاهر بن عثمان وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فقد بلغنا كتابك أن الولي الصالح سيدي عبد القادر العلمي نفع الله ببركاته، خلف من الناض اثني عشر ألف مثقال ومائة مثقال واحدة وواحدة وستين مثقالاً وست أواق وربع الأوقية، وقد كنا مهتمين بأمر مسجد زاويته المباركة الذي ابتدئ بناؤه في حياته من أين يكون الصائر على إكماله، حتى بلغنا تخليفه لهذا القدر المذكور فسري عنا، وعلمنا أن ذلك من بركاته رضي الله عنه، فنأمرك أن تقف في حيازة ذلك ووضعه تحت أيدي الأمانة هناك على وجه الحفظ والأمانة، وتشرع في إكمال المسجد المذكور وإتمام تلك الحسنة على حسب ما كان يشير به السيد المذكور في حياته، وجد في ذلك كل

الجد ومهما احتجت إلى ما تصيره عليه يدفعه لك الأمانة، فإن عندهم أمرنا بذلك، وكن في خلال ذلك عينا وأذنا على الأصول التي تباع بمكناسة الزيتون وزرهون، فمهما ظهر لك أصل نفاع يشتريه الإنسان لنفسه فاشتره للزاوية المذكورة، ويؤدي الأمانة ثمنه حتى يستوعب بناء المسجد والأصول التي تشتري للزاوية من جميع متخلفه من الناض وغيره، ومهما اشتريت أصلا لذلك فأعلمنا به لنمضي تحبيسه ومتخلفه من الأثاث والبهاث، ثم أجره على ما تقتضيه السنة من البيع ونض الثمن، فإن السيد إنما ترك ذلك في حياته لأسرار لا نعلمها نحن، ولا يليق به بعد مماته إلا البيع، وما يتجمل في ذلك بعد التنضيض يضاف لما تحت أيدي الأمانة ويسلك به سبيله من الصائر على المسجد وشراء الأصول التي تجبس على الزاوية، والسلام في سابع شوال المبارك عام ستة وستين ومائتين وألف.

وقد امثل الناظر المذكور أمره الشريف فاشترى أصولا هي الآن من أحباس ما ذكر بإمضاء الأمير المذكور لتحبيسها، ومن جمعتها حظ في رحي وقفت على إمضائه لتحبيسه هذه صورته:

الحمد لله أمضينا بحول وقوته شراء الحظ في الرحي المذكور أعلاه يليه، وتحبيسه على الزاوية ومسجدها حيث أشير وبسطنا اليد للناظر على التصرف التام فيه وعلى الواقف عليه أن يعلمه ويعمل به، ولا يحيد عن كريم مذهبه، والسلام في ذي الحجة الحرام عام ١٢٦٦.

وأول من خطب بذلك المسجد العلمي الفقيه السيد قاسم بن حلام. كان رحمه الله من أهل الدين والورع ومن خاصة أصحاب صاحب الروضة العلمية، ثم بعده خطب سيدي محمد فتحا بوزكري من آل الولي الصالح سيدي أبي زكرياء الصبان أحد صلحاء مكناسة المشهور، ثم خطب بعده أخوه سيدي عبد الحق بوزكري، ثم بعده النقيب المفضل سيدي المختار الإدريسي الشيبهي، ثم بعده نجله

النقيب الأجل سيدي مشيش، ثم بعده أخوه سيدي محمد بن المختار المذكور وهو الخطيب الحالي.

أما الزاوية التي بها الضريح العلمي فمؤسسها هو صاحبها سيدي عبد القادر المذكور، كانت داره ورثها من أبيه، وكان يسكن بها مع أخته السيدة خديجة، ولما توفيت دفنها في بيتها الذي كانت تسكن فيه، وهو القبة المدفون معها هو فيها، كما أنه هو الذي شرع في تأسيس المنار واخترمته المنية قبل إتمامه، وكان تأسيسه لهذه الزاوية عام تسعة وخمسين ومائتين وألف، ويدل له ما هو منقوش في الجبص فوق الشرجب الذي عن يسار الداخل لقبة الضريح ولفظه:

سمت روضة لله فتح بابها	وفاض بسر الهاشمي عبابها
فلواردين من هنا ظلالها	وللصادرين من جناها رطابها
وللزائرين بالكارم عمرت	على بركات الله جل رحابها
وباليمين والإقبال والسعد خاطبت	لقاصدها فوزوا فهذا لبابها
هلموا إلى كهف السعادة والرضى	وكيف وللتاجين صح انتسابها
(وبالشكر) للمولى مطالع أفقها	مدى الدهر ترجو أن يدوم احتسابها
فذي روضة ورحمة الله غيثها	إلى البعث لا ينفك عنها انصبابها
فطوبى لمن يأوي إليها وينتمي	ويلقاه من بشرى الكريم خطابها

أشار للتاريخ المشار بحروف لفظ وبالشكر، وهو مؤسس مسجد ضريحه القديم أيضا، أما الزيادة التي وقعت فيه مع الحالة التي هو عليها الآن فإنما أحدثت بعد على ما سيمر بك بحول الله قريبا.

ومنها تأسيس ضريح الولي الشهير سيدي عمرو الحصيني عام اثنين وخمسين

ومائتين وألف ويدل لذلك ما هو منقوش في الجدار الشمالي من قبة الضريح المذكور المقابل الداخل ولفظه :

متع جفونك في محاسن شاني	عاد الشباب فعاد عيشي الثاني
ألبست من حلل الجمال قلادة	كسيت بنور بهائها أركاني
فأنا الحصيني الشهير مقامه	ما بين قاص في البلاد وداني
فأله يمنح من يشا بهباته	كملكنا المنصور ذي السلطان
ملك الملوك الصالحين وفخرهم	نور الخلافة عابد الرحمن
ابن الهمام هشام نجل محمد	من آل أحمد سيد الأكوان
عرفت بصيرته المعارف والهدى	فلذاك جاد بجوده فبناني
في عام (بشرى لي) بنيل مسرتي	إذ أتى البشير بدولة السلطان
بقيت مآثره الحسان مصانة	كبقاء مجده سائر الأزمان
الله يكرمه بكل كريمة	وينيل قلبه منتقى الإيمان
بأجل مبعوث وأكرم مرسل	وبآله والصحب والتبيان
ثم الصلاة عليهم ما صافحت	أيدي النسيم ذائب الأغصان

أشار للتاريخ المذكور بحروف: «بشرى لي».

ومنها إحداث بَابِي السبية ووجه العروس مع السور الممتد من الأخير إلى باب بريمة على ما سيمر بك لدى الكلام على الأبواب. ومنها مسجد السلامي بحومة الحفرة من الزاوية، وكان صدور إذنه بذلك في حادي عشر صفر عام تسع وثلاثين ومائتين وألف، ومحبس هذا المسجد المذكور وما بني به هو سيدي عبد

السلام بن على الإدريسي الشبيهي، جدّ أولا سيدي عبد الله المعروفين بهذا الاسم الإضافي إلى الآن بالزاوية الإدريسية.

ومنها القصبة المعدة الآن لسكنى الشرفاء آل سيدي أبي الغيث بالزاوية المذكورة، قد كان أسسها للشرفاء الأمرانيين أهل يفران، وقفت على بطاقة من عامل الزاوية الإدريسية لخليفته بها إذ ذاك.

لفظها بعد الحمدلة والصلاة: محبنا وخليفتنا القائد قاسم بن علال أعانك الله وأرشدك، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره وأيده، وبعد: فيرد عليك ساداتنا الشرفاء العلويون أولاد سيدي بلغيث، فاعلم أنه قد أتى أمر مولانا المولوي المطاع وها نص كتابه:

وبعد فإن أربعة وعشرين رحىلا من أبناء عمنا الشرفاء أهل سيدي بلغيث قد أنعمنا عليهم بالمحل الذي كنا أسسنا بناءه للشرفاء أهل يفران بزrehون، فأمر خليفتك أن يمكنهم من النزول به والسكنى فيه والبناء فيه لأنفسهم، فإن هؤلاء الشرفاء أهل سكيته وخير، وفيهم ثلاثة أناس طعنوا في السن، فانظر لهم دوراً بزrehون يسكنون بها والسلام، في ثامن رمضان عام ستة وخمسين ومائتين وألف وأنت نفذ الأمر المطاع على ما أمر به مولانا المنصور بالله. اهـ.

ومن تأسيسات نجله السلطان الأفخم سيدي محمد القبة الواقعة في الجهة الشمالية من جنان ابن حليلة السالف الذكر، وكان بناء هذه القبة على يد أمينه الصادق الأحزم الطالب بوعزة الفشار البخاري.

ومنها قبة الزجاج الواقعة على الصقالة المشرفة على العرصة المعروفة بالبحراوية، تلك القبة هي التي بين قصري سكنى الجناب السلطاني من قصور المدرسة المولوية وبين الباب المعروف إلى الآن بباب الشبكة.

ومن آثاره زيادته في سمك قبة الضريح الإدريسي الأنوه بزاوية زرهون ورفعها في الهواء زيادة على ما كانت عليه من قبل، وتزيين ذلك بالحزام الأخضر الزليجي الكائن أعالي القبة الآن، وكان انتهاء العمل في تلك الزيادة سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف، والزيادة المذكورة هي من ابتداء حزام الزليج المذكور الذي لا يقل ارتفاعه عن متر، فالحزام داخل في الزيادة، ويوجد تاريخ البناء مرموقا بالقلم الغباري بلون أحمر فوق الحزام المذكور، ومنها في حرم ذلك الضريح أيضا المباح الأول خارج الباب الذي يدخل منه للصحن الذي به السقايات الذي تقدم، أن السلطان المولى سليمان كان أنشأها وكان السلطان سيدي محمد هذا المباح عام تسعة وثمانين ومائتين وألف على يد ناظره على ذلك الحرم الإدريسي الحاج قدور ابن عبد الرحمن بن الحاج محمد السراج دفين أبي العباس السبتي رضي الله عنه.

ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج أسود بأعلى القوس الوسط من المباح المذكور ودونك محل الشاهد منه:

وانصر إماما عادلا في حكمه	أعلى الإله بأمره هذا البنا
ذاك الأمير محمد المنصور نج	ل هشام البدري نجل نبينا
ولتذكر السراج ناظر وقفه	إذ لم يزل في ذا النظارة محسنا
وقل إن تسل يا صاح عن تاريخه	(يا زائرا إدريس سعدك قددنا)

أشار بحروف كلمات الشطر الأخير للتاريخ المومى إليه.

ومنها أيضا المداخل الرخامية المفضية لداخل ذلك الحرم الإدريسي مع تسوية الصحن المفضي لهذه المداخل وتزليجه على ما هو عليه الآن وتبديله الخصة الرخامية أمام قبة الضريح بالخصبة العديمة المثال الموجودة هناك الآن.

ومن تأسيسات نجله السلطان العظيم الشأن مولانا الحسن بالقصور الملوكية
قبة الباهية الواقعة بقصر المدرسة .

وقبة الزجاج المشرفة على غراسات جنان البحراوية .

ومنها الصرح البديع الذي أنشأه وشيده بقصر المحنشة وأحدث له بابا بالنهج
المستطيل المعروف بأسراك وذلك عام خمسة وثلاثمائة وألف . وفق ما وقعت
الإشارة للتاريخ المذكور بلفظ خذه في نقش رليج بأعلى الباب المذكور وسط أبيات
لطيفة دونك لفظها :

تكامل هذا الباب حسنا وبهجة	وحاز ضروب الوشي والرقم والحكم
ولم لا ومبناه على العز والتقى	كما الحسن المولى به أمر الخدم
فقف وانشق الرحمى يهب نسيمها	به فهو باب اله فتح للكرم
بداخله الرضوان والأمن والهنا	وروض أريض فيه منزله الأشم
فمن أمه يظفر بنيل مرامه	ويرجع مسرورا ويكفي الذي أهم
أدم ربنا العلياء والملك للذي	بناه وحطه في البنين وفي الحرم
وأوله عزا دائما متوافرا	ونصرا عميما ثابتا راسخ القدم

وجدد قصر المحنشة وأنشأ به قبة عظيمة وجعل لها بابين بابا للمحنشة وبابا
للعرصة المعروفة بعرصة الرخام، إحدى البماتين التى تتخلل تلك القصور
السلطانية، وهي التى على يمين الداخل للنهج المستطيل المعروف بيمين العراصي من
باب المحنشة السعيدة المعد لاستقرار عبيد الدار الخصيان الذين هم عند الملوك بمثابة
الحرس الداخلي، وأنشأ بهذا البستان أيضا حماما حافلا وجعل له بابين، بابا لقصر
المحنشة المذكور وبابا بالبستان المحدث عنه .

ومنها الصقالة الشاهقة العظيمة المتصلة بساباط قصر سكنى جنبه السامي
بالمدرسة السعيدة الطالع، وكان قصده من تأسيس هذه الصقالة إنشاء صرح عليها
تترأى منه بواسطة المرأة المكبرة المقربة الديار الفاسية، وشرع في بناء ذلك الصرح
بالفعل إلا أنه لم يتم لذلك أمر، وحال حلول المنية دون الوصول إلى الغاية
المقصودة، وكان ابتداء تأسيسه له عام ستة وتسعين ومائتين وألف على ما هو
منقوش بالغباري في رخامة بخد الباب الذي يصعد منه للصرح المذكور، كما أنه
منقوش على الخد الموالي ليمين الصاعد له ما لفظه:

باب السعود ومظهر الإقبال	منه الصعود لغاية الآمال
ظهرت نتيجه وصين أساسه	فبدا مشيدا في المقام العالي
وعلى الأيسر ما لفظه:	

فتنافس الصنائع والحكماء في	إتقانه بمواهب المتعالي
تاريخ منشئه علا من مجد ذا	الحسن الأمير سلالة الكمال

أما الإشارة للتاريخ الواقعة في البيت الأخير فإنها لم تظهر لي صحتها بعد
الإمعان فلتأمل.

وفي دولة السلطان المولى عبد العزيز أمر بهد ما كان أسس من ذلك الصرح
المشار لعيب حدث به، وكان في عزمه اقتفاء أثر والده في تشييد ذلك الصرح إلا
أن ذلك لم يكن في الكتاب مسطوراً، ولا زالت تلك الصقالة شاخصة للأبصار
تترأى من مسافة بعيدة.

ومنها تأسيس منار جامع المحنشة، إلا أنه اخترمته المنية دون إتمام عمله وفق
ما رام.

ومنها القبة الخمس المتصلة بالمنار المذكور من الجهة الجنوبية، كان أعد تلك القبة لجلوس وزرائه وذوي الحشيات والكبراء والوجهاء من المرّظفين في خدمة جنابه الأسمى .

ومنها الصهريج المحدث أمام مسجد المحنشة المذكور المحتوي هو أي الصهريج على الجوابي الرخامية الخمس، في رأس كل ركن من أركانه الأربع واحدة والخامسة بوسطه وهي أكبرها .

ومنها قبتا الزجاج الواقعة إحداهما شمال المسجد المشار والأخرى جنوبه أحدهما لجلوسه على كرسي ملكه للنظر في أمور رعيته وعرض قضاياها عليه .

ومنها التربيعة المعروفة باسم الوسعة الواقعة بين بابي الدار العالية بالله المحنشة الباب الذي به استقرار عبيد الدار المذكورين وباب سي مسعود أضيف هذا الباب لبواب كان به من جملة وصفان الجلالة السلطانية اسمه مسعود كان متفقهاً، وأنشأ بالساحة المشار لها قبة ذات بال يجلس بها لسماع المظالم وإعطاء الأوامر، وجعل لها مباحاً يضارعها في التنميق والزخرفة وجعل أمامها صهريجاً لطيفاً بوسطه جابية من الرخام الرائق تتدفق زلالاً، وجعل عن يمين هذه القبة قبة دونها في الرونق والأبهة، وعن شمالها كذلك، وأمام هذه القبة على يسار الداخل من باب سي مسعود المتقدم الذكر عدة قبب معدة للشئون المخزنية، ومع الأسف فقد أسرع الخراب لذلك كله لعدم المعاهد والمباشر ومتلافي ما انصدع فخر جل تلك السقف وانقلع الزليج وزالت تلك المحاسن ونبت الكلا والكروم على عالي تلك الأسطح .

ومنها الدويرية التي بداخل باب سكنى عبيد الدار المتقدمي الذكر الكائنة على يمين داخله، وقد كان أعدها مكتباً لتعليم البنات القرآن العظيم، واستمر العمل على ذلك فيها إلى أن هُرمّت الدولة العزيزية .

ومن آثاره تجديد الباب المعروف بباب سي مسعود الذي مرت الإشارة إليه وذلك عام ألف وثلاثمائة، ويدل لذلك ما هو متوج به في نقش رليج ودونك لفظه:

باب السعود وبهجة الأمان	هذا وباب الجود والإحسان
رفعت على التقوى معالم عزه	محروسة بعناية الرحمن
فانظر محاسن طلعتي شمس الضحى	منها استمدت أشرق اللمعان
(أوج شريف) صار تاريخي به	يزهو بطلعته على كيوان
أسمي بديع محاسني ومعالي	ملك همام من بني عدنان
فهو الشريف السيد الحسن الرضا	فخر الملوك وكهف كل أمان
ذاك المجدد للشريعة ركنها	في غاية الأحكام والإتقان
فالله ينصره ويبقي ملكه	متحصنا في عزة المنان

ومنها الأروى السعيد لربط خيله وبغاله بقصر المحنشة الميمون، وقد تهدم السور المحيط بهذا الأروى في هذا الأيام الأخيرة من الجهة الموالية لباب مراح المار الذكر، فسد بابه الاعتيادي الواقع بداخل المحنشة على يسار الداخل من باب هذا القصر الشهير بالباب الفوقاني، وهو الباب المقابل لباب الناعورة السالف الذكر وصار الدخول اليوم لهذا الأروى من الجهة المتهدمة السور بباب مراح المشار له.

ومنها الطريق السرى المعروف بـ(طالع وهابط) الموصل من قصر المحنشة المنيف لجنان ابن حليلة، بحيث يتيسر خروج الحرم الكبير من القصور السلطانية إلى جنان ابن حليلة الذي سبقت الإشارة إليه من غير أن يمر بالنهج العمومي الذي كان يمنع المارون من سلوكه وقت ما أرادت الجلالة السلطانية إخراج حرما الطاهر

وحاشيتها الكريمة للتفسح فى ذلك الجنان، وبسبب ذلك ارتفع عن سكان تلك الناحية ضرر مرور من النهج العمومى كل آونة.

ومنها القبة التى بالنهج المستطيل المسمى بأسراك - بالكاف المعقودة - الكائنة هى - أى القبة - على يمين الذهاب، لقصر المدرسة الخارج من باب الرانس الشهير، وأعدّها لجلوس وزرائه وأعيان كتابه وقت جلوسه للأحكام وسماع المظالم، وجعل لتلك القبة مباحات أعدت لجلوس بقية الكتاب مع أعيان رؤساء ذوى الحشيات والموظفين.

ومنها الروض الجديد الذى أنشاه بالبحراوية بصهر يجيه.

ومنها قبة الزجاج التى على الصقالة بأعلى الروض المشار المشرفة عليه، بل وعلى عرصتى البحراوية والاترنجية.

ومنها الصرح الذى بأعلى باب المحنشة المقابل لباب الناعورة المذكور، إلا أنه لم يكمل.

ومنها تلافيه صدع مسجد الأزهر، المعروف بجامع الأروى.

ومنها تأسيس منار الضريح الإسماعيلى.

ومنها تجديد سقف المباح الشرقى بصحن الضريح المذكور.

ومنها زيادته فى مسجد الضريح العلمى المذكور آنفا لما كثر أتباع ذلك الولى وضاق بهم المسجد، وكانت زيادته فيه على يد ناظره إذ ذاك الحاج محمد بن عمرو الصنهاجى السابق الترجمة، وهو الذى رد محرابه إلى عين القبلة حيث هو الآن، إذ كان قبل فى الجهة الجنوبية موضع الخزين فى العصر الحاضر، وذلك بعد هرج ومرج بين أتباع صاحب الضريح والمعدل الميقاتى بمكناس إذ ذاك السيد الجيلانى الرحالى، وطال ذلك وتفاحش إلى أن رفع الأمر إلى الجلالة السلطانية فقام لذلك

وقعد وحضر بنفسه وأحضر مهرة المعدلين العارفين بأدلة القبلة من فاس ومراكش ومكناس، فأداهم اجتهداهم إلى أن الأصوب هو جعل المحراب بالمحل الذى أشار به ميقاتى مكناسة المذكور، وأنه لا وجه لرده للجهة الجنوبية التى كان بها قبل لقيام الأدلة على خطأ الواضع الأول، فأمر السلطان حيناً بامضاء ما قالوا ويسببه انحسبت مادة النزاع.

ومن تأسيسات هذا السلطان قصبة أهل تولال - بضم التاء وسكون الواو وفتح اللام المشبعة - وتولال اسم لواد من أودية صحراء تافلا لت كان نقلهم السلطان المقدس مولانا عبد الرحمن بن هشام بن بلادهم لتمردهم وأنزلهم بنواحي فاس قرب دار ديبينغ، وجعلهم تحت نظر باشا الوقت بباب الدار العالية بالله ثمة وهو القائد فرجى الشهير، ثم نقلهم لنجلى السلطان سيدى محمد من فاس إلى نواحي مكناس وذلك عام اثنين وثمانين ومائتين وألف، وأدرجهم فى جملة الجيش البخارى، وكانت سكناهم إذ ذاك فى الخيام.

ثم فى دولة نجلى السلطان مولاي الحسن أنشأ لهم القصبة المذكورة التى هى مستقرهم الآن، وموقع هذه القصبة غرباً من المدينة، وقد أحدثت بها اليوم عدة دور ومسجد للصلاة.

ومنها قصبة الحاجب الشهيرة ببلاد بنى مطير على اثنين وثلاثين كيلو متراً من المدينة، وهذه القصبة هى التى صارت اليوم محلاً لإدارة الأحكام الإدارية ومتعلقاتها.

ومنها المسجد الذى أنشأه بالساحة المقابلة للمزاراة السفلى للضريح الإدريسي الأكبر التى كانت مستقراً للأوساخ والقذرات، ومحللاً لذبح ما يهدى لضريح ذلك الإمام العظيم ليفرق، وعلى أبناء صاحبه وعلى من انتظم فى سلوكهم من المقيمين بذلك الضريح الأقدس من الإنعام، وكان تأسيسه لهذا المسجد ولدار الذبائح المذكورة خارجه عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، وفى هذا التاريخ أو قبله بيسير أنشأ

بالزاوية الإدريسية أيضا الحمام الجديد البديع سعة وشكلا، إلى غير هذا مما ليس لغايته وصول.

ومن تأسيسات نجله السلطان المولى عبد العزيز تجديد بعض القنوات التي يجرى فيها الماء للمساجد والمدارس بالمدينة وغيرها.

ومنها بناء الساقية مع القنطرة ذات الأقواس التي يمر فوقها الماء المجلوب من عين شانش النابع أصلها قرب مدشر موساوة أحد مداشر جبل زرهون ليزاد ذلك الماء على ماء عين خيبر الداخل للحرم الإدريسي وغيره من الأماكن التي يجرى بها الماء من تلك الزاوية المباركة، إلا أن هذا الماء إلى الآن لم يحصل منه المقصود الذي جلب لأجله، وهذا الماء هو الجارى اليوم بالمحل الذي أحدثته الدولة الحامية بأرض خيبر المعروف بالبئر ولسائر فروعه.

ومن ذلك أيضا تلافيه بالترميم والإصلاح ما كان تلاشى بذلك الحرم الإدريسي ومضافاته، كتجديدة لقرمود القبة الإدريسية وتبييضه لصومعتها ولمسجدها وتزويقه لمحراجه وترميمه لدار الزاوية ولدار الأضياف ولدار المخزن التي تستريح بها الجلالة المملوكية عند زيارتها لذلك الضريح.

ومن ذلك أيضا إنشاءه للفندق الجديد المعروف بهذا الاسم بالزاوية الإدريسية وكانت هذه الأعمال جلها على يد الناظر السيد إدريس بن زاكور الفاسى، وبقيتها على يد بدله الناظر السيد الحاج الهادى غلاب أحد الأعيان بفاس الآن.

ومن آثار المولى زين العابدين تزليج أرض ضريح سيدى سعيد المشرائى (١) السالف الذكر وما انضم إليه، وبناء الصفة الواقعة خارج باب، وذلك أيام الفتنة البربرية التي حدثت فى دولة أخيه السلطان المولى عبد الحفيظ عام سبعة وعشرين وثلاثمائة وألف.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «المشرائى» وصوابه من دوحة الناشر فى موسوعة أعلام المغرب

ومن آثار سلطاننا الحالى المعظم المملوك بغير الإجلال والإكبار مولانا يوسف أعز الله أمره، وأيده وأدام فخره، تجديد جبص المسجد الأعظم بمكناسة وتبليط أرضه بالجبص وتزليج جناحيه.

ومنها إصلاح جامع القصبة وتجهيز صحنه الخارجى الموالى لبابه.

ومنها إصلاح مدرسة الشاوية المعروفة اليوم بجامع الستينية وتسقيف صف واحد منها.

ومنها إعادة تبييض جبص قبة ضريح جده الأكبر المولى إسماعيل قدس سره، وإعادة ما أزيل وتلاشى من زليج بعض جدرانها.

ومنها تجديد مسجد سيدى يحيى وسقايته المار الكلام فيها.

ومنها تجديد جامع الكرمة المعروف بزقة حومة الأنوار قرب سيدى سلامة المولى الشهير.

ومنها إصلاح المسجد العتيق المعروف بجامع النجارين.

ومنها إصلاح مسجد الزيتونة ومسجد البراذعين وزاوية مولاى عبد الله بن حمد المدة للمعتوهين والضعفاء والمنقطعين، ومسجد باب عيسى وضريح سيدى علي بن نون، وضريح الست كلىة - بالكاف المعقودة.

ومنها إصلاح حمام باب البراذعين، وتجديد ما افتقر من للتجديد وكذلك حمام الزيتونة، وحمام مولاى عبد الله بن حمد، وحمام النجارين، وحمام السوق، وحمام الجديد، وحمام سيدى عمرو بو عوادة، وحمام التوتة.

ومنها تجديد بعض سقف القصور السلطانية، وترميم ما دعت الحاجة الأكيدة لترميمه، وبالأخص قصور المدرسة الشريفة.

ومنها تجديد السقاية التي ببطحاء الهديم قبالة باب منصور العليج، تلك السقاية العجيبة الشكل العديمة المثال التي لم ينسج على منوالها في حاضر الأزمان ولا في غابرها ناسج، فما شئت من تزويق وتنميق، ونقش رقيق، يستلفت الأنظار، ويستوقف الأبصار، وكان تجديده لهذه السقاية على ما وصفناه عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في أعاليها ولفظه:

يا ناظرًا في بهائي	ورونقي واردهائي
فبغيتي ومنائي	منك جميل الدعاء
إلى جناب تسامي	به ابتداء انتهائي
مولاي يوسف أضحي	محبوب دان ونائي
مع المقيم العمومي	رئيس ناس الولاء
وأهل مجلس نصح	وهممة في ارتقاء
فادع لكل بخير	شكرا على جري ماء
وقل مؤرخ هذا	تاريخ زين بنائي

أشار للتاريخ المومي إليه بحروف الشطر الأخير من القطعة، ومع الأسف فقد مد الخراب لهذه السقاية يد الاعتداء ولم تجد منجدا، فإن دام حالها هكذا رجعت إلى ما كانت آلت إليه قبل، فإن هذه السقاية هي التي يعبر عنها في العقود الحبسية القديمة بالسقاية الكبرى، ففي بعض العقود الحبسية ما لفظه:

أرباب البصر سئل منهم الوقوف على عين مسجد زواغة الكائن بالهديم من الحضرة المذكورة المجاور للسقاية الكبرى التي هناك. اهـ.

وقد كان الدهر أخنى على هذه السقاية حتى تعطل وصول الماء إليها وصارت

مقر الأوساخ والأزبال، كما أخنى على المسجد المشار له في العقد السابق ولعب به شوطا في أدوار الامتحان، بعد العزة ورفع الشان، إلى أن مزق مجتمعه أيدي سبأ فصار بعضه مربضا للغنم المعدة لتموين البلد وبعضه جرنه (محلا لذبح المواشي) ثم صار محل المريض من جملة روض لبعض عظماء الموظفين، وذلك الروض هو الواقع في الجهة الغربية من بطحاء الهديم المذكور المتصل بباب رواغة الشهير ذلك الروض هو الذي صار اليوم مكتبا اقتصاديا للدولة الحامية بالعاصمة المكناسية وأما الجرنه فقد صارت دكانا لبيع السلع.

ومن التأسيسات والآثار الخالدة التالدة الواقعة في دولة جلالة سلطانتنا الأعظم أيضا القيسارية الجديدة المعدة لبيع أنواع البز الواقعة خارج باب برمة المجاورة لسوق البز القديم المستندة على سوق السلالين، وقد كان موقعها قبل فندقا معدا لبيع الفحم وربط الدواب.

ومن أعظمها وأفخرها تأسيس المدينة الجديدة الكائنة بأرض غابة الزيتون المعروفة بحمرية، التي كان أنشأها سيدنا الجد الأعظم مولانا إسماعيل برد الله ثراه، وحبسها على الحرمين الشريفين مكة والمدينة حسبما مرت الإشارة إليه، وكان الشروع في تسطير طرقها في شهر غشت سنة ست عشرة وتسعمائة وألف مسيحية، وصدر الأمر العالي بتعويض أرضها معاوضة نقدية لمن يريد البناء بها من الأجانب والأهالي عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف موافقة شهر جوليت سنة سبع عشرة وتسعمائة وألف، وشرع في البناء بالفعل في محرم فاتح سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف، وكان ثمن المتر المربع إذ ذاك فرنكا واحدا وخمسا وسبعين ستيما.

ولما كثرت الرغبة وتهافت الأجانب والأهالي على الشراء ولاحت لوائح الاستعمار، بلغ ثمن المتر المربع سبعين فرنكا، ولا يسوغ لمشتري أيا كان أن يترك مشتراه بدون بناء فوق ستين، ومثل ترك البناء أصلا بناء ما لا يبلغ صائره خمسة

عشر فرنكا لكل متر، فإن ترك البناء أصلاً أو بنى ما لا يبلغ صائره ما ذكر ومرت الستتان، فإنه يحاز منه مشتره ويسلم لجانب الحبس ويرد للمشتري ما خرج من يده بعد إسقاط قدر معين فى الصوائر.

ومنها تشييد بناءات دار السمن وروى مزيل الصلة بباب أبى العمائر على الطراز الأورباوى الذى هى عليه الآن، حتى دخل بذلك المحلان فى طور جديد، وصارا منظوراً ومرغوباً فيهما بعد أن كانا مهملين ومرغوباً عنهما.

ومنها تأسيس الباب المتصل بجدار البوسطة لدار السمن، تمرّ عليه العربات والسيارات الداخلة لدار السمن وترجع من القديم حذوه متصلاً به فرارا من التصادم الناشئ عن الورود والصدور من مورد واحد، وقد كان بمحل هذا الباب المحدث مكتب لتعليم الصبيان:

ومنها إحداث الصف الأول بمسجد الشافية مع مِيضَاة به، وإحداث مباح آخر فى المسجد المذكور، وإحداث مكتب عليه لقراءة الصبيان عوضاً عن المسجد الذى جعل بمحله الباب المحدث بدار السمن المذكور. وباب المكتب المحدث وهو النافذ للزقاق العمومى يمين الداخل لمسجد الشافية المذكور.

ومنها تجديد مسجد تيربارين، وزيادة المكتب حذوه صفا فيه، ورد سقايته وكنفه إلى صحنه وقد كانتا بأستوان بابيه.

ومنها تجديد سقاية أبى الحسن على بن منون، وإحداث أنبوبين للسبيل بزقاق روى مزيل، وتجديد سقاية جامع الزيتونة، وتجديد سقاية حومة حمام الجديد، وسقاية درب القرع، وسقاية التوتة، وسقاية ضريح أبى محمد عبد القادر العلمى، وسقاية سبع أنابيب مع تجديد سقفها وترصيف أرض مباحها، وسقاية حمادشة بتزيمى الصغرى، وسقاية تزيمى الكبرى، وسقاية براكه، وسقاية حومة جامع السباط، وسقاية الغمادين داخل باب الجديد.

وإحداث سقاية وكنف بالوسعة داخل باب السبية، وتجديد سقاية العوادين وسقف سقاية الشريشرة، وسقاية تبربارين، وإحداث سوق لبيع الخضر يدعى البلاصة بالعريضة المعروفة قديما باسم حبس قارة التى كانت معدة لنزول قائد حنطة. الأتاي، وإنشاء المحكمة الباشوية حذو البلاصة المذكورة، وإحداث البوسطة بمحل الزواية العينية التى كان أحدثها القائد إدريس بن يعيش، وصرف على بنائها كمية ليست بالتافهة الكائنة بدار السمن.

ومنها تجديد حائط محراب مسجد الولي الصالح عمرو بوعودة، وتسقيف صفوفه وتزليج أرضه وإصلاح ميضأته، وإصلاح مسجد براكه، وتجديد مسجد سيدى الصفيقر بدرب سيدى عبد الله الجزار.

ومنها إنشاء المستشفى للأهالى الكائن أمام ضريح سيدى سميد.

ومنها إنشاء الجرنه الحافلة لذبح الأنعام الكائنة خارج باب السبية أحد أبواب المدينة.

ومنها تجديد جبص الضريح الأنور ضريح مولانا إدريس الأكبر وتجديد جبص ما حوله كذلك، وتجديد صبغ خشب سقفه الفخيمة، وإعادة تزويق ذلك كله ورده لبهجته ورونقه، وكان الشروع فى ابتداء العمل فى ذلك صبيحة يوم الاثنين تاسع عشرى شوال عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وانتهاء العمل فى غالب ذلك أواسط جمادى الثانية عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف.

ومنها تزليج أسراك من باب المعراض إلى مباح باب الحفاة هناك، وترميمه لجدران أسراك المذكور.

ومنها تزليج السقايات السليمانية الكائنة داخل باب الحفاة المذكور، وتجديد القف أعلاها.

ومنها تجديد قرمود قبة الضريح المذكور وسائر ما حوله من المسجد الأعظم هناك وغيره.

ومنها ترميم وتجديد ما وهى من غير واحد من مساجد جبل زَرْهُون.

ومنها تجديد وتوسيع وتحويل باب فكرة أحد أبواب الزاوية على الهيئة التى هى عليها الآن.

ومنها مسجد السوق البرانى بالزاوية الذى أنشأه وحبسه المرحوم الحاج أحمد ابن محمد الريفى بموافقة أميرنا الحالى مولاي يوسف أدام الله جلالتة، فهذا ما حضرنا من التأسيسات والإشادات الواقعة بمكناسة وزرهون فى هذه الدولة السعيدة العلوية، وهو فى جنب ما جهلناه وما غاب عنا أو أغفلناه قُلٌّ من كُثْر، وليس إلا عند الله حقيقة الأمر.

قال فى الروض: وللمدينة ستة أبواب: باب البراذعيين، وباب المشاورين^(١)، وبمقربة منه هوايمى ارتجمى، ودار الأشراف، وجامع الخطبة القديمة ويعرف لهذا العهد بجامع النجارين، وباب عيسى، وباب القلعة، وكان يسمى بهذا الاسم قبل أن تبنى هنالك القسبة على ما يظهر من كلام بعضهم والله تعالى أعلم وباب أقورج، وباب دردورة وربما قيل له باب الصفا. اهـ. من خطه^(٢).

قلت: كتب بعضهم على هذا المحل ما صورته: كل باب من هذه الأبواب تغير عن حاله.

أما باب البراذعيين فقد أدركناه على خمسة أقواس تحيط به أبراج كثيرة فهدم فى سنة سبع وتسعين أو ثمانية وزحلق لناحية الجوف وبنى على ثمانية عشر قوسا محدقة بصحن فسيح، وبمدخله مسجد الخطبة مما صنعه وبناه الوزير على بن يشو.

(١) فى المطبوع: «المشاورين» والمثبت من الروض الهمتون الذى ينقل عنه المصنف.

(٢) الروض الهمتون - ص ٧٨.

وأما باب المشاورين فقد هدم أيضا لقريب من هذا العهد، وبني وراءه غربا باب يسمى باب برّيمة بتشديد الراء مكسورة.

وأما باب عيسى فقد هدم قبل هذا التاريخ وزيد فى القصبة وموضعه الآن بين باب سعيد - بكسرىاء مشددة - وضريح سيدى عبد الرحمن المجذوب نفعا الله به.

وأما باب القلعة فقد هدم وزيد فى القصبة وموضعه الآن قريب من باب العلوج.

وأما باب قورجة فقد هدم وزيد فى القصبة وبني جوفاً منه باب يسمى عبد الرزاق.

وأما باب دردورة فقد هدم ولم يبق وموضعه الآن بباب تزيى، وتزيمى اسم قبيلة أخرج أهلها من الصحراء من عمالة سجلماسة وغربوا وأسكنوا فى هذا الموضع، وقد أدركناه قبل دار عمل الفخارين، فأخرج الفخارون إلى عدوة النهر شرقاً، وكان هناك قنطرتان قديمتان فهدمتا وجعلت قنطرة واحدة. اهـ.

قلت: إنما تكلم ابن غارى والمطرر عليه هنا على أبواب المدينة القديمة تاجرات، ولم يتعرض واحد منها لأبواب القصبة القديمة ولا لأبواب القصبة الإسماعيلية سوى باب العلوج الذى ذكره الثانى فإنه هو باب منصور العليج المعروف للقصبة الآن، وكذا لم يشر ابن غارى لموقع القصبة المرينية إلا فى قوله:

قبل أن تبنى هناك القصبة يعنى والله أعلم خارج باب القلعة.

ثم إن أبواب المدينة الموجودة لهذا العهد اثنا عشر باباً بضميمة أبواب القصبة إليها لصيرورتها شيئاً واحداً ودخولهما معاً فى مسمى مكناس كدخول سائر القصبات المتصلة المتقدمة فيما أسلفناه.

فأما باب البراذعيين فموقعة قديما وحديثا فى الجانب الغربى للمدينة، غير أنه كما زحلق زمن ذلك المطرر إلى الباب ذى الثمانية عشر قوسا الذى ذكره كذلك زحلق بعده الى الباب الخارج عنه المقابل له الموجود الآن وهو باب فى غاية الارتفاع والسعة والإنقان وإحكام البناء، يكتنفه برجان أحدهما عن يمين داخله والآخر عن شماله، وتنفث دفتاه بين قوسين خرّ سقفها وانهد القوس الداخلى وغارباه الدالان عليه لازالا لهذا العهد.

ومن هذا الباب يخرج لضريح الولى الكامل المولى عبد الله بن حمد وهو متصل من جهة يمين الخارج منه بالسور المحيط بقصبة تزيمى الممتد إلى الباب المعروف بباب تزيمى.

وعن يمين الخارج أيضا روضة قبور الشهداء.

وعلى يساره المقبرة العظيمة الجامعة لجم غفير لا يعلمه الا الله من العلماء والأولياء الكاملين التى بها ضريح الشيخ محمد بن عيسى الولى الشهير.

وبينه وبين الباب ذى الأقواس الثمانية عشر صحن فسيح يقام فيه سوق لبيع الخشب كل يوم جمعة بعد صلاتها، وقد كان الداخل على الباب ذى الثمانية عشر قوسا المذكور ينعطف فيه لجهة اليمين حيث الفندق الموجود الآن، ويدخل للمدينة من قوس كان مجاورا للمئذنة فسد ذلك القوس، وأحدث فى محله دكان للبيع والابتاع وروى صغير وجعل فوق الكل غرفة، والكل تحت القوس الذى فوقه المستودع محل القيم بالتوقيت، ولا زال كل ذلك قائم العين إلى الحين الحالى.

ولما سد ذلك القوس المشار فتح نقب كالقوس مسامت للباين المذكورين، ومنه الممر الآن لكل ذاهب وآت.

أما الأقواس الثمانية عشر فمنها ما هو قائم العين والأثر حتى الآن، ومنها ما

هد وبقيت أساطينه أو بعضها شاهدة له، كان إذا دخل الإنسان من القوس المحدث في محله الدكان وما ذكر معه وجد خمسة أقواس في صف عن يساره، وأربعة كذلك عن يمينه، فيمر بينهما مستطيلاً، فإذا وصل إلى القوس الخامس استدبره منحرفاً عن اليمين فيجد قوساً آخر عن اليمين في مقابلة القوس الذى منه المرور الآن، وهو في الوسط بين خمسة أقواس: اثنان عن اليمين ومثلهما على اليسار.

وهذا الذى يخرج منه الآن اشتمل على قوسين يحوطهما سقف واحد أحدهما مساو للأقواس التى عن اليمين واليسار، والآخر ملتصق بالجدار المحيط بالجميع.

والأقواس الأربعة التى عن اليمين والخمسة التى عن الشمال مع قوسين من الأقواس الخمس المقابلة، هى التى صارت فندقاً وهو الموجود الآن عن يمين الداخل هناك، وعن يسار القوس الذى ذكرنا نقبه وفتحه للصدور منه والورود قوس آخر أحدث الحمام الموجود الآن فى محله، فمجموع الأقواس ثمانية عشر كما ذكر، منها ما هو قائم العين محكم البناء إلى الآن، ومنها ما أتى العفاء عليه ولم يبق البلى غير الأطلال الشاهدة لما كان عليه فى الماضى مما بيناه.

وكل هذه التغيرات حدثت بعد أن رحلق باب البراذعين المعروف بهذا الاسم الآن، وذلك زمن سيدى محمد بن عبد الله كما بينا، وبانى الباب ذى الثمانية عشر قوساً وكذا الباب المزحلِق إليه هو المولى إسماعيل، فقول ذلك المطرر بنى عام سبعة أو ثمانية وتسعين يعنى وألف، وقد كان سراق ملك المولى إسماعيل وقتئذ على الأنام ممدوداً.

وأما باب المشاورين وباب عيسى وباب القلعة وباب أقورج، وباب دردورة فقد بسط ذلك المطرر السابق ما يبين مواقعها وما آلت إليه، وقد أفاد كلامه أن باب دردورة كان خارج باب تزيى أحد أبواب المدينة المعروف بهذا الاسم الآن،

والقنطرة التى أشار لها هناك هى والله أعلم التى يمر عليها الذهب للفخارين وغيرها هناك، وقد كان سقط بعضها قرب التاريخ فتدوركت بالاصلاح.

وموقع باب تزيى فى الجانب الغربى الشمالى تنفتح دفتاه بين قوسين يسترهما سقف أعلاه غرفة معدة للقيم بحراسته، ووجه إضافته تقدمت الإشارة إليها، وخارج هذا الباب كانت سقاية السبيل المعروفة بسقاية الذهب المشار لها فيما أسلفناه فى ذكر الآثار الإسماعيلية، ولا زال إلى الآن سور صدر هذه السقاية شاخصا للعيان وكذلك غارباها، وقد أحدث فى محلها بناء جعلته دولة الحماية من جملة مرافقها.

ويوجد الآن باب بالنهج الموصل من باب منصور العليج لدار السمن، يسمى باب عيسى، وهو غير الأول قطعاً، ولعله هو الذى كان يعرف بباب سعيد قديماً، فلما هدم باب عيسى نقل اسمه إليه لقربه منه.

وأما باب عبد الرزاق فقد أدركته قائم العين متقن البناء محكم الصنع كان يخرج منه للحبول محل البستان العمومى الآن، ثم هد فى هذه الأزمنة الأخيرة ولم يبق له رسم ولا طلل، وصار محله براحا.

وأما باب بريمة فلا زال قائم العين إلى وقتنا هذا، غير أن الجدار المتصل به هدته الدولة الحامية ولم يبق للباب بعد هد هذا الجدار فائدة.

وأما باقى أبواب المدينة التى لم يقع لها تعرض ممن أسلفنا؛ فمنها باب السبية وموقعه فى الجانب الغربى الجنوبى خارج باب الجديد المعروف بهذا الاسم إلى الآن بُنى باب السبية هذا على عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، وذلك لما أضرمت نار الفتن البربرية وتفاحش عيث أهل الزيغ والبغى ودمارت لصوصهم توالى النهب لكل ما وجدت إليه سبيلاً خارج بابى الجديد وبريمة، وتفاحش الضرر

بالأهالى سكان البلد وضاقوا ذرعا من ذلك، بنى هذا الباب إذ ذاك على يد الباشا القائد محمد بن العواد الكبير، وهذا وجه إضافته للسيية، تنفتح دفئا هذا الباب بين قوسين يعلوهما سقف وبين هذين البابين - أعنى باب الحديد والسيية - سوق به دكاكين للبيع والابتياح وفسيح متسع كانت تباع فيه الخيل والبغال والحمير كل يوم خميس وأحد، ثم تعطل يوم الأحد وبقي يوم الخميس إلى إن نقل بعد نشر الحماية للمحل الذى يعمر فيه الآن خارج المدينة بين ضريحى سيدى سعيد المَشْتَرَاي^(١) وسيدى محمد بن عيسى - رضى الله عنهما - كل يوم خميس كما يعمر كل يوم أربعاء بالمحل سوق بهيمة الانعام.

ومنها باب سيدى سعيد، ويقال له باب الملاح، وباب وجه العروس وموقع هذا الباب فى الربع الغربى الجنوبى، وهو من تأسيس السلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام أنشأه أيضا عند شق البرابر عصا الطاعة وامتداد تمردهم وإضرارهم بأهل الذمة بنهب أمتعتهم، حيث كانت حارتهم خارج سور البلد عن يسار الخارج من باب بريمة، فأنشأ المولى عبد الرحمن هذا الباب والسور الممتد منه إلى أن اتصل بباب بريمة أحد أبواب الفخامة الإسماعيلية لعاصمته المكناسية، وتنفتح دفئا هذا الباب بين قوسين يعلوهما سقف وإضافته لسيدى سعيد لوقوع ضريحه وزاويته خارجه وللملاح لمجاورته له واتصاله ببابه، ولوجه العروس لكون المزارع خارجه تسمى بوجه العروس، وذلك لنضارة اخضراره وبهجة أنواره فى سائر فصول السنة لأن جل الخضر التى تجبى للمدينة إنما تزرع ثمة.

ومنها باب زين العابدين موقع هذا الباب فى الجانب الغربى الجنوبى على يسار الخارج من باب منصور العليج لبطحاء الهديم، بنى هذا الباب المولى زين العابدين بن السلطان الأعظم المولى إسماعيل أيام إمرته، تنفتح دفاته بين قوسين يعلوهما سقف فوقه غرفة.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «المشترائي».

ومنها باب ابن القارى موقعه فى الجانب الغربى الجنوبى تسابقه، وهو باب محكم البناء يعلوه برج هائل يشتمل هذا الباب على بابين أحدهما يدخل منه لناحية القصور الملوكية من جهة صهريج السوانى، والآخر يدخل منه لناحية الأروى الإسماعيلى ومساكن الجيش الملوكى الذى كان بمثابة الحرس.

ومنها باب البطيوى، موقعه فى الجانب الغربى، وهو باب متقن البناء فى غاية الإحكام، يدخل منه لناحية الأروى المذكور.

ومنها باب كبيش - بصيغة التصغير - موقعه فى الجانب الشرقى فى ناحية الأروى كذلك أيضا.

ومنها باب الناعورة وموقعه فى الجانب الشرقى الشمالى يعلوه برج عظيم هائل محكم البناء عجيب الإتقان، أحدث السلطان العظيم الشان المولى الحسن فى هذا البرج بإزاء هذا الباب بابا آخر قبالة قصر المحنشة السعيد، ومنه اليوم مرور كل صادر ووارد ممن يأتى من ناحيته، ووراء هذا الباب باب آخر يعرف بباب الناعورة البرانى وهو حديث البناء ولا أستحضر الآن بانيه.

ومنها باب القزدير موقعه فى الجانب الشرقى يخرج منه لناحية ضريح أبى زكرياء الصبان، تفتح دفتاه بين قوسين عليهما سقف، ومن هذا الباب كان دخول جيوش فرنسا الاستعمارية لهذه الحضرة المكناسية، وذلك فى زوال يوم الخميس ثامن جمادى الثانية عام ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف موافق شهر مايو بلغتنا سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف على ما يأتى مفصلا بحول الله.

ومنها باب أبى العمائر خارب باب الحجر المتقدم الذكر كان موقعه أمام باب المرس الآتى، وقد تقدمت الإشارة لوجه هذه الإضافة وما آل إليه أمره.

ومنها باب المرس وهو لناحية القبلة، وأنا أضيف للمرس لوقوع المرس

الإسماعيلي الهائل خارجة وهذه الأبواب الثمانية كلها - والله أعلم - من إنشاء المولى إسماعيل، والمرس المذكور هو من أعظم الآثار الإسماعيلية، وقد أدركنا هذا المرس يعمر بما يجبى إليه من زكوات الإيالة المولوية المجاورة للديار المكناسية وعليه قيمون يحرسونه وأمناء على محصولات ما تجبى إليه سنويا إلى أن اختل ذلك بحدوث الترتيب والضرائب الوقتية.

فهذه أبواب المدينة الموجودة لهذا العهد، وكلها كما علمت من التأسيسات الإسماعيلية غير باب زين العابدين، وبابى السبية، ووجه العروس.

أما الأول فلولده من صلبه، وأما الأخيران فلحفيدته مولاى عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل، وقد أسس غير ما ذكر من الأبواب العظيمة ذات الهياكل المدهشة التى صارت داخل المدينة وبالأخص فى قصبته السعيدة.

قال أبو القاسم الزبائى ومن تابعه: إنه جعل للقصة عشرين بابا فى غاية السعة والارتفاع مقبوة، وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الأشكال ما يقضى منه العجب. اهـ.

قلت: هذا غالب ما يتعلق بتفاصيل التأسيسات المكناسية من لدن شأنها إلى الوقت الحاضر، وأما الإتيان على جميعها فمن قبيل المحال، لا يعلم حقيقة ذلك إلا الكبير المتعال، وما أتينا به من ذلك لم يحوه قبل تقييدنا هذا ديوان، ولا حاز فضيلة حفظه وجمعه واحد من أبناء الإنسان، على طول الآتات ومر الزمان، والفضل فى ذلك للواهب الفتاح المنان، وأنت ترى جل تلك التأسيسات والمآثر الخالدة التالدة، إنما هى للموكنة العلويين، وقاداتنا الأكرمين، ذوى الأيادى البيضاء على الإسلام والمسلمين، أعز الله كلمتهم، وأدام فى سماء المعالى منزلتهم، آمين.

[المطلب الثانى]

[فى نعوتهما التى أسلت عن الحسناء والحسن]

[وأنست من البقاع سواها كل سهل وحزن]

قال فى الروض: ولو لم يكن من مفاخر مدينة مكناسة إلا اشتمال عملها على مدفن ولىّ الله تعالى المجمع عليه شيخ المشايخ سيدى أبى يعزى، لكان كافيا وقد ذكرت فى الفهرسة المرسومة بالتعلل برسوم الإسناد - بعد انتقال أهل المنزل والناد - بعض من لقيت بها كالشيخ الفقيه المتفّن أبى زيد عبد الرحمن الكوانى، والشيخ الأستاذ أبى الحسن بن منون الحسنى، والشيخ الخطيب الأحفل أبى العباس أحمد بن سعيد الغفجميسى، كما ذكرت هناك شيخنا العلامة أبا عبد الله القورى فيمن لقيت بمدينة فاس كالأها الله تعالى، وكان هذان الشيخان قد ارتحلا من مكناسة إلى فاس وسبب ارتحالهما مشهور عند الناس، فلنقبض عنه العنان والله المستعان. اهـ. من خطه^(١).

قلت: أبو يعزى^(٢)، هو الولي الكامل العارف الشهير قال فيه ابن أبى زرع فى «روض القرطاس»: قطب دهره، أعجوبة عصره، أبو يعزى يَلْتَنُور بن ميمون ابن عبد الله الهزميرى، قيل من بنى صبيح من هسكورة، مات وقد نيف على المائة وثلاثين سنة، أقام منها عشرين سنة سائحا فى الجبال المشرفة على تنميل، ثم ارتحل إلى السواحل فقام بها منقطعا ثمانى عشرة سنة، لا يتعيش إلا من نبات الأرض، وكان أسود كبدى اللون طويلا رقيقا يلبس تليسا وبرنسا مرقعا وشاشية عزف على رأسه. اهـ.

ونقل فى المعزى عن عصره مولانا عبد القادر الجيلانى أنه قال فيه إنه عبد حبشى. اهـ.

(١) الروض الهتون - ص ١٢٥.

(٢) له ترجمة فى شرف الطالب فى موسوعة أعلام المغرب ١/ ٣٦٥.

وكذا اختلفوا فى اسم أبيه فقيل: ميمون كما تقدم، وقيل عبد الرحمن، وقيل عبد الله، وقد كان وجهه عاريا لا شعر فيه، وما وقع فى كلام الشيخ زروق من أنه دكالى فهو باعتبار كثرة مكثه بدكالة، وليس هو من نفس دكالة كما بينه فى المعزى، وكان بربرى اللسان أميا لا يحفظ إلا الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، ومع ذلك كان يرد على من أخطأ فى القراءة عنده، ويلنور هو اسمه وقيل يالبحث.

من شيوخه: أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى دفن فى آرمور خدمه كثيرا، ومن شيوخه أبو عبد الله بن أمغار وغيرهما من الشيوخ الذين لقيهم، وهم نحو أربعين.

ومن أخذ عن أبى يعزى: أبو مدين الغوث المتوفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة المدفون حذو تلمسان، ومن أخذ عنه أيضا الشيخ الفقيه الصالح، الإمام المرشد الناصح، سيدى على بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم - بكسر الحاء المهملة وسكون الراء وبعدها زاي - وربما قيل ابن حرازهم كما فى الطبقات الكبرى للسبكي^(١) وغيره المتوفى بفاس آخر يوم من شعبان سنة تسع وخمسين وقيل ستة وستين وخمسمائة وغيرهما من أئمة الشريعة والحقيقة رضوان الله عنهم.

توفى أبو يعزى كما سبق عن نحو مائة وثلاثين سنة فى شهر شوال سنة اثنين وتسعين وخمسمائة^(٢)، ودفن بθαغية من جبل أيرجان ويقال فيه أركان - بالكاف المعقودة - وقبره هنالك إلى الحين الحالى مزاراة عظيمة عليه مشهد فاخر، هو والله أعلم من بناءات مولانا الجدايى النصر مولانا إسماعيل.

وكشف أبى يعزى وكراماته وطاعة الأسود له واستجابة دعاء زائريه وقضاء

(١) طبقات السبكي ٢٥٨/٦.

(٢) فى شرف الطالب: «سنة ٥٦١ هـ».

حوائجهم بإذن الله تعالى وإطعامه لزائريه الأطعمة المتنوعة كل وما يناسبه، واقتصاره فى نفسه على نبات الأرض وما تأكله البهائم أشهر من أن يذكر، وأجلى من أن يسطر.

وقد أفرد مناقبه ابن أبى القاسم الصومعى بمجموع فلينظر، وكان ابن غازى عنى بكون مدفن أبى يعزى من عمل مكناسة أنه كان داخلا تحت حكم ولاته، وقد انفصل محل دفنه من عمل عمال مكناسة قديما وصار من جملة عمل عمال قبيلة زيان، ولا ريب أن افتخار مدينة مكناسة بالقرب من مولانا إدريس الأكبر أجل وأعظم من افتخارها بالقرب من أبى يعزى.

قال فى «الروض»: نقل عن ابن الخطيب السلمانى فى وصف هذه البلدة فى كتابه «نفاضة الجراب» ما صورته وأطلت مدينة مكناسة فى مظهر النجد، رافلة فى حلل^(١) الدوح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المرائى، قد أحكم وضعها الذى أخرج المرعى، قيد البصر، وفذلكة الحسن، فتزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا ووضعاً، من بلد دارت به المجاشر المغلة، والتفت بسورة الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذى يسمو إليه الطرف، ورحب ساحة، والتفاف^(٢) شجرة، ونباهة بنية، وإشراف ربوة.

ومثلت بإزائها الزاوية القُدُمى المعدة للوراد، ذات البركة النامية، والمثذنة السامية، والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان البديع المنصب، الحصين الغلق، الغاص بالسابلة والجوابة فى الأرض يبتغون من فضل الله، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية برونق الشيبية، ومزية الجدة والانفساح، وتفنن الاحتفال^(٣) انتهى.

(١) فى المطبوع: «حلة» ومثله فى الروض - ص ١٢٦ والمثبت من نفاضة الجراب - ص ٣٧١.

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «التفات» وصوابه من النفاضة.

(٣) الروض الهتون - ص ١٢٦، نفاضة الجراب - ص ٣٧١ - ٣٧٢.

والزاويتان معا من بناء أمير المسلمين أبي الحسن المرينى، جدد الله تعالى عليه رحمته بفضلله، إلا أن الأولى بناها فى دولة أبيه، والثانية بناها بعد استقلاله بالدولة.

ثم قال ابن الخطيب: وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهمم، وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن: ما شئت من أبواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها صافى الماء أعناق أسدية وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين^(١).

وتفضل هذه المدينة كثيرا من لداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه، وتعمير الخزين، ومداومة البر لجوار ترابها سليما من الفساد، معافى من العفن، إذ تقدم ساحات منازلها غالبا على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث، ويصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة جملة قال ابن عبدون من أهلها ولله دره:

إن تفتخر فاس بما فى طيها وبأنها فى زيهـا حسـاء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيبان هواؤها والماء^(٢)

ويسامتها شرقا جبل زرهون، المنبجس العيون، الظاهر البركة المتزاحم العمران الكثير الزياتين والأشجار، قد جلله الله شكراً ورزقا حسناً فهو عنصر الخير ومادة المجبى وفى المدينة دور نبهة، وبنى أصيلة، والله تعالى ولى من اشتملت ليه بقدرته . وفيها أقول:

بالحسن من مكناسة الزيتون قد صح عذر الناظر المفتون

(١) نفاضة الجراب - ص ٣٧٢.

(٢) نفاضة الجراب - ص ٣٧٢.

فضل الهواء وصحة الماء الذى
 سحت عليها كل عين ثرّه
 فاحمر خدّ الورد بين أباطح
 ولقد كفاها شاهدا مهما ادعت
 جبل تضاحكت البروق بجوّه
 وكأنما هو بربرى وافد^(١)
 حيت من بلد خصيب أرضه
 وضفت عليك^(٢) من الإله عناية
 انتهى .

يجرى بها وسلامة المخزون
 للمزن هامية الغمام هتون
 وافترّ ثغر الزهر فوق غصون
 قصب السياق القرب من زرهون
 فبكت عذاب عيونه بعيون
 فى لوحه والتين والزيتون
 مثنوى أمان أو مناخ أمون
 تكسوك ثوبى أمنة وسكون^(٣)

ما قصدنا نقله من نفاضة الجراب، ولم أكن وقفت عليها حين ابتدأت هذا
 المجموع فلذلك اقتصرت فى صدره على الخمسة الأبيات التى علقته بحفظى من
 هذه القصيدة .

وقال فى «ريحانة الكتاب . ونجعة المتاب» : مكناسة مدينة أصيلة، وشعب
 للمحاسن وفصيلة . فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها،
 فجانبها مريع، وخيرها سريع، ووضعها له فى فقه الفضائل تفريع، عدل فيها
 الزمان، وانسدل الأمان، وفاقت الفواكه فواكهها، ولا سيما الرمان، وحفظ أقواتها
 الاختزان، ولطفت فيها الأواني والكيزان، ودنا من الحضرة جوارها، فكثرت قصاها
 من الوزراء وزوارها، وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والبهاء، والمقاصير
 والأبهاء . انتهى . من خطه .

(١) كذا نفاضة الجراب والروض الهتون . وفى المطبوع : «نافذ» .

(٢) فى نفاضة الجراب : «وضعت إليك» ، وما هنا فى الموضعين رواية : «الروض الهتون» .

(٣) الخبر والأبيات فى الروض الهتون - ص ١٢٨ ، ونفاضة الجراب - ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

قلت: «نفاضة الجراب. فى علالة الاغتراب. بمن بقى من الأصحاب» هى فى أربعة أسفار.

«وريحانة الكتاب. ونجعة المتتاب. فى الرسائل والمكاتبات» فى جزء ضخمة وهى مما ضمته مكتبتنا، وقد وهم من قال إنها فى ثمانية أسفار، وما نقله ابن غازى عنها مثله باللفظ لابن الخطيب أيضا فى «معيّار الاختيار، فى ذكر المعاهد والديار»، ومراد ابن الخطيب بالحضرة فاس، كما نبه فى «نفع الطيب» قائلا: ويعنى بالحضرة مدينة فاس المحروسة، لأنها إذ ذاك كرسى الخلافة ومكناسة مقر الوزارة، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التى فيها كرسى الخلافة بالحضرة^(١) هـ.

وأبو عبد الله بن الخطيب هو الإمام القدوة الهمام، بغية الأمل، العالم الأديب الكامل، الفقيه الأکتب المتحلى بأجمل الشمائل، الحافظ المتقن، المدرس المتقن، ذو الوزارتين، لسان الدنيا والدين، وفخر الإسلام بالأندلس فى عصره أبو عبد الله محمد بن الفقيه الرئيس عبد الله بن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولى الله سعيد بن على بن أحمد السلمانى القرشى القرطبى الأصل ثم الطليطلى ثم اللوشى ثم الغرناطى المالکى المذهب. يعرف ببيتهم قديما ببنى الوزير، وحديثا بلوشة ببنى الخطيب، ولد فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث عشر وسبعمائة، وقرأ القرآن أولا على أبى عبد الله بن عبد المولى العواد، ثم على أستاذ الجماعة أبى الحسن القيحاوى، وقرأ العربية والفقه والتفسير على العلامة أبى عبد الله البيرى، وقرأ على الخطيب ابن جزى، وعلى قاضى الجماعة أبى عبد الله بن بكر، وتأدب على الرئيس ابن الجياب، وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن أبى زكريا بن هذيل، وقرأ على العلامة أبى القاسم محمد بن أحمد السبتي قاضى الجماعة بقرناطة المتوفى سنة إحدى

(١) نفع الطيب ٦/٢١٣.

وستين وسبعمائة، وعلى العلامة شمس الدين أبى عبد الله محمد بن جابر المتوفى سنة سبعمائة وتسع وسبعين، وعلى العلامة محمد ابن محمد بن أحمد القرشى المقرئ قاضى القضاة بفاس وغيرها من العلماء الأعلام.

وأخذ عنه أفاضل الفطاحل من قادة العلم كابن المهنى، والوزير ابن زمرك، وأبى عبد الله الشريشى، وأحمد بن سليمان بن فركون، وأبى محمد بن عطية وغيرهم.

وترجمته أفردت بالتأليف، توفى شهيدا بفاس سنة ست وسبعين وسبعمائة ودفن خارج باب الشريعة المعروف اليوم باب محروق، وضريحه الآن عليه حوش صغير بمقابلة من روضة سيدى عبد النور، يفصل بينهما الطريق الممرور عليها لظهر الخميس.

والزاويتان اللتان وصفهما ابن الخطيب فى كلامه المتقدم، هما: الزاوية القورجية، وزاوية باب المشاورين، والمدارس الثلاث، هى: مدرسة الشهود، والمدرسة الجديدة، وهى المعروفة اليوم بالبوعنانية، ومدرسة سباط العدول الآن، والقصبة هى: المرينية وقد بينا فيما سبق ما يتعلق بذلك كله.

وفى وصف هذه البلدة أيضاً يقول قاضى الدولة الإسماعيلية بها العلامة المبرز سيدى أبو مدين السوسى فى كتاب رفعه لمولانا إسماعيل: هذه الحضرة المشرفة بعناية مولانا إذ جعلها من ثماره. واصطفها لقربه وجواره. وشنفها من بديع الفراديس ورفيع القباب، بما لو رآه الإسكندر لاعتترف بأنه العجب العجائب، قد حليت من المحاسن بمتهاها، وأسعدها الإسعاف بنيل أرفع مشتهاها، والعلوم قد تدفقت بها أنهارها، وتفتقت على أرج التحصيل أزهارها هـ.

وقد أكثر الشعراء والكتاب قديما وحديثا من وصف هذه المدينة التى كل بلد من محاسنها مدينة، وذكر شرفها الأصيل، والتفنن فى نشر ذلك فى قوالب

الإجمال والتفصيل، فمن ذلك قول العلامة الذى لا يحتاج إلى التمييز بعلامة
سيدى محمد بن أحمد المساوى:

كذب الذين ترفعت فى زعمهم فاس على مكناسة الزيتون
وأصاب من جعلت له مكناسة دار الإمارة والعلا والدين
بأبى العمائر عمرت أرجاؤها وترنمت أطيارها فى الحين
وقول علامتها وقاضيتها أبى القاسم بن سعيد العميرى مذيلا لهذه الأبيات،
ومعددا ما أحرزته من فاخر محاسن الصفات:

خطت قصيبتها بأسعد طالع فاخص فيها الملك بالتمكين
وبمشتها ما تشهى للعين والسلوان فى وسلين
وبباب جمال يفوق جمالها مرأى دمشق ومرأى قنشرين
نشرت عليها محاسنا ورزيفة بالروح والريحان والنسرين
وقوله من قصيدة تنيف على عشرين بيتا:

أمكناسة الزيتون يا خير بلدة حدائقها تزهو على الحدق النجل
وما القول فيمن حال حال وصاله فلا جعل الله الموانع فى حل
إذا لاح نحو الغرب برق هوت به دواعى الجوى بعد العلو إلى السفلى
وإن هبت الأرواح رق وراق من يسهل من أمره ما ليس بالسهل
وإن غنت الورقاء بالأيك روعت فؤادا دعاه الشوق بالجد والهزل

وقول الشريف المنيف المولى محمد الغالى بن محمد الحسنى الإدريسي
العمرائى اللجائى فى كتابه «دوحة المجد والتمكين» فى وزارة بنى العشرين

ومكناسة دار علم، وادراك وفهم، كانبها علماء فضلاء، وأئمة نبلاء فقهاء، وبدور
سافرة، لا تريد إلا الدار الآخرة. انتهى.

وقول بعض شعراء الدولة الإسماعيلية وظرفاء أدبائها:

أمكناسة إنى لرؤياك آمل	وإن عاقنى شغل من الدهر شاغل
فأنت التى حزت المفاخر كلها	ومنك تنشت فى البلاد الفضائل
إذا افتخرت مراكش ببديعها	ففى القبة الخضرا تضيق الأقاويل
وإن ذكرت مصر بجامع أزهر	ففى الجامع الخضرا بدور كوامل
لك الفخر يا مكناسة قد حويته	كأنك بحر والبلاد جداول

وقول العلامة الأديب الماهر أبى العباس أحمد بن على بن أحمد مصباح من

قصيدة طنانة يمدح بها سيدنا الجد مولانا إسماعيل:

لئن مسها الأعياء أو شفها الظما	فمكناسة راحتها وارتواؤها
بلاد هى الدنيا بأجمعها التى	أضاء على كل البلاد ضياؤها
فجتها الزوراء والزهر أهلها	وأربعها الزهرا ودجلة ماؤها
إذا ما رأت أعلامها نفس مدنف	معنى تداعى للرحيل عناؤها
وقصر على أفنائها وقصورها	مزايا جسام ليس يخشى فناؤها
فتانوتها مثل السما وقبابها	بدور أمير المؤمنين سناؤها

وقول الأديب سيدى إدريس بن أحمد الوكيلى كما بكناشة العلامة المفتى

سيدى بو بكر بن عبد الرحمن المنجرة ومن خطه نقلت:

مكناسة دار علم وبالسورور بغيه
تاج الملوك حباها لها بذاك مزيه
وأهلها خير قوم لهم عهد وفيه

وقول الفقيه الأديب العلامة العدل المدرس سيدى التهامى بن الطيب آمغار
رحمه الله تعالى :

لله ما أبهى عمائر الحمى معالم الأنس، مطالع المنى
معاهدا ما برحت محفوفة بظل أمن من فراديس الهنا
قلبي إليها قد صبا كيف وهى أول أرض مسنى منها الثرا
مكناسة قطب البلاد كلها وشمسها التى إليها المتهى
أعظم بها من حضرة عم الورى مددها ونفعها طول المدا
فيا لها من بلد يجلو الصدى عن القلوب الماء منها والهوى
أبو العمائر سقاها سلسلا عذبا معينا سالما من القذى
وطود زرهون بقربها زها على الجبال كلها وقد سما
فكل من أبصر معنى لفظها يود لو أنه فيها قد ثوى
لا تسمعن قول جحود لم يجد إلى سماء مجدها من مرتقى
ودت بقاع الأرض طراً أن ترى ما خصصت من السناء والسنا
أشرقت الدنيا بها إذ أهدت بها قصور وسط روض مشتها
ما أعين رأت ولا قد سمعت أذن ولا خطر قط بحشا
رفع سمكها شريف مصطفى من آل أفضل العباد المصطفى

مشرفة على حمى حمرية
تالله ما أبصر طرف مثلها
يكاد ريتها يضيئ في الدجى
صفوفها جند لحاضرتها
محتميا بعلمي ورزيفة
تأمل فى أبى السلو إذ جرى
كسا الرياض حللا من سندس
حلى السواعد سوارى ذهب
يغشى عيون الناظرين نورها
بالبنفسج زها بزرقة
فانتصر الورد له لمرحم
وصعد النرجس فيه طرفه
فطأطأ الرأس صفارا واثنى
شان من طغى تجبرا
وأظهر الخيرى خيرا فى الضحى
مختفيا من الرقيب فى الدجى
حروف خط فوق طرس أخضر
أصل زكا فرع زها زهر ذكا
تنارع الأذن العيون غبطة
جنتها الدنيا التى قد زخرفت

ذات المعانى والخلى والحلا
فى الكون طرا قط منذ قد نشا
من قبل أن يمسه جمر الغضا
يحرسها من بنى ومن طغا
ذات السرور والخبور والهنا
مسبحا لله فى در الحصا
فسجدت لله شكرا للحبا
والساق خلخالى بلجين قد صفا
من كل لون مشرق يذكى الحجا
على يواقيت الشقيق وازدهى
فسليا لسانه من القفا
أطراق كرا إن النعام فى القرى
وأظهر الخجلة سنه واستحا
لا بد أن ينبذ يوما بالعرا
وهو يشرق إذا الليل سجا
وشانه النمام خبرا ففشا
مرصع جاءت لمعنى معتما
نهر سلا روح جلا ظل ضفا
فيها إذا سجا الحمام أو شدا
لمن أقر نفسه على الهوى

هوى لكن محجوبة فى خدرها
أطرق طرف الشمس منها خجلا
فكم رشفنا ثغرها بمحضر
وكم أدارت كأس أنس فى الدجا
وسبحت كأس ببحر من طلا
أم الكنوز قد حوى مالکها
أم العشير حولها تفخر فى
وما رعت ذمام قصر مَرَض^(١)
بل رغبت عنهم عساها أن ترى
لله ما أبهى محياه الذى
يحن شوقًا لجنان العافية
وما استوى إلى مياه ملك
محل أنس الغانيات فى الضحى
فالنور منه شاخص كمقلة
يهوى شباب الشمس غضا ناضرا
ويحه أحرق حشاه حبها
كأن أرضه سماء قد بدلت
وحوله الرياض قدما قد محت
أين البروج والحصون حولها

(١) فى المطبوع: «مرضن».

(٢) كذا فى المطبوع.

تحن للعشاق أرباب النهى
وربما غاب بسحب كالدمى
من خلها الذى إليه تنتما
حتى بدا وجه الصباح وانجلا
ملتطم برشف ريق قد شفا
من الكنوز الفاخرات ما حوا
حللها على بنى موسى الرضى
ولا ذمام قصر^(٢) يكدر السها
وجه العروس كى تفوز بالنى
جماله فى كل عين قد حلا
شغفه الوهاد منه والربا
فباب ريح اليمن منتهى الحمى
ومربع الظبا ومرتع المها
من ذهب إنسانها مسك ذكا
دابا ويذيل إذا الشبيب عرا
فصار أحوى من تباريح الجوى
نجومها مشرقة وقت الضحى
رسومه أيدى الزمان فائمحي
والمسجد الأسمى السنى المبتنا

أودى بها الدهر الدهيار إن فى
فيالها من آية دلت على
لا تعجب ما دمت حيا يا فتى
ما أبرزت إلا حقيق نعتها
ما زال يوم الأربعاء يذكرنى
على أنى فى رتبة تسمو السها
أحرر النقل بذهن ثاقب
فأحكم الدرس بقول رائق
أطواراً أطرب لحل مشكل
مشمرا عن ساعد الجد وقد
ممتطيا ذرى المعالى دائما
موفقا بالله مهديا به
فقل لمن رام لحاق رتبتي
وهل ينال المجد يوما من ونى
بل ذاك محض فضل ربنا الذى
ظنوا بأنى قلق وما دروا
والحر يستف الثرى ولا يرى
همته بالله لا بغيره
ومن تمام فضله عليه أن
أحمده حمدا يوافي ما حبا
اهـ. كما وجد.

ذاك لآية لأرباب النهى
أن ليس يبقى غير من له البقا
من كدر الدهر إذا هو سطا
لكن على غير منعوتها جرى
وحال هذه المغانى فى الصبا
أحبر فى روض العلوم والعلا
ليلا وعند الصبح يحمد السرى
يملى على كل ضمير ما نوى
وربما أنصب مما قد زوا
ساعدنا الجد بكل مبتغى
وقصد من شيمته العلو العلا
مؤيدا بنصره كما أشا
شتان ما بين الثريا والثرا
أم هل ينال الرشيد يوما من غفا
أعطى العبد كل شىء فهدى
أنى امرؤ عن موقف الذل نأى
عليه فضل أحد من الورى
بالله أخذه وبالله العطا
منع ما أطفى وأعطى ما كفى
غير أن لا أحصى عليه من ثنا

وقول بعض نبغاء الشجر التطواني متوجا أوائل الصدور بما لفظه «مكناسة

حسنة»:

مكناسة الزيتون فردوس الدنا	تزهو بهجتها على الزوراء
كلفت بها النجم المنيرة فانشئت	سكرى بها تدنو إلى البطحاء
نور الغزالة مستمد جمالها	حسباؤها در ترى للرائى
أبناؤها أهل الذكاء سجية	أهل السخا يسدون للغرباء
سيما التمدن فى جباههم فهم	بين الورى كالشاسة البيضاء
تختال من رقص البلاغة السن	لهم كمييس الغادة العذراء
حزت الفضائل والتقدم للعلا	مكناسة والطيب فى الأهواء
سادت طرائقك الفسيحة غيرها	نسخت بحسن آية الأقداء
نالت عذوبة كوثر أودية	تختال فخرا من لجين الماء
الله يعلم أننى أحببتها	أو ما تراها مسكن النبلاء
أهل بهم سعد الزمان وأخضبت	أهل السخا بالبلدة الغراء

وقول صديقنا المؤرخ الأشهر أبى عبد الله محمد بو جندار الرباطى دام

إسعاده:

مكناسة عهدى بها مرفوعة	فلايما نصبت على التميز
فتأرجت وتبرجت وتبرزت	مثل العرائس ساعة التبريز
وكفأك أن رياضها وحياضها	تنسيك فى «فرساي» من باريز
هاتيك إسماعيل أبدع صنعها	ولهذه آثار صنع «لويز»

وكلاهما بلد عليه حلة
وعلى قصورهما المحاسن أصبحت
من لى بزورة تلك أو هذى فهل
لا خيب الله الرجا حتى أرى
وقوله:

مكناس ليست لو ترى حجراتها
بلد بها يأتى إلى المضنى الشفا
طاب الهواء مع الهوى فى حيها
إن جثتها تسقى بأكواب وكأ
فكأنما هى جنة الرضوان طا
سافر إليها عاجلا أو آجلا
وإذا لمحت معاهدا قد أومضت
حى ابن زيدان الرضا والأحمدي

فى غاية الإبداع والتطريز
مقصورة كتقاصير الإبريز
حكم القضاء أتى على التجويز
وعد الزمان اليوم فى تنجيز

إلا كناسا للظبا ومهاتها
يا حسرة المضنى إذا لم يأتها
والماء كالصهباء فى كاساتها
س من معين فى أكف سقاتها
ف الحور والولدان فى عرصاتها
واغنم بها السراء قبل فواتها
ومضت بها اللذات فى أوقاتها
ن الناظر الأسمى وخير قضاتها

وقول الأديب الماهر الفقيه السيد إبراهيم بن أحمد السلوى العدل الأول
بنظارة الأحباس بالدار البيضاء:

إن مكناس بلدة خصها الله
بلدة للمحاسن الغر أمست
بلد طيب ومرعى فسيح
فيها الاطمئنان ألقى عصاه
به برحب الفنا وطيب النسيم
مركزا يتديه كل كريم
خصب معشب بصنع الحكيم
وازدهت فى معارف وعلوم

وبها كانت الفطاحل من ك
وبها الدولة العظيمة كانت
كان فيها إذ ذاك وقع عظيم
إلى أن قال:

وبمكناس كم مآثر تتلى
وكفى نهرها الذى حل منها
ما لغمدان ما لبغداد معنى
ذاك باب المنصور يشهد بالعج
واستجدت بهمة المتولي
والى الآن لم تزل فى ترق

وقول نابغة الشرق وناطورة الأدب الشيخ رشيد مصوبع اللبناي:

فى المغرب الأقصى رأيت مدينة
مكناس هاتيك الديار فحيها
لم يحك رقتها سوى ماء بها
وقول صاحبنا الفقيه الأديب الناظم النثر السيد محمد بن الحاج السلمى
الفاسي:

على مكناسة الزيتون سور
هى الدنيا جمالا وافتخارا
يقول لساكنيها لا تخافوا
وإني فى حياطينها لقاف
وقوله على لسانها:

يمثلنى ذو اللب أول ما يرى
فيخشى من التمثيل ما ليس يخشى
فصينت دماء القوم والمال كله
ولم لا وغصن الحسن منى أعاده
بمولاى إسماعيل كنت وحيدة
فلا زال رضوان من الله عاطفا
وقوله:

بمكناسة الزيتون من ملح الحسن
لها الشرف الذاتى وفى الغير عارض
فمن شام دور الحى منها وقد سمت

حصونى بجيش للحروب عرمرم
من المرهف البتار وهو مصرم
وأصبح شمل البنى وهو مهشم
جلال ملوك الغرب ذاك المقدم
وكل بحسن الوضيع منى مغرم
على رسمه والشأن منى معظم

معان بها تعلو على كل ذى زين
إذا ما أعارت بعض ما لاح للعين
تخيل أزهارا منوعة اللون

وقول محبنا الفقيه العدل السيد عبد القادر العلمى المكناسى شهر بالعرائشى:

يا ناظرا مكناسة الزيتون
نزّه لحاظك فى أجنتها التى
وانظر إلى أسوارها وبروجها
فكأنها ملك بدا فى عرشه
أو أنها عذراء حسن أحرست
أحسن بها من بلدة فمياها
يكفيك فيها شرحها بهوائها
ولحسن منظرها البديع أنشدت

ذات البها والحسن والتحسين
تحبى فؤاد العاشق المحزون
قد أسست للفخر والتحصين
ليرى دفاع الهاجم المفتون
بجبالها عن ناظر بعيون
قد أجريت من كوثر ومعين
صدرا لمكلم الحشا بعيون
(يا ناظرا مكناسة الزيتون)

وقول صاحبنا الأديب الفقيه القاضي السيد محمد الشنكيطي البيضاوي :

لله لله ما أبهاك مكناس	أرض هي الأرض بن ناس هم الناس
بها القصور وأسوار مشيدة	كالراسيات وأبراج وأقواس
تجسم الفخر في تلك المعازل والـ	جلال والعزم والسلطان والباس
وماؤها السلسيل العذب باكره	ريح هو المسك أنفاس فأنفاس
يكفي مدينتها أن الكبير بها	يضيء من علمه الفياض مقباس
إلى روائح من أخلاقه عبقت	ما الرند منها وما الريحان والآس

وقول صديقنا العلامة المشارك المتضلع السيد أحمد بن العياشي سكيرج من

قطعة :

فما مكناسة الزيتون إلا	جنان الخلد أو دار السلام
هي الدنيا بها قد حاط قاف	لها من كل ما يحتاط حام
فمن فيها يحل ينال أمانا	به يحظى بحفظ مستدام
وفيهما وسادة فقهاء فاقوا	سواهم في جلال واحترام

وقوله :

عرج على مكناسة الزيتون	فيها حلول الطالع الميمون
بلد تريك ضخامة الملك العلى	وتريك ما هو قرة لعيون
بلد بها ماء الحياة جرى وقد	طاب الهوى فيها غير الدون
لله من بلد تحلى أهلها	بإقامة المفروض والمسنون
ولهم من الآداب ما يسبى النهى	مع حسن أخلاق برفع شئون

فعلیهم أذکی السلام یعمهم
وقوله:

سكنت فی مکناس
حتى تكون مفاخرا
بلد بها تحیا النفوس
ما دمت لم تسكن بها
وقوله:

مکنس الغزلان مکناس وهل
بلد فاقت بمن حل بها
وقوله:

هذه مکناس یا قوم بدت
بلدة طابت وطابت ناسها
وقوله:

خلیل فسر بی^(١) بین سربى لمکناس
لقد زرتها أرمان كان مساعدى
فشاهدت أرضا لا نظیر لها ولا
وقد زادنى فیها ابن زیدان غبطة
فَسِرِّبِى کى تدوم مسرتى

بالطیب من صب بهم مفتون

فعرفت خیر الناس
أولى النداء والبأس
بطیب الأنفاس
لم تحظ بالإیناس

مثل مکناس یرى فی المغرب
وبماء وهواء طیب

هل رأیتم حسنھا یسبى النهى
وبها الأنفس قرت عینھا

ففیها تطیب النفس من بین أنفاس
زمانى بناس كنت أعتادهم ناسى
نظیر لمن فیها لدى الجود والباس
بها وبه قد تم فی الناس إیناسى
فإن لم تَسِرْ بالرجل سرت على الرأس

(١) فی المطبوع: «خلیل سربى» وهو غیر صحیح عروضیا، والأبیات من بحر الطویل.

وقول الأديب أبي على حسون بن على بن عمر القسطيني المعروف بابن
الفكون في قصيدة له في رحلته من قسطنطينة إلى مراكش كتب بها إلى أبي البدر
ابن مردانish وهو بقسطنطينة عدد فيها البلادات التي دخل فيها مطلعها:

ألا قل للسرى بن السرى أبي البدر الجواد الأريحي

إلى أن قال: فيها:

وما مكناسة إلا كناس لا حوى الطرف ذى حسن سنى

وقول الوزير السيد الشرقى الإسحاقى فى رحلته: تذاكرنا الغرب يوما ونحن
بمصر فذكرنا مطمح النفس، ومحل الأنس، مكناسة الزيتون وما بها من المعاهد
التي استفتى القلب فيها نفسه وإن أفتاه المفتون، ففتت الشوق مناكل كبد، وبرح
كل منا بما يجد، فأنشدنى صاحبنا الفقيه الأديب السيد بلقاسم بن الفقيه العلامة
السيد سعيد العميرى لنفسه ما أنشده أيام نزوحه عن الحضرة المذكورة وجلالته عنها
أيام الحادث الجارف، الذى استدعى التالد والطارف، بناحية جبل غمارة:

يا للوى لعمارة شئمتها بغمارة

أرابنى اليوم أمر كنت امتطيت غماره

إلى أن قال:

وكيف لى وبكره خلى الحبيب وداره

فليس ييغى سواها مأوى ولو كان داره

وقول حبيبنا الفقيه الكاتب الشاعر المطبوع الشهير السيد الحاج عبد الله
القباچ مشطرا للقطعة الشنجيطية المارة:

لله لله ما أبهاك مكناس خصب ورخص وأغراس وأعراس

مكناس ما نظرت عيني نظيرتها
بها القصور وأسوار مشيدة
وبين ساحتها الآثار ثابتة
تجسم المجد في تلك المعازل
والمجد فيها مقيم والمهابة
وماؤها السلسيل العذب باكره
ما مر منها امرؤ إلا ومر به
يكفى مدينتها أن الكبير بها
والأبلج الفرد من لو في الظلام سرى
إلى روائح من أخلاقه عبقت
كانها من جنان الخلد قد هبطت

أرض هي الأرض بل ناس هم الناس
شتى وفيها من الإفضال أجناس
كالراسيات وأبراج وأقواس
والفخار والعز قلب والعلا راس
والجلال والعزم والسلطان والباس
ريح الصبا وهواه الخمر والكاس
ريح هو المسك أنفاس فأنفاس
هو الإمام الذي تدسبو له فاس
يضىء من علمه الفياض مقباس
فوق القياس وللأخلاق مقياس
ما الرند منها وما الريحان والآس

وقول المشطر المذكور لا زال يشنف الأسماع بخرائده، ويحلى النحور
بفرائده:

بمكناسة الزيتون أهل معالى
بلاد هواها لا يقاس به هوى
بلاد هي السلوان للنفس والمنى
بلاد ويكفيك اسمها عن صفاتها
بلاد فما في الغرب من جنة ترى
بلاد بها الجنات والخور غيدها

وأهل عوالى بل وأهل علالى
بلاد حباها الله خير زلال
وليس بها هم وغم كلال
كساها جمال الدهر ثوب جلال
سواها وما فيما ذكرت تغال
وفيها من الولدان كل غزال

بلاد ولكن من هوى كل مهجة
بلاد لروح المرء روح وراحة
بلاد متى تقبل بهمك نحوها
بلاد تنسى من آتاها بربعه
بلاد هي الدنيا فخذها غنيمة
بلاد إذا أسقطت من أحرف اسمها
يعود كناسا والكناس مخصص
بلاد بإسماعيل تزهو وتزدهي
بأنحائها آثاره وفخاره
وفي قلبها من نسله خير زمرة
ومزوارهم في عصرنا وكبيرهم
حلال مغناها وجحجاح أهلها
سلالة ريدان الشهير بفضله
وإن أبا زيد لأكرم سيد
شريف عفيف عالم متواضع
ويحر من الآداب عذب مذاقه
له خلق كالزهر باكره الندى
فلا زال للعلم المقدس خادما
ولا زال للتاريخ كوكب أفقه
انتهى .

أقيمت بلا ريب ودون جدال
وللجسم طب من أضر عضال
دخلت وحد الهم باب جمال
وما غيرها ينسبه فيه بحال
لنفسك دارا لم تسم بملال
وأوله حرفا ورمت سؤال
لسكنى الطبا والريم بين جبال
على كل مصر قد زها بظلال
وللملك والسلطان خير مثال
ومن آله الأطهار أفضل آل
أبو زيد الغطريف راحة بال
وأورعها مصباحها المتلالي
قديما وأهل الفضل أهل نوال
بكناسة فاعلم وثق بمقالي
وتاج فخار بل وسيف نضال
خضم وبحر العلم كنز لآلي
ووجه منير فيه ألف هلال
ولازال للتحقيق فيه موالى
ولازال للآداب بدر كمال

قاله وكتبه في ثاني عشري ربيع الثاني عام أربعة وأربعين وثلاثمائة وألف،
ودودكم عبد الله القباچ وفقه الله . انتهى . من خطه .

وقول ابن عمنا الفقيه الأديب العدل مولاي الحسن بن النقيب الأبر البركة
سيدي محمد بن العباس العلوي النُّجَّار، الفاسي النشأة والدار والقرار:

إذا افتخرت فاس بطيب معانيها	ولطف أهاليها ورقراق واديها
ومراكش الحمرا بطلع نخيلها	وحسن سجايا أهلها وأغانيها
وثغر رباط الفتح بالأدب الذي	غدا مفرق العليا يصول به تيهها
فمكناسة الزيتون فاقت بتربة	وطيب هواء وابتهاج مبانيها
فما مثلها الزهراء في حسن منظر	ولم لا وسبط المصطفى هو بانيها
إمام همام ساعد السعد سعيه	فكانت شمس الفضل مشرقة فيها

وقول صفينا الشريف الأديب سيد محمد فتحا بن يحيى الاسقلي:

مكناسة ما لها في الحسن من ثاني	تسبي عقول ذوي العرفان والشان
وأهلها حسن أخلاق لهم جملة	نسيت من لطفهم أهلي وأوطاني
هواؤها عز أن يلفى له شبه	به الدواء لمكروب وللعياني
وماؤها السلسبيل العذب منهله	يشفي السقيم به من كل أحزان
هي العروس التي تجلي لمغربنا	بين البلاد بحسن ثم إحسان
فاقت برفعتها كل البلاد ولا	يلفي شبيه لها قاص ولا داني

وقول محبوبنا الأديب المفضل مراقب أحباس حضرتنا المكناسية سابقا
وخليفة عامل فاس على فاس الجديد حينه السيد الحاج محمد بو عشرين .

يا رائدا للفخر والإيناس	عرج لنيل المجد في مكناس
بلد حباه الله كل مزية	وحماء من زيغ ومن أدناس
وكساه من ثوب الجمال أرقه	ووقاه من شر ومن وسواس
فغدا بوجه القطر شامة خده	وبجيده عقد من الألباس
تسمو معالمه بأقدس مشهد	وبخير أرض أخرجت للناس
ونزاهة الأخلاق في نفس العلا	وصيانة الأعمال في الأحباس

وقول مالك أرملة الشعر الأديب الماهر السيد محمد بن المفضل غريظ من

قصيدة:

يا نجل زيدان يا أندى الكرام يدا	يا من أضاءت به أرجاء مكناس
مدينة من شكا ضيقا بمهجته	ففي ترامسها لسقمه آس
كان بركتها وجه سوائفه	ما يبهج العين من أغصان أغراس
يا حسنها إن حكمت شمس الأصيل بها	مخلص التبر محلولا بقرطاس
تنال في حورها أفكار رائرها	ما لا تناله بالأوتار والكاس
هوى يتيم من رقت طبيعته	بلي يلين طبع النافر القاسي
تلك الديار التي جلت ضخامتها	فاستوجبت مدحها من جلة الناس
وأدعت من صنيع الملك ما وسمت	بالعجز عن مثله ملوك أحناس
ينبي بما كان للمجد المقدس من	ملك عظيم جليل الفخر والباس
يستوقف الفكر حتى لا يجيء له	من كل أبنية الدنيا بقياس

وقوله من قصيدة:

فلعله يجد السبيل لحضرة	تسمو بنصرتها على «غمدان»
بلد تصادق ماؤها وهواؤها	كتصادق الأرواح والأبدان
مغني القصور الشم والدور التي	لم تلف في «شام» ولا «بغدان»
مكناسة إحدى الشهود لمالك	بعظيم منقبة ورفعة شان
مجلى مآثر من تجول صيته	في سائر الأقطار والأوطان
إلى أن قال:	

بلد لها آوت أصولي عندما	غمر «الجزيرة» وابل «الإصبان»
فتبوءوا دارا يعز قطينها	وتفيثوا في نعمة وأمان
وتسئموا في دولة علوية	رُبّا تُناهضُ رتبة «السلماني»
وتشرفوا بمراسم مرعية	لم يخترم أحكامها الملوان
بلد تكامل حسنها بفريدة الـ	عقد الذي يغلو عن الأثمان
وقوله:	

أهل الصفا والود من مكناسة	الزيتون ذات البشر والسلوان
وقوله:	

بمكناس غنمت صفاء وقت	وأنسا ما رأيت به في سواها
فإن أكثر ذكرها فلإني	شغفت بها وتيمني هواها

وقول الفقيه الكاتب السيد محمد بن داني من قصيدة طنانة أنانة:

لمكناس على البلدان فخر	عميم والفخار لها قديم
------------------------	-----------------------

وقول صديقنا الحميم العلامة سيدي المدني بن الحسيني الرباطي :

لله مكناس في حسن وإحسان	يرنو لها كل إنسان بإنسان
حديقة تدع الأحداق محدقة	بمنظر يزدرى بـ«ثعب بوان»
بها يصح ضعيف الجسم من علل	يرتد من حسننها صحيح أبدان
لقد تجلت محاسن البديع بها	على منصّة ديوان وإيوان
فمن مناخ بها صارت نسائمه	بين الأمائل من أمثال ميداني
ومن روايي إذا اقتعدت صهوتها	تري القصي كـ(زرقاء) بميدان
ومن قصور إذا رام البليغ لها	وصفا يكون القصور وصفه الداني
ومن دساكر فيها للعساكر قد	كانت مبوأة من نسل عبدان
ومن حصون كغيل السيد ما فتت	مأوى الكماة لمن يأتي بعدوان
تناطح السحب و[الأهرام] من صعد	كـ[الدردنيل] و[ارثور] ^(١) و[فردان]
وقد تجلت مفاخر الإمارة من	[أبي الفدا] فغدت تزري [بغمدان]
يفتر ثغر (أصيلا) و(العرائش) مع	[ثغر الزقاق] ^(٢) لنصر فوق تبيان
ومن مدارس زانتها قد انبجست	منها العلوم فأروت كل ظمآن
ومن مساجد للعباد مزهرة	كالكتيين ^(٣) بدت أو مثل حسان ^(٤)
ومن عيون بها للصادي مزهرة	وكل راء وقاف ما (بوفكران)

(١) في هامش المطبوع: بالروسيا.

(٢) في هامش المطبوع: طنجة.

(٣) في هامش المطبوع: بمراكش الحمراء.

(٤) في هامش المطبوع: الرباط.

ومن بساتين تحكي في منازهاها
وأخضر يانع وأبيض يقق
كأنها في جمالها وبهجتها
والورق تشدو على الأوراق من مرح
والماء يعلو وقد أبدي لنا نغما
لذاك تنشد من أقوالها مثلاً
إن البساتين (في الدنيا بلا عدد
فقد تكامل فيها الحسن واتسقت
فأذكرتنا (فروق) (٤) في مباحجها
لما استعارت محاسن الشمس غدت
إذ صار بهجتها فضلاً وكان بها
عليك مني سلام عاطر أرج
وقول حبنا ناظر مكناسة الحالي الفقيه الأديب أبي العباس أحمد الصبيحي
السلوي:

-
- (١) في هامش المطبوع: دمشق الفيحاء.
(٢) في هامش المطبوع: غابة بولينا ببارس.
(٣) في هامش المطبوع: مغني بالأندلس.
(٤) في هامش المطبوع: فروق الأستانة العثمانية.
(٥) في هامش المطبوع: مصر الفاطمية.
(٦) في هامش المطبوع: بغداد العباسية.
(٧) في هامش المطبوع: في حلب الشهباء.

عرج على مكناسة الزيتون
وأنخ مطبك حيث منطلق الهوى
حيث ٢لمياه الدافقات ترقرت
حيث البساتين الكثيفات التي
حيث الزياتين الكثيرات التي
حيث الصوامع شامخات في السما
حيث المآثر جمّة للوكنا
لا تنس منها دوره وقصوره
وأماكن الأجناد والأسرى بها
ولباب منصور تراه آية
هذا وإن بها أفاضل جلة
ناهيك بالشيخ ابن عيسى منهم
واقصد بأحياء بها رب القرى
عين البلاد أخو الوداد المرتضى
ذاك ابن زيدان النقيب ومن له
أبقاه مولاه لنشر عبيره
وقولي:

مكناسة الزيتون تيهي وافخري
بمنظر يسبي العقول جمالها

متيمنا بالتين والزيتون
يشفي الجوي والجسم بالتعين
وجرت بأودية كما بعيون
كالغاب تحسبها بلا تخمين
لا حد يدركها إلى زرهون
تقضي بكل عناية بالدين
لا سيما المفضال إسماعين
ومعامل التحصين والتحسين
ومخازن التجنيد والتموين
من أكبر الآيات في التمدين
موتي وإحياء بهذا الحين
وكذاك رب الدار للمسكين
من غير معرفة ولا تبين
العالم المخطوط في التدوين
في الخلق لطف الورد والنسرين
وسقي رياضاً حلها بهتون

حزت الشفوف على بلاد المغرب
وزلال مائك والهواء الطيب

وأريج أرجاء ولطف حدائق بك أحدثت وبديع ربيع مخصب
وفواكه كالشهد إلا أنها مسكية تزري بشجر أشنب
أعظم بما قد نلته من رونق يصبو له في الناس كل مهذب
وقد شطر قطعتنا هذه قاضي مكناسة الحالي شيخنا أبو العباس البلغيثي
حفظه الله بما لفظه :

(مكناسة الزيتون تيهي وافخري) فالتيه من ذات المحاسن يعذب
ولئن فخرت فلا غرابة حيث قد (حزت الشفوف على بلاد المغرب)
(بمنظر يسبي العقول جمالها) جمد الذي بجمالها لم يطرب
وجلال ربي قد سموت بموقع (وزلال مائك والهواء الطيب)
(وأريج أرجاء ولطف حدائق) تحكي الفرادس من بهاها الأعجب
لا غرو أن فقت البلاد بجنة (بك أحدثت وبديع ربيع مخصب)
(وفواكه كالشهد لولا أنها) فيها الشفا تغني عن المتطبب
تغني عن الصباء إلا أنها (مسكية تزري بشجر أشنب)
(أعظم بما قد نلته من رونق) هو موقف الأبصار للمتعجب
فيه لنفس الأريحي راحة (يصبو له في الناس كل مهذب)

وكذا صديقنا الأديب الماهر السيد عمر بري المدني :

(مكناسة الزيتون تيهي وافخري) بالروض فيك كناس ظبي ريرب
يكفيك أنك للجمال بأسره (حزت الشفوف على بلاد المغرب)
(بمنظر يسبي العقول جمالها) وبطرز شكل ليس يفهمه غبي

وملاعب تلهو بلب ذوي النهي (وزلال مائك والهواء الطيب)
(وأريج أرجاء ولطف حدائق) حدق الوري من حسننها لم تذهب
وزهور أنوار الربيع بما احتوت (بك أهدقت وبديع ربع مخصب)
(وفواكه كالشهد إلا أنها) تنشي كسكر وسط كأس مذهب
وتخال في استنشاق ريح أريجها (مسكية تزري بثغر أشنب)
(أعظم بما قد نلته من رونق) راقط مدائحـه لكل مؤدب
أني يغض الذوق عنه وقد غدا (يصبو له في الناس كل مهذب)

وخمس تشطير هذا بقوله :

طاب الزمان بوجه روض أخضر الورد وجنته بخد أحمر
زيتونه خال عليه عنبري (مكناسة الزيتون تيهي وافخري)

بالروض أنت كناس ظبي ربربي)

كم فيك من لحظ يصيد بسحره ويصيب شاكلة الكمي بنحره
لا حزم فيك مع المدل بمكره (يكفيك أنك للجمال بأسره)

حزت الشفوف على بلاد المغرب)

زانت بك الدنيا فتم كمالها وتحسنت في نظمها أحوالها
قد سلمت عند الوري أقوالها (بمناظر يسبي العقول جمالها)

وبطرز شكل ليس يفهمه غبي)

ما حل فيك غريب دار قد وهي ألا تفتح من لهاك له اللهي
بمنازه ما إن تقاس بمزدهي (وملاعب تلهو بلب ذوي النهي)

وزلال مائك والهواء الطيب)

أصبحت بين أزاهر وشقائق كقلائد القيان عند الرامق
وبكل نعت قد حلا للعاشق (وأريج أرجاء ولطف حدائق
حدق الورى من حسنها لم تذهب)

فيك النفوس على مقاصدها استوت من كل شرب للظما منها روت
بيلابل تنسيك (معبدا) إن روت (وزهور أنوار البديع بما احتوت
بك أهدقت وبديع ريع مخصب)

أما ثمارك إن أدلي فنها فكأنني للراح أفنتق دنها
ولديك في الأعناب ما ينهى النهى (وفواكه كالشهد إلا أنها
تنشي كخمر وسط كأس مذهب)

روح الشجي إن روعت بأجيجها وتغلغلت من حره بضجيجها
فلروحها طب لردع مهيجها (وتخال في استنشاق ريح أريجها
مسكية تزري بشجر أشنب)

حسنا نادي رفقها بترفق يا عاشقي هذي الملاعب فانتقي
نزه عيونك في البهيج المونق (أعظم بما قد نلته من رونق
راقت مدائح له لكل مؤدب)

أما النعيم فتحت ذيلي قد بدا ولشجر أنسي رشفه فقد الصدى
لا تدخر أنسا تصابحه غدا (أنى يغض الذوق عنه وقد غدا
يصبو له في الناس كل مهذب)

وشطرها أيضا صديقنا الأديب الفقيه سيدي اليميني الناصري الرباطي النشأة

والدار والقرار:

مكناسة الزيتون تيهي وافخري)	بمفاخر تزهو بفخر مغرب
جزت السماك ترفعا حتى لقد	(حزت الشفوف على بلاد المغرب)
(بمناظر يسبي العقول جمالها)	تغني النفوس عن الأنيس المطرب
طاب المقام لديك من طيب الهوي	(وزلال مائك والهواء الطيب)
(وأريج أرجاء ولطف حدائق)	ضحكت على دمع الغمام الصيب
وبأعين من نرجس حداقها	(بك أهدقت وبديع ربع مخصب)
(وفواكه كالشهد إلا أنها)	تنسيك ذوقا كل ذوق أعذب
فإذا ارتشفت أو اقتطفت وجدتها	(مسكية تزري بشجر أشنب)
(أعظم بما قد نلته من رونق)	راق يروق لكل راء معجب
قد هذبت يد الهنا حتى غدا	(يصبو له في الناس كل مهذب)

وكذا حبنا الفقيه ابن الحاج السلمي فقال:

مكناسة الزيتون تيهي وافخري)	وطئى الثريا بالجمال المعجب
أو ليس أنك فوق ما قد نلته	(حزت الشفوف على بلاد المغرب)
(بمناظر يسبي العقول جمالها)	أسلت عن الحسناء ونغمة مطرب
تصبو النفوس إلى مغانيك العلاء	(وزلال مائك والهواء الطيب)
(وأريج أرجاء ولطف حدائق)	كالهيف في حلي اللجين ومذهب
فنون ما يهوي ويعشق حسنه	(بك أهدقت وبديع ربع مخصب)

(وفواكه كالشهد إلا أنها) ساغت لأكلها كسوغ المشرب
مدت له عند التناول نفحة (مسكية تزري بشجر أشنب)
(أعظم بما قد نلته من رونق) يهدي لرائيه جميع المأرب
لازال عهدك والزمان رفيقه (يصبو له في الناس كل مهذب)
. وخمسها الشاب الأنجب الشريف الأديب المولي عبد المالك بن شيخنا
البلغشي المذكور:

مكناسة حسناء بين الأظهر تختال في ذيل البهاء الأزهر
ظهرت محاسنها بهذي الأعصر (مكناسة الزيتون تيهي وافخري
حزت الشفوف على بلاد المغرب)

بقصورك العليا العجيب جلالها وحصونك الشما العديم مثلها
فكانها الخضرا وأنت هلالها (بمناظر يسبي العقول جمالها
وزلال مائك والهواء الطيب)

عجبا لزخرفك القديم الرائق وبديع شكلك والبناء الشاهق
وأريجك الأبهى الأنيق الشائق (وأريج أرجاء ولطف حدائق
بك أهدقت وبديع ربع مخصب)

بينفسج وبنرجس ما بينها ورد يذكرك الحدود وحسنها
وعصافير بالأيك تبدي لحنها (وفواكه كالشهد إلا أنها
مسكية تزري بشجر أشنب)

قد فقت صونا كل فرد أبلق وحويت فضلا ما له من محق
وعليك ألوية الفخار تخفق أعظم بما قد نلته من رونق
يصبو له في الناس كل مهذب)

إلى غير هذا مما يطول، وليس لغايته وصول.

ثم إن ما توارد عليه هؤلاء الأدباء وغيرهم من محاسن مكناسة منظور فيه إلى الحسن الفعلى الحالي تارة وإلى الأصلي الذي عضدته آثاره أخرى، إذ لا محالة أنها كغيرها تعاورتها أطوار الزمان، وكسفت المرة بعد الأخرى بأيدي الامتحان.

وما دام في العيش خير لا بد أن يقابل كل شروق بغروب، ومن أن يتقلب فصل الربيع المحبوب، في أطوار باقي الفصول وبذلك يكمل المرغوب، وعلى ذلك نبه علامة مكناسة ومؤرخها وأديبها ابن جابر الغساني بقوله:

لا تنكرن الحسن من مكناسة فالحسن لم يبرح بها معروفاً

ولئن محت أيدي الزمان رسومها فلربما أبقت هناك حروفاً

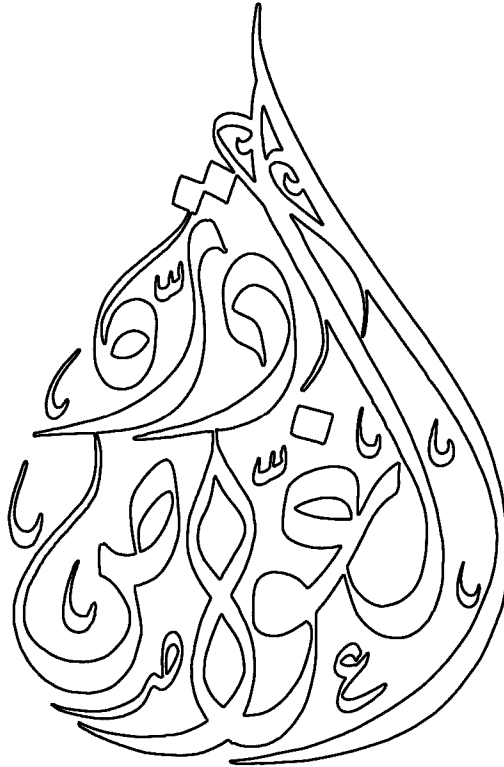
هذا وحيث أتينا ببعض ما امتازت به هذه المدينة من الفخر، وجئنا للمطالع المنصف بما يجده نعم الذخر، ومنحناء تلك المنح المزرية برقة الملح، وروينا الظماء من عذوبة أخبارها، فلا بد أن نأتي على المطلب الثالث ونحلي تاج مفرقها بذكر ما لا غني عنه من تراجم من حفظت ترجمته من علمائها وأخبارها، مشاهير الإسلام وحماته، وحفاظه وحاملي راياته، ونظم نثار أوليائها شم الأنوف، الباذلين مهجهم في عرفان من هو بالديمومة معروف، أولئك الذين رفعوا بانتصابهم لنفع العباد، وإرشاد الخليفة حاضرها والباد، مرتباً تراجمهم على ترتيب حروف المعجم غير مبال في نظمها بتقديم من تأخر، أو تأخير من تقدم، لا أهمل من الحروف غير حرف عدمت تراجمه، أو جهلت معالاه.

أذكر أولاً ما حلي به كل واحد منهم بنصه، ثم أذيله بما وقفت عليه زائداً من أحوال شخصه، وأطرز حلل أولئك الأعاضم، بذكر ما للناثر منهم إن وقفت

عليه والناظم . ملتزم التعرض لذكر من كان أصله منها، سواء استوطنها أو رحل عنها، ولمن كانت له ولاية أو إقبار بها، ولو كان من غير سربها، أو هاجر إليه لما صح عنده من عموم برها، وتعجيل خيرها، واتخذ دار استيطان فأسلته عن تذكارات الأهل والأوطان.

معتمدا في النقل على ما يتلى عليك من الكتب الذي عرفت جلاله أربابها. وأجمع العقلاء على أنهم أتوا البيوت من أبوابها. كنفح الطيب، ووفيات ابن خلكان، وتكملة الصلة للحافظ أبي بكر ابن الأبار القضاعي، وفهرسة مسند فاس أبي زكرياء السراج، وخلاصة الأثر للمحبي، ودرة الحجال، والرياض الربانية، والمنح البادية، في الأسانيد العالية، ونيل الابتهاج، وكفاية المحتاج، ونشر المثاني والرحلة العياشية، ودوحة الناشر والصفوة، وفهرسة ابن غازي، وتعريف السلف، وروض القرطاس، وابتهاج القلوب، ومرآة المحاسن، وممتع الأسماع، وابن خلدون، وسلوة الأنفاس، والإحاطة، وتحفة الزائر، ببعض مناقب سيدي أحمد بن عاشر، لابن عاشر الحافي، وجواهر السماط وتعطير البساط، بذكر تراجم قضاة الرباط، والجيش العرمم، وخمائل الورد والنسرين لأكنسوس، ودوحة المجد والتمكين لمحمد الغالي الإدريسي العمراني اللجائي، ورحلة النابلسي الكبير، وفهرسة النخلي، وفهرسة ابن سالم البصري، والسلسل العذب للحضرمي، والنبذة اليسيرة النافعة، التي هي لأستار بعض أحوال الشعبة الكتانية راجعة. لشيخنا الإمام سيدي محمد بن جعفر الكتاني، والفتح الوهبي للحاج العربي بن داود، وأداء الحق الفرض في الذي يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، لأخيना النسابة المعني مولاي عبد الحي الكتاني، وسلوك الطريق الوارية للشيخ والمريد والزاوية للإمام الزيادي، وفهرسة سيدي العربي الدمناتي وثبت الأمير الكبير، وثبت ابن الصباغ، والشجرة الشما لمولاي الزكي العلوي، وسلك

الدرلابي الفضل المرادي، وكتاب صله الصلة لأبي جعفر أحمد بن الزبير، ورحلة الإمام العبدري، والاستقصا، ورحلة ابن عثمان المكناسي، المسماة إحراز المعلى والرقيب، وبغية الوعاة، والبدور الضاوية، والدرر البهية، وفهرسة الشيخ التاودي، وفهرسة أبي القاسم الميري، وذيل السلوك وعجائب الآثار، والروض الهتون، والمعجم المختصر لشارح الإحياء، والقاموس، والإصابة، وما تلقته من مشايخي النقاد، وأخلائي الأنجاد، أو نقلته من كنانيشهم أو شاهدته بالعيان إلى غير هذا مما يطول تعداده وقد اكتفيت بذكر المواد التي لي منها الاستمداد، عن نسبة النقل في التراجم غالباً فأقول:



[المطلب الثالث]

[في تراجم السلاطين والأمراء والأعيان والعلماء]

[حرف الألف]

١ - منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن أبي حفاظ مهدي الإمام المكناسي.

حاله: فقيه نحوي، مشارك نبيل، ماجد وجيه، وقور أحد الفضلاء الرحالين. دخل الشام والعراق وأفاد واستفاد وكانت له يد في الشعر والأدب. ذكره الذهبي وأورده صاحب بغية الوعاة ونسبائه لمكناسة.

مشيخته: سمع من أبي الحسين بن زرقون وطائفة بإشبيلية.

الآخذون عنه: أخذ عنه الحافظ الديماطي وغيره.

ولادته: ولد سنة ستمائة.

وفاته: توفي بالفيوم سنة ست وستين وستمائة.

٢ - ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني.

حاله: كان عالما محققا مدرسا صالحا زاهدا ممن أوتي الولاية صبيًا، وحل من رئاسة العلم والزهد مكانا عليا، جاهد في العلم والعبادة إلى الغاية القصوي، ورعا وزهدًا وإشارًا، متابعًا على البر، متبعًا طريق السلف أحب الناس لمذاكرة العلم، كثير الرغبة في الاجتماع بأهل العلم والفضل، شديد المحبة في المذاكرة، أعلم أهل وقته بالسير وأخبار السلف والعلماء كافة من متقدم ومتأخر.

انقطع لخدمة الله تعالى فكفاه ما أهمه، له كرامات كثيرة، منها ما حدث به

١ - من مصادر ترجمته: بغية الوعاة ٤١٩/١، تاريخ الإسلام، وفيات (٦٦١-٦٧٠هـ) ص ٢١٩.

٢ - من مصادر ترجمته: كفاية المحتاج ٩٩/١، نيل الابتهاج ٤٢/١.

أصبغ، وابن حبيب دون المشهور لعذر، ثم حصل لى ألم شديد، فاعتقدت أنه عقوبة لترك المشهور، ثم زرت الشيخ وأنا متألم فقال له: مالك يا فلان؟ فقلت: ذنوبى، فقال فوراً: لا ذنوب على من قلد أصبغ وابن حبيب.

وكان ربما يرد ما يهدي له من طعام فربما يتفقد المهدي فيجـ. موجب الرد من شبهة فيه من ضجر أهل البيت أو غيره.

قال السوداني في «كفاية المحتاج» وذكر غير واحد أنه كان خارج البلد في وقت لا يدرك فيه الباب ثم يروونه في البلد، وكان يلبس جيد الكساء فقط يعري رأسه أكثر الأوقات، وكان إذا وجد نوار الربيع أمعن النظر في ألوانه وصفته فيغلبه الحال ويتواجد ويتبخر ويقول هذا خلق الله الآية.

ولد بمكناسة الزيتون وقرأ بفاس.

مشيخته: أخذ عن الإمام موسى العبدوسي، والإمام الأبلبي، وشريف العلماء أبي عبد الله التلمساني، والقاضي سعيد العقباني.

الآخذون عنه: من جملتهم أبو عبد الله بن جميل وناهيك به.

وفاته: توفي عام خمسة وثمانمائة وحضر جنازته السلطان على قدمه.

٣- ومنهم: إبراهيم بن عبد الكريم أبو إسحاق.

حاله: كان فقيها مدرسا بمكناسة الزيتون، يقرر أقوال الأئمة وكلام الناس والمختصرين، ويعلم الصبيان ويدرس المدونة.

وفاته: توفي بعد سبعة عشر وسبعمائة.

٤- ومنهم أبو إسحاق الشيخ إبراهيم بن أبي الفضل بن صواب الحجري^(١) من أهل شاطبة).

حاله: كان من أهل المعرفة بالعربية واللغة والأدب، وتجوّز البلاد معلما بها

٤ - من مصادر ترجمته: بغية الرعاة ١/٤٠٦، التكملة لابن الأبار ١/١٢٢، جذوة الاقتباس ١/٨٨، صلة الصلة ٥/ برقم ٨٤.

(١) تحرف في المطبوع إلى: «المجري» وصوابه لدى ابن الأبار الذي ينقل عنه المصنف.

تعلم الطب وقعد للعلاج بطنجة، واستقر آخر عمره بفاس في نحو ست وخمسمائة. قال ابن الأبار في «تكملة» أكثر خبره عن ابن عزير^(١) ذكره ابن عياد وفيه عن غيره.

مشيخته: روى عن أبيه، وأبي عمر بن عبد البر، وأبي الحسن بن سيدة وأبي إسحاق بن خفاجة، وله فيه مدح.

وفاته: توفي بمكناسة الزيتون وهو ابن إحدى وثمانين سنة.

٥- ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الزرهوني.

حاله: كان من صدور كتاب الدولة الرشيدية العلوية الحسنية وأجل حملة الأقلام بها، أديبا نحرياً منشئاً بليغاً وجيهاً مبجلاً، فقيهاً نبياً أريحياً مهذباً، ملحوظاً بعين الإجلال والإكبار من عظماء دولة السلطان الأفخم مولاي الرشيد بن الشريف بن علي الحسني السجلماسي.

وفاته: توفي عشية الاثنين سابع عشر شعبان عام ألف وثمانين رحمه الله.

٦- ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز الخياطي.

من ذرية الولي الأكبر سيدي عبد الله الخياط دفين جبل زَرْهُون.

حاله: فقيه جليل قدوة، ماجد بركة، نزيه عالي المكانة، ولي صالح متبرك به أورده في جواهر السماط وقال: إنه دفين داخل باب الفتوح من فاس، ولم يذكر له غير هذا.

(١) تحرف في المطبوع إلى «عزير» بالزاي المعجمة في آخره، وصوابه ندى ابن الأبار الذي ينقل عنه المصنف.

٥ - من مصادر ترجمته: الإعلام بمن غبر في موسوعة أعلام المغرب ٤ / ١٥٦.

٦ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع في موسوعة أعلام المغرب ٨ / ٢٧٨٤ وفيه «وفاته سنة ١٣٠٨هـ».

٧- ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن القائد الطبيب الأندلسي المراكشي ثم المكناسي ثم التونسي.

أحد أطباء الحضرة السلطانية الإسماعيلية.

حاله: طبيب ماهر حكيم عظيم الشأن من أجلاء الحكماء المتقين الكاملي المهارة، الملازمين لسيدنا الجد الأكبر السلطان الأعظم مولانا إسماعيل، المرجوع إليه في العضلات من الداء، وكانت مسائله كلها متقنة.

وكانت له بمكناس حانوت اتخذها ليقصده الناس للسؤال عن مسائل الطب ولاشتراء الأدوية منه، ثم انتقل إلى تونس واتخذ بها حانوتا لما ذكر وسمي نفسه هنالك محمدا الأندلسي، فغير اسمه لأمر معلوم أحوجه إلى ذلك، والضرورات تبيح المحظورات، كذا أخبر عنه تلميذه ابن شقرون الطبيب المكناسي صاحب الشقرونية المتداولة بين أيدي عامة الناس وخاصتهم، حسبما وقفت على ذلك بخط العلامة الثبت المتقن السيد محمد فتحا الخياط بن إبراهيم المشنزائي - بنون فزاي - الدكالي الأصل، من أولاد ابن إبراهيم الدكاليين بفاس، بيتهم بيت علم وصلاح ومتانة دين ورياسة وجلالة.

الآخذون عنه: أخذ عنه أبو محمد عبد القادر بن شقرون المكناسي مسائل كثيرة من الطب.

٨- أحمد الذهبي السلطان أبو العباس أحمد^(١) الذهبي بن فخر ملوك المغرب وأعظم سلاطينه سيدنا الجد مولانا إسماعيل بن الشريف الحسني العلوي.

آتي الترجمة قريبا بحول الله.

٨ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني في موسوعة أعلام المغرب ١/٥/٢٠٠١.

(١) في هامش المطبوع: قال الحافظ العسقلاني في تبصير المتنبه بتحرير المشتبه: «والمشهور أن أول من تسمى بأحمد بعد نبي الله ﷺ والد الخليل بن أحمد. لكن زعم الواقدي أنه كان لجعفر بن أبي طالب ابن اسمه أحمد. أفاد ذلك أبو بكر بن فتحون في ذيله على الاستيعاب.

حاله : كان جوادا كريما شفيقا حليما، وكل ما صدر من الشدة والقساوة وقتل الأنفس في دولته فبالإلزام من العبيد وإكراه له على فعله، وقد كان قيد حياة أبيه ساعيا فيما يرضي ظاهره، استخلفه والده بقطر تادلا وغيره حسبما أوضحنا ذلك في «المنزع اللطيف» ولم يسمع عنه ما يريب مدة تقلباته في أطوار الخلافة على والده، وسيره مبسوطه بوافر العطاء الشامل للقاصي والداني.

ولما نقل الله والده إليه - وذلك يوم السبت ثامن عشرين رجب عام تسعة وثلاثين ومائة وألف - اجتمع رأي قواد العبيد ذوي الشوكة وأبطال الودايا ورؤسائها ثم العلماء والأشراف والوزراء والكتاب وصدور الدولة على بيعة المترجم فبايعوه بالإلزام لهم من العبيد وزرعوا بيعته بذر الفوضي والعتو، وأوقدوا نيران الفتن.

وحملهم على اختيار المترجم دون باقي إخوته ما عرف به من الجود والبذل الواسع، حتى إن الأسير الإنجليزي البحري «تومابلودام» حكى في رحلته المطبوعة باللغة الإنجليزية أن العسكر فرحوا بتوليته لكونه كان يسدل لهم جم العطاء، ولم يكن والده عهد إليه كما زعم الزياني، فقد ذكر صاحب «الجيش» أن السلطان العادل مولانا سليمان كان يحكي لهم مرارا أن مولانا إسماعيل لما أيقن بالموت دعا رفيقه وعالم حضرته أبا العباس اليميني وأكد عليه في أن يشر عليه بمن يصلح للولاية على المسلمين من بعده، وكان آخر الأمر بعد الممانعة التامة قوله: يا مولانا، اعلم أنه ليس لك ولد، أولا ولد لك. فقال له السلطان صدقت والله، وودعه وخرج ولم يعهد لأحد، قال: وكان مولانا سليمان يحكي ذلك في شأن بعض أولاده، وأما قول الزياني: إن مولاي أحمد ولي العهد فليس كذلك، ومن العجب أنه قال إنه سمع هذه الحكاية من مولانا سليمان كما سمعناها منه ولا بعد فيه ثم يقول: إنه ولي العهد، مع أن مولاي أحمد رحمه الله قيل إنه كان لا ينفع نفسه لعدم صحوه فهو طافح دائما. انتهى.

ولم يعرج على العهد له في «درة السلوك وريحانة العلماء والملوك» مؤلفه

العلامة الأصيل، المفوه الجليل، مولانا عبد السلام بن السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله، ورب البيت أدري بما فيه، وأهل مكة أدري بشعابها، ولا سند ولا سلف للزياني فيما تقوله واختلقه، وإنما التقديم والتأخير إذ ذاك كان بيد العبيد حسب أغراضهم الشخصية حسبما علم بالاستقرار من أحوالهم الاستبدادية: أشاعوا أن والده عهد إليه كي لا تتشوف نفوس إخوته لمنازعة الأمر، واختلقوا له طابعا باسمه وكتبوا عدة مكاتب لسائر البقاع المغربية وطبعوها بطابعه مظهرين أن والده عهد إليه بالخلافة من بعده، وعموهين بما كان له من الخطوة والمكانة مدة خلافته لديه، وأنه لم يحفظ عنه إذ ذاك ما يندس سمعته أو ينتقد عليه، وأعدوا من شق عصا طاعته بما يلزم البغاة المحاربين، وصرحوا بكينونتهم عند أمره في الشدة والرخاء والمنشط والمكره، والحال أنهم مصرون على خلاف ذلك إن لم يكن رهين نظرهم.

ولما شاهد أهل مكناس الجحد من المترجم وأنه عزم على تدمير مدينتهم بما نصبه عليها من المدافع - حسبما ذكر ذلك الأسير تومي الإنجليزي في رحلته ونقله عنه مختصر الرحلة صحيفة ٩ - بايعوه خوفا من تدمير المدافع وصولا العبيد وقواهم على الامتثال ما سمعوا المترجم يعلن به من أنه لا يقبض من الرعية غير الزكوات والأعشار فتمت له البيعة بمكناس.

وبلغ نعي والده أهل فاس - وقد كانوا قاموا قومة شنعاء في وجه عاملهم أبي على الروسي - فاجتمع العلماء والأعيان وذوو الحل والإبرام بالضريح الإدريسي الأزهر وبايعوا المترجم وأوفدوا عليه ببيعتهم للعاصمة المكناسة جماعة مؤلفة من وجوه الأشراف والعلماء والتجار وذوي الحيشات، وقلوبهم مملوءة رعباً بما صدر منهم من الإيقاع بعاملهم المذكور ونهب أمواله، معتقدين أنه يقابلهم بما يقابل به من ارتكب ما ارتكبوه من الإجرام لا يدرون أي باب من أبواب الاعتزاز يلجون، ولما مثلوا بين يديه لم يبال بما اقترفوه ولا رفع لافتياتهم رأساً كأنه لم يكن

له أدني علم بذلك الحادث الجلل، مع أنهم قتلوا العامل وثمانين من أصحابه كما في اختصار رحلة تومي الإنجليزي. بَلْ هَشَّ، وبَشَّ، وأكرم، وعظم، وخص كل واحد على حدته بعتاء له بال، وأجري عليهم ببلادهم جرايات مشاهرة ومسانهة ورشح الفقيه السيد محمد المسكيني لقضاء فاس والطيب المريني لحسبتها ولعمالتها القائد محجوب العليج، ورجع الوفد الفاسي يرفل في حلل النشاط والانبساط بعد الخوف والقنوط، وفي اختصار رحلة تومي الإنجليزي التصريح بأن أهل فاس تأخروا عن البيعة، ولعله شيء تخرصه أو تأخر نسبي، وإلا فسياق أحواله يقتضي أنهم بادروا بالبيعة قبل غيرهم والله اعلم.

ثم وردت البيعات من سائر الأصقاع المغربية على الحضرة السلطانية وتلقي الوافدين على اختلاف طبقاتهم بكل بشاشة وطلاقة، وأحسن لكل فرد منهم على حدته، وأكرم مثواه، وأتبعه الكرامة حيث سار ورد كلا على منصبه الذي تركه فيه والده وأفاض المال ووصل سائر الرعية بصلات سنية فأحبتة القلوب واطمأنت النفوس وابتهجت وفرحت الرعية واستبشرت.

ولما رأي العبيد أن الملك لازال قائما تسوسه ساساته المهرة الذين حنكهم التجارب وأثمرت غروس الإخلاص والصدق للملك في قلوبهم ونبذهم مخازي الشهوة والأغراض الشخصية وراءهم ظهريا، طبق حال تنظيم المملكة أيام والد المترجم، أظلم الجو في أعينهم حيث حيل بينهم وبين ما يشتهون من نهب بيوت الأموال، وجعل الإمرة ألعوبة بين أيديهم وكبر ذلك عليهم، وعلموا أنه لا سبيل لتحصيلهم على أعراضهم الفاسدة ما دامت المناصب عامرة بأربابها ذوي النجدة والأفعال السديدة والآراء المصيبة والسياسة المؤسسة البنيان، على تقوي من الله ورضوان.

واتفق رأي كبرائهم على أن يوسوسوا للسلطان في أركان الملك ويختلفون لهم معايب يلصقونها بجنبهم ويدسون لهم دسائس حتى يوغروا قلب السلطان عليهم ويبالغون جهدهم وطاقتهم في إغرائه على قتلهم وتظافروا على ذلك: فصار

كل من اجتمع منهم مع السلطان يبدي له دسائس في قوالب نصائح ويقول له يا سيدي: إن ملكك لازال إلى الآن لم يتم، ولا يؤمن عليك من هؤلاء العمال والوزراء والكتاب الذين كانت بيدهم مقاليد الملك أيام والدك، فإنهم لا يرونك شيئا وأنت محجوب بهم عن الرعية، ولا بد من قيامهم عليك وتقديم غيرك من إخوتك وترشيحه للملك دونك، وكان المترجم يميل إليهم كل الميل لضعف فكرته عن السياسة، وتدبير أمر الملك والرياسة، أي ولكونه مغلوبا على أمره يخاف بأسهم ولا يري رأيا إلا رأيهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

ولما تمكنوا منه وأوغروا صدره على من بيده الحل والإبرام من ولاية أمره وأمر والده من قبله أغروه أي بعد أن أقاموا له الحجج على الفتك بأرئان السياسة الذين هم للملك عماد كأبي العباس أحمد بن علي اليازغي وكان عامل الجبال كلها سهلها ووعرها نافذ الحكم فيها، يرسل رسولا واحد في قضايا متعددة فتنفذ الأوامر كلها وفق ما أمر في أقرب الأوقات، ويأتي الرجل الواحد إليه بالمساجين العديدة من صياصي الجبل والقبائل العظيمة من غير قيد ولا يحدث أحد نفسه بالهروب لعلمه بنفوذ كلمته وطول يده في طول البلاد والعرض، وأنه لات حين مناص، وقد كان هذا العامل ناصحا للسلطان يجمع المال من وجوهه ويودعه في خزائن السلطان يبذل النصيح ولا يعرف غشا ولا خديعة، وكان السلطان مولانا إسماعيل يعرف أمانته وصدقه وينزله منزله ويقدره قدره ولا يسمع فيه مقالة طاعن.

وعلى بن يش: وكان قائد أهل الديوان وعامل البربر ورئيس العمال، وكان من ذوي الرأي والتدبير والعقل الراسخ، لا يقدر أحد من البربر أن يملك فرسا ولا مكحلة ولا يحوم حول ذلك، وبسبب ذلك صارت رؤوس الجبال البربرية الصنعة المسالك تمر فيها الاطفال وضعاف النساء في أمان واطمئنان لا يلحقهم أدني مروع ولا مشوش.

وابن الأشقر: وكان عاملا على جبل زَرْهُون، وعلى يده أعشار البوادي والخواضر من زروع ومواشي وزيت وغير ذلك، وكان عليه مدار الجيوش، وإليه مرجع أمرها ذا رأي مصيب وثبات ونصح وإخلاص وتيقظ وحزم وعزم.

وحاجبه المملوك الخصي مرجان الكبير وكان بيده دفتر الداخل والخارج لا يطلع على ذلك غيره قريب أو بعيد، وكان العارف بالعوائد الجارية في الصلات مسانهة ومشاهرة، وما يدفع للجيوش وغيرهم في الأعياد والمواسم وغيرها لا يعرف ضبط ذلك وتحقيقه غيره، وقد كان محور شئون الدولة على هؤلاء الأربعة يدور لتحقيق متبوعهم صدقهم وأمانتهم وسياستهم وكياستهم وعلمهم من أين تؤكل الكتف بعد السبر والامتحان والاختبار.

وبموت هؤلاء الأربعة اختل النظام وضربت الفوضى والاستبداد الأطناب، ووقع من العامة استخفاف عظيم بأمر المملكة واشتد النهب في الطرقات وأغلقت المسالك، ولم يأمن المسافر من الوقوع في المهالك.

وحصل أهل الزيف على غاية مناهم وكثرت الشكوي بباب السلطان والسلطان داخل قصوره ضارب صفحا عما وراء بابه لا يسمع شكوي ولا ينتصر لمظلوم من ظالم، أي لكونه أسند الأمر لرؤساء العبيد المتعصين، وذوي السلطة ومن لا ينفذ له أمر دونهم.

ومن جملة من قتلوه وصلبوه الفقيه العلامة القاضي الوزير السيد محمد بن العياشي الذي كان بيده دواوين الخراطين^(١).

(١) وكذا رواية صاحب الاستقصا ٥٨/٧ - ولديه: والخرطاني معناه في عرف أهل المغرب: العتيق، وأصله الحر الثاني كأن الحر الأصلي حرّ أول، وهذا العتيق حرّ ثان، ثم كثر استعماله على اللسنة فقليل الخرطاني على ضرب من التخفيف.

ثم نظروا فيمن بقي شجي في نحورهم يحول بينهم وبين تمام مرادهم فلم يجدوا غير الحاجب المملوك الخصي مرجان الصغير فقتلوه، ثم قتلوا عامل مكناسة ابن عدو، ثم أشاروا بقتل من بقي ممن يشار إليه بجودة الرأي وحسن التدبير، والنصح للأمير، حتى خلا لهم الجو واتسع الخرق على المرتق.

فموت أحمد بن علي اليازغي ثار أهل الجبال وأضرمت نيران العتو والفساد ورفضت الأوامر السلطانية وانقطعت الجبايات وانتشر العيث والنهب في الطرق واتبعت الأهواء.

وبموت علي بن يشو خرج البرابر من السلاسل والأغلال وتنافسوا في اشتراء الخيل والسلاح، ورجعوا لحالتهم الأولى من سفك الدماء وقطع الطرقات، ولم يبق لهم زاجر ولا رادع.

وبموت ابن الأشقر كف الزراينة عن الأداءات وتحصنوا بجبلهم خوفا من البربر وصمموا على قتال من آتاهم وضاعت أعشار القبائل وزكواتهم ولم يعرف منها نقير ولا قطمير.

وبقتل مرجان الكبير جهل الخارج ولم يدر قدر الداخل وأخرقت الدفاتر الحافظة لذلك، وبسبب ذلك نال العبيد منهم وحصلوا على ضالتهم المنشودة.

ولما اختل النظام وتفاحشت المظالم وأكل القوي الضعيف واضطربت الأحوال، واشتبكت الأهوال، وثارت الثوار بسائر النواحي خرج المترجم من دار الملك وأفاض المال وزاد للعبيد فوق المعتاد ظنا منه أن ذلك يجدي في رتق ذلك الفتق العظيم، ثم رجع لقصوره أي حيث رأي أنه لا سبيل له لأكثر مما فعل.

قال في «نشر المثاني» ووقعت هدنة بين الناس عن الحرب، إلا أن أهل فاس رفضوا جميع ما كان يجري عليهم من الوظائف السلطانية وحملوا الأسلحة وركبوا الخيل، وضج الناس بالفرح والسرور، واشتغلوا بالملاهي في النزاهات والتأنق في اللباس والجلوس في الطرقات أفواجا مقبلين على اللهو واللعب والسران^(١) في

(١) في نشر المثاني: «والهذيان».

كل متسع من أزقة فاس، ولم يبق للأحكام السلطانية نفوذ فيها بل في سائر المغرب، وليس للسلطان سوى الدعاء على المنابر والاسم، وكمل العام كله على هذه الحالة - يعني عام تسعة وثلاثين - وكثر في المغرب الفتن والأهوال فكان هذا هو الأصل في الفتن التي ظهرت بعده. اهـ. من النسخة الصحيحة من نشر المثاني^(١) قاله في الدر المنتخب.

ومن جملة من ثار، وسعي في الأرض الفساد من الثوار: أحمد بن علي الريفي واللصوص وقطاع الطريق ونهض بتلك الجيوش يريد دخول تطاوين ومباينة أهلها له - وقائدهم إذ ذاك عمر الوقاش آتي الترجمة في حرف العين بحول الله وقوته - فقابلوه بأفواه القنابل ووقع بينهما قتال عظيم مات فيه كثير من الفريقين، قيل إنه دخلها وهم بأهلها فانتصروا عليه وصدوه.

والذي صححه في «الدر المنتخب» أنه لم يدخلها، وأن الكرة كانت عليه من أول الأمر، ودعا الوقاش لنفسه وكثر الهرج والمرج واشتعلت نيران الفتن، وكتب أهل تطاوين للسلطان المترجم وقصوا عليه القصص وشرحوا له ما هم فيه من الضيق والحرَج وطلبوا نصرته وتعزيزهم بجيش ينكس أعلام البغاة المتمردين ويكسر شوكتهم كي ترجع المياه إلى مجاريها ويستتب الأمن في تلك الناحية.

ولما وصلته رسلهم بالكتاب وعلم فحواه، وأحاط علما بسره ونجواه عرضه على المسيطرين عليه من أعيان العبيد وهو إذ ذاك مضروب بأعلى يده من جانبهم فأجابوه بأن هذا الأمر لا يهم ولا يرفع إليه رأس، لأن عادة أهل الريف مع جيرانهم العداوة والقتال دائما، ولو علمنا أن الريفي ادعي هذا الدعوى لبادرنا إلى قتاله وأبدناه بجيوشه وصيرنا جميعهم في خبر كان، فاستصوب رأيهم قائلا هذا رأيي، ولم يدر أنهم إنما اتصلوا خوفا على أنفسهم وركونا للراحة لعلمهم أن الجيش الذي يبعثه السلطان لا يكون إلا منهم، فاختاروا الراحة وأعرضوا عن مصالح الإسلام والمسلمين، وبقيت رسل أهل تطوان منبوذة بالعراء لم يبال بها

(١) نشر المثاني - ص ٢٠٠ في موسوعة أعلام المغرب.

أحد مسنداً الأمر لغير أهله، وإذا أخبر بحادث جلل، يقول: كل ما قدر الرحمن مفعول.

ولما رجع رسل تطوان إلى بلدهم وأخبروهم بحقيقة الحال وأنه لاسلطان في الحقيقة، وإنما هي فوضى منتظمة من شهاوي وأغراض قاموا في تحصين بلادهم على ساق واشتد القتال بين الريفي والقبائل التي أبت من متابعته على هواه وكان النصر حليفهم والخذلان قرين الريفي إلى أن قتل وأراح الله منه البلاد والعباد.

وفي اختصار «رحلة تومي» الإنجليزي صحائف ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ما فيه بعض مخالفة لما ذكره صاحب «الدر المنتخب» في الجملة وذلك أنه حكى أن الباشا أحمد هو الذي كان عاملاً على تطوان، وأن أهل تطوان، ومجاوريها من الجبال هم الذين قاموا على العامل المذكور مع رئيس الفتنة إذ ذاك بليز، فقاموا على الريفيين ونهبوا أموالهم وقتلوا منهم من لم يدخل معهم في افتياتهم، فطلب الباشا أحمد الريفي الإعانة على أهل الجبال ومن أقاموا الفتنة من أهل تطوان فامتنعوا، فعند ذلك وجه إليهم عسكر سبته فامتنعوا من تلييته وأن أخاه والي طنجة لما علم بما ذكر لحق بأخيه أحمد المذكور في خمسمائة فارس، ولما وصل تطاوين ولاء أخوه أحمد مكانه بتطاوين وترك معه أدالة من العبيد وخرج هو في أثر الثائرين، ثم إن أهل تطاوين لم يقبلوا أخا الباشا عاملاً عليهم فحصره في داره وعند ذلك أمر الأخ الذي بتطاوين بإيقاد النار في دار البارود فانهدت وانهد ما حولها من الدور، ثم هرب العامل مع لفيف من أصحابه إلى بعض الأضرحة، ثم إلى طنجة، وأن أهل تطاوين أكلوا داره ونهبوا أجنته وأمتعته، ووجهوا بيعتهم للذهبي وأخبروه بأن سبب قيامهم على العامل هو ظلمه لهم فليحرر.

ولما علمت القبائل حقيقة ما صار إليه الأمر بعد السلطان الأعظم مولانا إسماعيل نبذوا الأوامر السلطانية وراءهم ظهرياً وامتطوا متن الاستبداد، وماجوا في الأرض بالفساد، وأكل القوي الضعيف واشتدت شوكة البربر وعظمت ولم يبق إلا

النهب والسلب واشتد الضيق بمكناسة والسلطان بها، حتى صار خارجها مسلوبا، وداخلها منهوبا، تغير البرابر على سرحها وتمنع أهلها من العمل بجنتها.

ولما تيقن العبيد أن السيل بلغ الزبي، أجمعوا رأيهم على أنه لابد من شد الرطاة على متمردة البرابر وكسر شوكتهم قائلين إنهم آذونا وآذوا جوارنا واستضعفونا، ونحن ما مات سيدنا حتى تركنا أصحاب قوة وبأس شديد، يذيب رعبنا الحديد، فركب منهم ما يزيد على الخميس ألفا وأغاروا على سرح البرابر في سائر الجهات والنواحي ورجعوا لمكناسة من غير أن يتعرض لهم بربري ثم اجتمع رؤوس البربر ووجوه العبيد واتفق رأيهم على أن البرابر لا يتعرض لهم أحد داخل المدينة ولا خارجها، وأن البرابر لا يتعرضون لمن أتى لمكناسة ولا لمن خرج منها. انتهى، ما يعول عليه مما ساقه أيضا في «الدر المنتخب» وهذا بعض ما جري عام تسعة وثلاثين الذي جلس فيه المترجم على عرش مملكة والده المقدس.

أما عام أربعين فقد قال العلامة المؤرخ ابن إبراهيم الدكالي في «تقاليد التاريخية» ما نصه: وفي ضحي يوم الخميس رابع عشر ربيع الأول عام أربعين أغار الوداية على سوق الخميس، واشتغلوا بالسلب والنهب وضربوا الناس بالرصاص، فانتدب أهل فاس لقتالهم من الزوال إلى الغروب من جهة المرس، فقبض الأوداية على بعض أهل فاس وسجنوهم بفاس الحديد، وفي آخر النهار أخذ أهل فاس قصبة شراكة واستولوا عليها.

ثم بالغد وقع قتال أيضا بظهر الرمكة، ثم يوم السبت وقع قتال بينهم بناحية بستيون باب الجيسة وكانت الغلبة لأهل فاس.

ثم وقع الصلح بينهم يوم الأحد وذلك بروضة سيدي أبي بكر بن العربي نفع الله به وسرحوا المسجونين بعد أن قتلوا منهم طائفة، ثم أخذ الأوداية في قطع الطريق.

ومن الغد جاء كتاب من عند السلطان يسأل عن الظالم من الفريقين وقرئي بمنبر مولانا إدريس، ثم لما سمع الحيانة وشراكة وأولاد جامع بهذا الأمر جاءوا إعانة لأهل فاس ظنا منهم أن ما فعله الأوداية ليس بإذن السلطان، فلما تحققوا أن ذلك بإذنه انصرفوا لموضعهم وبقي الأمر يروج إلى يوم الأربعاء الموفي عشرين خرج الأشراف والعلماء بقصد الملاقاة مع السلطان.

وفي يوم الخميس بعده وقع قتال بباب الفتوح وحضر فيه الحيانة ومن انضاف إليهم وبقي من خيل الأوداية نحو من ستة وثلاثين، ووقع قتال بالوادي المالح بباب الجيسة يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر ومات فيه من أهل فاس نحو الستة.

وفي الرابع والعشرين جاء شريف ممن ذهب لملاقاة السلطان وأخبر أنهم لم يتلاقوا مع السلطان وأن على ويش أمر بهم فسجنوا إلا هذا الشريف بخصوصه، وجاء كتاب من أخت الأمير تهددهم فيه وتذكر أموراً تقتضي أنهم ظالمون، ثم أجاب أهل فاس عن الكتاب المذكور وبقي الأمر يروج إلى يوم الثامن والعشرين قدم جماعة من عبيد مشرع الرملة يبحثون عن حقيقة الأمر لأن الوداية كتبوا لهم أن أهل فاس شقوا العصا على السلطان، فأضافهم أهل فاس أحسن ضيافة وأخبروهم بحقيقة الأمر، وانصرفوا يوم السبت الموفي ثلاثين، وفي عشية هذا اليوم وقع قتال مع محلة جاءت من عند السلطان قرب بستيون باب الفتوح ولم يمت فيه أحد من أهل فاس.

ثم صار السلطان يبعث البعوث ويكثر الجيوش لحصار فاس وأمرهم بالتضييق على أهلها وقطع عنهم الداخل والخارج وركب الأنفاض والمهاريز ليرمي بها البمب.

وفي ثاني ربيع الثاني رمي البمب على فاس سبع مرات ولم تضر أحداً،

وركب أهل فاس نفضا بالزيات يرمي لناحية المحلة النازلة بظهر الرمكة ثم كتب أهل فاس كتابا لعبيد مشرع الرملة.

وفي زوال يوم الأربعاء رابع الشهر المذكور وقع القتال أيضا بقنطرة ابن طاطو مات فيه من أهل فاس نحو الستة.

ومن الغد وقع قتال كبير واشتد من الزوال إلى الغروب بالموضع المذكور ومات فيه من أهل فاس نحو الثمانية ومن غيرهم عدد كثير، وفي صبيحة هذا اليوم هدم أهل فاس المنزه الذي بدار أبي على الروسي ونهبوا دار صهره المزوار.

وفي الثاني عشر من الشهر كان قتال كبير بناحية باب الحديد، وامتد من الضحي إلى الغروب، مات فيه من أهل فاس نحو الثمانية ومن غيرهم من أهل المحلة نحو أربعين رجلا ونحو الثلاثين من الخيل. وفي عشية هذا اليوم قدم الأشراف الذين كانوا مسجونين بمكناسة ومعهم مولاي المستضيء^(١) وأشراف مكناسة ليوقعوا الصلح بين الفريقين، ثم ذهب مولاي المستضيء مع جماعة من أعيان أهل فاس من أشراف وعلماء وتلاقوا مع السلطان ففرح بهم وسامحهم، وقال لهم: أرسل ولدي يسكن معكم وهو أمان بيني وبينكم، وقدم الذين ذهبوا مع مولاي المستضيء يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني المذكور بين المغرب والعشاء وضجت المدينة وظنوا أنهم عدو فتبين خلاف ذلك بعد ما وقع الحزام^(٢).

وفي السادس والعشرين ورد أبو فارس والذ السلطان، وتلقاه الناس بظهر هو بالناس، ثم إن بعض الشياطين من الناس أسر في أذنيه أن أهل فاس عزموا على قتلك إن دخلت إليهم فنكص على عقبيه وولى هاربا، فوقعت رجفة وأخذ أهل

(١) في نشر الثاني - ص ٢٠٠٤ في موسوعة أعلام المغرب، إشارة إلى بعض هذه الأحداث.

(٢) في هامش المطبوع: «يريد بالحزام أخذ الأهبة - وسعيد هذا المؤرخ - أعنى ابن إبراهيم - مثل هذا التعبير العامي.

فاس بعض أصحابه وقتلوه وبات مولاي أبو فارس بالمحلة وتغير الناس لذلك وبالغد أرسلوا إليه وألأنوا له القول واصطلحوا معه وأتي إلى المدينة معهم .

وفي التاسع من جمادي الأول رحلت المحلة عن فاس بعد ما أصابتهم المشقة العظيمة من الكور والبمب . وفي يوم السبت الثالث عشر من الشهر خرج القائد المحجوب هاربا ، وقد كان أهل فاس أعطوه الأمان حين كان القتال مع السلطان .

وفي عشية هذا اليوم وقع الشر أيضا بين أهل فاس والوداية عند بستيون باب الجيسة .

وفي العشرين كان آخر شر بالمحل المذكور وامتد إلى الغروب ومات كثير من الوداية ومن أهل فاس نحو خمسة عشر رجلا وجرح كثير منهم .

وفي الثالث والعشرين كان شر كبير عند باب الجيف بفاس الجديد ، وذلك أن أهل فاس اتفقوا أن يذهبوا لفاس الجديد ويأخذوها قهرا ، فتحزموا وخرجوا على ظهر الرمكة بعدد كثير ، فلما رأهم الوداية أيقنوا بالهلاك وتحققوا أنهم لا يقدرّون على ملاقاتهم ، ثم إن الله تعالى ألقى في قلوب أهل فاس الرعب فرجعوا من حينهم هاربين وتبعهم الوداية بالقتل والضرب والسلب والنهب ، ومات منهم ما بين مفقود وساقط في الوادي ومقتول ما ينيف على عشرين .

وفي يوم السبت خامس جمادي الثانية وقع قتال بوادي المالح خارج باب الجيسة ، واشتد من الزوال إلى الليل مات من أهل فاس نحو العشرين ومن الوداية أكثر من ذلك .

وفي ليلة الجمعة الخامس والعشرين رموا على فاس سبعة من البمب .

ومن الغد وقع أيضا شر بالوادي المالح فجاء الوداية بعدد كثير وانهزموا وقطع منهم أهل فاس رءوسا وقتلوا منهم ما يزيد على الأربعين ، وأما الجرحى

فكثير، ومات من أهل فاس نحو العشرة، ثم في هذا اليوم نفسه رموا على فاس تسعة من البمب ونزلت في المواضع الخالية، ثم رموا في يومين بين ليل ونهار نحو الثلاثين، ثم رموا تسعا.

وفي يوم الجمعة ثاني رجب وقع حزام قبل الصلاة، وأخرج القائد عبد الوهاب الناس من المسجد خوفا على المدينة، وترك خطيب الأندلس نصر السلطان في الخطبة ونصره خطيب القرويين.

وفي رابع رجب وقع شر كبير لم ير مثله ومع الوداية قبائل كثيرة مات من أهل فاس نحو اثني عشر رجلا.

ومن الغد رموا اثني عشر من البمب.

وفي سادس الشهر جاء جيش عظيم وأحاطوا بالمدينة واجتمعوا بدار ابن عمرو وجاء موسي الجرازي إلى باب الجيسة وبعث رسولا يطلب الأمان حتى يتكلم مع علماء فاس، فأجابوه لذلك وتكلموا معه حتى لم يجد حجة وانصرف مع العصر يريد أن يصلح أهل فاس مع السلطان.

وفي الثاني عشر رجب خرج علماء أهل فاس وأشرافها وجماعة من الأعيان صحبة موسي الجرازي بعد ما أعطاهم رهائن من قومه تركهم بفاس وقدموا لمكناسة ولم يتلاقوا مع السلطان وإنما تلاقوا مع الدائرة ولم يحصلوا على طائل ورجعوا لفاس تاسع عشر الشهر المذكور.

وفي السابع والعشرين فتح بعض رؤساء فاس باب الفتوح ليلا وأخرج منها بعض أحمال السلع بقصد التجارة على يد بعض أشرف تافيلالت، وقبض من صاحبها نحو العشرة مثاقيل ثم بلغ الخبر للجماعة فأرادوا الانتقام ممن فعله فوقعت فيه الشفاعة، وكان ممن أراد الانتقام منه مولاي عبد الله بن إدريس وأراد عزل

الغرناطي فلم تساعده الجماعة، فبعث إلى موسي الجراري وقال له: إن أهل فاس أرادوا مولاي إدريس فأخذت الجماعة بخاطره حتى سكن.

وفي يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر وقع شر كبير بالوادي المالح مات من أهل فاس نحو الثلاثين، وجرح نحو الخمسين، ومات من الوداية نحو ثلاثمائة وجرح نحو الثمانين، وصاروا يرمون البمب في اليومين بعد على أهل فاس.

اه، ما ذكره ابن إبراهيم ونحوه في نشر المثاني.

قال في «الدر المنتخب» ولما ترك الأمير ما كان عليه والده من القوة وحسن التدبير في الأمور وقع في النكبات، حتى عزل ولم يبق إليه التفات، وهكذا يقع لكل ملك ترك التدبير، وعدم التفرقة بين الأمر اليسير والعسير، اجتمع أهل فاس وغيرهم من أعيان القبائل وصناديدهم - غير الأوداية لم تنتظم في سلوكهم - واتفق رأيهم على خلع المترجم وبيعة غيره ممن يقوم بأمر المسلمين من إخوته^(١). ولما وصل الخبر بالعبيد تيقنوا أنهم إذا لم يبادروا للدخول فيما دخل إليه أهل فاس ومن انضم إليهم يخرج الأمر من أيديهم وينبذون بالعراء ويحال بينهم وبين ما يشتهون من الاستبداد ونهب بيوت الأموال وأكل أموال الناس بالباطل، فأجمعوا أمرهم بينهم وتفاوضوا في تدبير حيلة يدخلون بها على أهل فاس ومن انتظم في سلوكهم من عصبة القبائل، ورأوا أن لا حيلة تخلصهم إلا إظهار الأنفة والضجر من المترجم وتصميم العزم على خلع له لعجزه عن القيام بتدبير أمور الرعية حتى عم الفساد وضربت الفوضى في سائر الإيالة الأطناب، وكتبوا لأهل فاس والوداية، بأن السلطان عجز عن الولاية، وأنه لا بد من تقديم من يقوم بأمر المسلمين، من نبهاء إخوته المقتردين، وأن هذا الخرق كان وقوعه منهم وأنهم يريدون جبر كسره

(١) نشر المثاني - ص ٢٠٥ في موسوعة أعلام المغرب.

على أيديهم وأن مولاي عبد المالك^(١) بسوس هو أحق وأولي بالقيام بأعباء الخلافة ورتق ما تسبب فيه أخوه المترجم من الفتق، وأنهم يطلبون من أهل فاس والوداية الموافقة على هذا الأمر الذي فيه صلاح الأمة وغلق باب التهور والافتيات، فاستحسن أهل فاس والوداية ذلك منهم وتمت الحيلة عليهم وأجابوا العبيد بتحيز ما رأوا، وأنهم لا خروج لهم عما أبرموه واتفق رأيهم عليه، ففرح العبيد واستبشروا وأرسلوا إلى مولاي عبد المالك بسوس، ولما بلغه الخبر لبي دعوتهم. وأجاب رغبتهم، وجد في المسير وطوى المراحل وصاحب الترجمة في غمرته ساه. ولما وصل مولاي عبد المالك لوادي بهت واتصل الخبر بالعبيد دخلوا على المترجم لدار ملكه وألقوا عليه القبض وأخرجوه من دار الملك وسجنوه بالدار التي كانت معدة لسكانه قبل ولايته على عهد والده، وأحاطوا به شذمة من الحرس لحراسته ونادوا بخلعه والضرب على يده، وقيل: إنهم فعلوا به ذلك قبل تعيين السلطان في سابع شعبان، ومن الغد وصل الخبر لفاس.

وفي تاسع شعبان قدم العبيد إلى مشرع الرملة والعلماء والأشراف على فاس فتهايم أهل فاس لملاقاتهم في ثمانين ألفا من الرماة ورحبوا بهم وأضافوهم أحسن ضيافة، وشرحوا لهم عجز المخلوع عن القيام بمصالح الرعية وما آل إليه بسبب إهماله البلاد والعباد، من انعدام الأمن، وتساقط القوي على الضعيف، وأن رأيهم اجتمع على بيعة أخيه المولي عبد المالك لنجدته وشجاعته وحزمه وعزمه وضبطه وحسن سيرته وسياسته وعدله وميله للسلم والإصلاح بين الناس، وأنهم شهدوا منه ذلك في حياة والده حيث خالف عليه وبويع بتارودانت، ففرح أهل فاس بولايته لأنهم حر كوا معه فكان يحسن إليهم ويواسي ضعيفهم ويصبرهم ويطيب

(١) خبر الخلع للمترجم له: أحمد الذهبي ومبايعة أخيه عبد المالك ورد في نشر الثاني - ص ٢٠٠٥ وما بعدها في موسوعة أعلام المغرب.

أنفسهم على ما يقاسون من أذى عمال والده، فتوافق الجميع على نصره وخلع أخيه المولي أحمد، وأعلنوا بذلك في الأسواق والأندية، قيل: كان ذلك في عاشر شعبان.

وفي يوم الجمعة رابع عشر منه خطب به على المنابر في سائر المساجد وخلفوا بمكناسة الزيتون ولده، وأبردوا بريدًا لمولاي عبد المالك يعلمه بسائر ما وقع ويحثه على تعجيل القدوم عليهم للعاصمة المكناسية، فصار الرسول يطوي المراحل متأبطًا المكاتب بشرح الواقع، وبِقُور وصول الخبر لمولاي عبد المالك أسرع السير إلى أن حل بالضريح الإدريسي الأكبر تاسع رمضان، وهناك لحق به وفد شرفاء فاس وعلمائها وأعيانها ورماتها مع القبائل المجاورة لهم فأكرم وفادتهم وأنزلهم بوادي الشجرة بجنان هلال وأفاض عليهم موائد الإنعام والإكرام والصلوات الإضافية فسروا واستبشروا.

ومن الغد دخل مكناسة فتلقاها وجوها على اختلاف طبقاتهم وقدموا إليه بيعتهم.

وفي الثالث والعشرين من رمضان شرع في قراءة صحيح البخاري في جمع من أعيان العلماء وأصدر أوامره لجميع القبائل بحضور العيد بحضرته فامثل الكل فغمرهم موائد وصلات وعوائد.

وفي رابع شوال عزل التماق عن قضاء فاس، وولي مكانه العلامة أبا العباس الشدادي وولي العمالة العربي العساعي.

ولما تم له الأمر واستقر على عرش ملكه بمكناس قام أهل فاس وغيرهم يطلبون أخذ ثأرهم من أخيه السلطان المترجم وألصقوا به أمورا زعموا أنه ارتكبها تبعًا لأهل الظلم والتعدي. قال في «الدر المنتخب» نقلًا عن نشر المثاني: إن مولاي

عبد المالك، استفتى العلماء فى أمور شنيعة شنعوها على أخيه مولاي أحمد
توجب القتل لمن ارتكبها وفعلها، وكثر بها الكلام على الألسنة منها طلب أهل
فاس أن ينصفهم من أخيه مولاي أحمد المذكور بكونهم لم يخرجوا عنه ولا قدرة
لهم على ذلك ولا على حرب من يريد ذلك ولا على موافقته بقول ولا فعل،
فنهبت أموالهم وحطبت أشجارهم وهدمت دورهم بالبمب، وماتت نساؤهم
وأولادهم وآباؤهم وأهلهم بالهدم، مع أن من ينسب له الخروج عليه لم يتحقق
منه ذلك ولم يثبت عليه وإنما يدفع عن نفسه الوداية وغيرهم من الجيش الذين
كانوا ينهبون أموالهم ويريدون الوثوب على نسايتهم كما فعلوا بالبوادي والحواضر
فنسبوا الخروج إليهم ليحصلوا ما أرادوا فيهم، ووشوا بأهل فاس إلى مولاي أحمد
ونسبوا لهم الخروج عليه فقبل منهم ذلك من غير ثبوت لهم على أهل فاس،
فأطلق يدهم عليهم فخاض العلماء في ذلك ولم تتفق أقوالهم ولا آراؤهم في
شيء فلم يجيبوا عن شيء واتفقوا على أن التفويض في ذلك للسلطان يجتهد
ويحكم باجتهاده، فاستشار في ذلك كاتبه أبا عبد الله محمد بن أحمد الفاسي
فأجابه بأنه لم يتم موجب قتله بما طلبه به بعض الضعفاء من أهل فاس من المؤمنين
فرجع عما استفتي فيه العلماء من قتله. انتهى.

ثم أرسل مولاي عبد المالك أخاه الولي أحمد المترجم مسجوناً لسجن فاس
الجديد، فأتى به إليه مقيداً بالحديد تاسع الشهر قيل إنه رق له بعد ذلك وسرحه
وبقي مسرحاً نحو ثمانية أيام، ثم بداله سجنه وإجلاؤه إلى الصحراء ظاناً أنه
يستريح منه، وقبض عليه ووجهه في الثامن والعشرين من الشهر المذكور، وأمر
ولده بسمل عين عمه المترجم بمجرد وصوله إليه، فكان من لطف الله به أن بلغه ما
أضمر له أخوه القائم عليه فهرب لزواية أبي عثمان سعيد أحنصال بقبيلة آيت
عطه، وكان قيم الزواية إذ ذاك ولده أبو يعقوب يوسف بن سعيد - وكان من
المحدثين - فأخبره برجوعه للملكه وعود الأمور إليه.

ثم لما بدا للعبيد من المولي عبد المالك مالم يوافق هواهم من التبذير وتفريق الأموال في غير مستحقها بل حتى في مستحقها وقيامه بأمر المملكة بنفسه واستروحوا رائحة عزمه على الإيقاع بهم ضاق بهم المتسع وشمروا على ساق في خلعه، ورد المولي أحمد لبسط كفه وإلقائه زمام الملك بأيديهم يتصرفون في الرعايا والجبايات وبيوت الأموال كيف شاء هواهم.

ولما أحسَّ بذلك المولي عبد المالك أخذ في الاحتياط لنفسه وتربص الدوائر بهم، ولكن بادت حيله ولم تغن عنه احتياطاته شيئا كما سيقص عليك في ترجمته بعد بحول الله.

وفي صبيحة عيد الأضحى من العام أعلن العبيد بخلع ربيعة بيعته من أعناقهم ومنعوا خطيب مشرع الرملة من التعرض لذكره في خطبته وألزموه ذكر مولاي أحمد المترجم وطيروا الإعلام إليه، ولما اتصل به الخبر أسرع المسير إليهم وفي معيته صاحب الزاوية الخنصالية المذكور وقد انضم إليهم بنو حسن وتحالفوا وتعاقدوا على بيعته والموت تحت رايته وارتحلوا جميعا إلى مكناسة حيث عرش المملكة، فهم المولي عبد المالك بالبروز إليهم ومقاتلتهم، فجهر الوداية بالخروج عليه وبيعة أخيه وشرعوا فوراً في قتال جيشه، ولحق بهم العبيد إلى مكناسة يوم الاثنين رابع عشرين ذي الحجة عام أربعين^(١).

ثم نادي بعض رؤساء العبيد على بعض من بباب قصبة السلطان الموالي للقبة الخضراء بنصر أخيه مولاي عبد الله وكانت خنائة بنت^(٢) بكار المغفري - روجة مولانا إسماعيل - هي الساكنة بتلك الدار الموالية لذلك الباب، فلما سمعت النداء بنصر ولدها فتحت الباب من ناحيتها فبينما الناس يقاتلون بنواحي مكناسة إذ سمعوا بدخول العبيد للقصبة فسقط في أيديهم، وخرج السلطان ناجيا بنفسه في

(١) نشر المثاني - ص ٢٠٠٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(٢) في نشر المثاني الذي ينقل عنه المصنف «خناته» وفي الاستقصا ٥٨/٧: «خنائي بنت بكار المغفري».

نحو ثلاثمائة من أصحابه، وسلك غير طريق فاس المشهورة، ووقع في القصة نهب عظيم وأعادوا الغارة على مكناسة بمثل ذلك نهباً وسبياً وهتكاً للحرمت، وارتكاب سائر المحرمات، وكان ذلك ثاني اليوم المذكور^(١).

ولما وصل مولاي عبد المالك أبواب فاس اضطرب رأي أهلها، فمنهم من رأي أن الأولي صده عن الدخول إليها لعجزهم عن مقاومة حرب العبيد الساعين في الأرض الفساد، وخافوا أن يوقعوا بهم ما أوقعوه بمكناس وقصبتة، ورأي السواد الأعظم منهم دخوله والمقاتلة دونه، لأنه الخليفة الذي بيعته في أعناقهم وطاعته واجبة عليهم والحال أنه بين أظهرهم فأدخلوه واستوطن دار القيطون، وما رأى الجمهور من إدخاله هو رأي جل علمائهم، وانضم إلى أهل فاس كل من لم يخرج عن المولي عبد الملك من القبائل على ما سيبين في محله بحول الله^(٢).

وقيل: إن مولاي أحمد المترجم وصل مكناسة في أواخر ذي الحجة من العام المذكور، وأن مولاي عبد المالك لما فر ترك رماة أهل فاس بقصة مكناسة وكانوا نحو الألفين، وأن مولاي أحمد لما حل بمكناس قبض على الرماة المذكورين وقيدهم وأودعهم بالسرايب رجاء أن يرجع أهل فاس إلى طاعته، ولما اتصل الخبر بأهل فاس خرجوا خيلاً ورجالا إلى زواغة ونهبوا للوداية جميع ما وجدوه من الماشية، وجاءوا بذلك لفاس، فبيع الكبش بثلاث موزونات والبقر بثمانى عشرة موزونة فاستغاث الوداية بإخوانهم الحاليين بمكناس والعبيد.

وفي أول يوم من المحرم جاء المولي أحمد لقتال فاس بجنود لا حصر لها وهم لا يشكون في دخول فاس والإيقاع بأهلها أفطع مما فعلوه بمكناس، ثم بدا لمولاي أحمد أن يوجه القائد صالح الليريني قائد الرماة المسجونين بكتاب لأهل

(١) نشر الثاني - ص ٢٠٠٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(٢) نشر الثاني - ص ٢٠٠٨ في موسوعة أعلام المغرب.

فاس يحذرهم ما صنعوا ويغريهم على بيعه المترجم والدخول تحت طاعته،
ويعدهم بتسريح إخوانهم الرماة المسجونين، ولما وصل الليريني إليهم وقرأوا
الكتاب المذكور وثبوا على الليريني فقتلوه وصلبوه على التوتة الكائنة بسوق
الصفارين، وقتلوا الحاج الخياط عدیل بداره بالمعادي، وتمادوا على قتل كل من ذكر
المترجم حتى لم يبق لاسمه ذكر بفاس.

وفي سادس محرم نودي في وقت الصلاة بهجوم العدو وخرج الناس من
المساجد وصلوا الجمعة ظهرا فكشف الغيب أن لا عدو فاطمأنوا وأقاموا صلاة
الجمعة وخطبوا بمولاي عبد المالك.

وفي يوم السبت سابع محرم وقع قتال كبير بين أهل فاس والوداية والعبيد،
مات من أهل فاس نحو ثمانية وجرح نحو العشرين، ومات من الوداية ومن انضم
إليهم نحو أربعمائة.

قال في «نشر الثاني» وفي تاسع المحرم قدم على السلطان مولاي أحمد من
بقي^(١) من جيشه من قبائل المغرب فأحاطت الجيوش بمدينة فاس كالحاتم، فلما
أصبح يوم عاشوراء برز^(٢) جيش العبيد على فاس، وأحاطوا بها إحاطة السوار
بالمعصم، وقصدوها دفعة واحدة ولم يخرج لهم أحد من أهل فاس، وإنما
حاربوهم من أسوارها إلا القليل خرج إليهم، فهزم الله تعالى الجيوش كلها، ولم
يمت من أهل فاس أحد إلا الولي الصالح سيدي العربي بن عيسون، لأنه خرج
على باب المسافرين فأصابته رصاصة فقتلته، وحكموا أنهم منعه من الخروج أولا
خوفا عليه فقال: إن لم تتركوني أخرج يدخل عليكم العبيد يشير أنه الطالب من
الله تعالى أن يصرفهم عن فاس وأنه اقتداهم بنفسه وأنه حصل لأهل فاس دهش

(١) تحرف في المطبوع إلى: «ما بقي» وصوابه من نشر الثاني الذي ينقل عنه المصنف.

(٢) في نشر الثاني: «مَيَّز».

عظيم. ثم كتب لهم مولاي أحمد رسائل يدعوهم إلى خلع مولاي عبد المالك والدخول في طاعته فامتنعوا، وهو في ذلك مساعف للعبيد، وإلا فقد كان حاله إنما يريد الراحة لكن كان الأمر والنهي للعبيد، وليس له من الملك إلا الاسم لا المسمي لا يقطع أمراً إلا بما يأمرونه [به] وبهذا اعتذر أهل فاس وامتنعوا من الدخول تحت العبيد. ثم حمي وطيس الفتنة وبقي الحرب سجالاً^(١).

وورد الخبر بأن سفيان وبني مالك وشراكة وأولاد جامع والحياينة اجتمعوا يريدون أن ينصروا موالى عبد المالك لأنهم باقون على عهده ولم يخلعوه، فوجه لهم العبيد جيشاً فاقتتلوا مع القبائل قرب وادي إينول^(٢) فانهزمت القبائل وبقي منهم قتلي كثيرون^(٣).

ومن جملة من قتل مع^(٤) القبائل وزير مولاي عبد المالك مولاي المنتصر بن مولانا إسماعيل، وحمل إلى فاس ودفن بروضة سيدي الخياط بالدوح من فاس القرويين، قتله الوداية وأرسلوه مع بعض المحبوسين من أهل فاس، وقصدهم بذلك تحقق مولاي عبد المالك بهزيمة جيشه، فحيثئذ يش وانقطع رجاؤه من المدد^(٥).

وفي رواية أن الذي قدم بمولاي المنتصر سيدي عبد الله القصري في الرابع عشر من المحرم ودفن ليلاً، وحضر جنازته السلطان مولاي عبد المالك وأعيان المدينة، وشد العبيد الحصار على فاس، وقطعوا الماء عن عدوة القرويين وأدنوا محلثهم لسورها.

(١) نشر الثاني - ص ٢٠١٨ وما بين حاصرتين منه.

(٢) في المطبوع: ايناون والمثبت من نشر الثاني الذي ينقل عنه المصنف.

(٣) نشر الثاني - ص ٢٠١٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(٤) تحرف في المطبوع إلى: «من» وصوابه في نشر الثاني.

(٥) نشر الثاني - ص ٢٠١٨ في موسوعة أعلام المغرب.

وفي ثامن عشر محرم ركبوا نفذين على المدينة قرب سيدي الحسن الدراوي، ورموا في ذلك اليوم نحواً من أربع وعشرين كورة، وبالغد وقع قتال كبير على جميع الأبواب خصوصاً باب الفتوح، لأنهم أرادوا أخذ البستيون وجاءوا إليه بالسلاليم فانهزموا، ومات من أهل فاس نحو العشرين ورموا في ذلك اليوم كورا كبير.

وفي اليوم الموالي عشرين رموا نحو خمس وأربعين كورة، وبالغد رموا نحو العشرين.

وفي يوم الأحد الثاني والعشرين وقع قتال عظيم عند سيدي الحسن الدراوي، وفيه مات الحاج عبد الرحمن المفرج قائد الأندلس ونحو العشرين رجلاً بين قتيل وجريح.

وفي السادس والعشرين وقع قتال عظيم بوادي المالح بباب الجيسة من الضحى إلى الظهر مات فيه من أهل فاس ثلاثة، وجرح ستة ومن الغير عدد كثير، ورموا في ذلك اليوم من الكور والبمب عدداً كثيراً في كورة واحدة نحو سبعة أرباع، وركبوا بقصة شراكة بالخميس أربعة عشر نفذاً وكانوا يرمون بها ليلاً ونهاراً من كل جهاتها وأحاطوا بها بأشبارات، فكان بينهم وبينها أقل من رمية بمكحلة، وربما كان رصاصهم يبلغ سطح الدور من بعض جهاتها فيصيب من يكون بالأسطحة، ووقع ضيق عظيم بالمدينة وهدم بالبمب كثير، ومات كثير من النساء والأطفال ومن لا يستطيع منعا ولا دفعا من الرجال العاجزين عن القتال، ونهب أهل الحلة المرس الكبير الذي بين سيدي علي بن حرازم^(١) وسيدي الحسن الدراوي إلى سور المدينة وحطبوا الأشجار وتجلدوا على دخول فاس، وأخلي من المدينة الدور التي يصل إليها الرمي بالكور والبمب واقتصروا على سكني ما لا يصل إليه، ورتب أهل فاس الحرس على الأسوار وحفروا واديا خارج السور

(١) تحرف في المطبوع إلى: «حرازم» وصوابه لدى السبكي في طبقاته ٢٥٨/٦.

محيطاً به وآخر أبعد منه من جهة باب الجيسة، وتجلدوا للمدافعة عن أنفسهم وعن أهل المسكنة من المؤمنين الذين لا يستطيعون دفعاً ولا منعا العاجزين عن القتال، وعن المنع أو القبول بالقول باللسان، متوجهين إلى الله في اللطف والنجاة وإخماد الفتن، متضرعين إلى الله لا ئذين بحمي الله وحمي رسوله وأوليائه، وظهر في ذلك لطف عظيم وأمور عظيمة وأهل المدينة يخرجون للجيش خارج السور لا يرضون بالاعتصار على السور، وكان جيش العبيد مع ما انضاف إليهم قدر مائة ألف.

ثم إن القبائل التي انهزمت بوادي إينول أعادوا الجمع لأجل مولاي عبد الملك والمدافعة عنه وكانوا يتتهزون الفرصه كيف يصلون إلى فاس من الجيش المحيط بها، واستقروا بموضع يقال له تيسة من أرض الحياينة، وكان العبيد ينهبون ررع الحياينة الذي بأمراسهم ويأتون به للمحلة فخرج العبيد لنهب الحياينة على العادة، فرصدهم القبائل المجتمعة بتيسة واقتتلوا مع العبيد، فهزموا العبيد وقطعوا رؤوسهم ونهبوا لهم من الدواب ما يزيد على الستمائة.

ولما وصل الخبر للعبيد أرسلوا جيشاً منهم ومن الأوداية ووقع القتال أيضاً بتيسة فغلبهم جيش العبيد وهزمهم وتفرقت القبائل في الجهات. ولم تتبع العبيد إلا سفيان لكثرة حقدهم عليهم، حتى أدركوهم فأوقعوا بهم مقتلة عظيمة فهرب سفيان لحرم وزان ظناً منهم أن العبيد لا يتبعونهم للحرم، فتبعوهم ودخلوا عليهم داخل وزان، ونهبوا الأمتعة والديار، وكانت هذه الواقعة على الناس بوزان من أعظم الوقائع وذلك في الخامس والعشرين من صفر.

ورجع جيش العبيد^(١) من وزان إلى فاس ودخلهم من العجب ما أطمعهم بالاستيلاء على فاس، وقد كان العبيد حين دخلوا لقتال القبائل صادفوا الفقيه

(١) نشر الثاني - ص ٢٠١٩ في موسوعة أعلام المغرب.

السيد أحمد بن سيدي محمد القسطيني بحوز الحيانة متوجها إلى فاس، وقد كان قاضيا بتازا فقتلوه ومثلوا به .

وفي صفر أيضا وقع قتال عظيم على جميع أبواب فاس حضر فيه مولاي أحمد السلطان وأصحابه وجاءوا من ناحية باب الجيسة، وأظهر اللمطيون في ذلك اليوم قوة عظيمة وقتلوا من الجيش ما يزيد على مائة وخمسين وجاءوا بخيلهم وأسلحتهم، ومات فيه من أهل فاس نحو خمسة عشر رجلا منهم التاجر بو عزة الشرايبي .

وفي الخامس من ربيع الأول كان قتال كبير أيضا بباب الجيسة مات من أهل فاس نحو اثني عشر رجلا، وجرح نحو العشرين ومات من الفريق الآخر عدد كبير .

وفي التاسع منه كان القتال بمصلي باب الفتوح وبناب المسافرين وباب الجيسة، مات من أهل فاس عدد عديد يقارب المائة ومن القبائل أضعاف ذلك .

وفي يوم الأربعاء الخامس عشر منه أو الرابع عشر سردوا جيشهم على أن يدفعوا على فاس دفعة واحدة من كل ناحية، وعلامة ذلك خروج نفص في كل محلة عند طلوع الفجر على حين غفلة من أهل فاس، فكان من قدر الله تعالى أن أخبر بذلك بعض أهل المخزن^(١) بعض أهل الصلاح والولاية برسالة، فدفع الرسالة التي أتته من المحلة لأهل فاس فباتوا على سهر يترقبون ذلك^(٢) .

فلما خرجت الأنفاض كان أهل المدينة على حذر، فلإذا هم من كل حذب

(١) في هامش نشر المثاني - ص ٢٠٢٠ هو: «صالح بن صالح الأودي، وكان من أصحاب الشيخ مولاي التهامي، والمراد ببعض أهل الصلاح: سيدي محمد بن التهامي المذكور، كان نازلا بحومة الشرشور»، والمخزن = الحكومة في بلاد المغرب .

(٢) نشر المثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب .

ينسلون إلى أسوار المدينة، وجاء العبيد بسلايم كل سُلَّم^(١) يسع عشرة رجال في الدرجة الواحدة، وكانوا حفروا مينة تحت بعض الأسوار قرب سيدي الحاج بودرهم، وجعلوا فيها البارود وأوقدوا فيها النار، وكان من لطف الله أن صعد السور بالبارود ورجع لمحله ولم يعمل فيه البارود صدعا فرجع العبيد في قيود الحزن ترتاع ولم ينالوا شيئاً^(٢).

ولما بدا النهار ووضعت الحرب أوزارها وجدت قتلي العبيد صرعي على كل ناحية، وأكثرهم بباب الفتوح، وهم عدد كبير. ومات من أهل فاس نحو الخمسين منهم الطالب عبد الواحد الجامعي، والطالب مسعود بن محمد الفيلاي، والسيد علال التونسي^(٣).

فمن هذه الواقعة أيس العبيد من دخول فاس عنوة، واستبشر أهل فاس وزال عنهم الفزع.

ثم صرف العبيد وجهتهم إلى استعمال الحيلة والمكيده، وإرسال الكور والبمب^(٤)، وطال الأمر وانقطع من يقوم بدعوة مولاي عبد المالك من كل موضع إلا بفاس، وانقطع عنها اللحم والصابون وجميع ما يجبي إليها من خارجها إلا الزرع والإدام كانا بها [كثيرا في هذا الحصار]^(٥).

وبقي كل من الريفين مصابراً للآخر إلى سادس عشر ربيع الثاني، جاءت محلة عظيمة ونزلت على فاس قائدها الباشا مساehl وهم أخلاط ملتقطون من بني

(١) في المطبوع: «كل سلوم وبجانها كلمة (كذا) والمثبت من مختار الصحاح، وفيه: السلم، بفتح اللام واحد السلايم التي يرتقى عليها.

(٢) نشر الثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب.

(٣) نشر الثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب.

(٤) في نشر الثاني: «البمب».

(٥) نشر الثاني - ص ٢٠٢٠ في موسوعة أعلام المغرب، وما بين حاصرتين منه.

حسن وغيرهم ودفعوا على القلة من باب الجيسة، مات منهم من^(١) لا يحصى، ومن فاس نحو العشرين.

ثم في يوم الأحد الرابع والعشرين منه وقع القتال بباب عجيسة، وبالوادي المالح، وبناحية القلل وامتد من الضحي إلى العصر، ومات من أهل فاس نحو الثلاثين، منهم القائد عبد الوهاب الغرناطي. ومن الفريق الآخر من لا يحصى. هـ بنقل «صاحب الدر المنتخب».

ولما اشتد الأمر وطال وكثر الهرج والمرج وعظمت المصائب، واشتعلت نيران الفتن من كل جانب، واشتبكت وارتبكت، والمترجم وحاشيته مجدون في مراودة أهل فاس عن الخروج عن طاعة المولي عبد المالك والرجوع إلى طاعة المترجم، واختلفت آراء الأعلام والعوام في ذلك أفتي الفقيه سيدي محمد ميارة بأنه لا يحل الخروج عن طاعة مولاي عبد المالك ووافقه على ذلك الفقيه أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام بناني وأبو عبد الله محمد بن زكري، وخالفهم أبو العباس أحمد ابن مبارك الفيلاطي اللمطي قائلاً بوجوب خلعه ودفعه لأخيه المتغلب، لأنه لا قدرة له على مقاومته، وبقي الأمر يروج ومال اللمطيون إلى فتوي ميارة ومن وافقه، والأندلسيون إلى فتوى ابن المبارك ومن تبعه كأبي العلاء إدريس المشاط وأبي الحسن على الحريشي.

وفي ضحى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى ذهب مولاي عبد المالك إلى زاوية سيدي عبد القادر الفاسي موهما أنه يزور وقصده الكلام مع الأندلسيين والأخذ بخواطيرهم فلم يلتفتوا إليه على عادة الغوغاء في الرجوع عن أقوالهم.

قال العلامة ابن إبراهيم الدكالي في «تقايده التاريخية»: ثم إن بعض الطلبة اجتمعوا بجامعة الأندلس مع الفقيه السيد أحمد بن مبارك وكتبوا موجبا بإخراج مولاي عبد المالك وعزله ونصر الذهبي، وجعلوا يطوفون به على الناس في

(١) في المطبوع: «ما لا يحصى».

العسات فيقولون: هل تعلمون الشرع أم لا ؟ فيقولون: نعم، نعمل الشرع، فيقولون إن الشرع حكم بإخراج مولاي عبد المالك ونصر الذهبي أخيه حتى طافوا بذلك الموجب على جميع أسوار المدينة فتغير الناس بسبب هذا الفعل أشد التغير^(١)، وبقي الأمر كذلك إلى يوم الجمعة الخامس عشر من الشهر وجاءت غوغاء الأندلسيين إلى أئمة المنابر وأمروهم أن لا يخطبوا بمولاي عبد المالك، فبعضهم ترك نصره على المنبر، وبعضهم نصره، وبعضهم قال: اللهم انصر من نصره الحق المين، واختلفت الكلمة وكثر الهرج والقتل والقتال بين الفريقين، وكاد الأمر يعظم وغلت الأسعار خصوصا الصابون بيع بخمس موزونات للرطل.

ثم اجتمع الأندلسيون واللمطيون بمدرسة الصارفين ليلا وأظهر الذين أرادوا خلع مولاي عبد المالك حجتهم وسكت المخالفون لهم فدل سكوتهم على موافقتهم وانفصل المجلس في الحين.

وفي يوم السبت السادس عشر اجتمع رؤساء الأندلسيين منهم الحاج عبد الرحمن المرابي، والحاج محمد الأندلسي، والحاج محمد يويجر، وأحمد بن عبد الوهاب الغرناطي، والمجذوب أقال اللمطي، والحاج أحمد بودة اللمطي بروضة سيدي محمد بن عباد مع من وافقهم من طلبة الوقت وكتبوا كتابا لمولاي أحمد الذهبي واشتروطوا عليه شروطا إن وفي بها خلعوا أخاه ونصروه وبعثوا له ذلك الكتاب، وبالغد أجابهم بأنه قبل ما شرطوه وذهب إليه جماعة من العلماء والأشراف وأهل الحل والعقد ففرح بهم فرحا شديدا ووعدهم خيرا.

وفي يوم الاثنين الثامن عشر قدموا من عند مولاي أحمد ومعهم كتاب لأهل فاس يشكر فعلهم ويحبذ صنيعهم ويعلن بمسامحتهم فيما صدر منهم ورد القائد المحجوب عليهم فقرأ الكتاب بصحن القرويين وأعلنوا بنصره.

ومن الغد نودي بالأسواق على المخازنية الذين مع مولاي عبد المالك بأن لا

(١) في المطبوع: «أشد الغيار» وبيجانها كلمة (كذا).

يشترى أحد منهم سلاحا ولا غيره، ومن اشترى منهم شيئا لزمته العقوبة، ونودي ثانيا لما دخل مولاي عبد المالك لحرم مولاي إدريس أن لا يدخل عليه أحد.

وفي عشية هذا اليوم جاء كتاب من عند الذهبي بأنه سامح أخاه وشفع فيه أهل فاس، أنه إن أراد الخروج من الحرم الإدريسي والذهاب لتافلات فله ذلك، ولما أخبر مولاي عبد المالك بذلك امتنع من الخروج وقال: إني في حرم الله ولا حاجة لي بالملك، فشهد عليه بذلك وأرسلت الشهادة للذهبي.

ثم إن مولاي عبد المالك سمع ممن لا خلاق له من أهل فاس يقول في حقه: إن هذا الحرم لا يجير عاصيا، وسمع أن بعض الطلبة الذين أفتوا بخلعه أفتوا بإخراجه من الضريح الإدريسي، فبعث أحد أولاده لعبيد مشرع الرملة يطلب منهم لأمان لنفسه ويخرج معهم فأجابوه كتابة لذلك.

قال ابن إبراهيم: وفي ضحي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الأولى قدم الباشا سالم الدكالي رئيس العبيد ومعه نحو الخميس من أكابرهم ودخلوا لحرم مولانا إدريس وتكلموا معه وأعطوه الأمان وأنهم لا يغدرونه، فخرج معهم قرب الزوال مع جماعة من أصحابه وكلهم على خيلهم ولما كان مولاي عبد المالك عند السقاية التي بزقة الحرم الإدريسي لقيه بعض الأندلسيين فقال له نريد من سيدنا السماح فقال لهم: هذا السيد بيني وبينكم وانصرف.

وكان الذي جد في خلعه هم الأندلسيون، وكنا نسمع أن الذهبي بعث إليهم بدراهم كثيرة فاقسموها بينهم وكانت العامة تقول: أهل الأندلس باعوا سلطانهم بالفلوس.

ولما كان اليوم الذي دخل العبيد للحرم الإدريسي بقصد إخراج مولاي عبد المالك ضح الناس بالمدينة وسد بعضهم الدروب وتحزب اللطيون وحلفوا أن

لا يتركوا أحداً يخرجهم كائناً من كان، ثم دخل اللمطيون على مولاي عبد المالك وخيروهم في المقام بالضريح الإدريسي والخروج مع العبيد، فاختار الخروج مع العبيد.

ولما ذهب معهم للمحلة أرسلوه لفاس الجديد وتلاقى مع أخيه مولاي أحمد، فتأدب له ونزل عن فرسه وعانقه وسلم عليه وأعطاه مزمة من الذهب وفرسا سرجه ذهب وأنزله بدار ابن شقرة ففرح الناس بذلك.

وفي الغد - وهو الثاني والعشرون من الشهر - بعث مولاي أحمد أخاه مولاي عبد المالك لمكناسة مسجوناً فأصاب الناس كدر لا يعلمه إلا الله.

وفي هذا اليوم ذهب أعيان فاس إلى فاس الجديد وصلوا معه الجمعة وفرح بهم وأخذوا بخاطره وقدموا له هدية وشكروا فعله وسرح لهم المساجين الذين كانوا بمكناسة بالدهاليز، وأمر أهل فاس بالصلح مع الوداية فاصطلحوا، وفي الغد وهو يوم السبت فتحت أبواب فاس كلها وأمن الناس بعضهم بعضاً.

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين قلعت المحلة ورحلت وذهب السلطان لمكناسة بعد الزوال، وودعه أهل فاس، وبعد ثمانية أيام ذهب أهل فاس إلى مكناسة طالبين من السلطان أن يرد عليهم ما نهبه لهم الودايا من الخماسي البلدي الذي كان بالبرج بفاس الجديد على يد القصارين فلم يرده لهم.

وفي يوم الاثنين ثالث رجب جاء الفقيه السيد إدريس المشاط من عند السلطان، أنه عزل سيدي أحمد الشدادي عن خطة القضاء وولاهها له فلم يقبله أهل فاس.

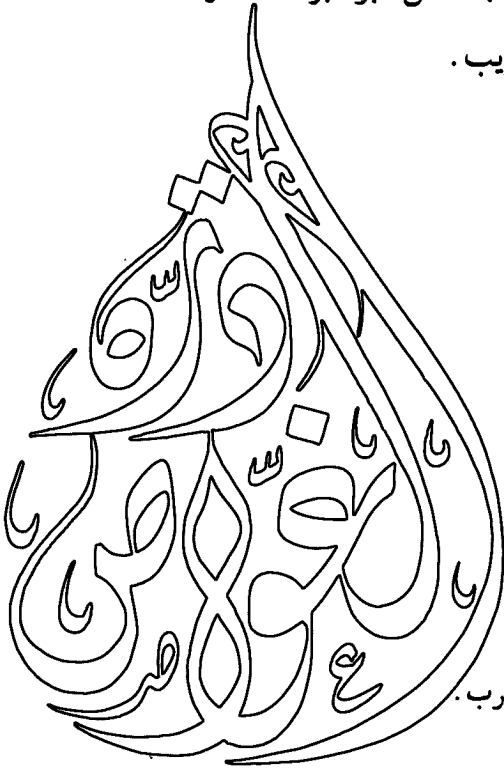
وفي الرابع عشر رجب جاء المشاط لجامع القرويين وصلي الظهر وجلس بمقصورة القضاء ليحكم بين الناس، فدفع عليه جماعة اللمطين فقام هارباً.

وفي ثامن عشر رجب جاء كتاب السلطان برد سيدي أحمد الشدادي
للقضاء، وعزل المشاط وقرئ على المنبر وفرح الناس.

ثم بعد إبرام الصلح مع أهل فاس مرض المترجم قيل خرج من فاس
صحيحا وابتدأه المرض بمكناس، وقيل خرج من فاس مريضا حمله العبيد في
المحفة لمكناس، وعلى هذا القول أعني الثاني اقتصر في نشر المثاني^(١).

ولما اشتد به المرض أرسل إلى أخويه سيدي محمد بن عريبة ومولاي سليمان
ابن الجامعية - على ما قيل - وجماعة من العبيد أهل مشورته وأمرهم بقتل أخيه
المولي عبد المالك ليلا من غير أن يشعر به أحد، فخنقوه ليلة الثلاثاء الموفي ثلاثين
من رجب وغسلوه بالماء البارد على لوح بميضأة جامع الزيتونة.

ولما قتل مولاي عبد المالك شهيدا - رحمه الله - وشاع الخبر في الناس
منهم من صدق الخبر ومنهم من أنكره، وكانوا يتبايعون بالأجل الذي هو ظهور
مولاي عبد المالك حتى أفضي الأمر إلى إخراجه من قبره برد الله ثراه ووضعوه
على الشافر حتى شاهده الخاص والعام وزال الريب.



(١) نشر المثاني - ص ٢٠٢١ في موسوعة أعلام المغرب.

علاقته السياسة

لما لبي مولاي إسماعيل داعي مولاه، وانتقل لما قدمت يداه وجه ملك الإنجليزي القبطان «روسيل» سفيراً للمترجم معزيا ومهينا وطالبا فداء الأسارى والدوام على حسن المعاملة مع التجار الذين بإيالته المغربية والأمنية على أنفسهم وأموالهم طبق ما كان الأمر جاريا عليه بينه وبين والده الفقيد.

ولما بلغ علم المترجم أن السفير حل بطنجة كتب له بما حاصله - حسبما جاء في صحيفة ٢٧ من «تاريخ انقلابات دول المغرب بعد وفاة مولانا إسماعيل» الذي ألفه القبطان «ابريط ویت» الإنجليزي الذي ورد في رفقة السفير «روسيل» المذكور المترجم من الإنجليزية إلى الفرنسية - وبعد: فقد أخبرنا الباشا أحمد بن علي بن عبد الله الريفي أنكم وصلتم إلى جبل طارق ومعكم صاحب القائد المذكور الذي كان في عاصمة مملكتكم، وأخبرنا بما تؤملون منا من تجديد العهود التي كانت بين والدنا رحمه الله وبين دولتكم، وعليه فقدم لدينا صحبة الباشا أحمد بن علي وها مكاتب الإيضاء عليك بالطريق حتى تصل لدينا مصونا من كل مروع أنت ومن معك من الأصحاب اهـ. ملخصا.

والصاحب الذي أشار إليه في هذا المکتوب الذي سماه صاحب التاريخ المنقول منه بيوکلي كان وَجْهَهُ الْجَدُّ الْمُقَدَّسُ مولانا إسماعيل سفيراً للملك إنكلترا وفي أيوبته من سفارته اتصل به نعي مرسله أثناء الطريق.

وكان هذا السفير من جملة أعوان القائد أحمد الريفي المذكور وهو الذي كان أشار على السلطان المرحوم بتعيينه سفيرا.

ولما حدث ما حدث بين القائد أحمد وبين أهل تطوان مما تلي عليك وعلم بذلك السفير والحال أنه تطواني الأصل والاستيطان، كبر عليه ذلك ولم يدر إلى

أين تكون وجهته، فإن قصد الريفي لطنجة ربما لا يأمن على عائلته بتطوان من التضييق بهم وسلبهم أمتعتهم وما لهم نكاية له، وإن قصد أهله بتطوان لا يدري ماذا تلد له الليالي، وقد كان كل من الريفي وأهل تطوان لما علموا بقدمه وجه إليه يأمره بالتزول من البحر لديه فازدادت حيرته، حتى هم بالرجوع من حيث جاء إلى أن تظمن البلاد وترجع المياه لمجاريها، وقد كان هذا السفير «تأبطا لهدايا مهمة من ملك الإنجليز لمرسله.

ولما اتصل الخبر بصاحب الترجمة أوفد إليه الحاج عبد القادر لبريس لجبل طارق يأمره بالقدوم لحضرته بمكناس، وعند ذلك لم يجد بدا من التوجه للقائد أحمد الريفي بطنجة فتوجه لديه ثم ذهب للحضرة السلطانية.

وفي عشري قعدة الحرام عام تسعة وثلاثين ومائة وألف كتب المترجم لقنصل الإنجليز وتجار النصارى الذين بتطوان يعلمهم بأنه ولي الباشا على بوشفرة مكان الباشا أحمد الريفي عاملا على إيالته سهلها ووعرها ماعدا طنجة والعرائش وأصيلا، فإنه أبقاها لنظر الريفي المذكور، وأنه أمر بوشفرة بسكنى تطوان وأنهم لا يرون من المذكور إلا كمال المجاملة والصيانة التامة لأنفسهم وأموالهم حسبما بصحيفة ٢٨ من تاريخ انقلابات دول المغرب المذكور.

بناؤه: منها القصبه التي أنشأها بتادلا حذو قصبه والده، واتخذ بها داره ومسجداً أكبر من مسجد والده، كما أن قصبته أكبر، وزيادته في قبة ضريح والده كما تقدمت الإشارة لذلك في البناءات المكناسية.

قضاته: منهم الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التماق الأندلسي الغرناطي العلامة المشاور، ولي قضاء فاس بعد امتناع والخطابه بالقرويين منها سادس صفر سنة أربعين ومائة وألف، فعُدل في الأحكام وتحري الإنصاف والورع ومشاورة العلماء وآخر رابع شوال من السنة المذكورة عن غير

ريية. له من المؤلفات: حواشي على شرح الحصن، وإزالة الدلسة عن أحكام الجلسة، وجمع الأقوال في لبس السروال، قبضه الله عشية الأربعاء عاشر الأربعاء عاشر جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، ترجمه في «النشر» والروضة المقصودة.

عماله: منهم على بوشفرة الوديني، وأحمد الريفى، والمحجوب العليج. وفاته: توفي مسلولا رحمه الله ليلة السبت الرابع من شعبان عام أربعين ومائة وألف طبق ما هو منقوش في رخامة ضريحه، ودفن خلف ظهر والده بقبة الضريح رحمه الله وبرد ثراه وغفر له أمين.

٩ - أبو العباس أحمد بن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش المكناسي التاودي^(١).

حاله: كان فقيها حافظا لكتاب الله تعالى كثير التلاوة له متدينا ماهرا في معرفة الهيئة والتعديل، عمي آخر عمره فلما كان عند الموت تلا: فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، فحدث حاضروه أن الله تعالى رد عليه بصره، قال حفيد أخيه أبو الخطاب: فلا أدري أنص لهم على ذلك أم استدلووا بالتلاوة. ووالده محمد بن حماد هو الذي كان امتحنه يدر بن ولجوط في سبعة من أقاربه بالتثقيف إلى أن أصبحوا مذبحين، ولا غرابة في ذلك إذ الجاهلون لأهل العلم أعداء سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

١٠ - أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن الولي الصالح المتبرك به عبد المغيث زغبوش القرشي المكناسي النشأة والدار والإقبار.

حاله: فقيه معظم، وجيه محترم، تقي زكي، بر طاهر مرضي، من بيت مجد وفضل وعلم وديانة، وعفاف ونباهة وصيانة، تقلد وظائف، أفرادا وجمعا،
^(١) في المطبوع: «التاوري» بالراء.

وتقيد بمناصب هداية ونفعا، كم نشأ فى هذا البيت الكبير من عدول، وكم تفرع من فطاحل عن تلك الأصول، وكم تفتنوا في بلاغة النظم والنثر، حتى أصبح منهم روض العلم في نشر، محمد عقباه يوم النشر، وتطيب الأكوان من ربا ذلك النشر، رمتهم الجلالة الإسماعيلية بطرف القبول، وشملتهم عنايتها بإدراك السؤل وحملهم على كاهل المبرة والاحترام، وأفردهم من منشوراته بما يعد من المآثر الفخام، وناهيك بما يتلى عليك من ذلك بعد في مرسومه الأغر، فإنه شاهد صدق أغر.

١١- أحمد بن عبد الملك بن محمد بن الحسين^(١) بن عميرة المخزومي

بلنسي شقوري الأصل يكنى أبا المطرف.

حاله: قال ابن عبد الملك: كان أول طلبه شديد العناية بشأن الرواية فأكثر^(٢) من سماع الحديث، وأخذ عن مشايخ أهله، وتفنن في العلوم، ونظر في العقلیات، وأصول الفقه، ومال إلى الأدب، فبرع به براعة عد بها من كبار مجيدي النظم.

وأما الكتابة فهو علمها المشهور. وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور، ولاسيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولي على أمد الإحسان، وله المطولات المنتخبة، والقصار المقتضبة، وكان يعلم كلامه نظما ونثرا بالإشارة إلى التاريخ، ويودعه إمامات بالمسائل العلمية متنوعة المقصد^(٣).

١١ - من مصادر ترجمته: الإحاطة ١/١٧٣، بغية الوعاة ١/٣٠٣، جذوة الاقتباس ١/١٤٥، الديباج المذهب ١/١٧٩، الذيل والتكملة ١/١٥٠، شجرة النور الزكية ١/٤٧٧، عنوان الدراية - ص ٢٩٨، المقتضب من تحفة القادم - ص ١٩٧، نفح الطيب ١/٣٠٥، الوافي بالوفيات ٧/١٣٣.

(١) تحرف في المطبوع إلى: «الحسن».

(٢) في المطبوع: «فاستكثر» والمثبت لدى ابن عبد الملك الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) الذيل والتكملة - السفر الأول - القسم الأول - ص ١٥٢.

وقال المَقْرِي في «نفع الطيب» لدي تعرضه له ما لفظه: قال فيه بعض علماء المغرب قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلَّة الفضلاء، ونكتة البلاغة^(١)، التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها^(٢) التي أخفت ثواب كوكبها حين أبدعها، مبدع البدائع التي لم يحظ قبله بها إنسان، ولا ينطلق عن تلاوتها لسان، إذ كان ينطق عن قريحه صحيحة، وروية بدرر العلم فصيحة، ذلت له صعب الكلام، وصدقت رؤياه حين وَضَعَ سيدُ المرسلين - وهو الذي أوتي جوامع الكلام - في يده الأقلام^(٣).

وقال ابن الأبار في تحفة القادم في حقه ما صورته: فائدة هذه المائة، والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف باتحاده الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديع، ومعاذ الله أن أحاييه بالتقديم، لما له من حق التعليم، كيف وسبقه الأشهر، ونطقه الياقوت والجوهر، تحلت به الصفائف والمهارق، وما تخلت عنه المغارب والمشارق، فحسبي أن أجهد في أوصافه، ثم أشهد بعدم إنصافه، هذا على تناول العموم والخصوص لذكره، وتناوب المشور والمنظوم على شكره^(٤).

وقال في الإحاطة: قلت: وعلى الجملة فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه^(٥) ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحده، إدراكاً وتفنتاً، بصيراً بالعلوم مُحَدِّثاً مكثراً راوية ثبُتاً، متبحراً^(٦) في التاريخ والأخبار، ربَّاناً مضطلعاً بالأصلين،

(١) في المطبوع: «البلغاء» والمثبت رواية المقرئ الذي ينقل عنه المصنف وهي المناسبة للمعنى.

(٢) في المطبوع: «وشمس» والمثبت رواية المقرئ.

(٣) نفع الطيب ١/٣١٣.

(٤) نقله المقرئ في نفع الطيب ١/٣١٥.

(٥) في المطبوع: «وعليه» والمثبت لدى ابن الخطيب في الإحاطة الذي ينقل عنه المصنف.

(٦) في متن الإحاطة: «سَجَرًا» وبالهامش: السجر: هو المليء.

قائما على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جم العلوم^(١)، غزير المعاني والمحاسن، شفاف اللفظ حر المعنى^(٢).

انتقل إلى العُدوة^(٣)، واستكتبه الرشيد أبو محمد بن عبد الواحد بمراكش مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مِلْيَانَة من نظر مراكش الشرقي، فتولاه قليلا ثم نقله إلى رباط الفتح، وتوفي الرشيد فأقره^(٤) على ذلك الوالي بعده أبو الحسن المعتضد أخوه، ثم نقله إلى قضاء مكناسة الزيتون، ثم لما قتل المعتضد انفصل عن مكناسة ولحق بَسْبَة، وجري عليه بطريقها ما يذكر في محنته، ثم ركب البحر منها متوجها إلى إفريقية، فقدم بجاية على الأمير أبي زكريا، ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله، وولي قضاء مدينة الأريس، ثم انتقل إلى فاس وبها طالت مدة ولايته، فاستدعاه المنتصر بالله محمد بن أبي زكرياء، ولَطَفَ محله منه، حتى كان يحضر مجالس أنسه^(٥).

مشيخته: روي عن أبي الخطاب بن واجب، وأبي الربيع بن سالم^(٦) وأبي عبد الله بن فرج، وأبي علي الشلوبين، وأبي عمر بن عات، وأبي محمد بن حَوْط الله، لقيهم وقرأ عليهم وسمع منهم، وأجازوا له، وأجاز له من أهل المشرق أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج وغيره^(٧).

(١) في الإحاطة: «جم العيون».

(٢) الإحاطة ١/١٧٤.

(٣) أي عدوة المغرب.

(٤) في المطبوع: «فأقامته» والمثبت من الإحاطة.

(٥) الإحاطة ١/١٧.

(٦) تحرف في المطبوع إلى: «سلام» وصوابه من الإحاطة والذيل والتكملة.

(٧) الإحاطة ١/١٧٤.

الآخذون عنه: أخذ عنه ابنه أبو القاسم، وأبو بكر بن خطّاب، وأبو إسحاق البلقيني الحفيد، والحسن بن طاهر بن علي الشقوري، وأبو عبد الله البري^(١). وحدث عنه أبو جعفر بن الزبير، وابن شقيق^(٢)، وابن ربيع، وغيرهم ممن يطول ذكره.

شعره: من ذلك قوله موريا بالعلوم:

قد عكفنا على الكتابة حيناً	ثم جاءت خطة القضاء تليها
مع كل لم يبق للجهد إلا	متزلاً نائياً وعيشاً كريها
نسبة بدلت ولم تتغير	مثل ما يزعم المهندس فيها ^(٣)

وقوله:

يا غائباً سلبتني الأنس غيبته	فكيف صبري وقد كابدتُ بينهما
دعواي أنك في قلبي فعارضها	شوقي إليك فكيف الجمعُ بينهما ^(٤)

وقوله:

إن الكتاب أتني وساحة طرسه	دوح توشح بالبديع مبرقع
وله حقوق ضاق وقت وجوبها	ومن الوجوب ^(٥) ضيق وموسع ^(٦)

(١) تحرف في المطبوع إلى «البي» بالزاي. وصوابه من الإحاطة والذيل والتكملة.

(٢) في المطبوع: «وابن شنيف» والمثبت رواية الإحاطة.

(٣) الإحاطة ١/١٧٧.

(٤) الإحاطة ١/١٧٧.

(٥) في المطبوع: «العجائب» والمثبت رواية الإحاطة.

(٦) الإحاطة ١/١٧٧.

وقوله:

وأجأت فكري في وشاحك فأنثني
أنصفت غُصْنَ البان إذ لم تدعه
ورحمت در العقد حين وضعته
كيف اللقاء وفعل وعدك سيئه
وكمأة قومك نارهم ووقيدها
شوقا إليك يَجول في جَوَّال
لَتَأوُدُ^(١) مع عطفك الميال
متواريا عن ثغرك المتلالي
أبدا تخلصه للاستقبال
للطارقين أَسِنَّةً وعوالي^(٢)

وقوله:

أري مَنْ جاء بالموسي موسي
فهذا مخفُّقٌ إن قصَّ شِعْراً
وراحة ذى القريض تعود صِفْراً
فهذا مخفُّقٌ إن قصَّ شِعْراً^(٣)

وقوله:

كبرت بالبشرى أتت وسماعها
وكذلك الأعياد سنة يومها
عيدي الذي لشهوده تكبيري
مختصة بزيادة التكبير^(٤)

وقوله

بايعونا مودة هي عندي
فسأقضي بردها ثم أقضي
كالمصرات بيعها بالخداع
بعدها من مدامعي ألف صاع^(٥)

(١) في المطبوع: «لتوادع» والمثبت رواية النفح.

(٢) نفح الطيب ٣١٥/١.

(٣) نفح الطيب ٣١٦/١.

(٤) الإحاطة ١٧٧/١.

(٥) الإحاطة ١٧٧/١.

وقوله:

شرطت عليهم عند تسليم مهجتي وعند انعقاد البيع حتما يواصل

فلما أردت الأخذ بالشروط أعرضوا وقالوا يصح البيع والشرط باطل^(١)

نثره: من ذلك قوله من رسالة أجاب بها العباس بن أمية وقد أعلمه باستيلاء الروم على بكنسية:

بالله أي نحو تنحو، أو مسطور تثبت أو تمحو، وقد حذف الأصل والزوائد، وذهبت الصلة والعوائد، وباب التعجب طال، وحال اليأس لا تخشي انتقال، وذهبت علامة الرفع، وفقدت نون الجمع، والمعتل أعدي الصحيح، والمثلث أودي الفصح، وامتنعت الجمع من الصرف، وأمنت زوائدها من الحذف ومالت قواعد الملة، وصرنا جمع القلة، وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض^(٢).

مؤلفاته: له تأليف في كائنة مِيرْقَة^(٣) وتغلب الروم عليها نحا فيه نحو العماد الاصبهاني في الفتح القدسي، وكتابه في تعقبه على فخر الدين ابن الخطيب الرازي في كتاب المعالم في أصول الفقه منه، وردّه على كمال الدين أبي محمد عبد الكريم السّماكي في كتابه المسمي بالتّبيان في علم البيان، واختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة وغير ذلك من التعليقات والمقالات^(٤).

(١) الإحاطة ١/١٧٨.

(٢) الإحاطة ١/١٧٦.

(٣) كذا في متن الإحاطة ١/١٧٨ وهو الصواب، وبهامشها: «في بعض النسخ الخطية: المرية، وهو تحريف. وكائنة ميورقة يقصد بها هنا استيلاء النصارى على جزيرة ميورقة، كبرى جزائر البليار أو الجزائر الشرقية وذلك في سنة ٦٢٧هـ، على يد ملكهم خايمي ملك أرجون». وتحرف في المطبوع إلى: «المرية».

(٤) الإحاطة ١/١٧٨.

ودون الاستاذ أبو عبد الله ابن هانيء السبتي كتابته وما يتخللها من الشعر في سفرين بديعين أتقن ترتيبهما، وسمي ذلك «بغية المستطرف»، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف»^(١).

محنته: لما قتل المعتضد اغتتم الفترة وانفصل عن مكناسة قاصدا سبتة فلقي الرفقة التي كان فيها جمع من بني مزين فسلبوه وكل من كان معه، وكان المنهوب من ماله يعدل أربعة آلاف دينار، وكان ورقا وعينا وحليا أصيب بما له أحوج ما كان إليه^(٢) وقد استقبل الكبر ونارعه سوء الحظ^(٣).

مولده: ولد بجزيرة شقر^(٤) وقيل بِلَنْسِيَة في رمضان عام ستة وخمسين قال عبد الملك: ووهم ابن الزبير في وفاته إذ جعلها في حدود الخمسين وستمائة أو بعدها^(٥).

١٢- أبو العباس أحمد بن علي الزرهوني المكناسي.

حاله: فقيه علامة جليل محدث كامل ناقد أورده ابن الأبار في تكملة وغيره.

(١) الإحاطة ١/ ١٧٨.

(٢) في الإحاطة: «أصيب بمالقة ما أحوج ما كان إليه».

(٣) الإحاطة ١/ ١٧٩.

(٤) جزيرة شقر كانت تطلق أيام الدول الإسلامية على الجزيرة الكبيرة الواقعة في نهر شقر Jucar. قبل مصبه في البحر المتوسط جنوبي بلنسية. وكانت من أجمل البقاع في تلك المنطقة، وكانت تسمى أحيانا بالجزيرة فقط. وهو الاسم الذي استعير فيما بعد لبلدة Alcira الإسبانية الواقعة على نهر شقر على مقربة من الجزيرة المذكورة. وقد كانت جزيرة شقر موطن كثير من العلماء والأدباء.

(٥) الإحاطة ١/ ١٨٠.

١٢ - من مصادر ترجمته: التكملة لابن الأبار ١/ ١١٢.

الآخذون عنه: أخذ عنه أبو القاسم بن سمجون، وحدث عنه بموطأ مالك وأجاز له روايته قال ابن الأبار: ولا أدري أين لقيه.

١٣- أبو العباس أحمد: هو الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البكري.

من أهل شريش

حاله: كان فقيها جليلا استوطن سلا وولي بها القضاء، ثم بمدينة مكناسة. مشيخته: روي عن أبي إسحاق بن قر قول.

وفاته: توفي سنة إحدى عشرة وستمائة.

١٤- الولي الصالح المولي أحمد الشبلي الشريف الحسني.

لم أقف على من تعرض لترجمته ولا على من له أدنى معرفة بشيء من حاله غير ما في بعض الرسوم من تحليته بالشريف الحسني، وما هو منقوش في جبص دائرة باب مسجد ضريحه ولفظه:

ها روضة الشبلي كالمسراج	وبهاؤها للزائرين يناجي
نزه لحاظك في بهاء محاسني	واغنم كرائم نوري الوهاج
واعكف على عين الكرامة والهدي	ذخر الأنام وواضح المنهاج
فإذا دخلت ضريحه فاسأل به	تحظ بأنوار نوره المسراج
وابسط أكفك للمهيمن ضارعا	متوسلا بسلالة الإنتاج
السيد الحسني الهمام المرتضي	كهف الآمال وبغية المحتاج
واسأل تنل فوق الأنام جميع ما	ترجو وتلق مواهب الفراج

١٣ - من مصادر ترجمته: التبكلة لابن الأبار ٩٣/١، الذيل والتكملة ٣٨٧/١/١ رقم

.٥٤٣

انتهى .

يقال: إن هذه القطعة لبعض الأدباء المكناسيين من أولاد القنسود، وقصيدة في مدحه أيضاً تأتي فيما بعد.

ويقال إن السيدة حبيبة بنت الحاج الطاهر بن العربي بادو، هي التي بنت ضريح هذا السيد ومسجده من مالها الخاص بها والخالص لها، لرؤيا رأتها وقد كانت كفيفة البصر فرد الله عليها بصرها فبنت الضريح ومسجده، وهذا إن صح يحمل على مزيد التنميق أو التجديد، وإلا فقد أسلفنا لك ما هو نص في أن باني الضريح المذكور هو سيدنا الجد السلطان الأعظم المولي إسماعيل عليه صيب الرحمات، والله أعلم بحقيقة الحال.

١٥- أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن تميم اليفرني الشهير بالمكناسي.

أخو أبي الحسن الطنجي، شيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان السطي.

حاله: فقيه عدل أستاذ نبيل فاضل زكي نزيه.

مشيخته: منهم ابن هاني تلميذ ابن الشاط، وابن رشيد، وأبو يعقوب البادسي، وابن الزبير، وابن سليمان الوادياشي، وأبو عبد الله محمد بن قاسم ابن محمد الأنصاري المالقي الضرير الشهير بابن قاسم نزيل مكناسة انزيتون، رحل إليه من مدينة فاس إلى مكناسة، ورحل إليه الناس للأخذ عنه، ولما قفل إلى بلاده مدينة فاس صار يدعي بالمكناسي لذلك.

وفاته: توفي بمدينة فاس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة برد الله ثراه آمين.

١٦- أبو العباس أحمد بن العربي الغماري الكومي، قاضي مكناس.

حاله: فقيه علامة واعية موثق، وقفت على رسم تحييس حلي فيه بالعلم

١٥ - من مصادر ترجمته: جذوة الاقتباس ١/١٢٢، درة الحجال ١/٤٦.

والجلالة، ولم أعرف شيئا من أحواله ولا سن الولادة والوفاة، إلا أنه كان متوليا خطة القضاء بمكناس سنة ٩٥٩ تسع وخمسين وتسعمائة^(١).

١٧- أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي الأنصاري الجزيري.

نزىل سلا، ودفينها، أصله من شمينة وبها نشأ.

حاله: أفضل أهل زمانه علما وعملا، وقال ابن سعد في «النجم الثاقب» في حقه ما ملخصه: كان أحد الأولياء الأبدال، معدودا في كبار العلماء ممن جمع له العلم والعمل وألقي عليه القبول من الخلق، شديد الهيبة، عظيم الوقار، كثير الخشية، طويل التفكير والاعتبار، قصده السلطان أبو عنان وارتحل عام سبعة وخمسين فوقف ببابه طويلا فلم يأذن له وكرر ذلك مرارا فلم يأذن له، وتبعه يوم الجمعة على رجله والناس ينظرونه وهو لا ينظر فقال: منعنا من هذا الولي، ثم أرسل إليه ولده مستعظفا فأجابه بما قطع رجاء منه. اهـ^(٢).

ودونك نص ما أجابه به:

«الحمد لله من العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر وفقه الله تعالى بمهنة وكرمه، إلى أمير المؤمنين أبي عنان أيده الله تعالى بتقواه ورد حاله إلى ما كان عليه الخلفاء الراشدون ومن تعرض لنصيحة المسلمين آمين، وصلى الله تعالى على مولانا سيدنا محمد وآله وسلم تسليما، أما بعد:

(١) كذا في المطبوع. وقد ترجم صاحب الأعلام بمن غبر - ١٤٥٥/٤ موسوعة - لمن اسمه أحمد بن محمد العربي الغماري، فقال: وفي هذه السنة - أعني سنة ١٠٦٣ هـ - توفي الفقيه الأصولي أبو العباس أحمد بن الفقيه العلامة أبي عبد الله محمد العربي بن محمد الكومي عُرف بالغماري، ولى قضاء بلدة مكناسة فحدث سيرته، وكان فقيها مدرسا. أخذ عن الفقيه المفتي أبي عبد الله الهواري، ثم عن العلامة أبي عبد الله بن بد الحليم وغيرهما.

قال خال الوالد الشيخ أبو عبد الله محمد المهدي الفاسي: قرأت على صاحب الترجمة الرسالة والمختصر.

١٧ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/١٤٨، شجرة النور الزكية ٢/٣٤، كفاية المحتاج ١/٣٧، نيل الابتهاج ١/٩٢.

(٢) كفاية المحتاج ١/٣٧.

فقد ورد على كتابكم المشرف بذكر الله تعالى وولدكم المكرم جعله الله تعالى من المتقين، وأنبتة نباتا حسنا وعلمه علما نافعا ولا يجعله من المبعدين، من رحمة رب العالمين، وصلي الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم، ولتعلم أي ما شككت فيكم وقد أيقنت أنكم ما أرسلتموه إلا من أجل الله عز وجل وطلب مرضاته، وبعد: فإني لم أكن للزيارة أهلا، ولا للقربة محلا، وإنما سترني الكريم بفضله، ولطف بي بحلمه، ولله الحمد على نعمته الظاهرة والباطنة، ولتعلم أي قصدت بنصيحتي لك وجه الله العظيم خاصة فإني لا أطمع في مخلوق أن يكسبني مالا ولا جاها لاكتفائي بمولاي جل جلاله وتقدسست أسماؤه.

ولتعلم يا أمير المؤمنين وفقك الله للخير أن الله عز وجل ناظر إليك في كل حين وفي كل ساعة وكل نفس وكل طرفة، ولا بد لك من لقائه، ويسألك عما دق وجل، وينشر عليك عدله، ويسألك عن أمر خلقه وما صنعت، هذا إن طالبك جل جلاله. وأما إن عفا عنك ونشر عليك رحمته وفسح لك فلا راد لفضله ولا لحكمه جل جلاله وتقدسست أسماؤه.

وليكن أمير المؤمنين مشفقا على نفسه، وليعمل في يومه لما فرط في أمسه، ومن كان يومه شرا من أمسه فيا حسرته ويا وحشته ويا فجعته، وأعظم المصائب إعراضه عن ربه عز وجل، وقد أشفق الصالحون والأولياء والمتقون على أنفسهم، كان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه يقرأ قوله تعالى (أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) وقال الله عز وجل: (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من يأخذها بما فيها يعني من الأجر الذي يعطي الإمام العادل إشفافا على نفسه. وقد وقف الفضيل بن عياض بعرفة فقال: ظننت أن هذا الخلق غفر لهم حتى رأيت نفسي فيهم. وكان عطاء يقول: لو مات عطاء استراح الناس. وكسفت الشمس يوما فصاح عتبة الغلام بذنوبي كسفت الشمس. وعرك عثمان بن عفان أذن غلام له لأدب فقال: آه أوجعتني. فقال: عثمان خذ أذني فاعركها، فأبي الغلام فقال عثمان: لا بد من ذلك لأن تقتص مني في الدنيا خير من أن يقتص مني في الآخرة فعرك الغلام أذن عثمان فقال له: اشدد وزد، فقال: أمير المؤمنين

إن كنت تخاف القصاص فإني أخاف أيضا، فهذا يدلّك كله على شفقة الأولياء والأصفياء على نفوسهم لما علموا عدل الله عز وجل في خلقه، ولك عبرة في آبائك وأجدادك فقد صاروا إلى الله عز وجل ولا تدري ما قال لهم ولا ما قالوا له.

وروي عن عيسى عليه السلام أنه مر بجمجمة فضربها برجله وقال تكلمي بإذن الله تعالى، قال: يا روح الله، أنا ملك زمان كذا وكذا فبينما أنا جالس في ملكي على تاجي على سرير ملكي وحولي جندي وحشمي إذ بدا لي ملك الموت، فزال عني كل عضو على حاله، ثم خرجت نفسي إليه، فياليت ما كان من الاجتماع كان فرقة، وبالييت ما كان ذلك إلا حسرة ووحشة.

وروي عن أبي بكر الصديق أنه قال في خطبته: أين الوضأة وجوهمهم، أين الصباح الحسنة وجوهمهم، المعجبون بشبابهم، أصبحوا تحت الثرى.

وروي عنه أيضا أنه قال في خطبته: أين الذين بنوا المدائن، وحصنوا الحصون والحوادث، أين الذين كانوا يعطون من الغلبة في مواطن الحرب قد تضعضع بهم الحرب فأصبحوا تحت التراب والآكام.

وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال لابن مسعود وبه ألم من آخر الليل: قم وانظر لي أي ساعة هذه، قال قد طلعت الجمرة يعني الزهرة، فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار.

وقال معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة لجارته: ويحك انظري هل أصبحنا؟ فنظرت فقالت: لا. ثم تركها ساعة فقال لها: انظري فقالت: نعم، فقال أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار.

وقيل لعامر بن عبد الله بن قيس عند الموت وقد بكى: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي فرارا من الموت ولا حرصا على الدنيا، ولكنني أصبحت في صعود مهبط ثم لا أدري أين أهبط هل إلى الجنة أو إلى النار أو يعفو الله تعالى.

وقال محمد بن واسع عند الموت: يا إخواني، عليكم السلام إلى النار، أو يعفو الله تعالى.

وروي جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في بعض الأحاديث أن نفرا من بني إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله عز وجل أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا فنسأله، فدعوا الله عز وجل فإذا هم برجل جلس بين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من تلك القبور فقال: ما أردتم مني؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين عاما فما سكنت من قلبي مرارته.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو لقيت الله بعمل سبعين نبيا لخشيت لك أن لا تنجو من هول ذلك اليوم.

فعليك عافاك الله بالشفقة على نفسك فإن الدنيا لا تدوم لك، فقد كان في زمن من الأزمان على ما حكى: ملك من الملوك كان عادلا في رعيته فقد سمعه، فقالوا برحوا في الناس من كان مظلوما فليلبس ثوبا أحمر، فإني إن فقدت سمعي فما فقدت بصري، فهذا عافاك الله قد نصح لرعيته ولا أدري هل كان مؤمنا أو كان كافرا، وإن رجع أمير المؤمنين وأشفق على نفسه ورعيته رجوت أن يقبله الله تعالى وأن يمن عليه بفضله إنه جواد كريم.

وقد قال بعض المشايخ: إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا يقصيك عن الاستقامة مع ربك، فقد يكون ذنبك ذلك آخر ذنب قدر عليك وليطالع أمير المؤمنين الرعاية للمحاسبي، أو كتاب النصائح للمحاسبي فلعل ببركة الشيخ يكسبك الله خوفا ورحمة فيكون سبب نجاتك، وإن سمعت بأمير المؤمنين أنه اجتهد في نصيحة رعيته وكف يد ظالمهم ونصر مظلومهم اجتهد له في السؤال لله عز وجل في الأسحار، وأطراف النهار، وليعلم أمير المؤمنين أنه لا يخلصه أحد من خدامه ولا من حشمه بل يفرون منه يوم القيامة ويفر منهم، رلا عليك في هذا الأمر إلا أن تراقب الله تعالى وتعمل بما أمرك ونهاك يسهل الله عليك الخير فعساك

تموت وأنت مقبل على الله عز وجل وهو أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وفقك الله لما يحبه ويرضاه وسخر لك خلقه ولا أدار عليك رحي المحنة، على قطب الفتنة، وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله فرحم الله امرءاً نظر لنفسه وعمل ما يخلصه عند ربه.

فلما وصل كتابه هذا للسلطان أبي عنان رحمه الله أيس من لقائه واشتد حزنه وقال: هذا ولي من أولياء الله حجه الله عنا.

وقد أجابه أبو عنان عن هذا الكتاب بما لفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، من عبد الله المعترف بذنبه، الراجي رحمة ربه، فارس أمير المؤمنين بن علي بن عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق وفقه الله عز وجل لطاعته، وجعله بفضل من أهل جنته، إلى ولي في الله وناصري في ذات الله عز وجل الولي العالم الزاهد الخاشع أبي العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، أمتع الله بحياته أولياءه، ونفع بصالح دعواته أصفياه، وأبقاه ذخراً للمسلمين ونوراً يهدي إلى سبيل المتقين، وبعد حمد الله بارئ النسم، على تتابع النعم، والسلام على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله إلى خيرة الأمم، وعلى آله وأصحابه ليوث الهيجاء ونجوم الظلم، فإنه وصلني كتابكم الذي ذكرتني بموعظته، وعرفتني مصالح نفسي بنصيحتة، أعرب بلسان الصدق، ودعا إلى سبيل الحق، وأيقظ من النومة، ونبه من الغفلة، فجزاك الله خيراً يا أيها القاصد وجه الله العظيم في سره وجهه، الواقف عند حدوده عز وجل في أمره ونهيه، لقد نصحتني وما غششتني، وندبتني لسعادتي وما كذبتني، فالله أسأل أن ينور بصيرتي، ويأخذ للخير بناصيتي، ويسلك بي فيما قلدني سبيل أوليائه المتقين. ويعينني على القيام بأمور عباده المسلمين.

وهنا إن شاء الله تعالى أجتهد في كف أيدي الظالمين، وأبذل جهدي في

إنصاف المظلومين، وأبتهل إلى الله تعالى بالضراعة في إعانتي بتوفيقه، وهدايته
لنهج طريقه، وهو سبحانه يعلم - وإن كنت مسرفاً على نفسي مقصراً في عملي
- أنني لا أضمر إهمال مظلوم ولا إعانة ظالم، وكفي بالله شهيداً، وقد قل أعوان
الحق، وكاد أن تعدم منقبة الصدق، فلا رجل ولي عملاً الا ظلم وتجبر، ولا
مؤمن يركن إليه إلا خان وفجر، ولا جليس يستعان بنهاه إلا آثر دنياه، واتبع
هواه، لكن بالله أستعين في جميع الأمور، وعليه سبحانه أتوكل وإن لم أوف
بحق التوكل في الورود والصدور، ونسأله جل وعلا أن يلهمنا ما يقربنا منه، ولا
يجعلنا من المبعدين عنه.

وأسألك أنت بمن كانت هذه المكاتبة ابتغاء وجهه الكريم إلا ما اجتهدت لي
في الدعاء في غلس الأسحار، وأطراف النهار، أن يمكنني الله عز وجل نفسي
ويلهمني رشدي، ويجعلني من الناطقين بالحق، الفاصلين بالعدل، ويبلغني تعالى
أملني في جهاد الكافرين، وينيلني قصدي في حج بيت الله الكريم، وزيارة قبره
عليه أفضل الصلاة وأذكي التسليم، وأن يجعل ذريتي من عباده الصالحين ومن أهل
القرآن العظيم وزوار قبر نبيه، وأن يختم لي ولهم بالحسنى، ويبلغنا في طاعته
جميع المنى، بفضلته وجوده.

وأنا قد انتفعت بكتابك، وأنتفع إن شاء الله بنصيحتك وأجد بركة
موعظتك، التي أردت بها وجه الله العظيم علام الغيوب فلا تخلني بعد من
إشارتك. ولا من صالح دعواتك، ولا توحشنا من أنس جوارك، ولا تفقدنا من
صالح إيثارك. وإن كنت قد استغنيت عنا فإنني لا أستغنى عن مشاورتك الصالحة،
ومكاتبتك الراحبة. إن شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يجزيكم أفضل الجزاء
ويهدينا إلى الطريقة المثلى والسلام عليكم ورحمة الله.

وذكر المترجم ابن الخطيب في نفاضة الجراب وابن الخطيب القسطيني في
رحلته ووصفه بأوصاف عالية منها: كثرة النفور من أصحاب الولاية في الأعمال

قال: وخرجت على يده تلاميذ نجباء أخصار وطريقه أنه جعل لإحياء علوم الدين نصب عينيه واتبع ما فيه بجهد واجتهاد، وصدق وانقياد.

قال هو غيره: ولم يكن قوته إلا من نسخ «عمدة الأحكام» في الحديث وكان معجبا بهذا التأليف مؤثرا لحفظه وفهمه كثيرا ما يندب إخوانه لذلك، وكان يقوم على حفظه وربما أقرأه تفهما لكثير من أصحابه ينسخ منه ثلاث نسخ في السنة غالبا ويسفرها بيده، وربما صنع لها أغشية من جلد بيده ويبيعها ممن يعرف طبيب كسبه بدينار من الذهب العين للنسخة ولا يأخذ إلا قيمتها.

ولم تزل حالته وبركته في زيادة إلى أن توفي قال ابن عرنة: ما في زماننا مبرز إلا هو وأبو الحسن المنتصر.

قال ابن عاشر الحافي في «تحفة الزائر»: رحل يعني المترجم له وحج ثم آب للمغرب فقدم فاسا المحروسة وأقام بها مدة ثم ارتحل إلى مكناسة. اهـ.

وفي «درة الحجال» رحل إلى مكناسة واستوطنها مدة وكانت بها إحدى أخته والثانية بشمينة، وكان أبو عنان يجري على التي كانت بمكناسة جارية تعيش بها، ثم انتقل إلى سلا وقرأ القرآن والعلم ببلده شمينة، ثم انتقل منها إلى الجزيرة الخضراء وأقام بها زمانا مشغلا بتعليم كتاب الله ولقي الأكابر من أهل المقامات كمسعود الأبله - الرجل الصالح - قال وبإشارته خرج من الخضراء.

وفي تحفة الزائر أنه نزل برباط الفتح بعد انتقاله من مكناسة دهرًا طويلا بزواية الشيخ العظيم الشأن سيدي عبد الله الياهوري، ثم انتقل للعدوة الأخرى من سلا فتزل بها بزواية الشيخ أبي زكرياء الكاتبة بقرب الجامع الأعظم وبتدار المقدم عليها إذ ذاك أبي عبد الله محمد بن عيسى تلميذ أبي زكرياء المذكور، وكل ذلك بعد وفاة الشيخ الياهوري. اهـ.

الآخذون عنه: منهم العارف الكبير أبو عبد الله بن عباد شارح الحكم العطائية، وناهيك به وهو من اكابر أصحابه وخيارهم أقام معه سنين عديدة قال في رسائله: «كنت خرجت يوم مولده ﷺ صائما إلى ساحل البحر فوجدت هنالك السيد الحاج ابن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلون فأرادوا مني الأكل، فقلت: إني صائم، فنظر إلى السيد الحاج نظرة منكرة وقال لي هذا يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصوم كالعيد، فتأملت مقالته فوجدتها حقا وكأنه أيقظني من النوم».

وفاته: توفي سنة خمس وستين وسبعمائة وضريحه بسلا مزاراة مشهورة يقصدها الزوار ويفد إليها ذوو العاهات فيكشف الله أوصابهم والأعمال بالنيات.

١٨ - أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنان أبو العباس الخزرجي.

أجرى ذكره تلميذه العلامة ابن جابر الغساني في شرحه على التلمسانية في الفرائض.

حاله: وصفه تلميذه المذكور بالشيخ الفقيه العلم رافع راية الشعر والأدب في عصره القدوة الأحفل، المتفنن الأكمل، كاتب الخلافة العلية، المخصوص لديها بالمزايا السنية، وأنشده لبعض المشاركة:

مفتاح رزقك تقوي الله فاتقه وليس مفتاحه حرصا ولا طلبا

والعلم أفضل ثوب أنت لا بسه فاجعل له علمين الدين والأدبا

وكان إنشاده إياه البيتين المذكورين برباط الفتحة من مدينة سلا أوائل عام ثلاثة وثمانين وسبعمائة. اهـ.

١٨ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/ ٥٣.

وحكي أنه قدم مكناسة مع أبي العباس أحمد المريني بن أبي سالم ونزل في
مرستان مكناسة لكونه كان خاليا فكتب له السلطان المذكور هذه الأبيات:

يا شاعرا قد خبرناه ففاض لنا بالشعر والكتب من تلقاء نجران
نبئت أنك قد بدلت دارك في مكناسة فشجا من^(١) عندك ابنان
ما زال يتبعك الغاؤون مذ زمن حتى لقد همت في وادي المرستان^(٢)
وأجابه أبو العباس المذكور بقوله:

لما بدا لي في حمي مكناسة مشوى الذين مضوا من الأتراب
أيقنت أنني لست ذا عقل بها أتبع نفسي من هوي وتصابي
فتركت داري لم أعرج نحوها ورأيت مارستانها أولي بي^(٣)

و[قد]^(٤) تنسب له حكاية، وهي أنه كان ذات يوم في طريق مكناسة فبينما
هو في أثنائها إذ سمع هاتفا ولم ير شخصه وهو يقول:

أسرتم^(٥) السابح في لجة ولم تفلتوا ذوات الجناح
هذا وقد عرضتم للفنا فكيف لو خلدتم ياوقاح^(٦)
فأجابه ابن عبد المنان بقوله:

(١) رواية المطبوع: «مكناسة فجشا من عنك ابنان» والمثبت رواية المكناسي في درة الحجال.

(٢) درة الحجال ٥٣/١.

(٣) درة الحجال ٥٣/١.

(٤) من درة الحجال.

(٥) في المطبوع: «أكلتم» والمثبت رواية درة الحجال.

(٦) درة الحجال ٥٤/١.

بالعقل قد فضلنا ربنا وسخر الفلك لنا والرياح
 فالحوت والطير متاع لنا وما علينا فيهما من جناح
 وإن غدونا عرضة للفنا فنقلتنا إلى دار الفلاح
 فإنه يُفْضي إلى دعوة لدار خلد ليس عنها براح^(١)

قال في «درة الحجال» وهذه الحكاية حدثني بها أبو راشد عن شيخه ابن إقمار^(٢) وعن شيخه ابن غازي وأوردها في فهرسته هكذا منسوبة^(٣) له .

وأوردها الصفدي ونسبها لغيره فانظره .

قال وذكرني عن ولد الكاتب المذكور وهو يحيى بن أحمد أنه دخل على مخدومه أحمد المريني بمساء فقال له : مولانا نعم صباحك ، فأنكر السلطان ذلك منه وتوهمه ثَملاً فتفطن الكاتب لما صدر منه فأنشأ يقول :

صباحته عند المساء فقال لي ماذا الكلام وظن ذاك مزاحا
 فأجبتة إشراق وجهك غرني حتى توهمت المساء صباحا^(٤)

وعطس السلطان المذكور يوما وكان ابن عبد المنان حاضرا فقال :

يرحمك الرحمن من عاطس وليهنك الحمد على عطستك
 ويغفر الله لنا كلنا وليسبل الستر على حوبتك

الآخذون عنه : منهم أبو عبد الله محمد بن جابر الغساني حسبما ذكره عن نفسه في شرحه على المنظومة التلمسانية وجماعة .

(١) درة الحجال ١ / ٥٤ .

(٢) في المطبوع : «ابن أكار» والمثبت رواية درة الحجال .

(٣) درة الحجال ١ / ٥٤ .

(٤) درة الحجال ١ / ٥٤ .

وفاته: توفي سنة اثنين وتسعين - بتقديم المثناة - وسبعمائة - بتأخير الموحدة عن السين .

١٩ - أبو العباس أحمد بن سعيد القيجميسي - بفتح القاف والجيم بينهما ياء ساكنة مثناة تحية فميم مكسورة فياء ساكنة فسين بعدها ياء النسبة - المكناسي الورزيغي شهر بالحباك.

حاله: كان فقيها علامة متصوفا شاعرا فصيحاً ظريفاً آية من آيات الله في النيل والإدراك مع حظ وافر من الأدب^(١)، وله ذوق في التصوف تولي الخطابة في المسجد الأعظم من بلده مكناسة الزيتون مدة، ثم خطب بجامع القرويين بعد العبدوسي، ثم عاد لمكناسة فخطب بها، ثم عاد إلى فاس وعزل هو عن الخطابة، والفقيه القوري عن الفتوي، والقاضي الجنباري عن خطته في يوم واحد، ثم طلب للإمامة بجامع الأندلس فأبى، وقال: إن كان عزلي لجرحة فلا يحل تقديمي، وإن كان عن غير جرحة فقبولي من قلة الهمة، أي لأن منصب الخطابة في القرويين أشرف من منصب الإمامة في الأندلس، وقبول الانتقال من الأعلى للأدون انحطاط في الهمة والله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها وهذا ظاهر. وكان يدرس بالمدرسة المتوكلية المعروفة بأبي عنان، كان يسكن بورزيغة من مكناسة الزيتون ومنها ارتحل لفاس.

مشيخته: كان تلمذ وهو صغير لسيدي سليمان الذي قال فيه ابن عباد: ما أعلم أحداً في هذا الوقت أعلم منه بمواجيد القلوب، ولم يفارقه حتى توفي. وأخذ عن العلامة سيدي علي بن يشو التلاجدوتي المكناسي، وعن الشيخ الأستاذ

١٩ - من مصادر ترجمته: التوشيح رقم ١٣ جذوة الاقتباس ١/١٢٧: درة الحجال ١/٨٨،

كفاية المحتاج ١/٦٢، نيل الابتهاج رقم ١١٨.

(١) في المطبوع: «مع حفظ وافر في الأدب» والمثبت رواية القرافي في التوشيح.

ابن جابر الغساني المكناسي، والحافظ أبي القاسم التارغدوري، والحافظ المحدث أبي محمد العبدوسي وغيرهم.

تأليفه: منها نظم مسائل ابن جماعة في البيوع محررة بما وضع عليه الإمام القباب في رجز عذب بليغ أجاد فيه غاية قال ابن غازي: قرأته عليه وأصلح فيه بقراءتي أشياء وأجازنيه، وإنشاءاته وإفادته كثيرة.

الآخذون عنه: أخذ عنه الإمام ابن غازي حسبما أفصح بذلك عن نفسه في روضه، وحلاه بشيخنا الخطيب البليغ أبي العباس أحمد بن سعيد الغيجميسي هـ من خطه.

وفيه الغيجميسي^(١) - بالغين المعجمة بعدها ياء ثم جيم فميم مكسورة مشبعة ثم سين فياء نسب - فانظر مع ما نقلناه صدر ترجمته في النسبة وفق ما صرح به السوداني في تكميله وغيره، وكذا أخذ عنه من في طبقة. شعره: من ذلك قوله:

حضرة ^(١) آس وجمع ناس	وصفوا راح فمن عذيري
راح لها في القلوب قدماً	محض سرور وفيض نور
من يد ساق وأي ساق	قدس في الحسن عن نظير
فأسكر القوم دون كاس	وكان سكري من المدير ^(٣)

وقوله:

بلغت آمالا ونلت مقاصداً	وغدوت ترجي في الأنام وترهب
بهرت محاسنك الأنام فأصبحت	أخبار جودك عن سعود تُعرب

(١) الذي في المطبوع من الروض الهتون - ص ٥٦: «الغفجميسي».

(٢) في المطبوع: «خضرة» بالخاء المعجمة والمثبت رواية المكناسي في درة الحجال، وجذوة الاقتباس.

(٣) درة الحجال ١/ ٨٩.

برعت علاك وحزت كل فضيلة^(١) وطفقت من فلك المعالي تقرب
برقت عيون الحاسدين ونالهم من روع عـزك ذلة وتغلب^(٢)

ولادته: ولد بمكناسة أوائل القرن التاسع أعني سنة أربع وثمانمائة.

وفاته: توفي سنة سبعين وثمانمائة بفاس على ما في «جذوة الاقتباس» عن
نيف وستين سنة كما في «كناشة» سيدي أحمد زروق وفي «درة الحجال» توفي بعد
السبعين وثمانمائة^(٣).

٢٠ - أحمد بن سعيد المكناسي يكنى أبا العباس.

حاله: فقيه خطيب. مصقع وجيه لبيب. أريحي أريب. ذكره في «درة
الحجال».

وفاته: توفي في المحرم الذي هو من شهور سنة اثنين وسبعين وثمانمائة.

٢١ - أحمد بن محمد الحباك المكناسي.

ذكره في الدرة.

حاله: فقيه أستاذ نحوي كان قوالا بالحق، وكان آيه من آيات الله تعالى،
وكان لا تأخذه في الله لومة لائم.

مشيخته: أخذ عن سليمان الشهير ببوغريين^(٤) اليزناسني.

(١) في درة الحجال: «كريمة».

(٢) درة الحجال ٨٩/١.

(٣) درة الحجال ٨٩/١.

٢٠ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ٨٩/١.

٢١ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ٩٤/١، كفاية المحتاج ٧٣/١، نيل الابتهاج ١٤٩/١.

(٤) في المطبوع: «سليمان بن يومين» والمثبت من ترجمته لدى المكناسي في درة الحجال
٣١٢/٣.

وفاته: قال في درة الحجال: توفي مسموما فيما حدثني به شيخنا أبو راشد بعد رجوعه من حركة الصلح مع المريني. اهـ. وذلك سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة.

٢٢- أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني المكناسي.

حاله: إمام علامة واعية مشارك، حلاه العلامة ابن فهد في اجازة له بالشيخ الإمام العلم الأوحد. العلامة الأمجد.

مشيخته: منهم أبو فارس عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد وأجاره عامة كما رأيته بخطه.

وأخذ عن والده الإمام ابن غازي وأجاره أيضا عامة ودونك نص إجازته له نقلا عن خطه:

«أجزت لولدي أحمد ومحمد وللفقيه أبي محمد عبد الواحد نجل العالم المطلق أبي جعفر أحمد بن يحيى الونشريسي، وللفقيه أبي الحسن علي بن موسي ابن هارون المطغري، وللفقهاء الإخوة الجلة أبي عبد الله محمد، وأبي زيد عبد الرحمن، وأبي العباس أحمد أولاد الفقيه المحصل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الدكالي، وللفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد الغزال جميع ما اشتملت عليه فهرستي هذه وذيلها إجازة تامة، مطلقة عامة، بشروطها.

قاله وكتبه العبد الفقير المستغفر محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني، سمح الله تعالى له بمنه والحمد لله وكفي، وسلام على عباده الذين اصطفى».

كما أجاره عامة أيضا العلامة أبو عمرو عثمان بن محمد بن عثمان الديمي المصري، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي، حسبما أفصح بذلك والده في فهرسته وذيلها.

فرع الشجرة الزكية الولي الكبير، العلم الشهير، البركة.

٢٣- سيدي أحمد الشبيه بن عبد الواحد بن عبد الرحمن بن أبي غالب بن عبد الواحد بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن حمود بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت سيد المرسلين. وحبيب رب العالمين، وآله الطيبين.

حاله: علامة نبيل، قدوة جليل، إمام حفيظ، شريف أصيل، صاحب قدم راسخ، وقدر شامخ، عارف ناسك، جهيد مشارك، لقب بالشبيه لما بدا من علامة جده فيه، وهي الخاتم بين كتفيه، ويالها من مزية عظيمة، ومنزلة جسيمة، وقد أثنى عليه صاحب «الدرة الفاخرة» قائلاً:

ثم الإمام أحمد الشبيه	وهو الإمام العارف النبیه
كان به الشبه بالرسول	بخاتم في وضعها المنقول
وجده يحيى الشريف الجوطي	بنسب أفق العـلا منوط
آخر تاسع المئين ولدا	عن ابن يجيش الطريق أخذ
وهي تبلغ إلى الجيلاني	كان له بها علو الشأن
مضي ثلاثة وأربعون	من بعد تسعمائة تعيينا
قبره في مكناسة الزيتون	من باب عيسى جل في العيون

مشيخته: أخذ عن ولي الله تعالى سيدي محمد بن عبد الرحيم التازي المولود سنة أربعين وثمانمائة، وسيدي عبد الله الغزواني، والشيخ أبي عبد الله

محمد الزيتوني دفن المسيلة من بلاد الجريد المتوفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وعن الشيخ أبي محمد عبد العزيز القسطيني المتوفي سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وغيرهم.

الأخذون عنه: منهم الولي المحبوب، أبو زيد عبد الرحمن المجذوب وجماعة كثيرة وطريقته رضي الله عنه جيلانية.

ولادته: ولد رضي الله عنه وعنا به آخر المائة التاسعة.

وفاته: توفي سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ودفن بروضة سيدي عمرو الحصيني وقبره غير معروف لدينا اليوم قالوا إنما كان يعرفه الولي الشهير مولانا عبد القادر العلمي ويقال إن الدعاء عند قبره مستجاب.

٢٤- أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون المسطاسي المكناسي.

حاله: كان فقيها، فاضلا نبيها، وجيها نزيها، قاضيا بالحضرة الهاشمية المكناسية وقفت على رسم مسجل عليه بتاريخ خمس وتسعمائة محلي فيه بالفقيه القاضي بمدينة مكناسة ولم أدر وقت وفاته.

٢٥- قاضيها أبو العباس أحمد بن أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن

القاضي الأعدل الخير الدين أبي العز بن أبي العافية المكناسي.

حاله: فقيه علامة نزيه أعدل قضاة زمانه له معرفة بالفقيه المالكي.

قال في ابتهاج القلوب «وبسبب قضاء أبي العز -يعني جد المترجم- جري عليهم لقب ابن القاضي فيما نظن».

والمترجم هو جد أبي العباس ابن القاضي مؤلف «الجدوة» و«الدرة» وغيرهما من التآليف المفيدة تولى خطة القضاء بمحروسة مكناسة الزيتون.

مشيخته: أخذ عن الإمام ابن غازي وغيره.

وفاته: توفي بفاس المحروسة سنة خمس وخمسين وتسعمائة ودفن بإزاء قبر الولي الصالح أبي عبد الله محمد بن غازي رحم الله الجميع بمه.

٢٦- أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن عبد الله المنجور.
المكناسي النجار، الفاسي الدار والقرار، كذا نسبه غير واحد ممن ترجمه^(١).

حاله: إمام فقيه معقولي، محدث أصولي، آية من آيات الله في المعقول والمنقول وسعة العارضة والاطلاع والمهارة الكاملة في سائر الفنون، كان أحفظ أهل زمانه وأعرفهم بالتاريخ والبيان والمنطق وغير ذلك وكانت له معرفة برجال الحديث شديد العناية بالتحصيل قوي التحقيق حسن الإلقاء والتقرير، معتنيا بالمطالعة والتقييد والإقراء، لا يكل ولا يمل، شعاره الإنصاف في البحث والمذاكرة، يميل مع الحق حيث كان، صافي الذهن حاد الإدراك، مصيب الفهم، ذا خط رائق، وأدب فائق، خدم العلم حتى ألفت إليه العويصات زمامها، وبرز على الأقران، وصار شيخ جماعة الأعلام في وقته، وكان يحض على تعلم سائر العلوم ويقول: إن العلوم كلها نافعة، وكان يبحث عنها ويتعلمها حتى إنه تعلم لعب الشطرنج فأتقنه ومهر فيه وصار المشار إليه بالبنان في معرفة دقائقه وتعلم تلاحين العود فكان يحرك بجسه أوتاره أفئدة العاشقين، جمال حضرة رب العالمين، أما العقائد فهو ابن بجدتها، وانفرد عن أهل زمانه بمعرفة تاريخ الملوك والسير والعلماء على طبقاتهم ومعرفة أيامهم وكانت معه حدة في بعض الأوقات تمنع المتعلم من مراجعته، والإكثار من مباحثته.

وكان مولعا بأمثلة العامة خصوصا عامة الأندلس يستحسن لغتهم ولكتبتهم

٢٦ - من مصادر ترجمته: درة الحجال ١/١٥٦، نيل الابتهاج ١/١٥٥.

ويشني عليهم وعلى بلادهم ويتشوق إليها وكان يقال فيه إن فهمه لا يقبل الخطأ وله صناعة في التدريس يجيد ترتيب النقول ويتأنق في كيفية الإلقاء، وكان من عباد الله الصالحين لا يفتر عن قراءة القرآن إلا في زمن المطالعة أو الإقراء أو ضروريات الإنسان، وكان أروع الناس في النقل، كاد أن لا يفارق لسانه لا أدري أو حتى أنظر أو كلام يقرب من هذا.

وكان دمث الأخلاق رقيق الحاشية متقشفا في الدنيا قانعا بما تيسر من المأكول والملبس لا يحسن تدبير الدنيا قال «في درة الحجال» صارت الدنيا تصغر بين عيني كلما ذكرت أكل التراب للسانه والدود لبنانه.

وفي «كفاية المحتاج» هو آخر فقهاء فاس لم يخلف بعده مثله، وأصله من مكناسة الزيتون كما صرح بذلك غير واحد ممن ترجمه.

مشيخته: أخذ عن اليسيتني وهو عمده، وسقين، وابن هارون، وعبد الواحد الونشريسي، والزقاق وغيرهم ممن اشتملت عليه فهرسته.

الآخذون عنه: أخذ عنه الإمام المولي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني العلوي، وأبو المحاسن الفاسي، وأخوه العارف بالله، وولده أبو العباس أحمد، وأبو العباس ابن القاضي صاحب «درة الحجال» وغيرها. وأجازه عامة قال في درته لازمته كثيرا من سنة خمس وسبعين إلى وفاته وما فارقتة إلا زمن رحلتي للمشرق أو زمن أسري فقط أو مرة أقمتها بمراكش في حياته رحمة الله عليه وأخذ عنه خلق عظيم.

مؤلفاته: منها شرح المنهج المنتخب على قواعد المذهب، وحاشية على كبري السنوسي في العقائد، وأخري صغيرة عليها أيضا، وشرحان على قصيدة ابن زكري في الكلام مطول ومختصر، وفهرستان كبري وصغري، ومراقبي المجد في

آيات السعد، والمختصر المذهب، من شرح المنهج المنتخب، وشرح المختصر. من ملتقط الدرر.

شعره: من ذلك قوله جوابا عن سؤال بعض السنوسيين سأل عنها قاضي الجماعة بفاس عبد الواحد الحميدي^(١):

جوابك في الأولى إباحة أكلها	ومستقذر كل يباح وَصَدَّقِ
وأنكر في التنبيه نجل بشيرهم	إضافة ذا للمذهب افهم ودقق
وقد قيل في الأوزاغ يحرم أكلها	وذلك في الكافي ليوسف فارتق
وميت مجنون جري خلف حكمه	بِعِلْمِ كَلامٍ لا تكن غير متق
وتحقيقه أن الجنون الذي طَرَأَ	يصير كَمَوْتِ فَصْلِ الْحَقِّ تَعَبَقِ
فَأَوْنَةُ بَعْدِ الْبُلُوغِ طُرُوهُ	وحينا يُرَى قَبْلَ الْبُلُوغِ فَطَبَقِ
وَأَوْنَةُ إِثْرِ الصَّلَاحِ وَقَوْعِهِ	وحينا لِعَصِيانٍ ^(٢) الْكَبِيرِ يَلْتَقِي
وحينا يدوم للممات وتارة	يُفِيقُ فخذ حكم الجميع ووثق
ويندب للمسبوق دعوى تشهد	وِفَاقِ إِمَامٍ فِي الثَّلَاثَةِ فَارْتَقِ
وليس له فعل بحال واصله	بِكَسْرِ لِيَاءِ فَكَسْرِ الْعَيْنِ تَرْتَقِي
وجمعك صاعا في القليل بِأَصْوُعِ	وسوغ لضم ^(٣) الواو نهجا وئثق
وإن شئت فاقلبه فيرجع أَصْعَا	بضابط ^(٤) تصريفٍ فللعلم شَوْقِ

(١) الآيات لدى المكناسي في درة الحجال ١/١٥٨، والتنبكتي في نيل الابتهاج ١/١٥٧.

(٢) في المطبوع: «بعضيان» والمثبت من درة الحجال.

(٣) في المطبوع: «لهمز» والمثبت من درة الحجال.

(٤) في المطبوع: «لضابط» والمثبت من درة الحجال.

وصاع كعام عينه فرع ضمة وتحريكه فتح فزْنُهُ وحقق
ومقصود من في العود بدء لغاية فإبليسُ مبدا العود عند الموقف
وجمع سواء فالذي منه جامد بأفعلة فاعلم يقاس ففرق
ومشتقه وزن الخطايا قياسه سوايا به نقل فالمدح فانطق

يعني أن المشتق جمعه مسموع، وأما الجامد فلم يسمع له جمع لكن قياسه
أفعلة كأقبية، قال في نيل الابتهاج إثر نقله لهذا الأبيات ما نصه:

«وهذه الأبيات أرويهها عن صاحبنا قاضي تامسنا إبراهيم الشاوي عنه»^(١).

ولادته: ولد عام ستة وعشرين وتسعمائة.

وفاته: توفي يوم الاثنين سادس عشر القعدة الحرام سنة خمس وتسعين
وتسعمائة كذا في «الدرة» والذي في نيل البتهاج أنه توفي نصف ذي القعدة ليلة
الاثنين والخطب سهل.

٢٧- أبو العباس أحمد بن عمر الحارثي السفيناني.

نسبة لفخذ من قبيلة الغرب المشهور.

حاله: كان من أكابر الصالحين عارفا بالله تعالى رطب اللسان بذكره تعالى
لا يفتر لسانه عن ذكره وكان دأبه أن يخبط أطباق العزف والقفاف فلا يدخل الخيط
ويخرجه في كل مرة إلا بكلمة الهيلة شأنه مراقبة مولاه، في سره ونجواه،
والدلالة عليه.

مشيخته: أخذ عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب
دلائل الخيرات.

(١) نيل الابتهاج ١/١٥٨.

٢٧ - من مصادر ترجمته: دوحة الناشر في موسوعة أعلام المغرب ٢/٨١٤.

الآخذون عنه: منهم الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسى السفيناني الأصل ثم المختاري شيخ الطائفة العيساوية، ومنهم السيد عمر بن مبارك الحصيني من قبيلة حصين - بالتصغير - دفين مكناسة الزيتون والسيد سعيد بن السايح المالكي من عرب بني مالك، وغيرهم.

وفاته: توفي في العشرة الأولى من القرن العاشر وقبره مشهور ببلدتنا المكناسية عليه مزاراة جليلة خارج باب السبية أحد أبواب المدينة.

٢٨- أحمد بن إبراهيم الأوسي الجنّان أبو جعفر.

من جملة شيوخ مكناسة الذين لقيهم ابن الخطيب عام إحدى وستين وسبعمائة حسبما ذكره في رحلته المسماة «بنفاضة الجراب».

حاله: كان فقيها عدلا اخباريا مشاركا من أهل الظرف والانطباع والفضيلة عاقدا ناظما ناثرا مشاركا في فنون من العلم.

مصنفاته: منها المنهل المورود في شرح المقصد المحمود، في ثلاثة أسفار شرح فيه وثائق ابن القاسم الجزيري فأربي على الإجادة، بيانا وإفادة، قال ابن الخطيب ناولني إياه وأذن في حمله عنه وأنشدني كثيرا من شعره.

شعره قال في صدر رسالة يهني بها ناقها من مرض^(١):

البس الصّحة بُردا قشيبا	وارشف النعمة ثغرا شنيبا
واقطف الآمال زهرا نضيرا	واعطف الإقبال غصنا وطيبا ^(٢)
إن يكن ساءك وعكُ تُقضي	تجد الأجر عظيمما رحيبا
فانتعش دهرك ذا في سرور	يصبح الحاسد منه كئيبا

٢٨ - من مصادر ترجمته: نفاضة الجراب - ص ٣٧٦.

(٢) نفاضة الجراب - ص ٣٧٦.

(٣) في المطبوع: «رطيبا» بالراء، والمثبت من النفاضة.

ومنه أيضا ما رقم في الدور الخشبي الذي بالدار التي كان نزل بها ابن الخطيب عند حلوله بالديار المكناسية وهو قوله^(١):

انظر إلى منزل إذا نَظَرْتَ	عيناك يعجبك كل ما فيه
ينبيء عن رفعة لما لكه	وعن ذكاء الحجا لبانيه
يناسب الوشي في أسافله	ما يرقم النقش في أعاليه
كأنه روضة مُدَبَّجَة ^(٢)	جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها	وأوقفتها على تحليه
فهو على بهجته تلوح به	ورونق للجمال يبيديه
يشهد للساكنين أن لهم	من جنة الخلد ما يحاكيه

في أبيات آخر.

قال ابن الطيب: وفاتحته محركا قريحته ومستثيرا ما عنده بقولي:

إن كانت الآداب أضحت جنة	فلقد غدا جنانها الجنان ^(٣)
أقلامه القضب اللدآن بدوحها	والزهر ما رَقَمَته منه بنان

قال فراجعني الجنان بما نصه:

يا خاطب الآداب مهلا فقد	ردك عن خطبتها ابن الخطيب ^(٤)
هل غيره في الأرض كفؤ لها	وشرطها الكفاة قول مصيب

(١) نفاضة الجراب - ص ٣٧٦.

(٢) في المطبوع: «مدجلة» والمثبت رواية النفاضة.

(٣) نفاضة الجراب - ص ٣٧٧.

(٤) نفاضة الجراب - ص ٣٧٧.

أصبح للشرط بها معرسا فاستفت في الفسخ فهل من مجيب؟

نثره: قال يخاطب ابن الخطيب: «أيها السيد الذي يتنافس في لقائه ويتغالي. ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى^(١)، وتستتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه، وتقتنص شوارد العلوم برواية كلامه، فكيف بمدانة عيانه، جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد، وأقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهد، واقتنصت بِشْرَكَ^(٢) بديهتك من المعاني^(٣) أوابد شوارد، وفَجَّرْتَ من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد، ثم كلفتنى من إجراء ظالعي^(٤) في ميدان ضليعها، مقابلة الشمس النيرة بسراج عند طلوعها، فأخلدت إخلاء مهيض^(٥) الجناح، وفرت فرار الأعزل عن شاكي السلاح، وعلمت أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة، وأدليت دلو قريحتي للمساجلة، كنت كمن كلف الأيام رجوع أمسها، أو طلب ممن علتها السماء محاولة لمسها، وإن رضيت من القريحة بسجيتها^(٦) وأظهرت القَدْر الذي كنت امتَحْتُ^(٧) من ركبته. أصبحت مسخرة للراوين^(٨) والسامعين، ونبت عن أسمي دواوينهم كما تنبو عن الأشيب عيون العين ثم إن أمرك يا سيدي لا يَحُلُّ وثيق مبرمه، ولا يحل نسخ محكمه، فامتثلته^(٩) امتثال من لم يجد في

(١) في المطبوع: «ويعالى» والمثبت رواية نفاضة الجراب.

(٢) في المطبوع: «بشرارد» والمثبت رواية النفاضة.

(٣) في المطبوع: «المعالي» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٤) في المطبوع: «طالعي» والمثبت رواية ابن الخطيب، وبهامشه: «الظالع الذي أصابه الظلع وهو شبه العرج».

(٥) في المطبوع: «قبض» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٦) في المطبوع: «بسيمتها» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٧) في المطبوع: «استمحت» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٨) في المطبوع: «للرايين» والمثبت رواية ابن الخطيب.

(٩) في المطبوع: «فامتثلت» والمثبت رواية ابن الخطيب.

نفسه حرجاً من قضائك، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك، أبقاك الله قطبا لفلک المكارم والمآثر، وفصلاً خاتماً المحامد والمفاخر والسلام^(١)».

٢٩- أبو العباس أحمد بن سعيد المجلدي^(٢).

حاله: شيخ الجماعة في إلقاء المختصر الخليلي محصل لمنطوقه ومفهومه، كثير الممارسة له، يختمه كل سنة، مستحضر للنوازل، عارف بإدراج الجزئيات تحت الكليات، ماهر في ذلك، حسن الأخلاق، لين العريكة، منصف متواضع، له إشراف تام على السير، ومشاركة وافرة في فنون عديدة نفع الله بعلمه جما غفيراً من الأعيان.

ولي قضاء فاس الجديد أزيد من أربعين سنة، فحمدت سيرته، ولم يحفظ عنه ما يشين عرضه ولا ما يغض من جلالته منصبه.

وولي قضاء مكناسة الزيتون بعد عزل القاضي أبي مدين عنها، وذلك أواسط شوال عام ثمانية وثمانين وألف كما أفصح بذلك الضعيف في «تاريخه» وقد وقفت على عدة خطابات له تدل على ذلك.

مصنفاته: منها اختصار المعيار في مجلد ضخمة، وشرح على المختصر الخليلي سماه أم الحواشي يبين فيه الصورة أو لا بما فهمه ثم ينقل ما يناسبه من كلام الأئمة، ثم ينقل سائر لفظ الحواشي السابقة عليه، ومؤلف في الحسبة سماه «التيسير في أحكام التسعير» وقفت عليه في نحو الكراسة.

مشيخته: أخذ عن أبي محمد عبد القادر الفاسي، وأبي سالم العياشي وأجازاه الأخير عامة كما أخذ عن غيرهما.

(١) الخبر بطوله لدى ابن الخطيب في نفاضة الجراب - ص ٣٧٧.

(٢) في المطبوع: «المجلدي» والمثبت في نشر الثاني.

٢٩ - من مصادر ترجمته: نشر الثاني ١٦٦٧/٤ في موسوعة أعلام المغرب.

الآخذون عنه: منهم أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي كما في «نشر
المثاني» وناهيك به. قال اليوسي في «فهرسته» أخذت عنه رسالة الأسطربلاب،
وشيئا من الحباكية وشيئا من القلصادي، وحضرت عنده خليلا وأثنى عليه رحم
الله الجميع.

وفاته: قبضه الله إليه مغرب يوم الاثنين خامس عشري صفر عام أربعة
وتسعين وألف ودفن ظهر الغد خارج باب محروق أحد أبواب فاس.

٣٠- أبو العباس أحمد الغماز أستاذا.

حاله: كان شديد الحفظ للقرآن العزيز يسأل عما قبل الآية فيجيب مسرعا
وكان أستاذا الإقراء، وأستاذا الغناء، وكان له تلامذة يحسنون الصنعتين.

٣١- الشاب أبو العباس أحمد بن عمر بن مبارك الحصيني المكناسي.

حاله: فقيه من أعيان أهل مكناسة ذكره الغزال في تأليفه الذي تعرض فيه
لترجمة الشيخ الكامل السيد محمد بن عيسى دفين خارج بابي السبية والبراذعين
من مكناسة الزيتون قائلًا فيما حكاه عن السيد محمد بن عمر بن داود المختاري
أحد تلاميذ الشيخ المذكور، من أنه كان يوما بين يدي شيخه ابن عيسى إذ جاء
الشيخ شاب فقيه من أهل مكناسة ومن أعيانها وعليه أثر الغبار، فجلس أمام
الشيخ وصار يبكي بكاء شديدا، فقال له الشيخ: ما يبكيك يا فقيه؟ فأخبره عن
والده أنه سار إلى رحمة الله وله مدة يسيرة وأنه رآه الليلة في النوم وذكر له أنه
يعذب في قبره، وأنه أمره بالتوجه إليه لعله أن يدعو الله له أن يخفف عنه
العذاب، فقال له الشيخ: نعم، وبسط كفيه وقال: اللهم بجاء سيدنا ومولانا
محمد صاحب الجاه العظيم عندك خفف عن والده العذاب، وأمنّا نحن على
دعائه، ثم إن الشاب قبل يد الشيخ وقام وهو مسرور وأيقن بالفرج لما يتحقق من
إجابة دعائه رضي الله عنه.

ثم بعد ثلاثة أيام أقبل المترجم على الشيخ عند صلاة الصبح فصلاها خلفه وعليه آثار الفرح والسرور، ثم بعد الفراغ قام وجلس أمام الشيخ وقبل يده وقال: يا سيدى، رأيت البارحة والدى وهو فى غاية السرور، وعليه عباءة خضراء، وقال: يا ولدى قد رفع الله عنى العذاب ببركة دعاء الشيخ، فعليك يا بنى باتباعه وصحبته، ثم دخل الشاب المترجم فى عهده وصحبته وصار من المفتوح عليهم. قال: وهذا الشاب الفقيه هو الشيخ سيدى أحمد بن عمر بن المبارك الحصينى رضى الله عنه.

مشيخته: أخذ عن الشيخ ابن عيسى وغيره.

٣٢- أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد المكناسى الزناتى الشهير بابن القاضى.

من نسل موسى بن أبى العافية.

صرح هو بذلك فى كتابه جذوة الاقتباس.

ورفع نسبه فيه إليه، ثم إلى مكناس بن مصطفى، ثم تبرأ من فعل جده ابن أبى العافية مع أهل البيت وهو ممن شمله عموم قول ابن غازى فى "روضه" لى تعداده علماء مدينة مكناسة الزيتون، إذ قال: ومنهم بنو العافية.

حاله: كان فقيها مشاركا مؤرخا ضابطا نقادا مطلعاً ثباتاً وجيهاً متقناً حيسوبياً فرضياً له معرفه بالتاريخ والفقه والفرائض والحساب والهندسة وتولى القضاء بسلا فحسنت سيرته وحمدت.

مشيخته: أخذ عن عدة شيوخ فى المغرب، منهم: أبو القاسم المنجور، ومفتى مراكش أبو محمد عبد الواحد السجلماسى الحسنى العلوى، وأبو زكرياء يحيى السراج، وأبو عبد الله بن جلال، وابن مجبر المسارى، والشيخ القصار، والشيخ أحمد بابا السودانى. ثم رحل إلى المشرق فأخذ به عن عدة شيوخ أيضاً، وكان يتردد إلى الشيخ أبى المحاسن الفاسى ويحضر مجالسه.

٣٢ - من مصادر ترجمته: نشر الثانى ١٢٢٩/٣ فى موسوعة أعلام المغرب.

تأليفه: منها جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ومنها درة الحجال في أسماء الرجال. والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور، ولفظ الفرائد من لفاظة حلو الفوائد، وله نظم ذيل به رقم الحل لابن الخطيب، وغنية الفرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض، والمدخل في الهندسة، ونظم تلخيص ابن البناء، وكتاب نيل الأمل فيما بين المالكية جري العمل، وفهرسته المسماة بزائد الصلاح، وله كلام على جداول الحوفي وتقاييد.

محتته: كان في رحلته إلى الحج ركب البحر فأسر بيد النصاري وأذاقوه النكال الأليم والبلاء العظيم، من الجوع والضرب والتكليف بما لا يطاق، وقد كان المنصور - رحمه الله - كتب في شأنه لقواد الثغور بالبحث عن مستقره في أي موضع من بلاد النصاري لتعلق همته العلية بإخراجه من ربة الأسر تعظيما لقدره حسبما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه المنتقى.

وكان أسره في يوم الخميس رابع عشري شعبان عام أربعة وتسعين، فتكون مدة أسره نحو أحد عشر شهرا، افتداه المنصور بما يعدل عشرين ألف أوقية من الذهب، بعد أن كان النصاري إنما طلبوا فداءه بكلب تعتا.

شعره: من ذلك قوله مستعطفا ومستصرخا المنصور الذهبي لفدائه من الأسر:

تجلت عن المعاني الأسير المكبل	همومُ سرت في الجسم في كل مفصل ^(١)
بذكر الإمام الهاشمي الذي سما	بسيمة خير الخلق في كل محفل
إمام العلا المنصور فخر أئمة	به قد تحلي كل جيد معطل
به راق وجه الأرض وافتر ثغره	وحلي جيد منه بالدر والحلي
إمام همام همه طول همه	ظبي ماله ^(٢) عين المعالي بصيقل

(١) نشر الثاني - ص ١٢٣١ في موسوعة أعلام المغرب.

(٢) في المطبوع: «بانة» والمثبت من نشر الثاني.

فكم تضحك الخيرات في بطن كفه
وكم جاور الغايات حتى لو أنه
فَغُرُّ^(٢) الليالي من سناه توقدت
زكيّ زهيّ للسماح سماؤه
إمام الهدى بحر الندي قسور الردى
بحق الذي ولاك^(٣) ملكا فنجنى
وكن يا إمام العدل في عون حائر
لقد مزقت أيدي الزمان وريده
وأخني عليه الدهر من كل وجهة
فعافاك رب العرش يا ملك العلا
ولا زلت حج المعتفين وكعبة

ويبكي^(١) دماء كل رمح ومنصل
أراد الثريا أمها في التنزل
ضياءً بنور بالخلافة مشعل
جناح لنسر النصر في كل محفل
إلى المعتفي والفاجر المتضلل
من الهلك يا قصد السبيل المكبل
أسير كسير ذي جناح مذل
ودارت عليه الدائرات كجلجل
وداست عليه النائبات بأرجل
ودمت أماما في علاء مزمل
مطافا لأهل الفضل في كل محفل

ولادته: ولد عام ستين وتسعمائة.

وفاته: توفي عام ألف وخمسين وعشرين وقدر المكلا تي لوفاته بحروف
(وهو شهاب) في قوله:

وخر شهاب الدين أحمد من به (وهو شهاب) ظلمة الليل تنجلي

(١) في المطبوع: «وتبكي» والمثبت رواية نشر الثاني.

(٢) في المطبوع: «فعز» بالعين المهملة والزاي، والمثبت رواية نشر الثاني.

(٣) في المطبوع: «أولاك» والمثبت من نشر الثاني.

٣٣- الولي الشهير. المجذوب الكبير. سيدي أحمد بن بلعيد المدعو ابن خضراء.

من بهاليل مكناسة الزيتون.

حاله: كانت حالته حالة الغائبين المحبوبين له كرامات كثيرة. وأخبار بالمغيبات شهيرة. قال في «نشر الثاني» يتحققون ذلك أهل باده ويتحدثون عنه بعجائب.

مشيخته: أخذ عن سيدي محمد الشرقي، قال في النشر: والتاريخ يقبله، إذ كان لصاحب الترجمة علو في سنّه، لأنه تقدم أن وفاة سيدي محمد الشرقي في العام العاشر بعد الألف وتوفي صاحب الترجمة عام خمسة وسبعين بموحدة وألف، فبين وفاتيهما نحو خمس وستين سنة، وعمر صاحب الترجمة قرب المائة[٢].

والذي في لوح خشب منقوش مبني عليه صدر جدار المباح يمين الداخل لضريح المترجم أنه أخذ عن سيدي عبد السلام الشرقي، وهو أخذ عن والده سيدي محمد فيكون أخذ عن سيدي محمد بواسطة والده سيدي عبد السلام، وقد رفع سنده في ذلك اللوح إلى النبي ﷺ وعلى آله وصحبه.

وفاته: توفي عن سن عالية في منتصف رجب الفرد عام خمسة وسبعين بموحدة وألف، وضريحه بمكناسة شهير من المشاهد المتبرك بها رحمه الله ورضي عنه.

٣٤- أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب بن موسي بن الشيخ سيدي محمد بن مبارك التاستاوتي^(٣).

٣٣ - من مصادر ترجمته: نشر الثاني ١٥٢٧/٤ في موسوعة أعلام المغرب..

(٢) نشر الثاني - ص ١٥٢٧ - ١٥٢٨ في موسوعة أعلام المغرب، وما بين حاصرتين منه.

٣٤ - من مصادر ترجمته: نشر الثاني ١٩٥٤ / ٥ في موسوعة أعلام المغرب.

(٣) في المطبوع: «التستوتي» والمثبت من نشر الثاني.

الولي الصالح العارف الشهير من حفدة الشيخ أبي عبد الله محمد بن مبارك
الزعرى .

حاله : كان عالما عاملا، عارفا كاملا، ممتع المجالسة آية في نيل الفضائل .
ومعرفة حقوق الأفاضل، فمن ذلك أنه كانت وقعت وحشة بينه وبين الشيخ
الكامل، العارف الواصل، سيدي أحمد بن ناصر، فبقي مرة يترضاه، ويستنزل
بمحاسن أدبه رضاه . إلى أن لبي مناديه، فدعا لتلقي تلك المنة نادية، واستدعي
الناس لحضور ذلك المهرجان الدعاء العام، وذبح كل ما ملكت يمينه من الأنعام،
وأوقد لقراءة كتاب الشيخ الشموع بالنهار، وكاد أن يجري لكثرة ما ذبح من الدماء
الأنهار، وأخرج من الفرش المرفوعة ما قدر عليه، وقام عاري الرأس حافي
القدمين لقبض الكتاب الكريم الذي ألقى إليه .

وإذا لم يكن من الذل بد فائق بالذل إن لقيت الكبارا

ليس إجلالك الكبار بذل إنما الذل أن تجل الصغارا

ومن ذلك أنه وفد على صاحب الترجمة فتية من أولاد الشيخ أبي يعزى في
خروجهم لصيد فأكرمهم وطعموا وشربوا وحين خرج ليشيعهم وجد كلابا بالباب
أعدوها لصيدهم، فقال: لمن هذه ؟ فقالوا: لنا، فعاتبهم حيث، لم يخبروه بها،
قائلا: أليس بعار أن تكون هذه الكلاب تصطاد لكم وتنزهكم ثم تدخلون
وتتركونها ولا تخبروني بمكانها! ما هذا شأن صحبة الكرام، ثم أقسم أن لا
ينصرفوا حتى يصنع للكلاب طعاما وأخذ في مداعتهم ومحادثتهم ومؤانستهم
حتى حضر طعام الكلاب، فوضعه بين يديها ووقف عليها بنفسه حتى أكلت
فودعهم وانصرفوا شاكرين .

قال أبو القاسم العميري: دخلت عليه في يوم الذي توفي فيه فوجدته جالسا على صندوق مرتفع عن الأرض، فقال: لي: إنما جلست هنا لأني صليت عليه هذه الصلاة يعني الظهر ويشق على إن نزلت أن أصعد لصلاة العصر فمات قبل العصر أو بعده.

ذكر لي يوما بآفته وأن من قوته فيها أنه إذا كان في داره لا يصلي صلاة من الصلوات إلا بغسل من جنبه، وكان إذ ذاك متسع الحال في المناكح والسراري، وتأتي له من ذلك ما لم يتأت لمثله، وكان له حسن بدهة في النظم حتى إنه قد يكتب الكتاب وحامله حاضر ينتظره له كأنه يحفظه.

مؤلفاته: منها نظم تمتع الأسماع وشرحه، ونظم رجال التشوف وشرحه، ونظم رجال القشيرية وشرحه، وله كتاب النزهة ضمنه رسائله في جزئين، وله ديوان شعر في ثلاثة أجزاء ضخام وقفت على جزء منها في القالب الكبير، وله أسئلة فقهية لعلماء وقته، وتقاييد مفيدة تدل على تضلعه واقتداره وشفوف مكانته وعلو همته وتفوقه على أترابه.

شعره: من ذلك قصيدته الدالية في مدح خير البرية، عارض بها دالية الشيخ اليوسي في مدح شيخ السنة وإمام الحقيقة سيدي محمد بن ناصر الدرعي ومطلعها.

عرج بأطلال الأحبة واقصد	آثارهم يوما لعلك تهتدي
وأجز إذا جئت الديار بمنزل	قد ضم أجدات المشير الهمد
ولهيب قلبك إن أردت شفاءه	فأت الربوع تريح قلب الأكمـد

إلى أن قال:

فوق المطايا عاشقون لأحمد	لولا النوى ما أقبلت من مغرب
وبكي لرؤية وجهه ذو أكمـد	صلى عليه الله ما هبت صبا
واذهب على الوجنت غير منكـد	بادر لزورته إذا ما اشتقته
وسمن بالأخفاف خد الأجلـد	ودع المطي بأرجل تشم الحصي
وسمن بالركبات كل مبلـد	وسمن كل مخيل من بارق
ولهن سبـح في سراب صيـهـد	يعطش بالفلوات مثل ضبابها

وهي طويلة تنيف على الستمائة بيت وكان إنشاؤه لهذه القصيدة سنة خمس وعشرين ومائة وألف.

ومن ذلك قوله في ثاني ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وألف:

واستزادت فما لها من نفاد	عظمت نعمة الإله علينا
وامتنانا ورحمة في أيادي	كل يوم نري من الله فضلا
ها نزلنا منازل الإبعـاد	لو نجازي على ذنوب جنينا
واهتدينا بنور أشرف هادي	فعفا رحمة ومنا علينا
زان ما في الأغوار والأنجاد	أحمد المصطفى الذي من سنـاه
شاد من حاضر الأنام وباد	واهتدي كل سالك طرق الإـر
فبق من رائح إليه وغاد	وارتدي كل رائد منها التـو

إلى أن قال:

والنبي الكريم رحب النـادي	عجبا كيف يدرك المرء هون
---------------------------	-------------------------

لذ به متوسلا تبلغ المأ مول في القرب من رحيم جواد

وقوله في سنة ست ومائة وألف:

أراذك أن شمت الطلول الدوارسا كأن لم تري فيها البدور الأوانسا
وهل هاج منك الدمع لما رأيتها تذكر ظبي كان قبل مؤانسا
نعم رحل الأحباب منها وأودعوا جوي للحشا في كل وقت ملابسا
بكيت فلم تطف المدامع لوعتي وأصبحت من شوق من الصبر آيسا
وما كنت أدري البين حتى تحملوا ولا كنت من قبل التفرق عابسا
ولما استقلوا ظاعنين وخيموا بسلع أراني بعد ذلك ناكسا
كأنني من شجو فقدت ابن ناصر ولم أر شيئا شامخ المجد رائسا

وقوله من قصيدة:

إذا أنا باينت البلاد وأهلها وفارقت أهلي وابعدت عن الولد
ومت على دين النبي محمد فقد نلت آمالي وما خفت من كمد

نشره: من ذلك قوله في طالعة الجزء الثالث من ديوانه الشعري ولفظه:

«الباب الرابع من أبواب هذا الكتاب الشامخ المقدار، في ذكر ما فتح الله به علينا من مستملحات الأشعار، وهو باب اتسعت دائرته، وقويت عارضته، وجمع من رقيق المعاني، ودقيق البيان اللساني ما فيه مستراح للالباب، وارتاح للأحباب، فما شئت من جد مفروغ في قالب الهزل منسوج على منوال الجد الرفيع، فروضته الغناء لا تنفد أزهارها، ولا تفرغ من الثمار أشجارها، دانية المرام، غير مستصعبة على الأفهام، وقد رأيت أن أبتدئه بقصائد نبويات وأخري بذكرى الصالحين مشرفات، ثم أسكبه سكباً، وأذكره فاكهة وأبا، متاعاً لكم ولأنعامكم، ونزهة لأرواحكم وأجسامكم، والله المستعان، وعليه التكلان.

مشيخته: منهم السيد عبد الكريم الجزيري أخذ عنه سند المصافحة، وهو عن سعيد قدورة، عن سعيد المقرئ، عن أحمد حجي، عن محمد الوهراني، عن إبراهيم التازي، عن صالح الزواوي، عن محمد الشريف الفاسي نزيل الجزيرة، عن والده عبد الرحمن وعاش أربعين ومائة سنة، عن أحمد بن عبد القادر القوصي، عن أبي العباس المثلث وهو صافح المعمر وهو صافح رسول الله ﷺ.

وله سند في المصافحة عن سيدي عبد القادر الفاسي وأجاره، وقال له: صافحتك بما صافحني به الأشياخ إلى أنس بن مالك قال: صافحني رسول الله ﷺ فلم أر خزا ولا قزا كان ألين من كف رسول الله ﷺ الحديث فيه روايات.

قال صاحب الترجمة في كتابه «نزهة الناظر» وصافحني أيضا سيدي محمد ابن ناصر الدرعي، وأجازني عن أشياخه الذين صافحوه إلى النبي ﷺ. اهـ. بنقل صاحب الأزهار النادية ومن معتمد إمام السنة، وأعظمهم عليه منة، شيخ الشريعة والحقيقة سيدي محمد بن ناصر الدرعي وعلى يديه فتح له.

الآخذون عنه: أخذ عنه العلامة الطيب السيد عبد القادر بن العربي بن شقرون المكناسي، وأحمد بن أبي عسرية بن أحمد بن أحمد بن يوسف الفاسي في خلق.

محنته: سجن سنة أربع ومائة وألف بحبس فاس الجديد، لو شاية بعض أقاربه به للسلطان الأعظم سيدنا الجدة الأكبر مولانا إسماعيل ثم سرحه وحمله ذلك على استيطان مكناسة الزيتون فرحل إليها، ولم يزل بها إلى أن توفي بها.

وفاته: توفي رحمه الله ليلة الأربعاء فاتح رجب سنة سبع وعشرين ومائة وألف، ودفن قرب روضة الشيخ عبد الله بن حمد خارج باب البراذعين، وقبره هنالك مزاراة شهيرة عليه بناء لأباس به، وله عقب ببلاد زعير يقال لهم القادريون.

٣٥- أبو العباس أحمد الخضر بن أبي عبد الله محمد بن أبي محمد عبد
القادر زغبوش المكناسي النشأة والدار.

حاله: فقيه عدل ثقة مبرر وقور، صالح فالح بار مشكور، محمود الغريزة والطبع، معدود فيمن يترقب به للمعضلات الدفع، نبيه العقل وجيه في عهد الفضل، نجدة في الفهم، عمدة فيما يلم، منظور إليه من الجلالة السلطانية الإسماعيلية بعين الإكبار، مسبول عليه من لدنها رداء الوقار والفخار، وناهيك بمن يبجله ذلك الإمام، وأعظم بمن كان له منه ذمام.

فقد وقفت على ظهير إسماعيلي يبرهن عما للمترجم من شفاف المكانة لدي سيدنا الجدل المذكور ودونك نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وسلم تسليماً، من الأمر العلى الإمامي المؤيد المنصور الإسماعيلي أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني، وبداخل طابعه إسماعيل بن الشريف الحسني الله له صدر هذا الظهير الزعيم، والأمر المطاع الجسيم، وهو الذي أعلن لماسكه بالرتبة المخصوصة بالتنويه، وشيد للمعتمد على الله وعليه مباني الاجتناء والتنويه، من الاعتناء الإمامي السلطاني الإسماعيلي الشريفني أبرم الله معاقده، وأجمل من إحسانه الجميل مساعيه ومقاصده، آمين يا رب العالمين.

يستقر بحول الله وقوته بيد الأرضي الأحظي المرضي الأبر الأحفل الأنبل خديم الجناح الأسمى، والملاذ الأحمي، أبي العباس أحمد الخضر نجل الفقيه العدل أبي عبد الله محمد نجل الفقيه العدل أحمد بن عبد القادر دعي بزغبوش، حفيد الولي الصالح الزاهد الناسك قطب المشايخ الأعلام، وتاج الأولياء الصالحين الكرام، سيدي مغيث نفعتنا الله ببركاته، وأفاض علينا وعلى بنيه من أسرارهِ ونفحاتهِ، اقتضى له ما يتوخى به الولاء الصريح، والصفاء الصحيح، من تكريم واضح الرسوم والإيثار، وتتميم لمواهب الاستصفاء الآمنة من الإبتار، اعتناء بقدرة الذي سمت به رياسة أسلافه في أعلى المظاهر، وممت بطرق العلم والعمل والمحبة

في جانب الخلافة المؤيدة بالود الباطن والظاهر، فاتخذ حفظه الله هذا الأمر الكريم راية يتناولها باليمين، لا يعترئها بحول الله ومنه الانفصام إلى يوم الدين، إنعاماً عليه بالعناية والتوقير الذي لا ينسخ حكمه، ولا يبید بحول الله وقوته على تعاقب الأيام رسمه، رعيًا لما له من الخدمة والسبقية والنصيحة التي لاحت غرراً في وجه الزمان البهيم، والأمور التي توصل بها أدام الله عليه نعمته في الحديث والقديم، ومن كثرة الاعتناء بشأنه والتنويه بمقدار حكمه.

وقع له أيده الله بعد صلاة الجمعة من تاريخه بمحضر العلماء الجللة وفقهاء الملة والأشراف والكتاب والحجاب وأعيان القواد، المتصرفين تصرف الحق في البلاد، أن لا حكم عليه لأحد مدة حياته، فبينه وبين مولانا الإمام فيما ذا عسي أن يكون من تصرفاته، ولا كلام له مع أحد من القواد ولا من العمال والولاة بوجه من الوجوه، اللهم إلا إذا كانت بينه وبين أحد من الناس دعوي شرعية فأحكام الشرع العزيز تجري على كل مسلم بمقتضاها، ولا سبيل لمؤمن موحد أن يتعداها أو يتخطاها، بهذا قضي وأمر صاحب الأمر المطاع وألزم أن يخط هذا في الدواوين والرقاع حكماً التزمه أيده الله بروراً بخديمه المذكور، فلا سبيل لمن يتعقبه على مر الليالي والدهور، والواقف يعمل به والسلام وكتب في العشر من رمضان عام ثلاثة ومائة وألف.

ومن عظيم منزلة المترجم لدى السلطان المذكور، وكمال رفعه على ألوية البرور، أن كتب له كتاباً بخط يمينه أعرب له فيه، عما له من شرف المكانة لديه، مما هو فوق مناه حسبما وقفت على ذلك فتدبر تدبر الخبير، وأنقد نقد الذكي البصير، لما لهذا الإمام العظيم الشأن من إنزال الناس منازلهم وإعطاء كل مستحق ما استحق مما هو الأولى به والأحق.

وعلى نهجه وطريقه في اعتبار المترجم والتنويه بقدره، وإشادة منار فخره، نهج ولده وخليفته سيدنا الجد مولانا زيدان فقد وقفت على كتاب حافل له أصدره بتقرير ظهير والده والأمر بالوقوف عند حدّ أوامره المطاعة بالله بتاريخ عشري قعدة

الحرام، عام أربعة ومائة وألف، تركت نصه اختصارا ووقفت على تحليلته في بعض العقود الحبسية بأوصاف عالية غالية.

٣٦- أبو العباس أحمد بن محمد بصري.

حاله: فاضل محلي بالأحظي الأجل، الأنوه الفقيه النبيه الأمثل، كان بقيد الحياة في العصر الإسماعيلي حسبما يظهر من ظهير إسماعيلي منوه فيه بقدر بيتهم الفخيم بتاريخ ربيع النبوي عام اثني عشر ومائة وألف، محلي فيه المترجم بالأوصاف المذكورة وسيأتي نص الظهير في ترجمة محمد بن عبد الرحمن بصري خاتمة الحفاظ والقراء من حرف الميم بحول الله.

٣٧- القاضي أبو العباس أحمد بن ناجي السجلماسي الأصل المكناسي الوفاة والإقبار.

حاله: فقيه علامة محقق مشاور، معظم للعلم وذويه، ذو جاه ووجاهة، وعلو مكانة، ونفوذ كلمة عند سائر الطبقات، ولي قضاء فاس وعزل عنه وكان يتعاقبه مع القاضي أبي عبد الله بردلة، وقد كان أواخر القرن الحادي عشر تولي قضاء الرباط، وسلا، ثم قضاء فاس، ثم قضاء مكناسة. وقفت على عدة رسوم بخطاباته والتسجيل عليه محلي فيها بأوصاف عالية.

ووقع في أيام قضاائه أن اليهود جاءوا إليه بنسخة رسم وأدلوها بها لديه، يتهزون الفرصة فيه بخطابه عليه. ويتعززون بما وصلوا منه إليه، وحين صدروا عنه ثار في أثرهم بالطلب، فأخذوا واستخرج منهم الرسم المجتلب، وانتهى الخبر لمولانا إسماعيل فنالت عقوبته جميع من بياالته من اليهود. وأغرهم عليه أموالا بوظيف غير معهود، ونص ما في تلك النسخة بعد البسملة والصلاة:

«هذا ما عهد به مولانا محمد رسول الله ﷺ لموسى بن حيي بن أخطب وأهل بيت صفية زوج النبي ﷺ، لهم أمن الله عز وجل وأمن رسوله لشاهدهم

٣٧ - من مصادر ترجمته: نشر المثاني ١٩٤٣ في موسوعة أعلام المغرب.

وغائبهم وذامهم لا يحصرون ولا يغزون، ولا يطاء أرضهم جيش، ليس عليهم نزل ولا ربط ولا كسح، وعلى من أحب رسول الله أن يؤمنهم لزمة الله وزمة رسوله، ولهم ربط العمائم وأمر على اليهود، ثم لهم بعد هذا ما افترض رسول الله ﷺ أربعة دراهم في الشهر إن كان عليهم مقدرة فمن خالف كتابنا هذا الذي كتبناه لهم، وعهدنا الذي عاهدناهم، فذمتي منه برية وأنا بريء منهم، وأنا خصيمهم يوم القيامة فمن خاصمني خاصمته، ومن خاصمته كان في النار وكتب علي بن أبي طالب ورسول الله ﷺ «في جلد أحمر طوله ثلاثون إصبعا وعرضه عشرون وعدد أسطره عشرون».

ومما فيه «شهد الله على ذلك وعتيق ابن أبي قحافة وعبد الرحمن بن عوف والأقرع بن حابس، وكتب معاوية بن أبي سفيان شهادتهم في ذي قعدة سنة تسع من الهجرة والسلام على من اتبع الهدى»

وبعده مقابلات بأصولها على اختلاف الأزمنة المارة بشهادة من باشر ذلك وخطابات من أئمة أعلام باستقلالات إلى سنة اثنتين وأربعين وألف.

وقد أبطل أعيان علماء الوقت هذا الرسم منهم الإمام سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي قائلا إنه مخالف لأسلوب السلف وفصاحتهم، ولنهج ذوي التوثيق من المتأخرين وصناعتهم، ومصادم للإجماع، ولما عليه العمل في سائر الأزمنة والبقاع، فإنه ﷺ أوصى بإخراج اليهود من جزيرة العرب من غير استثناء فأجلاهم الفاروق من غير تخصيص، وضربت الجزية عليهم زمن الخلفاء الراشدين كذلك، ولا يجوز اتفاقهم على تضييع حق ولا تهاونهم بتنفيذ عهد عهده رسول الله ﷺ، خصوصا وقد أشهد عليهم الخليفين أبا بكر وعليهما ومن معهما ولا اتفاق أئمة الأعصار، وعلماء الأمصار، بعدهم على عهد ذلك وعدم نقله - حتى ينقله إلينا بعد ما نيف على ألف ومائة سنة اليهود، إخوان القروء، وأيضا أحكام أهل الزمة معروفة ملحوظة، والشروط التي عليهم محفوظة منها أن لا يتشبهوا بلباس المسلمين في العمائم ونحوها، وأن يشدوا الزنانير كما ذلك مبسوط في شروط الفاروق رضى الله عنه على نصارى الشام حين صالحهم.

روى ذلك ابن حبان وغيره، وعليها اعتمد سائر أئمة المذاهب الإسلامية في أحكام أهل الذمة وأجمعوا على ذلك، نقله ابن حزم الذي إجماعاته أصح الإجماعات، وكذا نقل الماوردي الإجماع على أن يهود خير كغيرهم في الجزية وأيضا تاريخ ذلك الرسم بتسع من الهجرة مخالف للمعروف من أن التاريخ بها إنما حدث في خلافة الفاروق وسائر كتبه عليه السلام المنقولة في السير فإنها خالية عن التاريخ إلى غير هذا من دلائل الكذب التي احتفت بالرسم المذكور ويطول تتبعها ملخصا. اهـ. وقد عضد هذا الجواب وصححه سيدي محمد القسطيني وغيره من أهل تلك الطبقة، انظر فهرسة أبي القاسم العميري ونوازل الشريف العلمي.

الآخذون عنه: منهم أبو العباس أحمد الحافي السلوي.

وفاته: مات بمكناسة الزيتون عام اثنين وعشرين ومائة وألف ودفن بضريح السيدة عائشة العدوية المتبرك بها حية وميتة

٣٨ - أبو العباس أحمد بن محمد العربي بن محمد الكومي عرف بالغماري.

أورد ذكره أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي في مؤلفه الموسوم بالإعلام بمن مضى وغبر في القرن الحادي عشر من الأعلام.

حاله: حلاه أبو محمد عبد الله في كتابه المذكور بالفقيه الأصولي وقال: كان فقيها مدرسا ولي قضاء مكناسة فحمدت سيرته.

مشيخته: أخذ عن أبي عبد الله الهواري، وأبي عبد الله بن عبد الحليم وغيرهما

الآخذون عنه: منهم أبو عبد الله محمد المهدي الفاسي حسبما أفصح بذلك صاحب الإعلام المنقول عنه قائلا: قال خال الوالد الشيخ أبو عبد الله محمد المهدي الفاسي: قرأت على صاحب الترجمة الرسالة ومختصر خليل، فكان ينقل

٣٨ - من مصادر ترجمته: الإعلام بمن غبر ٤/ ١٤٥٥ في موسوعة أعلان المغرب.

على الرسالة شرح ابن عمر، وابن ناجي، وعلى المختصر شرح بهرام الأوسط،
وشفاء العليل لابن غازي كل ذلك باللفظ هـ.

وفاته: توفي سنة ثلاث وستين وألف كما قاله في الإعلام

٣٩ - أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولايلي - بفتح
الواو وتشديد اللام دفين مكناس.

حاله ونسبه: فقيه نبيه، علامة وجيه نزيه، قدوة مشارك، دراية فهامة
ناسك، أحد الأعلام علما وعملا ومثانة دين، واتباعا لسنة سيد المرسلين، كان
يدرس بقصبة الحضرة السلطانية الإسماعيلية من مكناسة الزيتون، وكان يجيد
التعبير عن كل ما يريد متبحرا في العلوم عقلها ونقلها محققا لها.

نسب نفسه في كتابه «مباحث الأنوار» فقال «قبيلة بني ولّال هم قومنا الذين
نشأ أجدادنا منهم، وأصلهم من بني عطاء، قبيلة كبيرة معروفة بأقصى جبال
ملوية، وفيهم إخوة قبيلتنا يسمون لديهم ببني ولّال أيضا، وبنو عطاء مشددا بوزن
فَعَال - أصلهم من العرب كما تقرر ذلك في كتاب أنساب القبائل الموجودة بأيدي
الفقراء أهل الصومعة، بل أخبرني بعضهم أن بني عطاء أصلهم من أخص العرب
وهم قريش، وكل ذلك لا بعد فيه لتبدل أحوال القبائل العربية وتنقلها من أرض
إلى أرض، ومن رفع إلى خفض، فتتبدل الألسن بتبدل البلد» انتهى بنصه^(١).

مشيخته: تفقه بالزاوية البكرية واتصل بالولي العارف سيدي محمد بن عبد
الله السوسي وانتفع به، وصحب العارفين سيدي أحمد اليماني وسيدي أحمد بن
عبد الله معن وتردد إليهما، وأخذ عن الإمام اليوسي الحسن بن مسعود المنطق
ومنظومة الأخضر في البيان

٣٩ - من مصادر ترجمة: نشر الثاني ١٩٥٦/٥ في موسوعة أعلام المغرب.

(١) نشر الثاني - ص ١٩٥٦.

الآخذون عنه: منهم أبو القاسم بن سعيد العميري، والعلامة الطبيب السيد عبد القادر بن العربي بن شقرون المكناسي، وناهيك بهما أخذ الأول عنه منظومته في علم الكلام وغيرها.

مؤلفاته: منها شرحه العجيب على مختصر المنطق للشيخ السنوسي، ومنها شرحه المعروف على منظومة الأخضرى المعروفة بالسلم، وشرحه على جمل الخونجي، وشرح رسالة السيد الجرجاني، وشرح تلخيص المفتاح صدره بشرح خطبة مختصر السعد، وشرح علي لامية الأفعال، وحاشية على المحلي، وشرح على روضة الأزهار للجادري في التوقيت، ومباحث الأنوار في سلسلة الأخيار.

وفاته: توفي ثاني رجب عام ثمانية وعشرين ومائة وألف ودفن بمكناسة الزيتون رحمه الله وفسح له في عدنه.

٤٠ - أبو العباس أحمد بن أبي يعزى الأودي قاضيهـا.

حاله: فقيه جليل كان متوليا خطة القضاء بهذه الحضرة المولوية الإمامية بتاريخ ثامن شعبان عام تسعة وثلاثين ومائة وألف، وقفت على ظهير شريف، مولوي منيف، يتضمن الأمر لناظر الوقت الحاج الطيب المسطاسي بتنفيذ إعانة له على القضاء من أحباس المسجد الأعظم قدرها ثلاثون أوقية بالتاريخ المذكور.

٤١ - أبو العباس أحمد الصيقال المكناسي

حاله: قال في حقه عصريه أبو العباس أحمد المنجور لدى تعرضه لذكره في ترجمة شيخه ابن هارون من فهرسته: الشيخ المسند أحد عدول مكناسة.

٤٢ - أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد الشدادى الشريف الحسنى الإدريسي العمراني.

حاله: كان مفتي الأنام، وأعدل قضاة الزمان، ووحيد عصره وأوانه

وأفضلهم وأزكاهم، وأجلهم وأسماهم، علامة متبحراً في الفقه والنحو والحديث والتفسير صدر المحافل، في جمع الفضائل، مرجوعاً له في النوازل، محتجاً بما يقوله إذا خفيت الدلائل، له نظر في الفقه لا يجارى، ولإدراكه في حقائق مشكلاته الشأو الذي لا يدرك فلا يبارى، مجالسه العلمية نزهة الأفكار، لا يقع من أهل النجاة إلا عليها الاختيار، تصدى للتدريس بفاس وغيرها من حواضر المغرب وبواديه، وأسدى من وافر تحقيقه على الطالبين ففازوا بسايق أياديه، تولى أولاً الفتوى بمكناسة وأقام فيها مدة، ثم نقل منها إلى قضاء الجماعة بفاس الإدريسية وفاس المرينية مع الإمامة والخطابة بالقرويين، ثم آخر عن قضاء فاس خاصة، ثم عن قضاء فاس الجديد لغير رتبة، ثم بعد مدة ولي القضاء والإمامة والخطابة بزاوية زرهون إلى أن توفي.

مشيخته: أخذ عن سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي، وأبي علي اليوسي، وأبي عبد الله المسناوي، وأبي العباس ابن الحاج، وأبي عبد الله محمد العربي بردلة، وأبي عبد الله القسطيني وغيرهم.

الآخذون عنه: جماعة منهم القاضي أبو القاسم العميري لازمه مدة إقامته بمكناسة الزيتون، ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد التاودي بن سودة المري قرأ عليه المختصر من البيوع إلى الوديعة والعارية، وسمع عليه بعض التفسير من أوله إلى سورة النساء، وغيرهما من فحول أئمة العلم.

مؤلفاته: له فتاوى لم تجمع ولو جمعت لأفادت ولالة الأحكام، وغازت متعصبة الحكام، وشرح على لامية الزقاق، وتقييد على ابن عاصم، وتقييد على - العمل الفاسي - قال في نشر المثاني: فمن تلك الأبحاث استفاد أهل عصرنا وشرحوا الأنظام التي ذكرنا فهو بسبق حائز تفضيلاً.

قلت: المعروف له والموجود بأيدي الناس هو حاشية شرح ميارة على الزقاق ولا يعرف له شرح مستقل لها أعني الزقاقية.

وفاته: توفي على ما في «فهرسة القاضي العميري» و«الروضة المقصودة في الزاوية الزرهونية الإدريسية». قال في الروضة خامس عشر جمادى الثانية سنة ست وأربعين ومائة وألف. والذي في نشر المثاني أنه توفي بفاس ودفن خارج باب المحروق بين المدينتين، وبني أهله عليه قبة وبلغنا أن له عقبا بطنجة. انتهى.

قال شيخنا الكتاني في «سلوة الأنفاس» ويشكل عليه ما تقدم من أنه توفي بالزاوية الزرهونية إلا أن يقال بنقله بعد الموت منها إلى هذه الحضرة ودفنه بها، ويكون قوله في النشر: توفي بفاس غلطا نشأ له من عدم التحقيق لوفاته، بدليل أنه لم يعينها بسنة والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

قلت. ولا يعرف له قبر بالزاوية المذكورة وذلك مما يؤكد كونه مدفونا بفاس.

٤٣- الفقيه سيدي أحمد بن عزو.

٤٤- الفقيه سيدي أحمد الحزميري.

٤٥- الفقيه سيدي أحمد بن سعيد السوسي.

٤٦- الفقيه السيد أحمد بن مومو.

٤٧- الفقيه السيد أحمد بن مسطار.

كل هؤلاء الشيوخ الأعلام الخمسة كانوا بقاء الحياة في حدود الخمسين ومائة وألف بحاضرتنا المكناسية حسبما وقفت على ذلك في زمام مرتب العلماء الشهري وأسماءهم مسطرة فيه بالتاريخ المذكور، ولم أقف لواحد منهم على ترجمة بعد البحث الشديد.

٤٨- السيد أحمد بن عبد الرحمن زغبوش الفقيه النبيه العدل الرضي الثقة.

٤٩- أبو العباس أحمد بن العباس النسب السيد الأتقى، الزكي الأنقى.

٥٠- أبو العباس أحمد بن عبد القادر النسب الفقيه المعظم. المرتضى

المحترم. التقي الأصعد، الزكي الأسعد.

٥١- أبو العباس أحمد بن الولي الصالح سيدي مغيث زغبوش القرشي

الفقيه المرتضى الزكي الأحظى.

أما أحمد بن عبد الرحمن زغبوش أول الأربعة فهو من أهل النصف الثاني

من القرن الثاني عشر.

وأما الثلاثة بعده ففيما بين ذلك وبين الألف فيما يظهر من ذكرهم في عمود

نسب بصادق مؤرخ بأواخر رجب عام تسعة وثمانين ومائة وألف وتحليتهم فيه بما

ذكر.

٥٢- أبو العباس أحمد بن سعيد العميري.

حاله: من أعيان علماء الدولة الإسماعيلية، وحاملي لواء التدريس وبث

العلم في صدور الرجال بها، وهو أحد الأعلام الذين شهدوا في عقد توثيق عرى

الإخاء الصادر بين الأخوين الأكملين مولانا أحمد المدعو الذمبي وسيدنا الجد

مولانا زيدان ابني الأمير الذي طار صيته في بقاع المعمور سيدنا الجد الأكبر،

مولانا إسماعيل بن دب والدهما لهما لذلك، وهذا العقد بعينه تحت يدي تاريخه

منتصف رمضان عام سبعة وثلاثين ومائة وألف شهد فيه على إسهاد سيدنا الجد

الأكبر بذلك وهو على كرسي مملكته بمكناس جمع وافر من العدول والفقهاء

والقضاة منهم المترجم.

مشيخته: منهم والده، وأبو علي بن رحال، ومن في طبقتهما من المعاصرين

لهما.

الآخذون عنه: أخذ عنه العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بصري المكناسي المتوفي يوم السبت خامس شعبان عام ستة وثمانين ومائة وألف كما ثبت ولده «إتحاف أهل الهداية».

وفاته: لم أقف على تاريخ وفاته بيد أنه كان ب قيد الحياة سنة سبع وثلاثين ومائة وألف.

٥٣- أحمد بن عبد الرحمن المجاصي الشهير بالمكناسي الشيخ الأستاذ المقرئ الصالح.

حاله: كان أستاذاً صالحاً مقرئاً فقهياً أديباً نحويًا.

الآخذون عنه: أخذ عنه ابن عباد القرآن العظيم بحرف نافع، وتفقه عليه في كثير من الجمل لأبي القاسم الزجاج وفي كتاب التسهيل لابن مالك وغير ذلك ذكره مسند فاس أبو زكريا يحيى بن أحمد السراج في ترجمة ابن عباد من «فهرسته» ولم يذكر له وفاتا.

٥٤- أبو العباس أحمد بن عبد الملك^(١) البوعصامي.

حاله: مجذوب غائب غيبة اتصال من صغره ساكت لا يتكلم مع أحد إلا ما قل، وكان بعد موت أبيه تارة يكون بمكناسة التي هي مقر والده وتارة يذهب لفاس ثم في آخر عمره بنحو العامين استقر بفاس بحومة السياج منها حتى توفي هنالك.

وفاته: توفي ليلة الخميس حادي وعشري ربيع الأول عام تسعة ومائتين وألف.

٥٤ - من مصادر ترجمة: إتحاف المطالع - ص ٢٤٥٣ من موسوعة أعلام المغرب.

(١) تحذف في المطبوع إلى: «عبد المالك» وصوابه من إتحاف المطالع.

٥٥- الشريف أبو العباس أحمد بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن علي بن طاهر بن مولانا الحسن الحسني العلوي.

حاله: له معرفة بالعلوم وبالأخص الفقه والنحو نشأ بالصحراء ببلد أسلافه الكرام، ورحل لحج بيت الله الحرام، وزيارة جده عليه من ربه أركى الصلاة والسلام، ثم ارتحل لمكناسة الزيتون واستوطنها وصاهره السلطان بنت السلطان مولانا سليمان تعرض لذكره صاحب «الشجرة الزكية» وقال إنه حي بمكناسة في عصر تأليفه المذكور وهو من علماء الدولة العبد الرحمانية.

٥٦- أبو العباس أحمد بن أحمد الحَكَمي الأصل الرباطي النشأة والدار المكناسي الوظيفة.

حاله: حامل لواء التحقيق في زمانه، جهينة المعقول والمنقول، المرجوع إليه في الأدب والفروع والأصول، حلو النسيب بديع الترسيل إذا نظم سحر الألباب، وإذا نشر استولى على الأرواح بخالصة اللباب، بديع الإنشاء سيال القريحة بارع في الإملاء، مع شجاعة وإقدام. وتقدم في الرماية والسباحة والمسابقة، يشهد له بذلك الخاص والعام، كثير العبادة والتلاوة والتهجد بالأسحار، معمّر أوقاته بالدروس العلمية مع كثرة الأذكار، والصلاة على النبي المختار، واثق بربه محسن ظنه فيه لا يهتم لنائبة ولا يضجر لها، يتلقى ما تبرزه الأقدار بقلب سليم.

رحل لفاس، وأخذ عن جلة أئمتها الأكياس، ثم رجع لبلده فأكب على التدريس، وأفادته الناس بإبراز كل نفيس، ثم أسند له قضاء العدوتين: سلا، والرباط، وذلك عام أربعة عشر ومائتين وألف ومكث في ولايته هذه نحو الخمس سنين، ثم أعفي عشية يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الثانية عام تسعة

٥٦ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع - ص ٢٤٨٥ في موسوعة أعلام المغرب.

عشر ومائتين وألف وولي مكانه العلامة سيدي الطيب بسير - آتي الترجمة في حرف الطاء - بحول الله ثم خوطب بالقضاء مرة ثانية فامتنع من القبول فألزمه الكبراء أن يقبل فامتنع واعتذر عن ذلك بأنه كان يفاوض في القضاء الأول الفقيهين: الغربي والمير، وقد ماتا معا رحمهما الله كذا في «تعطير البساط».

ووقفت في بعض مقيدات مؤرخ سلا السيد محمد بن علي الدكالي الأصل السلاوي النشأة والدار نقلا عن أحد نبغاء تلاميذه السيد محمد بن التهامي بن عمرو الرباطي، أن المترجم ولي قضاء مكناس ولفظه لدى تعرضه لترجمة القاضي بسير: وقال معاصره الأديب ابن عمرو الرباطي إنه أخذ عن قاضي العدوتين ومكناسة الفقيه المشارك السيد أحمد الحكمي الرباطي رحمه الله وانتفع به نفعا بيناه. انتهى. من خطه وانظر إن صح ذلك هل كان قبل ولايته بالعدوتين أو بعدها أجرى ذكره العلامة أبو إسحاق التادلي في تليفه «أغاني السقا في علم الموسيقى» وأفاد أنه كانت له مشاركة حتى في علم الأغاني والألحان ونوبات الموسيقى وذكر له فوائد علمية، في خلال. مؤلفاته الأدبية وذكره الزباني في فهرسة أبي الربيع السلطان مولانا سليمان وغيرها.

مشيخته: أخذ عن الشيخ بناني مُحَسِّي الزرقاني وأجازه عامة، وعن الشيخ محمد الشيطمي ومن في طبقتهما.

الآخذون عنه: منهم نجله السيد صالح والسيد الطيب بسير، والسيد محمد ابن عمرو، والسيد محمد بن عبد الرحمن الشرشالي، والقاضي ابن جلون وغيرهم من عيون أعيان العلماء.

شعره: من ذلك قوله يمدح العلامة أبا حفص سيدي عمر بن محمد المكي بن الشيخ المعطي الشرقي:

للبين ما بين أفلاذ الحشا أثر وللمشوق إلى نحو الحمي نظر

وآية الصدق في دعوى المحبة أن يرى المشوق وفي عبراته عبر
ومن يكن يرتجي يوما يسر به فوصلكم منتهى الآمال يا عمر
ومن ذلك ما رآه صديقنا ابن علي السلاوي منسوباً إلى المترجم بمدح النبي
ﷺ به :

دعني فتاة الحي بادية نحرا هلم إلى نحو السعادة في الأخرى
فلبيتها والدمع يهمني وأضلعي يفتتها بعد المزار بمن أخرى
فقلت وقد ما طت عن الوجه برقعا على حسننا إن شئت^(١)...
ألا تقدم يا أخا العشق إنني أنا كعبة العشاق مرضية الذكرى
فإن شئت أن تهوى جمالي فلا تعد بعيدي إلى ليلي ولا تذكر الزهرا
وكن خاليا عما سواي وعندما توفي بشرط الحسن أمنحك البشري
ومنها في التخلص لمدح رسول الله ﷺ .

فقلت وقد حان الرضا وتبسمت عليك بمن أسرى إلى مانع الاسرى
ومن ذلك قوله في المنام حسبما رأيت ذلك بخط بلديه تلميذه العلامة السيد
محمد بن التهامي ابن عمرو في كناية له منها نقلت :

شم بارقا سحرا بالجو قد لاحا واشرب عليه من الأفراح أقداحا
وقد أمر تلميذه المذكور بالزيادة عليه فخمسه بقوله :

نفديك أهلا وأموالا وأرواحا يا من بسر علوم الشرع قد باحا
بشراك قدرن طير السعد إفصاحا

(١) كذا في المطبوع .

«شم بارقا سحرًا بالجو قد لاحا واشرب عليه من الأفراح أقداحا»

وعش بریا من الأكدار في سعة لدى رياض عن الأسوا ممنعة

ترى الأعادی بأشلاء ممزعة

«واهنأ بأمن مع الإقبال في دعة وارقب لما أثلك الأيام إصلاحا»

وقوله مخاطبا العلامة الأديب سيدي سليمان بن محمد الخوات وطالبا منه

قراءة الخزرجية معه كما وجد ذلك بخط المطلوب منه ومن خطه نقلت:

كم ذا نعاني وفرط الشوق أفنانا وطالما بت أرعى النجم يقظانا

أكفكف الدمع حيناً ثم أرسله جمراً على الخد يصلي القلب أحياناً

ذا لوعة برماح الحب طاعنة أسي ولم أر مثلاً الحب مطعانا

وفكرة بسهام الحب راشقة وحيرة وزفير ليس ينسانا

ولي إذا ما أناجي الربع عن شحط أنين صب يوارى الحب كتماناً

تلك الديار وما شوقي لساحتها إلا لآلقي مني قلبي سليماناً

بدر المعالي رياض الأنس لا برحت أخلاقه تشتهي حسناً وإحساناً

بحر طما فصفا للفكر مشربه وعاد بالعلم فياضاً وملاًنا

يزري بنظم اللآلي نظمه وكذا نثاره لم يزل بائساً فتاناً

ليهن مولاي ما أولاه خالقه من الفتوحات ما لم يعط إنساناً

طابت بمدحك يا ابن المجد أنفسنا وإن نواف قبولا منك أغناناً

ومتهى السؤل أن تسمح لناظمها بيث علم غدا للشعر ميزاناً

أزكى السلام على عليك ما سجعت ورق تردد فوق الغصن ألحاناً

وما ترنم حادي العيس ينشدها كم ذا نعاني وفرط الشوق أفناناً

وفاته: توفي بعد طلوع الفجر من يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان عام ستة وعشرين ومائتين وألف ورثاه ولده القاضي صالح بقصيدة طويلة لكنها دون الأولى، كما رثاه تلميذه ابن عمرو، ومطلع الأولى:

عز المصاب وسله وانهض إلى ما أحْتَاج للتأنيس والإكرام
ومطلع الثانية لابن عمرو:

كفى الرزء خطبا أن يحل عرى الصبر ويرخص من دمع الوري غالي التبر
٥٧ - أبو العباس أحمد العمراني الفقيه الشريف.

حاله: فقيه جليل وجيه تولى الخطابة بالمسجد الجامع الإدريسي بعد وفاة خطيبه سيدي الفاطمي بن عبد القادر، وتولى نيابة القضاء بالزاوية الإدريسية.
٥٨ - أبو العباس أحمد المكناسي.

الشيخ الصالح الشهير شيخ الغماري الذي أخذ عنه والد صاحب «أنس الفقير وعز الحقير» رواية نافع في القراءة وحدثه برجز ابن بري عن مؤلفه ووالد صاحب الأنس المذكور هو القاضي أبو العباس أحمد بن الخطيب القسمطيني.
٥٩ - مولاي أحمد بن عبد المالك العلوي.

قاضي الجماعة بالحضرتين فاس ومكناس.
حاله: له مشاركة في الفقه والتصريف واللغة والتاريخ والأدب والتوثيق والمعرفة الكاملة بصناعة الأحكام، حلاه ابن عبد السلام الناصري: سيدنا الشريف الأجل، العلامة الأفضل، نور النبراس، سيدنا ومولانا أبي العباس، وقال في حقه تلميذه العلامة الثبت صاحب الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير

٥٩ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع ٢٥٢٣/٧ في موسوعة أعلام المغرب.

الأشراف، ما لفظه: قاضي الجماعة بالحضرتين الإدريسية والمولوية شيخنا أبو العباس مولانا أحمد بن عبد المالك، له مشاركة في الفقه والتصريف واللغة مع المعرفة التامة بصناعة القضاء والوثائق واستحضار نصوص المختصر وقضايا التاريخ والأدب. انتهى.

وكان متوليا خطة العدالة بهذه الحضرة المكناسية، ثم ولاء السلطان أبو الربيع مولانا سليمان عام أربعة وثلاثين ومائتين وألف ورشحه لخطبة جامع قصبته المولوية أوائل محرم فاتح سبعة - بموحدة - وثلاثين ومائتين وألف، حسبما وقفت على تاريخ التوليتين بخط يده ومنه نقلت، وقد كان قبل ذلك من عدول مكناسة المبرزين، متصدرا للشهادة وقفت على عدة رسوم بخطه وشهادته وكثير من خطاباتة والتسجيل عليه.

وكانت توليته لقضاء فاس البالي وتأخيره عن قضاء مكناس فاتح شعبان عام سبعة وثلاثين ومائتين وألف حسبما ذلك بظهير السلطان أبي الربيع مولانا سليمان الصادر لولده خليفته مولاي الحسن، ودونك لفظه بعد الحمدلة والصلاة.

«ولدنا مولاي الحسن السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فنأمرك أن توجه لحضرتنا العالية بالله قاضي مكناسة ولد عمنا مولاي أحمد بن عبد المالك بمجرد وصول كتابنا هذا إليك فوراً فوراً ليلاً أو نهاراً مع جروان أو مجاط، ومن أتى معه من البربر فقد سامحنه وأمناه وأهل مكناسة يجتمعون ويتفقون على رجل يرضونه لأنفسهم منهم أو من غيرهم، ويولونه عليهم، وأما مولاي أحمد فقد وليناه أمر القضاء بفاس البالي، وفي ثالث شعبان عام سبع وثلاثين ومائتين وألف».

ولم يزل على خطته بفاس إلى أن بويع المولى عبد الرحمن بن هشام ثم رجع لمكناس ناجياً بنفسه من أذى غوغاء أهل فاس كذا في بعض التقايد الموثوق بصحتها.

مشيخته: أخذ عن عمه المولى عبد القادر بن محمد بن عبد المالك «شارح
الهمزية» و«العاصمية» وأجاز له ابن عبد السلام الناصري في الطريقة الناصرية في
رابع رمضان عام تسعة ومائتين وألف، وأخذ عن سيدي أحمد بن عبد العزيز
الهلالى، وعن غيرهم من شيوخ فاس.

الآخذون عنه: منهم المؤرخ النسابة القاضي أبو عبد الله محمد الطالب بن
حمدون بن الحاج السلمي الفاسي صاحب «حواشي المرشد المعين» وغيرها من
التأليف المتوفى بعد عصر يوم الجمعة سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف بفاس،
وشيوخ الجماعة بمكناس الحاج مبارك بن عبد الله الفيضي.

مؤلفاته: له «تأليف في تحريم السكر» ويقال: إنه كان لا يقبل شهادة من
يشربه لأن ما جهل حكمه يجب التوقف عنه حتى يعلم حكم الله فيه وقد حكي
الغزالي في «الإحياء» والشافعي في «رسالته» الإجماع على أن المكلف لا يجوز له
أن يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله تعالى فيه هذا ملحظ المترجم، وإن كان
التعويل على خلافه، وله أيضا «مجموعة خطب» و«تقييد على الخطبة» التي أملاها
السلطان العادل مولانا سليمان لما كان بهذه الحضرة المكناسية عام خمسة وثلاثين
ومائتين وألف لما طلب منه أولاد الشيخ الكامل محمد بن عيسى دفين خارج باب
السبية من مكناس إقامة الموسم على المؤلف عندهم حسبما وقفت على هذا التعليق
مع مجموعة الخطب بخط يده في مبيضته وسنورد الإملاء المقيد عليه بحول الله
في محله.

نثره: من ذلك قوله في بعض خطبه التي أنشأها «الحمد لله الجزيل الفضل،
العظيم البذل، الحكم العدل، الذي لا يسأل عما يفعل، ومن سواه عن أفعاله
يسأل، نحمده تعالى على ما أولانا من النعم، ونشكره جل وعز على ما روى عنا
من النقم، ونستعينه ونستغفره من جميع الذنوب، التي أورثتنا الأحزان والكروب،

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده بالهدي ودين الحق أرسله، صلى الله عليه وعلى جميع الصحابة والآل، ومن لهم بإحسان تال، صلاة تقينا جميع البلايا، وتكفر عنا جميع الخطايا، من يطع الله ورسوله فقد سعدو فاز، ومن يعص الله ورسوله فما له في عرصات القيامة من مفاز... إلخ».

ومن خطبة أخرى قال: «الحمد لله المجيب من دعاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن احتمى به حماه، ومن التجأ إليه آواه، نحمده حمدا من غير عدو لا تناه، ونشكره على ما أنعم به وأولاه، ونستعينه ونستغفره من كل ما جنيناه، ونشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ومصطفاه، صلى الله عليه وعلى آله وصحابه ذوي الثناء والجاه، وعلى كل منيب آواه، صلاة تملأ أرجاء العرش وما حواه، وتحول بها بيننا وبين الشر ومن نواه، من يطع الله ورسوله فيأسعده، ومن يعص الله ورسوله فيا ويلاه، نسأله تعالى أن يجعلنا ممن لطاعته اجتباه... إلخ».

ومن صدر خطبة أخرى «الحمد لله الملك المعبود، المقر بوحدايته أهل الإيمان والجنود، نحمده تعالى ونثني عليه بما أثنى عليه أحب خلقه إليه، اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ونشكره شكرا نستوجب من فضله المزيد، ونستعينه ونستغفره من كل ذنب به الكاتب علينا شهيد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الفعال لما يريد، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الحميد المجيد. صلى الله عليه وعلى من تبعه فيما أوحى إليه صلاة نستوجب بها من الله تعالى رضاه، ويلطف بنا بها فيما قدره وقضاه، من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ساق إلى نفسه عذابا أليما... إلخ».

وفاته: مات بمكناس لعشر ليال خلت من رجب سنة ألف ومائتين وإحدى وأربعين ودفن بروضة سيدي عبد الله القصري الولي الشهير.

تم أرادت زوجته أن تدفن بنتها معه فوقع بينها وبين أرباب الروضة شيء فأخذته ودفنته في دارها ودفنت البنت في محله، ثم بلغ الخبر لأمير الوقت جدنا من قبل الأم المولى عبد الرحمن بن هشام فقال: القبر حبس على صاحبه وأمر برده لمحله المذكور وإخراج البنت منه، أخبر من حضر من أهل الروضة أن البنت لما أخرجت من القبر كان الناس يسدون أنوفهم من شدة النتن، وأما هو فلم يوجد له شيء من ذلك لا أولاً ولا ثانياً، وجسده لم يتغير ووضع يده على الكفن فوجده كالعنكبوت. وقبره في الروضة المذكورة معروف أخبرني بذلك شيخنا العرائشي.

٦٠ - أبو العباس أحمد بن الرضي بن عثمان المكناسي.

حاله: نابغة زمانه، علامة مشارك محدث نقاد فصيح بليغ، ذو ملكة واقتدار، ناظم ناثر، محاضر مجبر نحير، وجيه نزيه، استكتبه السلطان الأعظم سيدي محمد ابن عبد الله في بساط ملكه وقَدَّرَه قَدْرَهُ وأسبل عليه أردية الإجلال والإكبار.

ذكره أبو القاسم الزباني في خاتمة «يستانه» من جملة كتاب الحضرة السلطانية المحمدية ووصفه بالمشاركة، وحلاه النسابة الثبت المطلع سيدي سليمان الحوات: بالأديب البليغ الهمام فيما وقفت عليه بخط يده وذكر له أشعاراً رائعة فائقة تدل على مهارة الرجل ومكانته في العلم والأدب والتفنن في أفانين البلاغة وحسن الصياغة.

وهو من جملة العلماء المحدثين الذين نقلهم السلطان المذكور لمراكش وفرقهم على مساجدها بقصد تدريس العلم بها، وبثه في صدور رجالها، والذين يحضرون مجالس دروسه الحديثة وغيرها كما في «الترجمة الكبرى» وناهيك بمن رشحه ذلك السلطان الطائر الصيت في المشارق والمغارب المتضلع في سائر الفنون المقتدر الريان.

مشيخته: أخذ عن أبي حفص الفاسي المتوفي منسلخ رجب عام ثمان
وثمانين ومائة وألف المدفون بزاويته بالمخفية من مدينة فاس، والشيخ أبي عبد الله
محمد التاودي ابن سودة، وأبي عبد الله محمد بن الحسن بناني المتوفي سنة أربع
وتسعين ومائة وألف وغيرهم، ممن هو في طبقتهم من أعلام عصره.

شعره: من ذلك قوله مخاطبا شيخه أبا عبد الله محمد بن الحسن بناني:

أبدرا لاح بين الشهب بدرا	فنارت منه نيرة الشمس
وروضا فاح مندله سحيرا	فأحيا نشره ميت النفوس
وبحرا خاض بحر العلم حتى	انثني بالجوهر الصدفى النفيس
بمالك من طريق الفخر شنف	مسامعنا بمختصر السنوسي
وألبس عاري الطلاب مما	به حشيته أسنى لبوس
وبرد غلة الصادي بأحلى	مذاقا من معتقة الكتوس
ولا تردد يد الأبيات صفرا	وجد بمنى ولو يوم الخميس
بقيت لفك مشكل كل فن	ففتحك في المجالس والطروس
ولا تنفك بين الناس تاجا	أبا عبد الإله على الرؤوس
وقوله:	

وأشنب أبدى الحسن فيه بدائعا	أزاهرها تجلى على غصن القد
ترى العود إن جستته منه أنامل	كغيداء قد تاهت فرنت من الوجد
على أنه مهما ترنم منشدا	أراك حلول الروح في الحجر الصلد
فديتك بدرا في سما الحسن كاملا	به بين أرباب النهى وريت زندي

وقوله مخاطبا بعض بطارقة الملك وخاصته، وواسطة عقد جهابذ الوزراء من دولته، على لسان بعض من لا يصل لمحتاجه من الأمير، إلا بواسطة هذا الوزير، وقد بلغ به الاحتياج الغاية، والإملاق فوق النهاية:

عماد الملك ما أعلى منارك	وما أجرى من الجدوى بحارك
بك القلم استطال علي رماح	فلا لسن يشق نه غبارك
وصرت من المكارم في مقام	تخذت به ذرى الجورا وجارك
فكم طوقت من در الأمانى	مخائق عاطل أضحى جوارك
وإني مزقت ثوبي الليالي	وأودت في نوائبها تدارك
فلا زالت تخاطبك المعالي	هلم معظما يا بن المبارك

وقوله يرثي شيخه أبا حفص الفاسي:

الدمع يروي عن فؤاد الأكمـد	بمسلسل وبمرسل وبمسند
فاجعل حديث الدمع عندك حجة	واطرح مقالة جاهل لم يرشد
وابك العلوم أصولها وفروعها	وابك الدروس ولا تكن كالجلمد
وابك السماحة والصباحة والفصاحة	والبراعة والبراعة تهتدي
وابك المجادة والجلالة والمكانة	والمهابة والنزاهة تسعد
وابك المآثر والمفاخر والعلـا	وابك المواهب والمناقب تحمد
أو ما فقدت الدين والدنيا معا	لما فقدت حياة أفضل سيد
عظم المصاب بفقد من ساد الألى	قد أحرزوا رتب العلا والسودد
بحر المعارف والعوارف والهدى	كهف المريد السالك المسترشد

نور العلوم وتاجها وبهاؤها
العالم العلامة الفهامة
عمر أخو التحقيق والتدقيق
من معشر فوق السماك منارهم
ورث التقى والعلم ليس كلاله
لله يوم فيه غابت شمسه
المسلمون جميعهم بنفوسهم
ما شاء الرحمن كان وإن ما
يأليت شعري من أرجي بعده
أم من يزيح جهالتي وضالتي
أم من يفرج كربتي أم من يؤ
أم من يزيل تولهي وتلهفي
بخل الزمان بمثله هيهات لا
أسفا لأيام مضت في سلوة
ولألفة ومودة ومواصلات
ومجالس قد أشرقت أنوارها
يا جملة الإخوان صبرا إنه
والله يسقيه سحائب رحمة
وينيلنا ذاك المقر تفضلا

وضياؤها قطب الشيوخ الرشيد
النسابة الأسمى الولي المهتدي
والتحرير سبط العارفين الزهد
شم الأنوف من الطراز الجيد
بل سيداً عن سيد عن سيد
يوم يشيب الطفل قبل الموعد
وبمالهم يفدونه أن لو فدي
لم يقضه في خلقه لم يوجد
أم من به أجلو ظما قلبي الصدي
وكآبتي عند اشتباه المقصد
نس وحشتي في غربتي وتفردني
وتفجعي وتوجعي وتنهدي
يسخو به طول المدى والمسند
ومسرة أوصافها لم تنفد
عذبة في كل وقت مسعد
وتلألأت فيها وفي كم مشهد
من لم يذق ما ذاقه فكأن قد
ويتيح الفردي دار الخلد
معه وينعم بالنعيم السرمدي

فالمرء مع محبوبه هذا الذي
صلى عليه الله خير صلاته
وقوله:

شعر نظامك أم رياض الآس
فكأنما ألفاظه نشر الصبا
لولاك ما حط القريض لثامه
لازلت موفور المجادة والسنا
متهذب الأخلاق والأنفاس
أم كالمدامة طرسه كالكاس
عن ثغره متبسما للناس
طودا على متن المكارم راس

وقوله مادحا مخدومه السلطان العظيم المقدار سيدي محمد بن عبد الله برد
الله ضريحه:

غرام لا يحيط به بيان
وقلب لا يزايله اضطراب
لحي الله المتيم لا يبالي
أطارحه الهوى آثار قوم
تقروا مسلكا صعبا تساوى
ولكن لو لناظرهم تبدى
ملك في بساط الحسن شدت
بطاعته قضاوا لما رأوها
وقلبهم رأينا الشمس تعنو
تقبل أخمصيه لَدَى شروق
وشوق ليس يشرحه لسان
عظيم كيف يمسه العنان
بما يلقي وإن عظم الهوان
عليها الحصر يقصر والبيان
به البطل المسود والجبان
سنا الملك المؤيد ما استكانوا
مناطقها لخدمته الحسان
سيلا فيه رشداهم استبانوا
له وبذا لعمرك ما تهان
وإن غربت كما شهد العيان

بديع الحسن من لحظيك هل لي
أعارت أعينا حورا وثارث
فكم مثلي صريع هوى لديها
أخذك ما أرى أم غض ورد
كأن سناه بالآجال يقضي
تعالى الله حتى البرق يهدي
يؤمل أن يخادعه عسى أن
ولو أبدى قوامك بعض لين
بلى في كل عضو منك معنى
وما ظني (وبعض الظن إثم)
متى يأمن أنال البدر حسنا
رعاك الله من زمن تقضى
بربع كنت ألفه رياضا
فلا صحبت رياح اليمن ركبا
أما علموا بأن الدهر حق
مطايا الشوق أتبعهم كائي
لمن أشكو ضني يعتاد جسمي
معاذ الله أن أسلو بشيء
فكم أودعته صدرا فسيحا

إذا سددت أسهمها أمان
بصارمها يحدده سنان
طريحا لا يطاوعه بنان
وثغرك ما تنظم أم جمان
لبارق مبسميك به اقتران
لمكر لا تُماكِرهِ القيان
بضوء من ثناياه يعان
لسارع بالسجود إليه بان
تنزه أن يكفيه لسان
على الدنيا تجود بك الجنان
بقرب منك يسعدني الزمان
وغصن الوصل توجه افتنان
وبعدك ما به قمري يزان
بنور سناك عن عيني ران
عليه كما يدين فتى يدان
أسايرهم بذاتي حيث كانوا
ولا أشكو إذا ناب امتحان
سواك ولا تنسيه دنان
عسى أن لا يبين له عيان

قسمت العمر أجزاء لعلني على حمل الغرام به أغان
أرجي الوصل أحيانا وحيثما أشخصه فيعروني افتنان
ولو أهل الصليب رأوه يوما على قدر بدين هداه دانوا

وقوله مخاطبا بعض الأدباء وهو مريض:

أحبتنا حتى الحروف تحرفت وحتى يراع السلم قد حارب الحيرا
فأصبح معمر الرسائل منكم مهامه لا تنفك موحشة قفرا
وعذبتونا بالجفا دون زلة كأنا جنينا الود في دينكم وزرا

وقوله:

ذو الذوق إذ كانوا بروضهم مكثا بأجمعهم قالوا فجئت به بشا
إذا موته أقلام ذي أدب فمن خشونة طبع المرء يستعمل البحث
وليس كلام الشاعرين بعمدة يحث على تحقيقه ذو النهى حثا
مغالطة حيننا وحيثنا خطابة وحيثنا وحيثنا فهو لم يستدم مكثا
وقد عده أهل اللطافة وردة تشم فإن تضمم تكسبها رثا
فكن ناهقا إن لم تذوق ذوقهم ولا تحث علينا من فويحك الروثا

وقوله مخاطبا شيخه أبا عبد الله التاودي ابن سودة:

إن أكن في العلوم روضا نضيرا فلقد كنت ثم لازلت مائي
أو أكن هاديا فـعلمك نور أو أكن نَجْمًا^(١) فأنت سمائي

(١) في متن المطبوع: «قمر» وبهامشه «كذا» وما أثبتته مناسب عروضيا. ولعله مناسب للسياق. والبيتان من المديد.

وقوله :

ومن ظن فيك العلم في الناس جهلا
ولا خير في علم من أسفل أدخلا

ملئت بجهل جاهل قد جهلته
وهب عندك العلم الذي أنت تدعي

وقوله وقد أبدع :

فأكسبت البحر المحيط وجوما
فأطلعها ليل الحداد نجوما
وتحرق سراق القريض رجوما

أهذي سطور أم بحور تدفقت
أهذي معان أم غوان ترقرت
فتشرق نورا يهتدي بسنائه

وقوله :

وأنت على رغم الأنوف أمير
وأنت بما في الحالتين خبير
وقد نمت في جنح السقام يسير

رويدا فما قول الوشاة يضير
ولا يوجب الهجران والعذر بين
فما لك يا بدر الجمال تركتنا

وقوله متغزلا :

قضيتها تحت وريف الظلال
ذ أو بين أنهار جرت بالزلال
وجامات الراح براح الغزال
وأثرت رقتها في الشمال
وطعمها المرشف عند النوال
فكيف أقوي سكر بنت الدوال
من وجنتيه رشقتني النبال

لهفي على تلك العشايا التي
ما بين أزهار زهت بالرذا
والورق في الأوراق راقصة
قد أودعت في خده لونها
وأكسبت الحاظه فعلها
لازلت في سكر لوحظه
وكلما رمت اقتطاف جنى

فإن رجعت القَهْقَرَى لدغت عقارب الصدغين مني القذال
وإن أحم حول حمى ثغره تلسعني النحل فضاك المجال
من منقذي من أسر طلعتة من عاذري في حب بدر الكمال
ولم أقف على تاريخ وفاته .

٦١ - أبو العباس أحمد بن علي العلوي .

نزىل زَرْهُون .

حاله : فقيه معدل موقت فاضل جليل نزيه .

مشيخته : أخذ عن السلطان الأعدل مولانا سليمان كما للزياني في «جمهرة التيجان» .

٦٢ - أبو العباس أحمد بن المجذوب ابن عزوز المكناسي .

قاضيا الأعدل .

حاله : فقيه جليل عالم فاضل تولى الأحكام الشرعية ، بهذه الحضرة المرعية ،
المولوية السلطانية مدينة مكناس ، وقفت على رسم مسجل عليه بتاريخ متم سنة
سبع وثلاثين ومائتين وألف ، وغالب الظن أنه هو الذي تولى الخطبة بعد المترجم
قبل الذي يليه ، لأن آخر تسجيل وقفت عليه للمتقدم في أول سنة سبع وثلاثين
وأول تسجيل للمترجم متم السنة المذكورة .

٦٣ - أبو العباس الحاج أحمد بن محمد المعروف بالمزيان .

ابن عامل سَلَا ، والرباط القائد بناصر الصفار الفاسي الأصل المكناسي
الولادة والمدفن .

حاله : فقيه بركة ذاكر معمر صالح متبرك به رحالة مشغول الوقت بالذكر

والعبادة، حج ثلاث حجج، الأولى عام ثلاثة عشر ومائتين وألف، ودخل مصر وبغداد، ولقي أهل الفضل واستفاد وأفاد، ورجع لمسقط رأسه راقبل على عبادة ربه وإفادة خلقه، اعتقده عوام الناس وخواصهم وكان السلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام يحبه ويحله ويذهب لزيارته في منزله.

مشيخته: أخذ بالمشرق عن الشيخ إبراهيم شهاب الدين العباسي الإسكندري عن الشيخ مرتضى، وبالمغرب عن سيدي العربي بن المعطي الشرقي، وسيدي محمد بن أحمد المتوني من ذرية سيدي علي بن منون، وعن مولاي عبد الرحمن الإمام عن أبي العباس أحمد الحبيب، عن شمروش الجني، وعن أبي محمد ابن عبد الله بن بوبكر عن التونسي العوني الفرجي، عن شمروش وعن غير هؤلاء من فحول النقاد، وسراة المشايخ الأمجاد.

الآخذون عنه: منهم السلطان الأعظم مولانا عبد الرحمن بن هشام وأفاده وأجاره بقراءة وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم إلى العالمين [الآيتان ٥١، ٥٢ من سورة القلم] وقال له: انو بها إصلاح أولادك ورعيتك وانضمام ملكك وانقياد العالم لك، يذكرها دبر كل صلاة سبع مرات كما وجد ذلك بخط نجل السلطان المذكور مولاي العباس ومن خطه نقلت، ومنهم قاضي مكناسة السيد العباس ابن كيران، ومولاي المهدي بن عبد المالك، والسيد عبد الكبير بن المجذوب الفاسي دفين شالة، والشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المدعو الكبير الكتاني، ومولانا العباس بن عبد الرحمن بن هشام وغيرهم.

وفاته: توفي عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ودفن بداره بأقصى درب قبالة ضريح سيدي عبد الواحد الأشقر بالحومة المعروفة قديما بالقطانين بالبيت المقابل للمداخل بالركن الأيمن منه.

٦٤ - السيد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الطيب بصري.

المكناسي النشأة والدار، الولهاصي الأصل شيخ أشياخ شيوخنا.

حاله: بيته بيت علم وإجلال وإكبار، وحسب ومروءة ووقار، ملحوظة بعين الاعتبار، كان ذا حظ وافر من النحو والفقه، بارع الخط له همة عالية، وزهد وورع يعلم الصبيان، وتخرج على يده عدة من حملة القرآن، ومنه فشا بارع الخط بالحضرة المكناسية حتى كان يضرب بجودته المثل واستكتب آخر عمره مع بعض قواد مجاط.

وفاته: توفي في بلاد زعير بالبواء العام عام خمسة وثمانين ومائتين وألف ولم يعقب رحمه الله.

٦٥ - أبو العباس أحمد بن علي السوسي.

العلامة المشارك النفاة.

حاله: علامة مشارك نقاد مدرس نفاة، أخبرني ابن حفيده شيخنا محمد السوسي أنه حدثه غير واحد من ذويه وقرابته أن المترجم كانت له يد طولى في علم الأوفاق وسر الحرف، وأنه رحل إلى الحج، وأن قدومه من بلاده الساقية الحمراء كان في دولة السلطان أبي الربيع مولانا سليمان، وأن السلطان المذكور هو الراغب في مقدمه عليه، وأنه وجه من طرفه من يأتيه به من مسقط رأسه، ولما ورد وجد السلطان بالحضرة المكناسية فأكرم مثواه ونزله وأنزله بمدرسة الجامع الأزهر المعروف اليوم بجامع الأروى بطلب من المترجم، وأنه لما سمع بمقدمه العارف بالله مولاي عبد القادر العلمي توجه إليه بقصد زيارته على عادته رضى الله عنه مع فضلاء وقته المشار إليهم بالخير والصلاح، فلما اجتمعا سأل كل منهما صاحبه عن اسمه ونسبه عملا بسنة خير الأنام في ذلك.

٦٤ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع ٢٦٣٩/٧ في موسوعة أعلام المغرب.

وأخذ سيدي عبد القادر العلمي عن المترجم سر أسماء الله الحسنى كما أخذ هو عن العارف العلمي المذكور، قال حفيد المترجم العلامة السيد المفضل بن المكي ابن أحمد المترجم: ولم أقدر أن أسأله يعني العارف العلمي عما أخذه الجَد المذكور عنه أهابك إجلالا... إلخ.

وبعدما طالت مدة إقامته طلب من الأمير المذكور أن يرده لمحلّه ومسقط رأسه فامتنع من ذلك كليا، وزوجه بشريفة توفيت في الحين ثم بأخرى رجراجية. الأخذون عنه: منهم ولده العلامة المشارك السيد المكي أما وفاته فلم تحفظ.

قلت: ولا يعرف له خبر ولا أثر من غير هذه الطريق بعد البحث الشديد وقرب العهد وبقاء غير واحد ممن عاصر المولى عبد القادر العلمي وضبط من أخذ عنهم ومن أخذوا عنه ومن تدبج معهم، وأغرب من هذا وأعجب كون المترجم بهذه المثابة القعساء وما مات حتى خلف ولده من أعيان علماء وقته وعدولهم المبرزين وهو لا يضبط زمن وفاة والده ولا تعيين قبره بل ولا في أي روضة دفن.

٦٦ - الأستاذ السيد أحمد بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن محمد الكبير ابن الشيخ محمد - فتحا - الناصري.

حاله: كان فقيها علامة مشاركا متفتنا ذا سمت حسن، وهدى مستحسن، لسانه رطب بذكر الله.

وفاته: توفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف.

٦٧ - السيد أحمد بن عبد الله الناصري: المقرئ من ذرية سيدي محمد الصغير ابن الشيخ سيدي محمد.

حاله: كان أستاذا مقرئا فقيها متضلعا خيرا دينا مشاورا في علم القراءات يقصده الناس للأخذ عنه والاستفادة منه كثير التلاوة والأذكار، لم يتخلف عن

دروس مشايخه العلمية، إلى أن اخترمته المنية، وكان متخذاً دكاناً بالصباغين يجلس فيه لإفادة الناس، وكانوا ينسلون إليه من كل حدب لأخذ علم القراءة وغيره عليه، وكان مقتصرًا في إقراءه على المنطوق والمفهوم وتقييد ما يحتاج للتقييد انتفع به خلق كثير من المقرئين وغيرهم.

مشيخته: أخذ القراءات عن الأستاذ الزموري، والأستاذ عياد البخاري والعلوم النقلية والعقلية عن ابن الجيلاني السقاط، وهو عمدته وعمن في طبقة من الأعلام.

٦٨ - أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن الطاهر بن محمد فتحا ابن أحمد الكنكسي الشهير بالجبلي.

الأغزوي أصلاً المكناسي منشأ واستيطاناً كذا قال عن نفسه.

حاله: فقيه وجيه ميقاتي ماهر له معرفة بالفقه والنحو والتوقيت والتعديل وما يرجع لذلك، وأُسند إليه ذلك في غير محل حسبما صرح بذلك في عدة تقييد له وقفت عليها بخطه، ولي التوقيت بمنار أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المَشْتَرَأِي^(١) دفين خارج باب وجه عروس من مكناسة، كما ولي توقيت منار مولانا إدريس الأكبر بزواية زرهون.

ومما وقفت عليه من فوائده صدر مؤلف له في المولد النبوي قوله:

لما أن من الله علينا وآلهمنا إلى الاشتغال بجمع ما قد قيل وصنف في المولد الشريف وذلك من أفضل الأعمال، والاشتغال به من أنجح الأفعال، وقد ورد في فضله ما يفوق أوقار الجمال، وقد وجب على كل مسلم أن يعرف نسب رسول الله ﷺ ويعلمه لأهله وأولاده ويحفظه عن ظهر قلبه إن أمكنه ذلك، وإلا نظراً أو

٦٨ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع ٧/ ٢٥٤٨ في موسوعة أعلام المغرب.

(١) تحرف في المطبوع إلى: «المشترائي» وصوابه من دوحة الناشر في الموسوعة ٢/ ٨٨٠.

كيفما أمكن، ولا يهمله إلا من لا خير فيه أو ممن حجب عن الله فكما يجب على المسلم معرفة الله عز وجل بحفظ الستة والستين عقيدة فكذلك يجب عليه أن يعرف مولد رسول الله ﷺ ورضاعه وبعثه للناس وجهاده وما وقع من يوم مولده إلى يوم موته باختصار من القول، هذا للأُمِّيِّ، وأما القارئ فيتعين عليه البحث على ذلك والإطناب فيه فليس بعد قراءة كتاب الله شيء أفضل من قراءة شمائله وأيام مولده ورضاعه. انتهى الغرض، ومن خطه نقلت.

مشيخته: أخذ عن أبي عبد الله بن حلام إمام مسجد أبي العباس أحمد الشبلي المترجم فيما مر، والحمادي، وخميش، والشيخ أبي النتح حمدون ابن الحاج السلمي، كذا قال عن نفسه فيما نقلته من خط يده.

مؤلفاته: منها «النفحات الوردية والمطيات الطبيعية في تاريخ مكناسة الزيتون المولوية» لكنه لم يكمل، وقفت على الموجود منه في ورقات بكناش لبعض أصدقائي الأعلام. «وروض الورد والزهر في مولد المصطفى خير البشر» وقفت على بعضه بخطه. وغير ذلك.

وفاته: توفي أواسط القرن الثالث عشر وقد كان حيا تاريخ ثمانية وأربعين ومائتين وألف.

٦٩ - أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن عبد الكريم بن علي ابن طاهر بن مولانا الحسن الحسيني العلوي.

قاضي مكناسة الشريف الأصيل.

حاله: كان إماما عادلا له همة عليّة، ونفس أبية، حسن السيرة صلبا في أحكامه محدثا مسندا راوية ممتازا بين أئمة التحرير، بالإتقان والنقد بدون نكير، خطيب بليغ مصقع، رحل إلى الحج وزيارة جده خير الأنام وكان متصدرا لخطه

الشهادة بسماط عدول هذه العاصمة العلوية، ثم رشح لخطة القضاء، وقفت على تحليلته في رسم مسجل عليه بتاريخ أربعة عشر ومائتين وألف بما لفظه:

الفقيه الأجل، العلامة الأفاضل، الحافظ الحجة الأكمل، المدرس القدوة البركة الأمثل، الشريف المنيف العلوي المبجل، قاضي الجماعة بالحضرة الهاشمية الإمامية مدينة مكناسة الزيتون وهو أحمد بن علي الحسني. انتهى.

وآخر مسجل عليه أيضا بتاريخ واحد ومائتين وألف وآخر بتاريخ ستة عشر ومائتين وألف، وآخر بتاريخ ثمانية عشر ذكره في «الشجرة الزكية» وغيرها.

شعره: من ذلك قوله مرتجزا:

يا ربنا مبلغ الآمال	ودافع الكروب والأهوال
يا ذا العطا والجود والإحسان	يا واسع الفضل والامتنان
إنا فقيرون إلى رحماك	وأنت أولى من حبا بذاكا
ونحن في غم شديد وحزن	مما أصابنا بهذه الفتن
قد عمنا جزع من قد نزلا	من الطغاة فوقنا وأسفلا
وبلغت قلوبنا الحناجرا	كما ترى يا ربنا كن ناصرا
كادت قلوب ضعفا النساء	تذوب مما حل من بلاء
يرق من حالتهم الحجر	ودمعهن لؤلؤ منتثر
وبلغ السبل الزبي والوادي طم	على قريه وذا الخطب أدلهم
وقد علمنا أن ما حل بنا	فلنما أصابنا من كسبنا
لكن عفوك الجميل أوسع	والرحمة العظمى لكل تسع
فلا تؤاخذنا بذنب إنا	عليك يا رب قد اعتمدنا

ليس لنا مال ولا من نلجأ إليه غيرك فأنت الملجأ
فبدلن ما نخاف أمنا وكف كف الظالمين عنا
وشتن شملهم تشتيتا ولتكفناهم بما قد شئت
بجاء مولانا رسول الله محمد كهف الوري الأواه
صل عليه ربنا وسلم وآله مع الصحاب الأنجم
والتابعين لهم بإحسان ومن على نهجهم من إنسان

وفاته: توفي ليلة الأربعاء ثالث ربيع النبوي عام أربعة وعشرين ومائتين
وآلف بالحضرة، ودفن بضريح سيدي بو كتيب برد الله ثرى الجميع بفضله آمين.

٧٠ - أبو العباس أحمد بن مبارك.

وزير السلطان الأعدل مولانا سليمان وأحد مواليه الذين نشئوا في خدمته
من نعومة الأظافر إلى زمن المشيب.

حاله: رجل صالح، تقي نقي فالح، لا يعرف لهواً ولا لعباً، كان أوحد
زمانه صدقاً وأمانة ونصحاً وإخلاصاً لمخدومه، مع متانة دين ولين جانب،
وتواضع للقيوي والضعيف، ورفق وحنان على الضعاف والأيتام والأرامل، محافظ
على الصلوات جماعة في أوقاتها لا تستفزه الدنيا بزهرتها، ولا يكبر في عينه
شيء من زخرفها الفاني مقبل على شأنه قائم بأعباء مأموريته أحسن قيام، مواظب
على قراءة دلائل الخيرات في سائر أوقات فراغه عالي المكانة تام النفوذ مسموع
الكلمة مطاعها في سائر المملكة المغربية.

ومع ذلك خرج من الدنيا كيوم ولدته أمه قال في «الجيش العرمرم»: حدثنا
السلطان العادل يعني المولى سليمان وقد ذكره يعني المترجم يوماً وأكثر من الثناء

عليه حتى قال: والله لولا أنني كفتته وجهازته ما وجد ما يكفن به فإننا وجدنا في صندوقه الذي وجدنا مفتاحه معلقا عليه ستمائة مثقال، ووجدنا زماما بخطه عليه من الدين ستمائة مثقال فقضينا ذلك الدين بتلك الدراهم فخرج من الدنيا كيوم وضعته أمه مع ما ظفر به من الشهادة. انتهى.

قال فمن سمع هذا وتحققه فليعلم أن من سبقت له السعادة لا يضره شيء، فهذا رجل قد خاض في غمرات الدنيا وقام في مقام مجموع الفتن وقرعة المظالم والسيئات التي تستفز الرجال، وتهد الجبال، ووقف مع الذين قيل إنهم دعاة على أبواب جهنم، فلم يتعلق به من تلك الأدناس شيء وأدرك الفوز الذي وقف دونه أطماع السابقين فسبحان المتفضل الكريم، الواسع العليم، ومن تشوق إلى البرهان، على ما ذكرناه يقال له طلبك البرهان على مثل هذا مما لا تقول به أولو العقول والأذهان، فهل رأيت هذا الرجل شيد القصور أو غرس البساتين أو تأصل الأصول أو ادخر الذخائر أو استعد للنوائب كما يفعله من عمر دنياه.

ولم يبال بما تخرب من أخراه، عافانا الله بفضله آمين. انتهى.

وقال: ما نقلت عنه قط مظلمة ارتكبتها ولا موبقة تعمدتها ولا مسألة خان فيها مخدمه أو لبس عليه فيها أو مضرة كتمها عنه اتباعا لهواه أو موبقة لغيره، كان سلطانه العادل يذكر ذلك عنه ويمدحه به في كثير من المقامات وكانت وزارته ممتدة بطول ولاية سيده نحو من ثلاثين سنة ولا أظنه فاتته صلاة في جماعة حضراً وسفراً ولا يفارقة دلائل الخيرات في قبه كلما وجد فسحة من الأشغال أخرجه وقرأ ما تيسر منه مع ملازمة أوراده وإقامة الرواتب المشروعة هكذا رأيناه.

وأما مباشرته للناس وملاقة الضعفاء وذوي الحاجات والضرورات فكان أرحم وأرفق بهم من الوالدة بولدها ولا يخاطبهم إلا بالسيادة والتبجيل، وأما أن يقهر أحدا أو يسبه فإنه في البعد الأبعد عن ذلك.

وكان هو ووالده وإخوته ممالك لمولانا السلطان العادل رحمه الله أعطاهم له والده سيدنا محمد رحمه الله فنشأ الوزير المترجم في كفالته، وتخلق بأخلاقه من زمن الصبا إلى مماته، وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان العادل، فإنه من يوم قتل رحمه الله انتشر نظام مملكته واختلت أسبابها فلم تزل في اضمحلال حتى انطفأ سراجها.

وكان قتله عبيد البخاري ظلما وعدوانا بعد رجوع السلطان من وقعة ريان. وكان السلطان بعد قتله يقول في كثير من الأمور: لو كان أحمد حيا ما وقع هذا ولكان هذا. انتهى الغرض. وبالجمل فترجمة الرجل طويلة الذيل، ومحامده بعيدة النيل.

وفاته: توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف ضربه عبيد البخاري برصاصة بغابة حمرية ودفن يمين الخارج على باب أبي العمائر، ولا زال على قبره إلى الآن بناء كان أحدثه بعض حفدته رحمه الله.

٧١ - أبو العباس أحمد بن الطاهر بادو.

المكناسي النشأة والدار والوفاة.

حاله: صالح فاضل صوفي سني ناسك ذاك متبتل منحاش لأهل الله محب في الصالحين، معتقد في أهل الفضل والدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، كانت له وجاهة ومكانة قعساء عند سيدنا الجد السلطان أبي زيد بن هشام محمول لديه على الصدق والأمانة، يرشحه للمهمات ويفوض له في الأمور ذات البال وبالأخص فيما يرجع للأجاس.

وقفت في الحوالة الحبسية على عدة ظهائر من السلطان المذكور بالموافقة على ما وافق عليه المترجم وإمضاء ما أمضاه، وإيجاب العمل بمقتضاها، من ذلك ظهير

مثبت أصله بصحيفتي ٧٦ و ٧٧ من حوالة الزاوية العلمية بتاريخ ٢٢ حجة عام ١٢٨٦ .

ولي ببلده خطة الحسبة وقام بوظيفها فوق ما يطلب منه جهده وطاقته، وقفت على جواب عن مكتوب له لقاضي مكناس أبي عيسى المهدي ابن سودة بخطه حلاه فيه: بالفقيه الفاضل الصوفي بتاريخ فاتح جمادى الأولى عام سبعة وسبعين ومائتين وألف، وقد كان له جاه واحترام عند الخاصة والعامة من أهل بلده وغيرهم ويتمي نسب قبيلهم للعارف بالله أبي عبد الله محمد بن مبارك التستاوتي على ما في بعض العقود الحسبية القديمة.

٧٢ - أبو العباس أحمد بن عمر بن العربي بن عمر.

أصله من أولاد غدو، فرقة من صنهاجة، قدم جده الأعلى عمر المذكور من الجبل واستوطن قصبة هدراس وتولى إمامه وخطبة مسجدها، وكان معتقدا عند أهلها معظما ملحوظا بعين الإجلال والاعتبار.

حاله: كان فقيها زاهدا ناسكا ذا جد واجتهاد، وكانت فيه دعابة، وله مكاشفات، وأحوال خارقات، ظهرت على يديه كرامات، حدثني بها غير واحد من مشايخي الجلة الذين وقعت لهم معه وشاهدوها منه المرة بعد المرة، وكان حسن الصوت مجوداً لكتاب الله حلو التلاوة. أخبرني صاحبنا الفقيه أبو العباس الناصري قاضي الأحواز المكناسية أنه حدثه أن من جملة أوراده اللازمة كل يوم ذكر ثلاثين ألفا من اسمه تعالى الحي القيوم، واسمه تعالى اللطيف أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم خمسمائة مرة وعلى رأس كل مائة يقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين وربما كرر الاسم اللطيف العدد المذكور سبع أو ثمانى مرات في بعض الأيام.

ولادته: ولد بمكناسة ولازم ضريح الشيخ محمد بن عيسى شيخ الطريقة العيساوية حتى أسند إليه التقديم عليه وقام بخدمته أتم قيام وأحسنه، ثم لما تفاحشت البدع من أهل النسبة العيساوية وتكرر نهيه لهم وهم يستعبرون له أذناه صماء، وعينا عمياء، وبالأخص في تماديهم على اللحن الفاحش في حزبهم المعروف لديهم بـ «سبحان الدائم» تنازل عن ذلك التقديم ولازم داره وصار لا يخرج إلا للجمعة، وأقبل على عبادة ربه حتى أتاه اليقين، وكان يشار إليه بالمهارة الكاملة في علم الأسماء والأوفاق واستخدام الجان تقصده الزوار من الجهات القريبة والبعيدة.

مشيخته: أخذ الكتاب العزيز عن الفقيه البوسدراوي، والشريف سيدي محمد ابن إدريس البوعناني، والفقه عن العلامة الشيخ الحاج مبارك الفيلاي، وحصل ما قسم له من المعلومات وأخذ الطريقة العيساوية عمن تصدر لتلقينها إذ ذاك من مشاهير مقدميها.

الآخذون عنه: أخذ عنه ابن عمنا العلامة النقاد، المتأني الذي له كل صعب انقاد، سيدي محمد بن أحمد العلوي قاضي زَرْهُون سابقا قراءة آية الكرسي عند النوم إحدى عشرة مرة حسبما أخبرني بذلك مشافهة ومكاتبة، وشيخنا العلامة المشارك المطلع أبو العباس أحمد بن المأمون البلغيثي قاضي مكناسة الحالي أخذ عنه الصلاة المشهورة وهي: اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، وعلى آله وصحبه وسلم حسبما شافهني بذلك وبما وقع له معه من المكاشفات مرارا، وحدثني عنه أنه نبي له نفسه وذلك أنه ودعه ذات يوم عام ١٣٠٩ فأنشده المترجم:

يا مزمعا بالرحيل عنا	كان لك الله خير واق
أسعدك الله في ارتحالك	أمنك الله في المهالك

فائدة: من خط بعض العلماء ما صورته: وحكي عن بعض التابعين أنه كان إذا ودع مسافرا أنشده هذين البيتين. انتهى.

وقال بعض العلماء هذان البيتان ما أنشدا قط على أحد يريد سفرًا إلا رأى في سفره نجاحًا. انتهى.

وحدثني شيخنا البلغيثي أيضا أنه زار هو وشريف من سكان فاس المترجم يوما من الأيام، وكان ذلك الشريف من خاصة أصحاب البركة الأشهر سيدي محمد الغياثي وبمجرد ما وقع بصر المترجم عليه سألته عن حال شيخه الغياثي قائلا في سؤاله له هل لازال سيدي محمد الغياثي منفردا في داره لا يقبل دخول أحد عليه فيها؟ فأجابه بنعم وكَوَّهَرَةً، فقال المترجم: الله الله يهديه أنا والله لا أحب إلا أن تكون الخودات معي واحدة تعضني واحدة تنشدني وقلبي مع الله، ثم اتفق اجتماع شيخنا البلغيثي بعد ذلك بمدة مع الغياثي فجرى ذكر المترجم فأثنى الغياثي خيرا، ثم سألته شيخنا المذكور هل له به معرفة؟ فقال: أعرفه في عالم الأرواح.

وفاته: توفي في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الاثنين فاتح جمادى الثانية عام أحد عشر وثلاثمائة وألف ودفن بزاوية المولى التهامي بالبیت المقابل للدخل بإزاء قبر الشريف المتبرك به حيا وميتا سيدي محمد العربي الوزاني رضي الله عنه.

٧٣ - الوزير الأعظم أحمد بن موسى بن أحمد بن مبارك.

الوزير ابن الوزير ابن الوزير.

ولادته: ولد سنة سبع وخمسين ومائتين وألف.

مشيخته: أخذ عن السيد فضول السوسي، والحاج محمد جنون وغيرهما

من فحول أهل العلم بفاس ومكناس وغيرهما من البلاد، وكان جل أخذه على طريق المذاكرة والمباحثة.

حاله: كان شعلة ذكاء ونباهة فقيها حازما ضابطا عفيف الأزار، طاهر الذيل، سياسيا آية في الدهاء وحسن التدبير كثير الصمت، محافظا على الطهارة والصلاة في أوقاتها مع الجماعة، صلبا في دينه، كثير الأذكار، حريصا على التعرف بالأخبار، طلق الوجه ظاهر البشر متواضعا بشوشا، ذا مكاييد وحيل، مستبدا بالأمور، لا يشاور إلا فيما تتوقف الأنظار فيه على الأخذ برأي غيره ذا حزم وعزم وثبات، مَجَالِسُهُ لا تخلو من العلماء ومذاكرتهم.

حجابه: تولي الحجابة عن الخليفة السلطاني بفاس المولى إسماعيل أخ السلطان المولى الحسن، ثم الحجابة لدى الجلالة الملوكية الحسنية، وفيها تدرب على الخدمة الملوكية وحنكته التجاريب وعلم من أين تُؤكل الكتف.

إسقاطه وزارة الجامعيين وسبب ذلك:

ثم صار وزيرا صدرًا في الدولة العزيزية وفيها علا كعبه وارتفع صيته، وأوقع بأعدائه أولاد الجامعي واستتركتهم من وظائفهم، وذلك بعد أن قاسى أهوايا وشدائد قيد حياة مخدمه الأعظم السلطان مولانا الحسن، كان اتهمهما بأنهما اللذان سعيًا في إفساد ذات البين بينه وبين السلطان المذكور حتى انحرف عنه، وهم بالإيقاع به لولا أن المنية حالت بينه وبين ذلك والواقع خلاف ذلك كله.

وحقيقة الأمر أن السلطان مولاي الحسن لما ولى الحاج المعطي منصب الوزارة العظمى أنف المترجم من ذلك، إذ كان يرى أنه ليس بكفء لذلك المنصب وقد تحقق السلطان باستياء المترجم وإطلاقه لسانه بالطعن والتنقيص، وأنه قال: إن هذا الرجل فقد عقله يعني السلطان فأسرهما في نفسه ولم يدها له، وصار يحض الحاج

المعطي ويوصيه بمخالفة المترجم والغض منه والتضييق به وعدم المبالاة فأظهر له من الغلظة والجفاء امتثالا لما أمر به ما زاده حنقا، وأخذ لنفسه بالأحوط، فكان كلما ازداد الوزير غلظة وجفاء للمترجم زاد في إظهار اللين وخفض الجناح والخضوع والانحياش له ولأخيه السيد محمد الصغير وزير الحربية وهو يتربص بهم الدوائر وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن زمام الأمر بيدهما وأن الجو خلا لهما حتى صمم السيد محمد الصغير المذكور على القبض عليه بالرياط فمنعه من ذلك أخوه الصدر الحاج المعطي، وقال لا يسمع علينا أننا عقب موت السلطان فتحنا باب الشهوات والتوصل إلى الاغراض الشخصية، على أنه لا شيء بيننا وبين هذا الرجل والسلطان الذي كان يأمرنا بمضادته وعدم اعتباره قد لبي داعي مولاه.

هذا والمترجم يدبر لهما الحيل ونصب شبك المكاييد القاضية عليهما بالقاضية، فنسب لهما الخوض فيما لا تحمده عقباه.

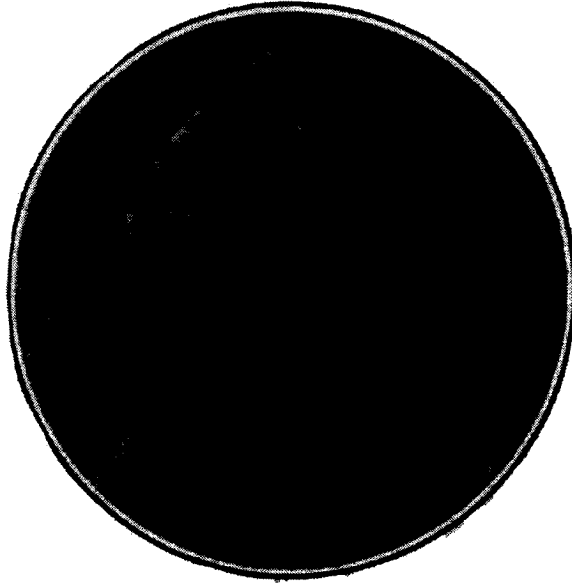
من ذلك أنه لما لبي السلطان مولانا الحسن داعي مولاه وبويع لولده المولى عبد العزيز بالمحل المعروف بالبروج من قبيلة بني مسكين استبد بالرأي دونهم، وصار يتدخل فيما هو خارج عن خطته اعتمادا على ما يعلمه من اختصاصه بالسلطان المولى عبد العزيز وتيقنه بعدم خروجه عن أمره، وأنه لا يركن لأحد سواه، وكان يعلم ذلك كل من له أدنى مسكة من بقية الوزراء، ولذلك تسارعوا لمحالفته، وتعاهدوا على تعزيزه ونصرته، والتزم هو لهم ببقاء كل واحد منهم بمحله وعلى وظيفه ما عدا الحاج المعطي الصدر و محمد الصغير وزير الحربية، فإنهما كانا على خط مستقيم في مخالفته ومضادته، فأشاع عليهما أنهما يرغبان الناس في نقض بيعه السلطان المولى عبد العزيز المذكور ومما في سكرتهم يعمهون، لا يعلمان أن المترجم لهما بالمرصاد يترقب انتهاز الفرصة في المكر بهما ولا يصدّه عن ذلك إذ ذاك إلا خوف انتشار الفتنة لقوة حزبهما من جيش شراكة وأولاد جامع والقوة الحربية كلها تحت سيطرتهم.

ولما فشا ما رماههما به من خلع السلطان استفتى العلماء في شأنهما وقرر لهم أن مرادهما شق العصار واقتراق كلمة الجماعة، فأفتى البعض بالقتل والبعض بالتخليد في السجن وأسر ذلك في نفسه ولم يبدعه لهما ورأى أنه لا يتم له مراده فيهما إلا بعد حلول السلطان عاصمة سلفه المكناسية.

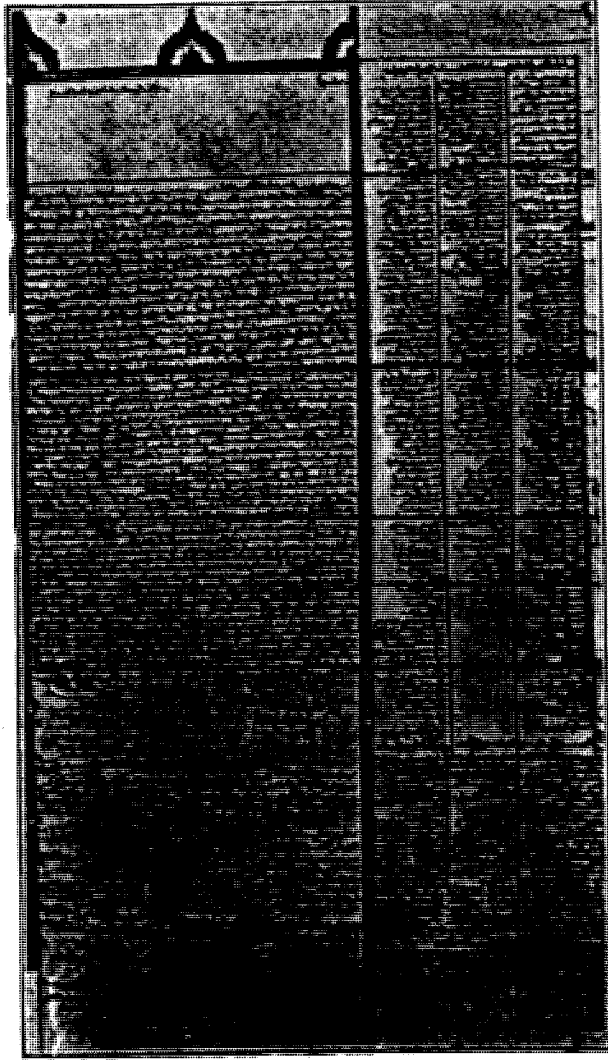
ولما نهض السلطان من الرباط صمم أولاد الجامعي على التوجه لفاس وقالوا: إنها قاعدة المغرب، وصمم المترجم على التوجه لمكناس، وقال: إن العادة قاضية بالمرور بها لكونها دار الملك ومقر الجيوش ووسيلة لزيارة مولانا إدريس الأكبر، فجنح السلطان لما صمم عليه صاحب الترجمة وزيف قول غيره.

ثم لما حل السلطان بعاصمة سلفه المكناسية، دخل عليه وهو على أريكة ملكه الوزير الصدر الحاج المعطي المذكور بصكوك الأوامر السلطانية على عادة الوزراء في تقديم المكاتب للتوقيع عليها، فأمره السلطان بدفعها للمترجم فامتنع وأبى، وطلب الأمير بالتمشي معه على العرف المألوف الذي كان يتمشى معه عليه والده السلطان المقدس، فقال السلطان مجيباً له: افعل ما أمرك به فغضب وترك الصكوك مطروحة بإزائه وخرج، فعند ذلك تم للمترجم ما أراد فأمر الأمير قائد مشوره وهو إذ ذاك إدريس بن العلام البخاري بأن يأمر الوزير الجامعي بالانسلاخ عن كل ما يرجع لوظيفه ولزوم داره هو وأخوه، وذلك أمر دبر بليل.

وكان من جملة ما خاطبهم به رئيس المشور المذكور، على لسان السلطان المنصور، قوله: لقد طغيتم في البلاد وكفرتن نِعَمَ ما أسداه لكم مولانا المقدس من النعم، وارتكبتم بدل المجازاة بالإحسان العقوق، وقد بلغ سيدنا أيده الله ما صمتم عليه من شق عصا الطاعة وإيقاد نار الفتن، ولولا رعاية محبة سيدنا المقدس فيكم وقربتكم منه لأذاقكم سيدنا شديد النكال وأليم العذاب، قوما اذهبوا لحال سييلكما، فلم يسعهما إلا الانصراف ولزوم محلهما، واتفق أن كان يوم طردهما عن شريف الأعتاب يوم الثلاثاء.



السلطان السابق مولانا عبد العزيز



بيعة أهل فاس للسلطان مولاي عبد العزيز

ثم بعد ذلك أمر باشا مكناس حم بن الجيلاني بن حم البخاري بإلقاء القبض عليهما، وذلك صبيحة يوم الجمعة ثم على صهرهما العربي الزبدي واستئصال أموالهما وأثاثهما، وبيعت تركتهما في العواصم المغربية، وبعد إلقاء القبض عليهما بذل المترجم العطاء للوفود وأسدى للضعفاء والمساكين بكل ناحية، ولاسيما مكناسة وفاس ووجه بالمقبوضين مقيدين لسجن ثغر تطاوين، إلا الأخير فنقل لأسفي سجيناً.

وبسجن تطاوين مات الحاج المعطي وكانت مدة اعتقاله ثلاثة وثلاثين شهراً، ومن عجيب الاتفاق أن مدة وزارته كانت كذلك ثلاثة وثلاثين شهراً.

وبقي به أخوه محمد الصغير إلى أن سرح أواخر الدولة العزيرية، ونقل لطنجة وبقي في حكم الثفاف بها في أنعس عيش، إلى أن اخترمته المنية.

وأما الزبدي فقد سرح بعد وفاة المترجم بأيام قلائل ولحق بالسلطان المولي عبد العزيز بمراكش، فأكرم وفادته ورده لوظيفته السابق، وأنزله بعرضة مولاي علي الشهيرة بحومة الكتبية ولم يزل على وظيفه إلى أن بارح السلطان مراكش ووجهته محروسة فاس، وذلك في شعبان عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف فكلف بإتمام حساب ما بيع من متخلف المترجم وحساب بناءاته التي كان السيد محمد بن عبد الهادي زبير مكلفاً بها وتصفية ذلك أمر كله، فلم يزل في مأموريته هذه إلى متم عام ١٣٢٠، فأصدر له الأمر السلطاني بالقدوم لفاس، ولما لحق بالجلالة طلب الخدمة بوطنه رباط الفتح فأسعفت رغبته وعين أميناً على الديوانة والمستفاد وخليفة مستقلاً عن عامل الثغر الرباطي، وبقي على وظائفه المذكورة إلى أن حل الركاب السلطاني بالثغر المذكور عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، فأمر عندئذ بالطلوع لمحل خدمته بالبساط الملوكي، وأقر زيادة على ذلك علي أمانة المستفاد وأذن له في جعل ولده نائباً عنه.

ولما جاءت الدولة الحفيفية عينته لوظيف الحسبة ببلده الرباط والخلافة
الباشوية وأمانة الديوانة بها، ثم أعفي في عام ١٣٣١، ثم عين للأمانة بديوانة
أسفي عام ١٣٣٢.

ثم طلب الانتقال فنقل لديوانة القنيطرة إلى سنة ١٣٤٢، ولم يزل على
وظيفه هذا إلى أن لقي ربه عام ستة وأربعين.

وزارته وصدارته العظمى:

هذا وبالقبض على أولاد الجامعي استقام أمر الملك لصاحب الترجمة وصفا
له الجو وطأطأت له الرؤوس ولم يبق له منازع في الوزارة العظمى، واستبد بأمر
الملك كله وجعل أخاه السعيد وزيرا للحربية وأخاه إدريس حاجا، ولم يترك معه
وزيرا أجنبيا إلا الفقيه السيد محمد المفضل غريط كان أبقاه على وزارة الخارجية،
وأبا الحسن على المسفيوي أبقاه على وظيفه وزارة المظالم، وقد كان يجماله
ويحترمه.

ولم يزل على وظيفه إلى أن لبي داعي مولاه، وإلا صديقه الحميم المخلص
السيد عبد السلام بن محمد التازي الرباطي فإنه بقي في وظيفه أمانة الأمناء (وزارة
المالية) كما كان قلده مولاي الحسن إياه بفاس في رمضان عام ١٣٠٧ إثر وفاة أخيه
السيد محمد التازي الرباطي الشهير المترجم في الاستقصا [٤: ٢٥٦]، وقد كان
المترجم يركن له ركونا خاصا مشهورا سيما في الخارجية إلى وفاة المترجم التي
صادفته مريضا بمراكش فاستغفى بعده.

وذهب للحج وأكرمه السلطان وأعانه على رحلته الحجازية، ثم ألقى عصا
تسياره بالرباط إلى أن استدعاه السلطان مولاي عبد العزيز إلى فاس في العشرة
الأخيرة من جمادى الأولى سنة ١٣٢٢ وقلده أمر النيابة بطنجة عوض النائب



وزير خارجية الدولة الحسنية والصدر الأعظم سابقا
السيد محمد المفضل بن محمد غريط

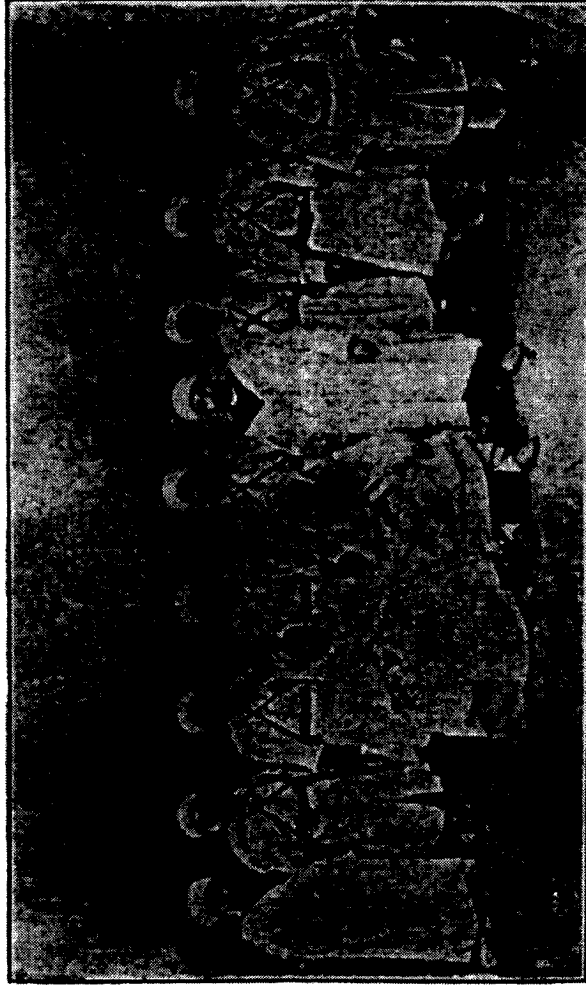
الحاج محمد الطريس، على أن خليفته قائد سلا الشهير السيد عبد الله بن سعيد ورجع للرباط لتهيئة الأسباب ومعه المكاتب السلطانية لعمال المغرب وولاته باعتماد أوامره في مأموريته، فدخله يوم الأحد ٢٧ شعبان عامه في يوم مشهود، وجمع محشود، حيث فيه أبراج العدوتين وحُصُونهما بالمدافع الرسمية.

ثم توالى الأحداث التي اقتضت تأخير ذاك وتتابعت تترى، فاستدعى السيد عبد الله ابن سعيد المذكور إلى طنجة آخر رمضان منه، وصعدت السفارة الفرنسية لفاس في شوال منه ثم استدعيت وفود مدن المغرب ومراسيه إلى فاس أواخر القعدة منه للمذاكرة في مطالب السفارة، ثم قدم غليوم إمبراطور الألمان إلى طنجة يوم الجمعة ٢٤ محرم ١٣٢٣ لمعاوضة السلطان ومعارضة السفارة الفرنسية، فقابله ابن سعيد المذكور إذ كان الطريس بفاس، ثم عقد المؤتمر الدولي بالجزيرة الخضراء في شوال منه ورئيس الوفد المغربي الطريس، وما يتبع ذلك من الحوادث فبقي التازي المذكور بالرباط إلى أن لقي ربه ليلة الخميس ٢٧ صفر عام ١٣٢٥ محمود المساعي مشكور الأعمال «والذكر للإنسان عمر ثاني».

ولما نهض السلطان من مكناس لفاس أعفى الوزير غريط وولى مكانه عبد الكريم بن سليمان وكان كغيره لا يقطع أمراً دونه قلّ أو جلّ، وأضاف عمالة فاس لإدريس بن العلام قائد المشور السلطاني، حيث إنه كان عوناً له على الإيقاع بأولاد الجامعي زيادة على وظيفة.

بعثة السفارة لأسبانيا وما حصل لها:

وفي تاسع عشري رجب عام ١٣١٢ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٩٥ وجه الوجه الحاج عبد الكريم بن محمد المدعور بريشة التطواني سفيراً لدولة الإسبان لإدخال إصلاحات وتعديلات على الوفاق الممضي بمراكش بين جلالة السلطان المقدس مولانا الحسن والجنرال (مرطيس كبو) النائب عن دولته المذكورة فيما يتعلق



سفارة الحاج عبد الكريم بريشة وابن سليمان لدى دولة اصبانيا

بحرب مليلية، وعززه بالسيد عبد الكريم بن سليمان، ولما وصلا لمريد اقتبلتهما الدوائر الرسمية أحسن مقابلة وأكرمت وفادتهما واعتنت بشأنهما غاية الاعتناء رغما عن كون الشعب ينظر لهم شزرا، وأفكاره لا ترضى بمطالبهم.

ولما حل وقت الملاقاة الرسمية مع الملكة وخرج السفير من محل نزوله للركوب في العربة المعدة له بقصد ما ذكر، اعترضه رجل إسباني بلباس مدني ولطمه على جيده على حين غفلة لطمه كادت تذهب ببصره فرجع السفير من طريقه وامتنع من الملاقاة مع الملكة التي كانت في انتظاره، ووقع القبض على المتعدي وبعد البحث عنه أُلقي جنرالاً متقاعدًا مختل العقل اسمه (يكل فونتينس) وفي الحين حكم عليه من المحكمة ببقائه طول حياته محجرا في المارستان.

ثم قدم على السفير كثير من المستعطفين ما بين وزراء وكبراء وألح عليه في الاستعطاف غاية طيب السلطان المقدس مولانا الحسن (رويلو) والترجمان بسفارة إسبانيا بطنجة (منويل سييدرا) واعتذروا له وأظهروا تحسرهم على ذلك الواقع الفظيع، ولم يزالوا معه حتى لان وتوجه معهم للقصر الملوكي.

ولما وصله أبي أن يدخل لملاقاة الملكة حالة كون شرفه ممسوسا فخرج إليه صديق وداده رئيس الوزارة الصنيور (ساقاسطا) والجنرال (مارتينس) وأقنعوه بما يرضي دولته ويحفظ شرفه فساعدهم إذ ذاك على ذلك، وتقدم لغرفة استقبال الملكة ولما دخلها أجملت الملكة استقباله فوق العادة جبراً لخاطره، ومن غريب ما يذكر في ملاقاته هذه أن الملكة نزلت عن كرسيها وصافحته وهي قائلة: (يا سعادة السفير أتأسف من صميم فؤادي على التعدي الذي وقع عليك وإنني أشعر بالـم تلك اللطمة داخل قلبي).

ولما تم الاقبال على أحسن حال ورجع السفير لمحل نزوله تواردت عليه الوفود من المجامع وإدارات الجرائد وزاره كل الوزراء مطييين لخاطره ورجع الذين

كانوا ينظرونه شزراً من أخص المتأسفين، وقامت جملة الجرائد وأندية الشعب والأحزاب الساسية ومجلس الأمة ضد ما وقع من التعدي الشنيع فلم يسع السفير المذكور إلا أن أبرقَ إلى جلالة السلطان مرسله بواسطة النائب أبي عبد الله محمد الطريس بما لفظه: إن ما يصلكم من التعدي علي هو شيء لا أهمية له ولا يمس عاطفة الوداد الإسباني المغربي، ولا يرى جنابكم العالي إلا ما يسره فتقرر بمجلس النواب وشورى الوزراء أنه من شرف إسبانيا واللائق بنخوتها جبر خاطر السفير والاحتفال به كما يجب، وهكذا انقلبت لهجة الأمة كلها فكان لهذه الحادثة أثر عظيم في تعديل العقد المراكشي الممضي من الدولتين في ٢٤ أفريل ومن أهم تعديلاته إسقاط ٤٠٠ ، ٤٠٠ ، ١ ريال (دوروس) من ٣٠٠ ، ٣٠٠ ، ٢ التي كانت مقررة به، وبعد أن كان سيدفع بكيفية خاصة تعدل دفع المقدار في ستة أشهر الموالية للتعديل وعلى ما قرره مؤرخو الإسبان وصرحوا به في عدة مواضع أن دولة المغرب نجحت في هذه السفارة نجاحاً لم يتقدم له مثيل.

ثم بعد هذا عينت له بأخرة خصوصية تحمله لطنجة زيادة في إرضائه وتكرمه، ولما وصل طنجة ورجعت الباخرة غرقت بما فيها على مقربة من طنجة.

ولما رجع من مدريد رفع نتائج أعماله للمترجم فاستحسنها واستعظمها وأجازه باسم السلطان بخمسين ألف ريال (خمسمائة ألف فرنك) وسماه نائباً في جمعية السفراء بطنجة لسن قوانين إدخال الإصلاحات للمملكة، ولم يزل على وظيفه هذا إلى أن ختمت أنفاسه يوم الجمعة عاشر محرم عام ١٣١٥ الموافق يوليو سنة ١٨٧٨.

استخلاصه طرفاية من الإنجليز: وفي ثاني وعشري قعدة العام أوفد عن إذن السلطان لطرفاية صاحبنا الفقيه الميقاتي الحيسوبي السيد العلمي بن أحمد بن رحال بصفة كونه ميقاتياً والحسين بن خلوq الأودي بصفة كونه مهندساً، وإدريس بن

عبد الجليل خليفة باشا فاس إذ ذاك بصفة كونه أميناً، والعدل السيد العباس التطواني آل أبي عبد الله ابن مرزوق دفين أصيلاً، والنجار الطالب الحسين المباركى، والبناء الحاج موسى مارسيل الرباطي، والحاج محمد زبير السلوي الطبجي، والرئيس البحري وخمسة وعشرين عسكرياً بقصد حيازة المرسى التي كان أحدثها الإنجليز بطرفاية افتياتاً وتمكينه مما كان صرفه على بناء ذلك المحل.

وذلك دار بوسط البحر محمولة على الأزهرية وهي على هيئة فندق بالفوقى والسفلى وبها هريان عظيمان لخزن البارود والقرطوس، وبسطح الدار ستة مدافع وقصبة مربعة بها دور ثلاث إحداها كبيرة شبيهة بالمرسى المذكورة معدة لسكني رئيس تلك المرسى، والثانية صغيرة كان يسكنها البشير بن بيروك الودنوني، والثالثة يعمرها العسكر على هيئة قشلة إلا أنها بدون فوقى وبوسط القصبة خيام بعض العرب يدعون الأفيكات.

والسبب الوحيد في مد أعناق الأجانب للبناء بذلك الشاطئ هو بيروك الودنوني التكني والد البشير المذكور، وكان ذلك في دولة سيدنا الجدد السلطان أبي زيد عبد الرحمن بن هشام حسبما وقفت على التصريح بذلك في ظهير أصدره السلطان سيدي محمد لصنوه المولى العباس ودونك لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا ثم الطابع الفخم بداخله محمد بن عبد الرحمن الله وليه.

«أخانا الأعز الأرضى مولاي العباس حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فلإن بيروك التكني كان على عهد سيدنا ومولانا قدسه الله تواطاً مع بعض النصارى على البناء بشاطئ أرضهم، فبلغ خبره لمولانا فوجه له نور الله ضريحه من ذكره وحلفه في المصحف الكريم على أن لا يعود لذلك. ولا يسلك مع الكفار تلك المسالك، وظهر منه من التوبة ما أوجب اعتباره ومراعاته

عند سيدنا ونفذ له دارا بالصويرة، وكان محررا من الإعطاء على سلعه التي ترد على الثغر الصوري تأليفا له، وبقي على ذلك إلى أن لقي الله تعالى.

ثم خلفه من أولاده خلف أضاعوا تلك الوصايا، وأرادوا أن يعرضوا بلاد المسلمين للرزايا، ويبيعوا دينهم بدنياهم، فتواطئوا مع النصارى جنس الصبليون على البناء هنالك، فسمعت تلك القبائل المجاورة لهم بذلك واتفقت على قتالهم إن لم يرجعوا عن غيهم.

ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الفتن والأهوال واتساع دائرة القتال، وعليه فيتعين الكلام مع الصبليون في هذا الأمر الذي يجر إلى ما لا يليق ليرجعوا عنه إن بدءوك بالكلام فيه وإلا فلا، ومن المعلوم أن أهل تلك البلاد من جملة رعيتنا وإيالتنا، فليس لأحد منهم أن يفعل في شبر منها ما شاء ولا تسلمها تلك القبائل ولو أفناهم القتال عن آخرهم، ومرادنا أن تبقي هذا الأمر مكتوما حتى يبدأك به الصبليون، فإن بدءوك به فتجد عندك ما تقول لهم وتردهم به، وها كتاب المرباط السيد الحسين الأليغي يصلك فطالعه لتعلم ما ذكر فيه، وإن ذكروا لك أن أهل تلك الجهة هم الطالبون لذلك والراغبون فيه فأجبههم بأن الأمر بخلاف ذلك وبأن قبائل تلك النواحي رمت ولد بيروك عن قوس واحدة، وليس معه أحد فيما رام فعله، واذكر لهم في ذلك ما يليق أن يذكر، وإن لم يذكروا لك شيئا فلا تذكر لهم شيئا، ونسأل الله أن يرد كيده في نحره وقد أخبر خدينا الطالب عبد الله أبهي بمثل ما أخبر به المرباط المذكور، ونسأل الله أن يعجل بهلاكه آمين والسلام في ١١ من ربيع الأول عام ١٢٧٨ هـ. من أصله بلفظه.

وأدى السلطان في استرجاع ذلك ابرات ٥٠٠٠٠ خمسين ألف حيزت من طنجة بعد أن كانوا طلبوا ريال ١٠٠٠٠ عشرة آلاف وقديما قيل إن للتأخير آفة ووقع الاتفاق على ذلك بشروط نصها:

«الحمد لله وقع الاتفاق بين الواضعين اسمهما عقب تاريخه وهما الفقيه الوزير الأعظم الأجل المبجل السيد أحمد بن الفقيه الوزير المنعم السيد موسى بن أحمد والكبير المنيسطر (ارنيط ماسن ساطوا) على الشروط الخمسة التي ستذكر أسفله في شأن شراء المخزن لزينة البناء الذي للكبانية النجلزية المسماء (نرف وست افرك) بالمحل المعروف بالطرفايا الكائن ببلاد قبيلة تكنة.

(الشرط الأول) إذا اشترى المخزن زينة المحل المذكور من الكبانية المذكورة لا يبقى كلام لأحد في الأراضي التي من وادي درعة إلى رأس بوخادورا المعروف بالطرفايا المذكورة، وكذلك فيما فوق هذا المحل من الأراضي لكون ذلك كله من حساب أرض المغرب.

(الشرط الثاني) المخزن يعطي الكلمة لمخزن النجليز أنه لا يعطي شيئا من الأراضي المذكورة أعلاه لأجنبي إلا بموافقة مخزن النجليز.

(الشرط الثالث) إذا اشترى المخزن زينة البناء الذي بالمحل المذكور أعلاه من الكبانية المذكورة أعلاه يكون شراؤه لذلك عاما شاملا لزينة البناء حجراً أو خشبا الذي بالبحر والذي بالبر، كما يكون شاملا أيضا شراء المخزن لذلك لجميع ما اشتمل عليه جميع البناء المذكور الذي في البر والذي في البحر من مدافع وغيرها، ولا يبقى كلام لأحد في ذلك ولا في تلك الأراضي، والتمن الذي يعطيه المخزن في ذلك للكبانية المذكورة قدره خمسون ألف ابره نصفها معجلا عند عقد هذه الشروط، والنصف الآخر مؤجلا عند حيازة المخزن للمحل المذكور من الكبانية المذكورة.

(الشرط الرابع) مخزن المغرب إذا حاز المحل المذكور من الكبانية المذكورة بالشراء يبقيه مفتوحا للبيع والشراء والمخزن لا يبني فيه من بيت ماله دورا ولا خزائن للتجار لسكناهم ولوضع سلعهم، ولا يجعل فيه فلائك لاوسق والوضع إلا

إذا اقتضى نظره الشريف جعل ذلك وقت ما شاء، وتكون أعشار السلع الداخلة له والخارجة منه مثل أعشارها بمراسي الكوشطة.

(الشرط الخامس) من أراد من التجار الإتيان بسلعته للمحل المذكور وأتي بكتاب من باشدور جنسه يعطيه المخزن طرفا من الأرض بذلك المحل بالكراء عن مدة من عشرين عاما وحيث تنصرم يصير للمخزن).

وكتب وزير الخارجية قبل ذلك لباشدور النجليز بما لفظه:

«الحمد لله: لمحل العاقل الناصح الساعي في الخير بين الدولتين المحبتين منيسطر دولة (كرت ابريطن وانبريز) الهند الفخيمة الكبلير فلان، بعد مزيد السلام فقد انهينا لحضرة سيدنا العالية بالله ما تطلبه الكبانية الإنجليزية من أداء خمسين ألف ابرة في الخسارة الواقعة لها في تعاطيها التجارة بالطرفايا بسبب تعرض ولاية المخزن لها في تجارتها، ووقوع التعطيل لها فأمرتني الحضرة الشريفة أن نجيبك بأنها قبلت أداء الخمسين ألف ابرة المذكورة للكبانية من قبل ذلك مقسطة على خمس سنين، بحيث تدفع للكبانية خمس العدد المذكور كل سنة وهو عشرة آلاف ابرة وتبقى قصبة نزول الكبانية بالطرفايا موقوفة كما كانت قبل وختم في ١٠ رجب عام ١٣٠٨ محمد بن محمد غريبط لطف الله به.

ثم كتب تحت الشروط المذكورة يطلب من الباشدور المذكور ما لفظه:

«وبعد فقد أطلعت شريف علم مولانا نصره الله بالشروط الخمسة المرقومة أعلاه الواقع الاتفاق بيننا وبينك عليها في شأن حضرته الشريفة زينة المحل المذكور أعلاه، فسلمها أيده الله وأمضاها كما سلم أيضا شراء تلك الزينة لحضرته العالية بالله من الكبانية المذكورة أعلاه، بالخمسين ألف ابرة نصفها معجلا ونصفها عند حيازة المخزن للمحل المذكور، وذلك بعد مضي ستة أشهر أولها شهر شوال

وآخرها شهر ربيع الأول الآتيان، وأمرني نصره الله بالكتابة لك بهذا وبأن المخزن له أن يوجه للمحل المذكور من الآن قبل أن يحوزه أناسا من قبله وحيث يريد توجيههم يعلمك لتمكنهم من كتابك لمن هناك من النجليزيين بـجـولهم وختم في ١٦ من رمضان عام ١٣١٢هـ.

وكان ذهاب هذا الوفد المذكورة أفراده في البابور المسمى بـ «التريكي» الذي كان اشتراه السلطان مولاي عبد العزيز ونفذت للوفد الكساوي بالصويرة.

وكان وصولهم لطرفاية زوال يوم ١٠ محرم فاتح ١٣١٣ فوجدوا الباخرة الإنجليزية في انتظارهم حاملة سائر ما كان لهم من القوة بتلك المرسى، وبمجرد ما أرسى البابور في المرسى جاءتهم الساندة حاملة كبراء تلك المرسى الذين ييدهم الحل والربط من الدولة الإنجليزية فيما يرجع لذلك ثم توجهوا بالمكلفين الذين جاءوا من قبل السلطان للمرسى المذكورة بقصد تسليم البناء المحدث جميعه ودفع مفاتيحه، ولم يتركوا لهم من الشئون الحربية عدا المدافع والبارود والقرطوس ومركبا دقاوء، أي كبيرا وبعض المؤن وسافروا حيناً لبلادهم.

وبقي الوفد المخزني بتلك المرسى ومكثوا هنالك نحو السنة وكانت المثونة تأتيمهم من الصويرة على رأس كل ثلاثة أشهر.

ولما استقر بهم النوى وجه لهم الشيخ ماء العينين ولده أبا عبد الله السيادة وهو أكبر أولاده إذ ذاك وفي معيته صهره على ابنته الشيخ الأمجد وحفيده السيد المحفوظ في لفيف من الأتباع يهنيهم بسلامة القدوم ويستقدمهم عليه ووجه إبلا تحملهم إليه.

وكان وصول هذا الوفد إليهم صبيحة الاثنين ٢٢ محرم وأقام مع الوفد السلطاني أياما خمسة ثم لبوا دعوته، وكان نهوضهم يوم السبت ٢٧ محرم، ووصلوا لخيام الشيخ المذكور يوم الجمعة ثالث صفر وكانت المسافة التي قطعوها في

الوصول إليه ستة أيام كاملة، ومحل نزوله يسمى ذي النبط من ناحية الساقية الحمراء، فأكرم وفادتهم ونحر لهم ناقة هائلة على عادة الكرام، وكان جل ما يقدمه إليهم من الطعام النوع المعروف بالشعرية، وحضروا صلاة العصر مع الشيخ، ولما فرغوا من الصلاة قام بعض تلامذة الشيخ وهو العلامة الأديب السيد إبراهيم بن محمد البواري حول زرب المسجد وأنشد:

أهلا بهم من خمسة أعلام	بل خمسة كقواعد الإسلام
رسل الأمير ابن الأمير إمامنا	عبد العزيز ابن العزيز الإمام
من خصه المولى بأعلى رتبة	تلك الخلافة رحمة الأنام
لازال مخصوصا بكل فضيلة	إذ خصنا بأئمة الأقوام
هم خنصر مع بنصر وسطاهم	سبابة كبراهم الإبهام
يده إلينا مدها مبسوطة	بمواهب مشكورة الإنعام
لا تنس أن تذكرهم وسراتهم	أعني ثلاثة سادة خدام
ولأنتم من عند شيخ فاضل	ماء العيون المصطفى بمقام
ساقى الورى ساقية الحمرا متى	عز الوري أسقاء ضيف ظام

وكانت مبارحتهم لمحل الشيخ يوم الثلاثاء سابع عشر الشهر المذكور على غير الطريق الذي ذهبوا عليها، حيث إن الشيخ أخبرهم أنه مأذون من قبل الأمير بذلك والبلاد كلها رمال تجدد اليوم جبالا منها فلماذا هبت الريح نسفتها نسفا ونقلتها لموضع آخر.

وطرفاية هذه هي آخر حجرة المغرب، وسميت طرفاية بذلك لوجود أشجار ثلاثة من الطرفاء بها وهي بلسان الروم (دكاب جويي) عرضها ٢٨ وطولها ١٢

ودقائق ٥٢ على ما حرره رئيس تلك المرسى، وطرفاية معتدلة في سائر الفصول ومهما بعد الإنسان عنها بنحو نصف ساعة يجد حرارة عظيمة.

أخبرني صاحبنا ابن رحال أنه كان مسافرا في بعض الأيام وهو راكب جملا فصارت تنزل عليه نقط في غاية الحر فإذا هي دموع الإبل تحملها الرياح وتلقيها عليهم.

وليس بها ماء عَدَا بئر ملح تأتي للسقي منه القوافل ليلا وتساfer به لخيامها، أما الوفد السلطاني فإنه كان يأتيه الماء الكافي من الصويرة، وأهل طرفاية يتخذون أحجارا مثل القصع يملأونها من ذلك الماء الملح فوق آنية أخرى فينزل الماء من تلك الأحجار للآنية فيستحيل عذبا.

وكان في نية السلطان أن تبقي تلك المرسى مفتوحة يعمرها التجار وغيرهم وفق ما قترح الإنجليز، ولذلك وجه النجار والبناء والمهندس ولكن أمر ذلك لم يتم.

ثورة الرحامنة بزعامة مبارك ابن سليمان:

وفي أواخر ربيع الأول من السنة المذكورة، نهض من فاس لتمهيد نواحي مراكش الذي أضرم نيرانها فساد تلك القبائل على ما يأتي بيانه، ورتب قواد قبائل الحوز بعد أن نظم جيشا عرمرما رأس عليه الشريف سيدي محمد الأمراني المترجم فيما يأتي بحول الله، ومعه عمال دكالة وباقي عمال الحوز، وخيموا على الرحامنة وندبهم للصالح وحذروهم وأنذروهم عقوبة المخزن واشتداد شوكته وخوفهم سطوته، فلم تنفع تلك المساعي ولم يرفعوا لمقامهم رأسا واستعظموا عصبيتهم وتمادوا على عيهم وتمردهم، ولما قربت الجنود المولوية من مراكش اختل أمر تلك الجموع الزائفة وانهزمت، وقد كان السلطان حشد الجيوش والقبائل المغربية برابر وأعرابا بخيلهم ورجلهم وأصحابهم معه.

ولما خيم على الرحامنة بوادي أم الربيع وأحاطت بهم الجيوش السلطانية المشار لها، بعد أن قسمها سبعة ملاحم، عقد عليها للشرفاء وكبراء الجيش كأعمام والد الجلالة العزيزية المولى الأمين، والمولى عبد القادر، والمولى عبد المالك فأوقعوا بالخارجين وقعة شنيعة وجاسوا خلال ديارهم ولم يسعهم غير الرضوخ للطاعة، والدخول فيما دخلت فيه الجماعة، وأدوا المغارم ذات البال، وأسلموا عددا كثيرا من رؤسائهم أسرى وجه بهم في السلاسل والأغلال للحضرة المكناسية، ورجع عليهم العمال الذين نزعتهم الغوغاء عصبية مبارك بن الطاهر بن سليمان الرحمانى - وكان عاملا للسلطان مولاي الحسن علي درعة وأعمالها - الذي سعي في الأرض الفساد وخرب مدينة دمنات وغيرها، وشن الغارات على مدينة مراكش وهم غير مرة باقتحامها عنوة، ولولا قيام عاملها القائد (ودة) قيام الأبطال المخلصين ومبالغته في الدفاع عنها جهده وطاقته لخربت وديست سراتها وذوو الحشيات فيها بالآقدام.

وأتي بركن الفساد الزعيم المذكور من زاوية سيدي علي بن إبراهيم بتادلا وذلك في رمضان عام ١٣١٣ ثلاثة عشر وثلاثمائة وألف وفي ميعته ولده الفاطمي وأخوه سليمان فجعل في قفص من حديد وأحرق به مع حزبه وكاهنهم مَهيمَر - بفتح الميم وكسر الهاء مشبعة بعدها ميم مفتوحة فراء ساكنة - الحرس المخزني المسمى بالمسخرين، وبسبب ذلك انطفأت نيران البغي والفساد، وانكسرت شوكة أهل العتو والإلحاد، ووظفت عليهم أموال طائلة وعدد عديد من الخيل والسلاح، ودفعوا ذلك عن يد وهم صاغرون، وكان الرجل منهم يأتي بفرسه ومكحلتة ويسلم كلا للمكلف بحوزة من قبل المخزن، ويأتي الرجل بنفسه ويسلمها للسجان فيدخله السجن إلى أن ضاق بهم، ففرقوا في سائر السجون المغربية وأكثر ما كانوا بسجن الصويرة.

وقد كتب المترجم نبأ هذا الفتح الباهر لسائر الأمصار والأقطار وكان من



الخليفة مولاي الأمين في قضية غوغاء الرحامنة

جملة من كتب له بذلك ابن عمنا النقيب قبلي مولاي زيدان ودونك لفظ الكتاب بعد الحمدلة والصلاة:

محبتنا الأعز الأرضي نقيب الشرقاء ، مولاي زيدان ، أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله ، وبعد: فموجه إعلامكم بأن سيدنا المنصور بالله لما نهض من الرباط ، في عز وظفر وانبساط ، مر بمحلتة المنصورة السعيدة في جيوشه وعساكره الموفرة ذات الأعداد العديدة ، على قبيلة الشاوية فوجدهم بفضل الله على غاية من الاستقامة مبتهجين بطلعته السعيدة ومن ببلادهم في عز كامل ، وحفظ شامل ، إلى أن خيم بعين كيسر من بلاد أولاد ابن داود وأقام هنالك مدة في استنشاق أخبار فساد الرحامنة ورئيسهم النحيس بن النجس ، فلم تكن إلا مدة سيرة حتى صار قوادهم القدماء يأتون للحضرة الشريفة ويتلاحق بهم أهل الصلاح الباطني منهم متبرئين من سعيهم في الفساد ومصرحين بأنهم كانوا مجبورين عليه من الفاسد الكبير وشيعته ، ومعلنين بالتوبة والإنابة .

وهناك كانت الأخبار تتوارد بأن المرجفين لا زالوا يستحبون قدوم الجناح الشريف للحوز وينكرون ذلك ويحسبونه عظيما وهو عند الله هين ، ويأثر ذلك نهض أعزه الله في جيوشه السعيدة ونزل بمحلتة المنصورة على ضفة وادي أم الربيع ، في زي بديع ، ومكث هنالك أياما قلائل وأذن للمحلة في العبور وبقي هو دام علاه في الساقة إلى أن تكامل العبور ، وعبر هو بعدهم في جنده الداخلي وخيم على الضفة الأخرى بتراب الرحامنة ، فغشيه من اليم ما غشيه ، وسقط في يدهم ما كانوا يدبرونه ، ولم يسعهم إلا إعطاء يد الانقياد والقDOM للمحلة السعيدة خاضعين متذللين تائبين مصحوبين بالمشايخ والمتجالات والذبائح والعارات ، ملتزمين بكل ما يؤمرون به ويشترط عليهم ، ولا غرض لهم إلا في الإبقاء على أنفسهم ، فوظف عليهم نصره الله أربعمئة ألف ريال وعشرين ألف

ريال وألفا من الخيل بسروجها وعدتها وألفين من العسكر، فالتزموا ذلك وشرعوا حيناً في الدفع، ولم تكن إلا مدة يسيرة حتى أكملوا الخيل والعسكر وجل المال، ولم يبق منه إلا البعض ولا زالوا يدفعون، وفي أثناء هذه الإقامة أمكن الله من الفاسد الغوات الدمناطي الذي كان حامل راية فساد النحيس بن النجس وأتى به فطيف به في المحلة السعيدة على حمار وصفد وسجن.

وبعده أتي بسالم الرحمانى كاتب الفاسد المذكور فألحق بالغوات في السجن، وكانا كالبشيرين بحصول رفيقهما الفاسد الكبير، فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى أمكن الله منه كذلك، وأتى به للمحلة السعيدة مصفدا ذليلاً حقيراً، فعاينه سيدنا المنصور بالله، وجمع عليه كبراء الجيوش والعساكر السعيدة وأعيان الحضرة وقواد القبائل، فعاينوه على هذه الحالة المقررة، ثم أركب على جمل أعرج وطيف به في المحلة السعيدة عاري الرأس والصفع في قفاه وسخط الله ينزل عليه من كل ناحية حتى كاد أن يموت من العذاب، ثم صفد من يده ورجله وعنقه وسجن في قفص من حديد كالخنزير أو الكلب العقور.

ولا زال أیده الله ينظر في أمره بعد أن جمع القضاة والعلماء على نازلته وحكموا عليه بما حكم به الشرع في المحاربين، وسجلوا الحكم ولم يبق من فضل الله وسعادة مولانا المنصور بالله من يشار إليه بفساد في الحوز أصلاً فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، وحتى رفيقهم دحان الصنهاجي السرغيني الذي كان معهم على الضلال ساقته العناية قبلهم في خفارة ولد سيدي ابن داود تائباً خاضعاً متذللاً، فاقتضت المصلحة تأمينه لظهور أدلة صدق توبته، وولاه سيدنا نصره الله على إخوانه، وهو الآن على غاية من الاستقامة، وأعلمناكم بهذا على سبيل الإجمال والتعجيل، ريثما ترد المكاتب الشريفة بتفصيله لما نعلمه من تشوفكم لأخبار ذلك، ولتسروا بحقيقة الواقع، ولم يبق إن شاء الله

إلا دخول سيدنا أعزه الله لحضرته الشريفة المراكشية رافلا في حلل العز والسعادة والإقبال، بمئة الله الكبير المتعال، وهو المسئول سبحانه أن يحسن في الباقي كالماضي ويجزي الأحوال على ما يراد ويرضى، وعلي المحبة والسلام في ١٨ شعبان الأبرك عام ١٣١٣ أحمد بن موسى بن أحمد لطف الله به.

ثم بعد استئصال شأفه العتاة المفسدين دخل المترجم بالمحاة المظفرة للحضرة المراكشية منتصف العشر الأواخر من رمضان عام ١٣١٣.

ثورة الأعشاش:

ثم في فاتح ربيع الثاني عام أربعة عشر نهض لناحية الشاوية لفرقة الأعشاش منها فنزل بساحتهم إلى أن قضى وطره منهم، وألقي القبض على أركان بغيتهم واستصفى أموالهم واستولى على ذخائرهم وحز منهم نحو ثلاثمائة رأس وقبض على خمس عشرة مائة رجل منهم وأودعهم السجون، وبقيت شردمة متحصنة بالكهوف من أولاد محمد فتحا إلى أن هلك أكثرهم جوعاً، ثم ارتحلت المحال عنهم فرجع أهل الغرب لبلادهم يرأسهم سيدي محمد الأمراني وأهل الحوز رجعوا في معية المولى الأمين بن عبد الرحمن بن هشام، وصاحب الترجمة إلى مراكش، وكان نزول هذه المحال بالمحل المعروف بصخرة الدجاجة وأودع الثائر الفتان المذكور سجن مصباح، ولم يزل به إلى أن لقي ربه.

قصوره وجنّاته:

ثم لما خلا الجو للمترجم وطأطأت له الرؤوس العتاة وتمهدت له البلاد، واستبعد سراة العباد، وجبيت له الأموال الطائلة وامتنص العمال دام الرعية صرف همته لتشييد القصور وغرس الجنات بفاس ومكناس ومراكش، وأنشأ بمراكش جنانا متسع الأكفاف سماه (أجدال) وغرسه بأنواع الأشجار والأزهار، وأنبع له عينا

خاصة به وعمل صهريجا يجتمع فيه الماء للسقي منه، ولازال قائم العين إلى الحين الحالي، ومن قصوره المدهشة بمراكش (قصر الباهية) المعد اليوم لسكني المقيم العام بالديار المغربية.

عبقريته السياسية:

وبالجملة فقد كان المترجم في الدهاء آية، وفي السياسة بحراً ليس له من غاية، علم الخاص والعام رسوخ قدمه في التثبيت والمهارة في تدبير الشئون الملوكية، ولا غرابة في ذلك إذ ليس لغيره من معاصريه ما له من الاطلاع على النواميس الملوكية والخبرة بسرائرها وسرها تغذي بلبان ذلك من ثدي أبويه وجده، وشب في ذلك وشاب، وقد ساعده السعد فاشترأت له الأعناق، وطأطأت له الرؤوس، وخضع لسطوته المشروف والشريف، وامتألت قلوب الحواضر والبوادي مهابة منه ورعيا، ولم يبق ناه ولا أمر سواه، واستولى بسبب ذلك على نفيس الذخائر الملوكية ولكنه صانها أي صون.

أمانته: أخبرني صديقنا العدل الرضي السيد العلمي بن أحمد بن رحال وقد كان من جملة خاصة الملازمين لبابه المطلعين على حركاته وسكناته البيئية العالمين بتفاصيل خزائنه وذخائره أن المترجم لما حانت وفاته أمر صاحبه الخصوصي الطالب حمان بن عبد العزيز المكناسي أحد أصحاب الفراش السلطاني، أن يحمل بعد موته جميع ما بداره من الأموال السلطانية والذخائر الملوكية ويذهب به للقصور الملوكية، ويحضر معه الوصيف ابن يدر أحد أصحاب الوضوء، إذ كان هو الوسيلة في نقل تلك الأموال والذخائر من القصور السلطانية إلى القصور الوزارية وأن مفاتيح الصناديق الحاوية لتلك الذخائر النفيسة الغالية كان المترجم سلمها للسلطان مولاي عبد العزيز لما أحس بفضاله وأيقن بمبارحة دار الفناء.

كما أخبرني بعض العدول بأن الطالب حمان المذكور أطلعته على كناش إحصاء الأموال السلطانية التي كانت مصونة بدار المترجم وطلعت للدار السلطانية مختوم ذلك الكناش بخط صاحب الترجمة وأن ذلك القدر هو الذي دخل عليه للجناب السلطاني العالي من العمال وغيرهم.

وقد تفرقت تلك الأموال شذر مذر، ولم ينفع حذر من قدر، انتهبها الخائنون وبذروها في شهواتهم وحرم منها المستحقون، وكان ما كان مما لست أذكره وما مكث السلطان بفاس، حتى أصيبت المالية بداء الإفلاس، رقت الظروف، بالافتراض من الدول للوازم المصروف، وما قدر على الجبين، يستوفى ولو بعد حين.

وابن عبد العزيز المذكور هو الذي صار خليفة لحاجب الدولة العزيزية أبي العباس أحمد الركينة ثم صار في الدولة الحفيظية أمين الصائر على الدار السلطانية بالحضرة المكناسية وأمين مستفادات أسواقها، ثم انفرد بأمانة الصائر فقط أوائل المخزنية الدولة اليوسفية.

ثم إن المترجم لما صفا له الجو وتم له الاستبداد رشح سائر إخوته للوظائف المخزنية الهامة كالحجابه لإدريس، ووزارة الحرب لسعيد، واستأثر بالسلطة الاستبدادية التي كانت عاقبتها خراب بيته وبيوت عائلته والمغرب أجمع.

وفاته: توفي بمراكش سابع عشر المحرم عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف، وحضر السلطان فمن دونه جنازته، ودفن داخل قبة ضريح جد العائلة الملوكية المولى علي الشريف حذاء ضريح القاضي عياض رحم الله الجميع ورضي عنهم وعنا بهم آمين.

وقد رمز لتاريخ وفاته الأديب الشهير أبو العباس أحمد بن المواز رئيس
الاستئناف العالي أخيرا بقوله:

قضى ابن موسى وزير الملك أحمد من تبقي مآثره في السن الزمن
وسط المحرم من عام يؤرخه فالخير زف له من واهب المنن
متخلفه وما وقع فيه:

ولما لبي داعي مولاه أمر السلطان بحياسة جميع متخلفه عقارا وغيره لبيت
مال المسلمين، وقفت على عدة ظهائر سلطانية أصدرت لأمناء الصائر بكل مدينة
من مدن الإيالة ببيع أصوله، منها ظهيران لأمناء دار عدیل بفاس دونك نص
أولهما بعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف:

خدامنا الأرضين أمناء الصائر السعيد بدار عدیل المعفين والجدد والمكلفين
معهم ببيع الأملاك المتخلفة عن كاتبنا الطالب أحمد بن موسى وفقكم الله، وسلام
عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد وصل كتابكم صحبة تقييد بيان أملاك المذكور التي
بخارج المدينة وعلى من وقفت عليه بالسمسرة والثلث الذي وقفت به وصار
بالبال، فنأمركم ببيع جميعها لمن وقفت عليه على الضابط في ذلك بعد حياسة
جميع الثمن ممن نزلت عليه من غير تأخير شيء منه، ومن عجز عن أداء شيء
منها حالا أمضوها لغيره الذي يعجل جميعه، وأشهدوا البيع للمشتريين لها نيابة
عن جنابنا العالي بالله والسلام، في ٧ محرم الحرام فاتح عام ١٣٢٠.

ونص الثاني بعد الحمدلة والصلاة والطابع:

نأمر خدامنا الأرضين أمناء صائرنا السعيد بدار عدیل أن يمضوا البيع في
أملاك كاتبنا الطالب أحمد بن موسى لمن وقفت عليه في السمسرة بالثلث الذي
يبتتم، كما نأمركم أن تشهدوا البيع في كل منها لمشتريه على الوجه الشرعي بعد

حيازتكم ثمنه منه نيابة عن جانبنا العالي بالله والسلام في ١٦ صفر الخير عام ١٣٢٠ هـ.

ومع الأسف فقد مدت في ذلك أيدي الخائنين، وتفرق شَذَر مَذَر، ولم يصل للمخزن من أمتعته المبيعة بأسواق المدن بعد سمرتها إلا النزر اليسير، كما مدت أيدي النهب والاختلاس في أموال وأمتعة غيره ممن صدر الأمر بحيازة أموالهم لبيت المال كابن العلام قائد المشور السابق الذكر والفشار، ولم يقع الاقتصار على أخذ أموال من ذكر من المستخدمين وضمها لبيت المال، بل مدت اليد العادية في كل من له أدنى علاقة واتصال بهما من الأقارب والأباعد، وكل من لباشا ذلك الوقت فيه شهوة وغرض بدعوى أن المذكورين أمنا عندهم من أموالهما وامتعتهما فأخفوها، وبسبب ذلك توصل لغصب أموال كثير من الناس، ولم يقدر أحد من المنهوبين على النطق ببيت شفة فيما أصابه خوفا على نفسه من بطش ذلك الباشا المستبد الظلوم.

ولما تفاحش ذلك وبلغ للجلالة العزيزية أمر الأمين السيد الحاج محمد بن عبد السلام المقرئ الذي هو الصدر الأعظم الآن بالبحث عنه والإعلام بحقيقة الواقع فيه، فأجاب بعد البحث بأن جميع ما بلغ لشريف العلم صحيح، وأن دخوله على تلك الدور يكون أولا من غير الأمناء المكلفين معه ليستبد بما شاء من مال ومتمول، ثم يدخل ثانيا مع الأمناء والعدول أو يوجه من ينوب عنه وأن ضرره قد عم أهل البلد ولم يقدر أحد منهم على رفع الشكاية به للحضرة السلطانية، وأن الفشار له الاطلاع التام على ما كان بدار ابن العلام وبسؤاله يظهر ما استبد به ذلك المستبد لنفسه وخان فيه السلطان، ثم تبرع المسئول المذكور بطلب إراحة أهل البلد من جوره وتفاحش ضرره بعزله عنهم حسبما ذلك مبسوط في جوابه بخط يده وهو بتاريخ ١٢ ربيع الثاني عام ١٣١٩.

اختلال الأحوال بعده:

وبموت صاحب الترجمة حدثت حوادث وفظائع يشيب لها الرضيع ووقع الدخيل في الدولة واختل النظام وفسدت الأحوال، وتراكت الأهوال، وتنمرت الذئاب، وفرزنت البيادق، واتسع الخرق على الراقق.

ولما استحكمت الفوضى وأشرفت الأمور على الانحلال وانتشرت الحمايا بالولاية المغربية أي انتشار، وكثر تشكي الدولة الفرنسية من مسألة الحدود الجزائرية، وجدت الدول ذات المصالح بالمغرب السبيل للإلحاح في طلب الإصلاح، واقترحت على الدولة المغربية بفارغ صبر النظام ونصب ميزان العدل وفتح الطرقات بين العواصم لتسهيل المواصلات، وكانت الحكومة بينة العجز عن تنفيذ ذلك كله مع عدم امكان تأجيله لوقت آخر.

فعند ذلك ظهر للسلطان أن دعا لفاس جماعة من أعيان مدن المغرب الكبرى كمكناس ومراكش ورباط الفتح وسلا وطنجة وتطوان فأقاموا بحضرته بفاس كنواب الأمة يترددون كل صباح ومساء على أبواب القصور السلطانية حيث مجلس الوزراء، لأجل المفاوضة في الشئون الكبرى التي أحاطت بالبلاد، فكانت هذه الجماعة لا يحسن أعضاؤها سؤالاً ولا يفقهون جواباً وإذا استشيروا أجابوا بقولهم الخير فيما اختاره سيدنا السلطان، فكان وجودهم وعدمهم على حد السواء، وقد أنفقت عليهم الخزينة أموالاً طائلة.

بعث السفارات لأوروبا ونتائج ذلك:

ولما وقف تداخل الدول عند هذا الحد، وكانت قضية الاستيلاء على قصور توات قريبة العهد قرر رجال الدولة توجيه سفراء مندوبين لعواصم أوروبا لطلب النصير من الدول العظام مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا عن كيفية بث النظام.



سفارة وزير الحرية سابقا السيد المهدي المنبهي لإنجلترا - الجلوس من اليمين
المنبهي المذكور وعن يمينه قائد بعثة الحراية الإنجليز القائد مكلين الواق من اليمين
مستشار السفارة باشا الرباط الحالي السيد عبد الرحمن بركاش

فانتدب زعيم الدولة إذ ذاك ووزير حرييتها المهدي بن العربي المنبهي للذهاب إلى إنكلترا، وعين خليفة له ومستشارا لديه السيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط الآن، والسيد الزبير سكيرج ترجمانا، والسيد محمد بوسته كاتباً.

ولما وصلت هذه السفارة للوندره أقامت بها نحو شهر وفي تلك المدة عقدت شروطاً رسمية تحتوي على أربعة فصول:

الأول: بناء القناطر وإصلاح ما تلاشى منها بسائر الإيالة المغربية.

الثاني: تشييد المنارات بالمراسي المغربية لعموم النفع بها.

الثالث: تسريح وسق الحبوب بحراً من مرسى إلى مرسى.

الرابع: وسق البطاطا والخضر بأسرها من مرسى طنجة إلى مراسي الأجانب من حيث هي.

وهذه هي الشروط الرسمية، وهناك شروط ومعاهدات سرية التزم رئيس السفارة للدولة البريطانية بالوفاء بها على ما قيل.

وانتدب السيد عبد الكريم بن سليمان وزير الخارجية سفيراً لفرنسا وروسيا وألمانيا وبمعيته أبو عبد الله محمد فتح الجباص الوزير الصدر سابقاً، والأمين بناصر غنام كاهية النائب السلطاني بطنجة الحاج محمد الطريس التطواني.

ولما اجتمع السفير بأعيان الدولة الفرنسية وعرض رغائب الدولة المغربية أُجيب عن ذلك بما حقق لديه أن ما ألصقه بعض الدول بجانبها وقرره في شأنها محض افتراء وزور، وأنه لا داعي إليه سوى إرادة إيقاد نار الفتن بين الدولتين وتحقيق لديه أنه لا تعلق لقضية قصور نوات بالسياسة الفرنسية وإنما سبب الاستيلاء عليها ما عولوا عليه من اتصال قطر الإيالة الجزائرية بوطن السودان بالسكك الحديدية، وبعد استيفاء الغرض المقصود من الدولة الفرنسية توجهت السفارة للدولتين المذكورتين.

ثم بعد قضاء الوطر وفق المراد انقلب السفراء بما لديهم من المعلومات وقرروا للسلطان ورجال الدولة ما كان من سفارتهم وما رجعوا به من المقاصد المطلوبة.

ثم يآثر ذلك زار إمبراطور ألمانيا (غليوم الثاني) مدينة طنجة فأوفد السلطان لمقابلته وتهنتته نيابة عنه سمو عم والده مولاي عبد المالك بن عبد الرحمن بن هشام وبعض الأعيان فاستاء لذلك الإمبراطور المذكور إذ كان اعتقاده أن السلطان يقابله بنفسه، وذلك ما كانت تقتضيه المجاملات السياسية وتوجبه مصلحة المغرب الوطنية، وكان نزوله بطنجة يوم الجمعة الرابع والعشرين من محرم ١٣٢٣.

كما زار قبله ملك الإنجليز (ادوارد السابع) جبل طارق وذلك بعد زوال يوم الأربعاء تاسع محرم فاتح عام ١٣٢١، فأوفد السلطان لمقابلته وتهنتته نيابة عنه باشا فاس القائد عبد الرحمن بن عبد الصادق الريفي، وكانت مقابلة النائب الريفي الملك في عشية اليوم نفسه بدار حاكم مدينة جبل طارق، حيث كان نزول الملك.

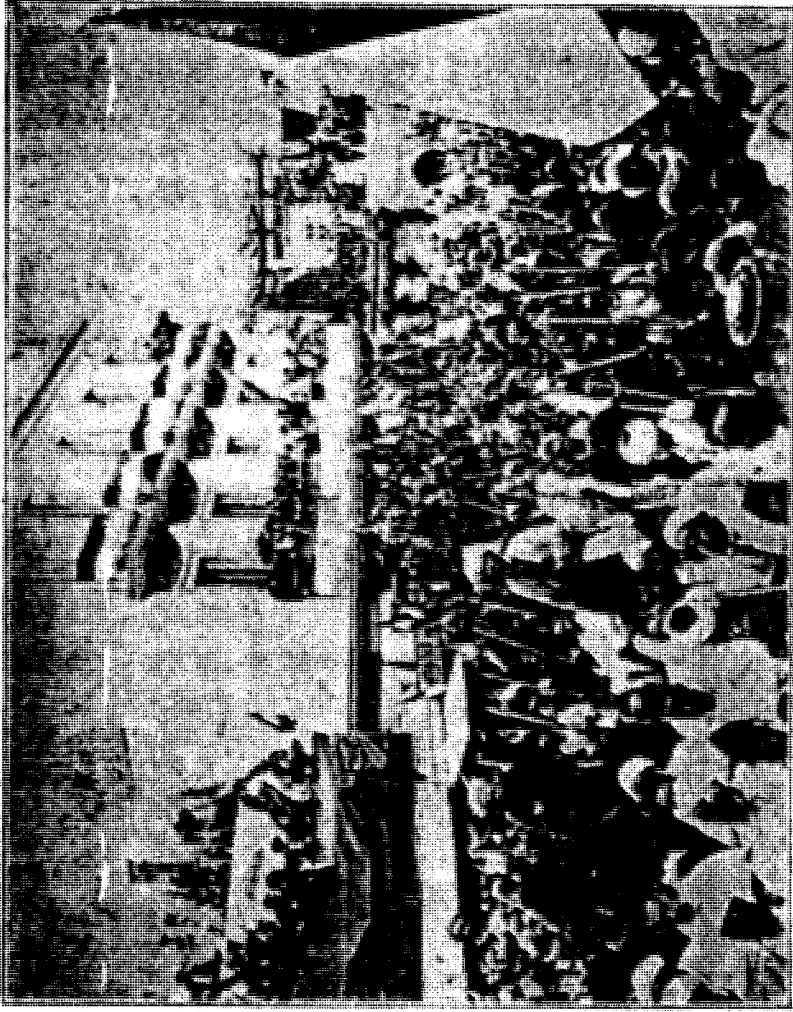
ومن نتائج سفارة ابن سليمان لفرنسا تعديل مسألة الحدود الجزائرية المغربية، وكان الذي رشح للوقوف على تصفيتها الجباص المذكور بصفة كونه رئيسا والسيد أحمد السعيد باشا مكناس الحالي معينا أول والسيد محمد نجل الجباص المذكور معينا ثانيا، والسيد محمد بن عبد الواحد المندوب المخزني بوجدة وباشا الدار البيضاء سابقا كاتباً أول والفقيه السيد محمد الهواري قاضي طنجة والعضو الأول بالاستئناف الأعلى سابقا كاتباً ثانيا، والسيد لزبير سكيرج مهندسا واستمر مكثهم في هذه المأمورية من آخر سنة ١٣١٨ إلى آخر سنة ١٣٢١.

وفي الوقت نفسه تخلت الحكومة المغربية عن القبائل الثلاثة: أولاد جرير، وذوي منيع، والقنادسة لعمالة الجزائر لما كانوا يحدثونه ويتسببون فيه من القلاقل والمشاكل مع الرعايا الجزائريين.



استقبال الإمبراطور غليوم الثاني بطنجة

(١) الخليفة السلطان مولاي عبد المالك بن عبد الرحمن، (٢) السيد أحمد بن المواز خليفة الوزير الصدر، (٣) مولاي إدريس البوكيلي خليفة وزير الخارجية، (٤) باشا طنجة حمزة بن هيمة الأسفي، (٥) السيد عبد الله بن سعيد السلاوي، (٦) السيد الحاج أحمد الطريس خليفته النائب بطنجة، (٧) الباشا عبد الكريم الشركي، (٨) سيدي العربي الناصري، (٩) السيد الطالب معين، (١٠) سيدي محمد القادري، (١١) السيد أحمد جفال، (١٢) الحاج عبد السلام بن عبد الصادق، (١٣) السيد محمد غنام، (١٤) السيد اللبادي، (١٥) السيد العربي ملين، (١٦) السيد المهدي التازي ووراءه مولاي أحمد الصابونجي أعضاء دار النيابة وأمناء الديوانه وعدولها.



زيارة الإمبراطور غليوم الثاني لطنجة



الفتان أبو حمارة الجيلاني الزرهوني

ثم يآثر هذا وقع اتفاق الوزراء على أنه لا يختص واحد منهم بإبرام شيء أو نقضه من كل ما يتعلق بالأمور السياسية والأحكام المخزنية إلا بعد اجتماعهم على ذلك واتفاقهم عليه، وكل من وقع منه استبداد بنقض أو إبرام تجري عليه العقوبة الصارمة ويطرد من البساط الملوكي، وتعاهدوا على ذلك وتحالفوا، وكل من تولى أمر شيء يحلف يمينا مغلظة بالمصحف الكريم أنه لا يخون فيما أسند إليه، ومن كان متوليا كذلك يحلف هذه اليمين حتى حلف سائر الموظفين.

كما اتفق رأيهم على إنشاء الترتيب الجاري به العمل الآن فلم يتم أمر ذلك، إذ لم يكن وقع عليه اتفاق جميع الدول الأجنبية.

وظهر في قبيلة بني مسارة اختلال وانحراف عن الطاعة، وكذلك قبيلة بني عروس وغيرهما من القبائل الجبلية التي أفضى بها الحال والاشتغال بالمحال إلى أخذ صبي وصبية من أبناء الإسمان بنواحي أصيلا على وجه التعدي، فجهز السلطان جيشا لإرغامهم على الرجوع إلى الطاعة، ورأس عليه الشريف المولى عبد السلام الأمراني وعززه بالآغا^(١) الحاج علي السوسي بمن معه من العساكر، وما بلغوا أمنيته من الانتقام من جميعهم حتى طلع طالع نحس الفتان أبي حمارة بتازا.

ثورة أبي حمارة:

ومن الأحداث العظيمة بعد وفاة المترجم الوزير أحمد بن موسى حادثة قيام الجيلاني الزرهوني المدعو أبا حمارة التي كانت أعظم حادث وأقوى سبب في فاس الدولة ووهن قوتها المادية والأدبية بل فشل ووهن المغرب كله.

أصل هذا الفتان المارق من مدشر أولاد يوسف أحد المداشر الشهيرة بجبل زَرْهُون، قدم في أول أمره فاسا وانتظم في سلك أعوان القائد عبد الكريم ولد أب

(١) الآغا: كلمة تركية الأصل، تعنى: الأخ الأكبر، وفي اللغة التركية العثمانية تعنى: سيد ورئيس وقد منح هذا اللقب لكثير من الموظفين وبخاصة العسكريين.

محمد الشرقي، ثم انتقل للخدمة مع الخليفة السلطاني بفاس رفيقنا في الطلب أبي حفص عمر بن السلطان مولانا الحسن، وكان أيا خدمته مع الخليفة المذكور يرافق السيد المهدي بن العربي المنبهي.

ولما تولى المنبهي المذكور الخدمة مع صاحب الترجمة لم يزل يتقرب إليه حتى صار من أخص الناس به وأقرب أعوانه إليه لنباهته وحزمه وشدة ملازمته حتى حصل بعد وفاة المترجم على رتبة الوزارة، جاء الفتان المذكور إلى المنبهي زمن وزارته يمت إليه بسابقة التعرف والصحبة فلم يصادف منه قبولا حسنا، فأقسم إذ ذاك الجيلاني الثائر يمينا ليرجعن أميرا، حيث صار رفيقه المنبهي وزيرا.

وخرج من حينه يجوب البلاد في صفة ناسك متقشف يدعو إلى الله ودخل الجزائر وجاب أكنافها وأكثر التردد بين وهران ومعسكر ولقي أبا محمد عبد القادر ابن عدة أحد شيوخ الطريق ثمة، وذلك بمدينة غيلزان قرب مستغانم، ولازمه مدة فبث له هذا الشيخ من التعاليم ما صيره متأهلا لإيقاد نيران الفتن بالأرض المغربية وذلك عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف.

وفي عام عشرين دخل وجدة على الصفة المذكورة، وتردد بين قبائل آنكاد وقرر لمن اتبعه ودخل في شبكة تدجيله مقاصده، ثم حل بثمر طنجة متخذا حلية المتصوفة شعارا، والتصنيع بزيهم دثارا، فتظاهر بين بعض بسطاء العقول بالنسك والخشوع، وربما قطع أمامهم ليله بالسجود والركوع، ومتى قام للرقص معهم اعتراه ذبول وتوله، واصفرار وتدله، وأسمعهم من رقيق الأزجال، ما يطرب سامعه في الحال، وربما نطق بعبارات، كأنه من ذوي الإشارات.

ولما عزم على مبارحة طنجة راود من كان يجالس فيها من الخياطين على مصاحبته، ليكون من أعوانه وبطانته، فلم ينخدع الخياط لدعوته، ولم يتابعه في غوايته، فغادرها إلى الموضع الذي اختاره لنشر دعوته، وأظهر النأف من الحكومة

المخزنية، وأنها ذات خضوع للتمدن الأوربي، واختلق أشياء من هذا القبيل توجب النفرة من الحكومة ورؤسائها فوجد من أولئك الرعاع الساذج آذانا صاغية وقلوبا قابلة لما يبذر فيها من البغض والعداوة للسلطان ورجال دولته .

وفي عام واحد وعشرين دخل مدينة فاس يتجسس الأخبار ويتطلع على الأحوال، ولقي بعض من له به معرفة وصداقة فعرفه بأن الملاء يأتّمرون به وأن في ظهوره بالمدينة خطراً، فخرج لقبيلة الحياينة حاملاً على أنان كتباً وأوراقاً متلاشية، فصادف بالقبيلة المذكورة موسم أبي عبد الله محمد - فتحا - ابن الحسن الجاناتي معموراً بجموع أعيان القبائل الزناتية من غياثة والتسول والبرانيس وغيرهم، فأخذ ينشر بينهم معائب الدولة ورؤسائها ويحجب لهم الخروج عليها، ورفض طاعة المخزن والسلطان ويرمي الجميع بالعار والشنار ويلصق بهم ما هم برآء منه .

فوجد من بسطائهم من اتبعه ونقل أقواله الكاذبة، ونشرها في الآفاق الشاسعة، فصادفت قلوباً خاوية، فتمكنت فيها العداوة والبغضاء للمخزن ورجاله وأصبحوا يسعون جهدهم وطاقتهم في الانتقام من السلطان وأرباب دولته، ويرون أن الخروج عليه وخلع ريقه طاعته من أعناقهم قرينة وطاعة لله تعالى وخدمة للدين والوطن، ثم بعد الموسم انتقل لجبل غياثة ونزل على أهل الطاهر منهم .

وكان لهذا المعتدي الأثيم معرفة بفنون من السحر أضل بها كثيراً من الغوغاء، وصار يدعي أنه هو المولى محمد نجل السلطان المقدس مولانا الحسن وصنو السلطان المولى عبد العزيز، وأنه إنما يتستر باسم غيره خوفاً على نفسه ممن استولى على ملك والده واستبد به واستعبد الرعية التي أمر الله السلطان بحمايتها ورعايتها والذب عنها والسعي وراء مصالحها، واشتغل ببيع دينه بدنياه، ومال كل الميل لشهواته ولذاته وتتبع أغراضه الشخصية، وفتح باب كنز زوره وبهتانه، وزعم

أن قسطاس العدل لا يقوم إلا على يده، وأنه قام يطلب ملك أبيه إذ هو أحق به من غيره.

وبذلك ازداد مكانة في قلوب الرعاع والذين لا يعلمون، وقوي استيلاؤه على بعض سخفة العقول ومن في قلبه مرض من طاعة المخزن، فالتفت عليه أولاً سفهاء تلك القبيلة وبايعوه على نصرة الدين، ولما فشا أمره أهده بعض أشراف تلك القبائل فرسا من عتاق الخيل وخباء وصار يكثر في كل مجتمع الثناء عليه فاعترز الأعيان بذلك، وتهافتوا عليه، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

ولما رأى الزنيم إقبال الناس عليه وحصولهم في شبكة تدجيله وشعوذته وتيقن أن أفندتهم هواء، أخذ عليهم الموائيق والعهود على تعزيزه ونصره وحمايته من كل من يرومه بسوء، فحالفوه على أن لا يخالفوه وأن يضحوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم دونه شأن ضعفاء الأحلام سخفة العقول المتمسكين بأذيال كل دجال أفاك.

ولما حصل على ضالته المنشودة من الاستيلاء على عقولهم وتيقن بصلاح ما بذر في قلوب أولئك الأغبياء الأغمار من التمرد عن طاعة المخزن والعداوة والبغضاء له ولسائر أتباعه والمنتمين إليه، وكان من جملة من ركن إليه وقام بدعوته وتسبق إلى الإعلان بنصرته قبيلة غيائة، ولما تمت له البيعة بها تهافت عليه زعماء تلك النواحي من التسول والبرائيس وصنهاجة ومن جاورهم، فطير الإعلام بذلك عاملها وهو إذ ذاك الحاج عبد السلام الزمراني للحضرة السلطانية، وطلب إمداده بقوة عسكرية يياديه بها قبل اضطرام نار فتنه وتفاحش ضرره، فقبل طلبه بالرفض ولم يرفع لمقاله رأس، وأهمل الشائر حتى استفحل أمره ونسلت إليه سماسرة الفتن والمتمردون من كل حذب وصوب.



مولاي الكبير نجل السلطان مولانا الحسن رحمه الله

فعند ذلك جهز له السلطان جيشا عرمرما يرأسه صنوه مولاي الكبير ووجه له به، فنزلت المحلة بإزاء عين القدح من بلاد الهبارجة، وما استقر بهم الثوى حتى هجمت عليهم محال الزنيم الفتان صبيحة يوم الثلاثاء وكان من دعائه في سائر حروبه استقبال المحلة التي يروم قتالها يوم الاثنين وابتدأها بالقتال يوم الثلاثاء، كذا أخبرني من حضر جميع معاركه فانهزمت جيوشه أمام الجنود المخزنية هزيمة شنيعة، وأسر منه خمسة أنفار وقطعت سبعة رؤوس ووجه بالكل للحضرة السلطانية بفاس.

ولما اتصل الخبر بذلك لفاس فرح الناس واستبشروا، وظنوا أن الأمر قد تم، فأصدرت الأوامر لمولاي عبد السلام الأمراني الذي كان نازلا بجيش كثيف ببني مسارة بالإتيان بما معه من الجيوش والتخيم بها مع مولاي الكبير المذكور باوطى بوعبان ونهض السلطان لمراكش.

ثم في يوم السبت من رمضان سافت المحلة لهم مقتنية إثر الفتان بجبل غياثة من ناحية قصبة بني مطير فانهزمت المحال المخزنية هزيمة لم تعهد قبل، ولما علم السلطان بذلك رجع من وجهته ودخل فاسا وعقد لسدي محمد الأمراني على جيش جرار من العساكر الأبطال، وأمره باللحوق بالمحلة التي هزمت، ثم عقد لعامله عيسى بن عمر العبدى على جيش من المحال الحوزية له بال وألحقه بهم أيضا، ولما لحقت المحلتان الأخيرتان بالمحلة الأولى اتفق رأيهم على النهوض من أوطى بوعبان والتخيم على قبيلة التسول، حيث لم يتمحض للمحال المخزنية منهم صداقة ولا عداوة قالوا: إذا نزلنا عليهم نقدمهم أمامنا لقتال الفتان، وبذلك يظهر ما تكن صدورهم فإن قاتلوه ضممناهم إلينا، وإلا ابتدأناهم بالقتال، فنهضوا ونزلوا بمحل يسمى قعدة الأرائب على رأس وادي اللبن، وكان ذلك يوم الأربعاء، ثم وجهوا للتسول يأتون إليهم مرارا فلم تقع منهم إجابة، فعند ذلك

صممت المحال المخزنية على محاربتهم، ونهضت إليهم يوم السبت، وكانت الحرب بينهم سجالا في ذلك اليوم ثم رجعت المحال لمحل نزولها.

وفي عشية يوم الأحد ورد الفتان علي التسول وقابل الجند المخزني، ثم أصدر أوامره لقبية الحايينة بمناوشتها القتال مع المحال السلطانية، فإذا ساقا إليه يأتون هم من خلفهم ويحولون بينها وبين الأخبية والأمتعة فيهجم عليهم هو وجنوده، فإذا انهزموا يجدون الحايينة من خلفهم فلا يجدون خلاصا، وإذا كان العكس وتقدموا يقع الطعن والضرب فيهم من ورائهم فيفشلوا وتذهب ريحهم على كلا الأمرين.

وفي يوم الاثنين مر المارق الفتان أمام المحال المخزنية كالمفرج تقاد خلفه تسعة من عتاق الخيل مسرجة فرمته المحال المخزنية ببعض قنابلها فلم يلتفت لذلك.

وفي يوم الثلاثاء بدأت المناوشة بين الجيشين مع الزوال، ثم اشتبك القتال وارتبك ودام إلى غروب الشمس، وكانت الكرة على المحال المخزنية وتشئت شذر مذر، ودخلت فاسا مهزومة شر هزيمة، جلها حفاة عراة، واستولى الثائر على الأسلحة و الخيام والمثونة والدواب، وكان هذا الحادث المحزن في رمضان، ولما دخلوا فاسا على الصفة المذكورة عظم المصاب ووقع أهل الديوان الملوكي في حيص بيص، ثم جهزوا محلة أخرى وأمروها بالتخيم بالمحل المعروف بالمطافي قرب وادي سبو، من قبيلة أولاد جامع، وخيمت أحزاب الفتان على ضفة وادي اينان بثلثاء النخيلة، وفي يوم الخميس ساقا إليه المحال المخزنية فانكسرت جموعه وترك جل ما كان أخذ من الحال المخزنية في الهزيمة قبل، وفر نحو عين مديونة، وهجم على المحلة المخزنية التي كانت منتظمة من الشراردة وشراكة فأوقعت به فهرب وترك موتى أحزابه صرعى فريسة للذئاب والغربان

ومن الغد اقتفت المحال أثره بعين مديونة فمزقت جموعه الباغية كل ممزق، وبعد ثلاثة أيام أعادت المحلة السلطانية السوق لهوارة الحجر فأوقعت بهم وأزاقتهم أليم النكال والنكاد.

ثم بعد هذا حشد وزير الحربية المهدي المنبهي جنوداً جرارة تنتظم من القبائل المغربية من أقصى بلاد السوس وتافيلات إلى حضرة فاس وترأسها هو ورئيس المشور القائد إدريس بن يعيش، وتوجها بها لمدينة تازا التي اتخذها الفتان محل كرسي إمارته، وخطب به علي منابرهما باسم مولاي محمد الحسن، ولما خيمت تلك الجنود المجندة التي تربو علي السبعين ألف مقاتل بوادي الحضر هجمت عليها التسول والبرانيس شيعة الفتان ليلاً فردتهم المحال الخزنية ناكسين علي الأعقاب، ولما أصبح الصباح اقتفت آثارهم وأخذت منهم المساجين وطردهم طرد الرعاء للذئاب.

ودخل الجنود المخزنية مدينة تازا عنوة وفعلت بالمستضعفين من أهل البلد الأفعال التي تخجل منها المروءة ولا ترضاهم الإنسانية، فقد افتضت الأبكار. وهدمت الديار، وذلك في شهر صفر الخير سنة ١٣٢١.

وكان دخول المنبهي المذكور بجنودة تازا بمساعدة الشيخ أبي هاشم المدني الوريثي السملالي الحسني المعتمد عند أولئك القبائل النافذ الكلمة فيها ولكنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة للخروج بعد الدخول، وفاته أن يسلك، مع المستضعفين من أهل تازا مسلك اللين والمجاملة فكان ما سيمر بك بعضه.

ثم بعد دخول تازا رجع المنبهي الذي كان يرأس هذه المحال مع ابن يعيش لفاس والفتان إذ ذاك بوجدة كان قد احتلها بدون قتال في ربيع النبوي عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف حيث إن عاملها كان ملتجئاً بمغنية.

وذلك أنه لما ظهر أمر أبي حصيرة عبد القادر العتيكي اليزناسني الذي ثار بالمقام - محل بالظهراء - وزعم أنه الولي عبد العزيز السلطان هرب من لوندرة

وحج وجاء يعين أخاه مولاي محمد (أبا حمارة) عقد السلطان المذكور لعمه مولاي عرفة علي شردمة وأعطاه مالا ووجهه لتجهيز جيش من العرب وبربر بني يزنانس محافظة علي وجدة من أبي حصيرة المذكور.

ولما اجتمع الجيش توجه عامل وجدة أحمد بن كروم المكناسي الجبوري به إلى برديل قرب دار البشير ومسعود، وبمجرد ما أقبل عليه أبو حصيرة انهزم ورجع إلى وجدة فحمل منها ما يعز عليه والتجأ إلى مغنية هو ومولاي عرفة فاقبل أبو حمارة من الريف بعد طرده لسيدي محمد الأمراني من جنادة وسلوان واحتل وجدة وبويع له بها وخطب به على منابرهما باسم مولاي محمد وهياً بها لوازم الإمارة من صيوان ومظلة وأتباع وأرباب الخدمات الخصوصية، وبينما هو يهيئ هذه التراتيب إذ بلغه خبر دخول عسكر المخزن مدينة تازا فسقط في يده.

وبينما هو يهيئ أسباب الانقلاب إلى المغرب اذ وصلت لحدود وجدة من طريق الجزائر هيئة من حكومة المخزن مؤلفة من الحاجب أحمد الركينة بصفة كونة رئيسا علي تلك المحال المخزنية والقائد عبد الرحمن بن عبد الصادق الريفي بصفة كونة معينا ومستشارا، فنزلوا بمغنية وجعلوا يخابرون رؤساء القبائل وأعيانها ويحبذون إليهم الرجوع عن غيهم، وبسب ما نثروه من الدرهم والدينار أمكنهم استجلاب رؤساء قبائل أنكاد وترجييعهم لطاعة السلطان والبراءة من الدعي الثائر واسترجعوا مدينة وجدة وطردها عنها حمية الثائر وجعلوها مركز أعمالهم.

ثم إن ابن عبد الله الصادق المذكور دس للركينة عند السلطان ما أوجب عزله عن رئاسة الحال واسترجاعه لفاس وإسناد الأمر في ذلك للداس.

ولما بقي الثائر مع من بقي معصدا له من اللقطاء السقطاء بين نارين أكد العزم إلى الجهة الغربية وقصد تازا، فبينما هو في الطريق إذ وافاه الطيب بن أبي عمامة في جماعة من ذويه وفي معيته عبد المالك بن عبد القادر بن محيي الدين

الذي جاء لتلك النواحي من فجيج يقصد ترويض النفس والسياسة ونزل على أبي عمامة .

فلما ظهر هذا التأثير اشتاقت نفسه أن يطلع على كهنه على عادة رجال الحرب فتقوي بهم ونزل ماوية ولما قرب من قصبة مسون من أرض هواة لقينة مقدمة جيش تازا التي كان يرأسها القائد المدني ابن محمد الأجلوي، وكان قد أنزل بالقصبة المذكورة حامية من الجيش تحت رئاسة القائد عبد الملك المتوكي فوقع بين الفريقين معارك أصيب فيها الزنيم برصاصة أعجزته عن القيام والقعود ففرَّ به أنصاره جريحا لقبيلة البرانيس، وعسكروا بوادي الأربعاء من بني فراسن من التسول في أوعار وحصن حصين، ودام القتال بين أشياعه والمحلة المخزنية بتازا وانقطع خط الرجعة بين من بتازا وأوطي بو عبان إلى أن دخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف واندمل جرح المارق الفتان ودخل تازا من غير مقاوم ولا معارض .

ثم إنه لما كان خرج الفتان من وجدة عمرها الجيش السلطاني الذي كان بمغنية مع فرقة عسكرية وجهت مددا من فاس على طريق طنجة ومنها نزلت بالغزوات ثم سعيدة عجرد ثم وجدة من غير قتال أيضا وذلك في ربيع الثاني عام ١٣٢١ واحد وعشرين .

ولما ضاق المتسع بمن بتازا من الجنود المخزنية وذاقوا بسبب ذلك من العذاب ألوانا وكابدوا من الأهوال والخصاصة، وعدم القوات ما تحدثت به الركبان، وتيقنوا أن الفئة الباغية أجمعوا أمرهم وصمموا علي الأخذ بثأرهم منهم فيما فعلوه بتازا من الأعمال الوحشية، طيروا الإعلام للسلطان بما وقعوا فيه وطلبوا منه أن يمددهم بمدد يخلصهم من الورطة التي ورطوا أنفسهم فيها، فرأى أنه لا بد له من التوجه لإنقاذهم بنفسه فحشد الجنود من الأغوار والنجود، وأفاض فيها العدة والمال، وعزز تلك الجنود بعساكره الوافرة وسار إلى أن خيم ببلاد الحياينة وهناك انضم إليه الجيش السابق الذي كان بأوطى بو عبان .

ثم نهض إلى قبيلة التسول ففرقت أتباع المتمرد الزنيم فى وعر تلك الجبال ورموا بالقنابل المحرقة وشدّد عليهم فى الحصار، ولكن لم يمكن اجتثاث أصل عيهم بالكلية حيث حان إبان^(١) البرد والمطر، ورأى الأمير أن تمادى جيوشه على الحصار فيه أعظم خطر، انقلب إلى فاس وكتب لإيالته بشرح أسباب أوبته. ودونك لفظ ما كتب به بعد الحمدلة والصلاة.

وبعد، فقد كان الغرض من نهوض ركابنا الشريف هو القيام بما أوجبه الله من إخماد فتنة المفسدين، وتربية قبيلة التسول وأشكالهم المعتدين، وقد خيمت جيوشنا السعيدة على أوديتهم وهضابهم، وخفقت بنودنا المنصورة على جبالهم وشعابهم، ونحن نحاول استرجاعهم من الغى إلى الرشاد، ونسنرعى عليهم قبل أن يعمهم من الهلاك ما لا يمكنهم معه استنجد، وكررنا عليهم زحف الصوكلات من جهات متعددة، وأشهدناهم أثر سطوة الله المتجددة، وضيقنا عليهم المذاهب، حتى أوهنهم الحصار فى كهوف الشواحق ومغارات المسارب، وفى كل صوكة يقع فيهم عدد من الجرحى والقتلى، وتبلغ فيهم العقوبة مبلغا يزيدهم محنة وهولا ولما كان سبب تماديهم على ما هم فيه من الضيق والمحنة هو استعظامهم لما فرط منهم من الشقاق والفتنة، حتى عدوا ذلك من الذنوب التى لا تسلم من عاقبتها عواقبهم، ولم يعتبروا أن المقصود عندنا هو استرشادهم لما تصلح به أحوالهم، وتتطهر به عقائدهم.

ورأينا استمرار الحرب عليهم يفضى بهم إلى عموم الهلاك والتدمير، مع أن المراد هو إنقاذهم من مصارع الضلال بتربية واسترشاد وتحذير، ونحققنا بقاء الفاسد الفتان فى حكم العدم، من الجرح الذى لم يطق معه من تحريك يد ولا قدم.

وحل مع هذا إبان الشتاء الذى أشفقنا منه على المسلمين لاضطرارهم إلى

(١) إبان الشيء: أوانه.

حراثة أقواتهم واقتناء معيشتهم وضرورياتهم، أمرنا محلتنا السعيدة التي كانت مخيمة بتازا للتوجه إلى نواحي وجدة وآنكاد، وتكميل الغرض بها هنالك في حسم مواد، ورددنا وجهتنا السعيدة لمحروسة فاس، مصحوبين بعناية الله التي هي عمدة التدبير وجنة الاحترس. ريثما نجدد تقويم الحركة والاستعداد، ونترقب ما يظهر من أحوال هؤلاء الأوغاد، فإن أراد الله بهم خيرا وتابوا وأنابوا فذاك، وإلا فتنهض لهم في الإبان الذي يقتضيه بما لا قبل لهم بحول الله، وأعلمناكم لتعرفوا حقيقة الواقع وتأخذوا حظكم من فرح الأوبة في عناية الله التي ليس لها من دافع، ونسأله سبحانه أن يحتسب اجتهادنا في حياطة دائرة النظام والدين، إنه ولى التدبير والمستعين والمعين، والسلام في فاتح شعبان عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف.

أما المحال التي كانت بتازا فقد أصدر السلطان أمره إليها بعد رجوعه لفاس بالذهاب لوجدة، وبعد رجوع السلطان لفاس ردت أحزاب الفتان وجهتها للمحال الحالة بوجدة وذلك عام اثنين وعشرين.

ولما وصلها نزل بلاد بنى بوزكو فرقة من زناته، وبعث إليه رئيسهم حمادة البوركاوى بالطاعة، فطلب منه مصاهرة على ابتته، فأجابه لذلك واقترح عليه أن يوجه أعيان القواد والوزراء لمصاحبة العروس، فوجه الثائر من أعيان حزبه الخاسر نحو السبعين.

ولما دخلوا دار الرئيس المذكور هش وبش وبالغ في الإكرام وبسط الموائد وعدد الأطعمة فأكلوا وشربوا وانبسطوا، ثم عرض عليهم دخول الحمام وأنه أحماهم وهياهم لهم فتجردوا من سلاحهم ودخلوا الحمام زرافات فاستحال حماما، فكانوا طعمه لحد سيفه، ثم لحق الرئيس حمادة من ليلته في أهله وأولاده بمدينة وجدة ودخل في عموم المحلة المخزنية بها.

ثم فارق الطيب البوشيخي أبا حمارة واستأذن معتمد الدولة بوجدة ابن الصادق المذكور فى اللقوق به؁ فأذن له؁ وتوجه إليه وفى معيته رفيقه الأمير عبد المالك فى طائفة من فرسانه؁ وكان منهم فى خدمة السلطان وحاربه طائفة الفتان؁ ما سارت به الركبان؁ رغما عن كون أبى عمامة والد الطيب لم يرض عن صنع ولده وظل مواليا للفتان بسائر قبيله وأتباعه فكان عمدته فى حروبه؁ ومساعدته فيما ظهر بعد ذلك من الخطوب وقسيمه فى ذنوبه؁ ثم وقع الخلاف والنكران؁ بين أبى عمامة والفتان؁ ففارقه أبو عمامة وأبعد النجعة بقومه ونزل بأطرف الظهرة.

هذا ولما اتصل خبر مذبحة دار البوركاوى بأثائر قصد محل وقوعها وضربه وعات فيه؁ ثم نزل على وجدة وشب القتال بينه وبين المحلة التى بها؁ وكان الحرب سجالا ودام متواصلا بقية السنة وجزءا من سنة ثلاث وعشرين؁ ثم رجع الثائر لقصبة سلوان وخرجت المحال من وجدة وذهبت للمحل المعروف بالجزيرة قرب مليلة.

ثم رجع ركن الفساد أبو حمارة لبلاد الريف مكسور الجناح؁ فى عناء وجناح؁ ثم رجع لنواحي فاس وتازا تارة فى انطفاء واخرى فى انضرام والأموال الباهظة تصرفها الدولة فى سبيله؁ حتى نضب ما فى خزائن الدولة وفرغت أفئدة بيوت أموالها واضطرت للاستقراض من دول أوروبا بعد ثرواتها الضافية؁ واقترضت منهم فعلا مرات متعددة والرؤساء النهاب يملثون جيوبهم وأوعيتهم من الآلاف المؤلفة من الدراهم والدنانير إلى زمن الدولة الحفيظية.

ثم أفاق من نومته؁ وتوهم أنه آن زمان بلوغ أمنيته؁ فنهض إلى بلاد الحياينة؁ وصار يشن الغارة المرة بعد الأخرى على القبائل المجاورة لفاس إلى أن بلغ لأولاد الحاج؁ فنظم السلطان المولى عبد الحفيظ جنودا مجندة من أبطال ذوى حزم وعزم ووجهها إليه؁ فلما التقى الجمعان كانت النتيجة بتبديد جموعه



الفتان أبو حمارة الجيلاني الزرهوني في قفصه

والاستيلاء على أمواله وذخائره وغنيمة عياله وعبيده ثم القبض عليه و الإتيان به حقيراً مهاناً .

وكان الظفر به بمدشر أولاد كنون من قبيلة بنى مسارة فى زريبة السيد عمران عشية يوم الأحد خامس من شعبان عام سبعة وعشرين وثلاثمائة وألف، موافق ثانى عشرى غشت سنة تسع وتسعمائة وألف، ودخل لفاس فى قفص من حديد على جمل ضحى يوم الثلاثاء المتصل الولاء بيوم القبض عليه .

وكان الذى تولى القبض عليه عسكرى من قبيلة الشاوية من طابور بوعودة يسمى العشى، ولما ظفر به نزع له المفاتيح التى كانت بطوقه والخاتم الذى كان بإصبعه ثم تسلط عليه النهاب والأوباش وسلبوه من كل ما يطلق عليه شئ وتركوه مكشوف العورة وأذاقوه أليم النكال، ولولا أن القائد الناجم كفهم عنه لأتلفوا مهجته، هكذا أخبرنى من حضر الواقعة وعانين ما ذكر من الثقات الأثبات .

ولما مثل بين يدى السلطان مولاي عبد الحفيظ أظهر من التجلد و الوقاحة ما لا مزيد عليه، ثم بنيت له دكة بمشور باب البوجات، ووضع عليه قفصه وشُهرَ أياماً حتى رآه الحاضر والباد، وأقيمت عليه الفرجات والأفراح فى سائر البلاد، ثم بعد ذلك أدخل للقصور السلطانية بفاس، وكان ذلك آخر العهد به، وبها قتل تنفيذاً للحكم الشرعى المتعين فى شأنه الذى كان التخيير فى كفيته للإمام، فأعدم رمياً بالرصاص فى أصح الروايات خلافاً لما يشيعه بعض ذوى الأغراض من الأوروبيين وغيرهم، من أنه طرح للأسود التى كانت بالقصر السلطانى فمزقت شلوه .

ولما لم يشهر قتله أمام الجمهور صار بعض الحمقى يعتقدون عدم موته، ولا سيما خاصته كصهره محمد بن شلال الريفى القلعى، فإنه كان يجزم بعدم موته ورجوعه يوماً ما لسطوته، فحمله اعتقاده الفاسد على منع أخته التى كانت تحت

الثائر المذكور من التزويج بغيره لثلا يرجع ويجدها متزوجة فنعوذ بالله من الجهل والغباوة .

ثورة الريسولى:

ومن ذلك ثورة أبى العباس أحمد الريسولى الذى كان فى أول أمره من اللصوص النهاب قطاع الطريق بالعقبة الحمراء وما والاها .

وقد اتفق أن كان بين النائب السلطانى بطنجة الحاج محمد الطريس التطوانى ، وبين عامل طنجة الحاج عبد الرحمن بن عبد الصادق منافسة وشحناء ، فوشى الطريس بالعامل المذكور للسلطان زاعما أنه المغرى للريسولى على العيث فى الطرقات وأنه يشاطره جميع ما سلب ونهب ، وذلك محض زور وافتراء فأصدر السلطان عند ذلك بالعامل أمرا باتا بالقبض على اللص المذكور وإلا فيكون مسئولاً ولما بلغه هذا الكتاب ضاق به المتسع وصار يضرب أخماسا فى أسداس ، ولما رأى أن لا ملجأ ولا منجى له إلا بنصب حبال المكر والخديعة ، أوعز لبعض الخاصة من أصحاب الريسولى بأنه يريد أن يرشح المذكور شيخا ولكن لابد من أن يدفع عن تسنم ذلك المنصب مبلغا من الدراهم لا يقل عن ثلاثين ألف بسيطة حسنية ، فنشط الخدن لتولية صاحبه واستعظم العدة وصار يطلب من العامل الخط من ذلك القدر وهو يشدد ويظهر الإباية من أن يضع ولو شيئا ما ، ثم ذهب الصديق لصديقه وأخبره بما راج بينه وبين العامل فى شأنه فارتاح لذلك ، وأجاب لأداء العدة المذكورة ، وإنما يطلب دفعها مقسطة ، ثم تأبط ثلاثة آلاف بسيطة حسنية ليقدمها بين يدى نجواه للعامل ، وتوجه مع الواسطة .

فلما أخبر العامل بما ذكر أمر بإنزال الريسولى بمحل معدل الضيوف الأعيان ، وكلف من يذهب إليه بالطعام والشراب وأظهر الاعتناء الزائد ودخل هو لداره مع الواسطة .

ثم نادى بعد الأبطال من خاصة أنواعه يسمى عبد السلام الأشخر وقال له :
إنى أريد القبض على الريسولى ، وأنه لا يقوم بهذه المأمورية غيرك ، وإننى لم
أفضى بهذا السر لبشر من خلق الله سواك ، ولا يقبل منك عذر فيه بحال ، فإن
فهمت بهذا أو توانيت فيه فإنك تقبض مكانه وتذوق ألم طويل المحن ، فأجاب
الشرطى بالسمع والطاعة ، واختار من أصحابه من يعتمد على إخلاصه وشجاعته
وأفضى إليه بما شافهه به العامل ، وقال له : إننى إذا حضر الطعام وناولته الطست
ومد يده للغسل أسقط عليه وأضمه إلى فإذا رأيتنى فعلت ذلك أدركنى وأعنى فيه
فتوافقا على ذلك .

ولما مد الشرطى يده فى المسجون قال له : إنه مسجون السلطان فمد يده لجنبه
يريد سل سكين كان متأبطا له فنزعه العون الآخر منه وأوثقوا يديه خلف ظهره ،
وذهبوا به للسجن ، وجعلوا عليه السلاسل والأغلال ثم أعلموا العامل بالواقع ،
فارتاح بذلك وسر به ، ثم وجه به سجيناً لثغر الصويرة .

وبعد مدة جاء أقاربه وبنو عمه وتطارحوا على الطريس فى الشفاعة فيه
فأسعف رغبتهم وتشفع فيه للسلطان فسرح ، ولما رجع لمحلله ضاق المتبع بالعامل
وشيعته فطلب الانتقال فنقل لعمالة فاس .

وعاث الريسولى وزاد عتوا وفسادا وصار لا يرقب فى إنسان إلا ولا ذمة ،
كم أباد من عائلات وأراق من دماء فى سبيل شهواته وأغراضه الشخصية ! وأوقد
من فتن حبا فى الرياسة حتى أهلك البلاد والعباد وأسر (القرونيل مكليل) الحراب
الشهير فى الدولتين الحسينية والعزيزية ودعا بالملك لنفسه وخطب به على منابر
تازروت وما والاها ، والتفت حوله الصعاليك وسخفاء العقول وسياسة الفتن
اللذين حبب إليهم تقدير الراحة والسلم العام وصار آونة يجنح للإسبان وأخرى
يكون عليهم ، وقد تفننت الجرائد والمجلات فى نشر تفاصيل أخباره داخل الإيالة
المغربية وخارجها فلا حاجة بنا لجلب ذلك وتببع وقائعه .

ولم يزل على طيشه وتمرد إلى أن ابتلى بداء الاستقاء واستفحل فيه، وأعيا الأطباء علاجه وصار كالزق يمج منه الماء المنتن مجا حتى كان يضطر إلى تغيير ثيابه وفراصة في اليوم مرات، ولا يمكن تحويله من محل إلى آخر إلا بجعله في إزار يحمل فيه ودام على ذلك ستة عشر شهرا وهو مع ذلك مسموع الكلمة نافذ الأمر صحيح اللسان بذاء، لا يقيم لأحد وزنا.

ثم في أوائل رجب عام ١٣٤٢ أحرق لفيف من الريفيين أشباه محمد بن عبد الكريم الريفى بداره بتازروت، ودخل عليه قوادهم وأشياخهم بعد أن دام البارود بينهم يوما وليلة، هلك فيه عدد عديد من الأنفس واتخذوا له محملا حملوه فيهم على عوانتهم إلى مرسى وادى (لو) ببني سعيد على حد غمارة وركبوا به البحر وذهبوا به إلى آجدير، ثم أخرجوا عائلته وسائر نسائه من تازروت بكل احترام ووقار ووجهوا بهن لشفشاون.

وفي تاسع رمضان العام لبي داعى مولاه، وبعد ذلك نقلت عائلته من شفشاون إلى (سنادة) وبقيت هنالك إلى أن قامت قيامة ابن عبد الكريم فنقلت لتطوان، ولاذت به إلى الآن ولله في خلقه شئون.

مقتل الدكتور موشان واحتلال وجدة:

ومن ذلك أيضا ثورة قتل الدكتور موشان الفرنسى بمراكش، وذلك كما قدمنا أن بموت المترجم وتسلم المناصب العليا غير مستحقيها ظهرت الأوباد واختلفت العقائد، وتطلعت رءوس كأنها رءوس الشياطين، وتغير نظام الحكومة بالمرّة، ووقع الانقلاب الفجائى فى هيئتها، ولم يجد السلطان فى دائرته رجلا يعتمد عليه ولا بطلا يكل الأمر إليه، فجرت الأمور على غير المراد، وإذا أبرمت الأقدار الإلهية أمرا فليس له من راد، وعادت الفتنة الحوزية لشبابها، وكثر القتل والنهب والسلب بالطرقات، وازداد ذلك فشوا ونموا بمبارحة سلطان المولى عبد

العزیز للذیاری المراكشیه ومقامه بالعاصمة الفاسیه وذلك عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف ١٣١٩ .

وتعدد رفع الشكايات للحضرة السلطانية بما لحق الناس من الأضرار وتورطوا فيه من الأخطار، بسبب سلب الأمن وتكاثر العیث فی الطرقات، وقتل القوی للضعیف، فألقت شكايتهم فی زوايا الإهمال وكتمها أولو الأمر من الذیوان المخزنی عن السلطان واشتغلوا بلذاتهم وشهواتهم ولم یرفعوا لما یرفع إلیهم ویقرر لذیهم رأسا، ولا قرأوا لعاقبته الوحیمة حسبانا فكانت النتيجة فراغ الأفئدة من خوف سطوة السلطان وشدید بأسه ومهابة صولته وبطشه وتلاشی نفوذ ولالة أمره من قواد وعمال وخصوصا بمراكش، وبقی الناس كالفوضى لا سیراة لهم .

فاتفق أن ركب الطیب المذكور علم دولته بباب محله بعرة موسى، وذلك یوم السبت رابع صفر عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف على ما حقق لی بعض الأعلام من عدول مراكش، والذي قرأته فی بعض التقایید أن ذلك یوم الثلاثاء خامس صفر المذكور فی الساعة الواحدة بعد الزوال، وفی الحین تسارع إلیه همج الرعاع وقتلوه بالضرب والحجارة والعصى وتركوا جثته ملقاة على الأرض بباب داره، وانتشروا فی أزقة المذینة یسرقون ویخطفون، واغتنم اللصوص النهابون تلك الفرصة لما علموا من أن من فرص اللص ضجة السوق والمجانین من الأوباش، وكثیرا ما هم یضحكون ویمرحون، ومن علم أن الفتنة أشد من القتل وتیقن المثال وذلك أول شر لا ینطفئ وقع فی المغرب بکی واستبکی وتكلم وتألم .

ثم لما اتصل بالعامل هذا الخبر المحزن والحادث الجلل وهو إذ ذاك الحاج عبد السلام الورزازی قام من حینه یبکی بكاء الشکلی، ووجه قوة كافیة من أعوانه لتسکین روعة البلد، وذهب هو بنفسه فی لفیف من أعوانه لمحل القتیل، ووقف

عليه حتى جهز ووضع في تابوته وحمل لمضجعه، وحضر في معية العامل المذكور من كان بمراكش من الأوروبيين .

ثم في يوم الجمعة الرابع عشر من صفر المذكور بقى احتلال وجدة من غير مقابلة ولا مشاغبة أخذاً بثأر اقتيل وطلباً للإنصاف من الفعلة والفصال فيما لها من الحقوق والدعاوى غير ما ذكر مما هو مسطور في ظهير سلطاني خوطب به القائد عبد الرحمن بركاش وأعيان الصويرة ودونك لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله ثم الطابع الشريف بداخله عبد العزيز بن الحسن الله وليه وبدائرتة:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الاسد فى آجامها تجم

من يعتصم بك يا خير الورى شرفا الله حافظه من كل متقم

«خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بركاش وأعيان أهل الصويرة المحروسة

بالله وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فإن طييبا فرنسويا كان مقيما بمراكش فركب علما بالمحل الذى هو به فتسارع الرعاع إليه وقتلوه، ومن قبله كان جرح فرنسويا آخر ببلاد تكنة، وكذلك فى طنجة كان قتل آخر من كبراء فرنسا، وكذلك بفاس جرح آخر».

ولما بلغ ذلك الدولة الفرنسية حصل لها انزعاج واغتاظت لذلك وها لها ما وقع من هذه الحوادث التى يؤدى إليها طيش الرعاع الذين لا يعرفون مزية الهدنة والسكينة، ولا يتدبرون عواقب النزاع، ولا ينظرون لما نكابه من حسن المهادنة وسياسة الدفاع، مع أن ذلك لا حق له فيه من جهة الشروط، وأن المخزن قادر على رفع ما تشوشوا منه من غير ضرر منهم لصاحبة بطريق الإنصاف، وحملها الغيظ على احتلال عسكرها بوجدة طالبة الإنصاف، وقبض الحق فى هذه القضايا

و الفصل فيما لها من الحقوق و الدعاوى وعلقت خروجها من وجدة على إيقاع الفصل فى ذلك .

إذ حلولها مؤقت لأجل ما تطلبه من المعوضات لأجل ذلك وها نحن جادون فى مباشرة وجوه الفصائل معها بما يقتضيه الحق لها فى ذلك، ومجتهدون فى ارتكاب العلاج المخلص من ذلك، حتى يخرج عسكرها من وجدة بحول الله ولأجل هذا كنا نحذركم ونحذر غيركم من رعينتا السعيدة ونبالغ فى الاسترعاء والإنذار خشية التورط فى مثل هذا، ونؤكد عليهم فى إعلام جانبنا الشريف بكل ما تشوشوا منه، ورفع أمره إلينا ليتدارك على الوجه الأسلم من غير افتيات ولا مديد فى أحد، وعلى كل حال فلا يأخذكم هول ولا يروعكم تشويش، فلإننا بحول الله مهتمون بهذا الأمر، ومبالغون فى معالجتة حتى يخرج بسلام، فليسكن جأشكم ويطمئن بالكم، لأننا لا نألو جهدا فى صيانتكم والدفاع عنكم بأموالنا ورجالنا بحول الله حالا واستقبالا، كمل الله المراد، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخذنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، والسلام فى ١٨ صفر عام ١٣٢٥». انتهى . من أصله .

ثم بعد مدة قدمت على مراكش لجنة أوروبية بقصد البحث فى السبب الداعى لقتل ذلك الطبيب ومن تولى قتله والحامل عليه، فهياً لهم عامل البلد المذكور مأدبة فاخرة، ولما أحضر لهم الطعام امتنعوا من الأكل، وقالوا إنما أتينا للمباحثة لا للمواكلة، فلم يزل يلين لهم القول ويلطفهم ويستعطفهم حتى أكلوا وزال ما بهم، ثم بعد الفراغ من الأكل بحثوا العامل عما ذكر بحثا مدققا، فحقق لهم أنه لا علم له بشيء ما أصلا حتى وقعت الواقعة .

وقد كشف الغيب بعد ذلك أن الذى أغرى على قتله هو رجل من الألمان كان قاطنا بمراكش، له إلمام ببعض العلوم الإسلامية، وكان كثيرا ما يتذاكر فى

تفسير القرآن ويتردد على العلماء ويحبب للمغفلين سيرة دولته، أوعز هذا الألماني لبعض الأغبياء الساقطين أن الطبيب المذكور عازم على نصب الراية الفرنسية بمحله، وتلك دسيصة يدسها لهم، وحضهم على منعه من ذلك والتعرض له والقيام في وجهه ولو أدى الحال إلى قتله فإنه لا ينتطح عليه عزان.

ثم بعد مدة أمر السلطان بتوجيه ولد العامل المذكور صديقنا الفقيه البركة السيد محمد للمحاكمة بطنجة، ثم بعد أخذ ورد وبحث وتنقير اتضحت براءة العامل من كل تهمة ألصقت بجنبه في قضية القتل، وأنه لا مسئولية عليه ولا على أحد من أولاده وعشيرته.

وبعد ذلك صدر الأمر بإلقاء القبض على المتهمين بالقتل فوق القبض على خمسة عشر رجلا، وأودعوا سجن مراكش، ثم نقلوا لسجن الصويرة وذلك في يوم السبت الخامس عشر من ربيع الثاني ثم نقلوا لسجن طنجة، ثم ردوا لسجن الصويرة بطلب من النائب الفرنسي بها حسبما وقع التصريح بذلك في ظهير سلطاني، ودونك لفظه بعد الحمدلة والصلاة والطابع الكريم:

«خديمنا الأرضي القائد عبد الرحمن بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فبعدما كان ورد لطنجة على يديك مساجين أهل مراكش المقبوضون في قضية الطبيب موشان القتل بمراكش، جاء نائب الفرنسي في ردهم للصويرة ليكون بحثهم بها على يد القنصل المكلف بالقضية، وقد اقتضت المصلحة المساعدة على ما ذكر، وأمرنا خديمنا النائب الحاج محمد الطريس بتوجيه المساجين المذكورين بحرا إليك صحبة من يعينهم لمصاحبتهم، ونأمرك أن تقبلهم وتختلى بهم بنفسك حتى تستوعب كلامهم وتستخرج ما في بواطنهم لتكون على بصيرة ثم تدعهم السجن، وإذا كتب لك خديمنا المذكور بالتنبيه على ما تسلكه في شأنهم بما يثبت أقدامهم عند مباحثاتهم، فنأمرك أن تجرى في ذلك على ما تقتضيه المصلحة

مع الأخذ بالحزم والاحتياط ، وإذا طلب القنصل المذكور إحضارهم للبحث ، فإن أمكن أن يكون بحثهم بمحضركم فهو أولى ، وإلا فيكون بمحضر من يمكن حضوره من نوابك النبهاء ولا تحتاج لزيادة إيضاح في بيان المقصود مما ذكر ، والسلام في ٨ رجب عام ١٣٢٥ .

احتلال الدار البيضاء:

ومن ذلك واقعة الدار البيضاء التي هي من أعظم الوقائع الشنيعة المفتتة للكبد القاضية على قوى المغرب المادية والأدبية بالوهن والانقضاء ، تلك الواقعة التي تنفس بها صبح الخطوب في أعماق القلوب ، قام بحمل أعباء طامتها الكبرى جهال رعاع الرعية وأخلاط الأوباش وسفهاء الأحلام ، من سخفاء عقول قبيلة الشاوية الذين لا يتدبرون العواقب ، ولا يعلمون أن الإنسان لا يحصد إلا ما بذر .

وذلك أن الدولة المخزنية المغربية لما انهذ ركن سياستها المتين بموت صاحب الترجمة ، فرزنت فيها البيادق ووسد الأمر لغير أهله ، وصارت الرءوس أذنانا والأذنان رءوسا ، وانفجرت براكين الاستبداد التي هي ثمرة الإفراط في الضغط ، وفشا ذلك في الحواضر والبادي وعم جميع البلاد ، ونامت الصقور ، وصرخت الديكة ، وادعى الصعلوك أنه ابن جلا ، وأينعت أغصان التشاجر والتنافس في أفخاذ من قبيلة الشاوية المذكورة ، وارتأت أن الخروج عن طاعة السلطان متجر ربيع ، وتمكن في قلبها حب البغى والعدوان ، وجار القوى على الضعيف ، وغدا الفساد في كل آونة يزداد ، ورؤساء الدولة لا يستطيعون لرتق ذلك الفتق حيلة ولا يهتدون سبيلا بل هم في غمرة ساهون ، وعن الأخذ الأحوط لاهون ، إلى أن مدّ يد العداة بعض الرعاع من سماسة الفتن الموقدين لئارها من جوار الدار البيضاء وبالأخص مديونة وأولاد زيان ، كما عينهم ظهير سلطاني شريف دونك لفظه :

«خدامنا الأرضين أمناء الوضع بمرسى الدار البيضاء المحروسة بالله، وفقكم الله وسلاما عليكم ورحمة الله وبعد وصل كتابكم بشرح الواقع هنا كم من رعاي مديونة وأولاد زيان وأنكم قاثمون على ساق فى ترتيب العسة لحراسة الديونات وخزائنها وصار بالبال، فقد بلغ ذلك لشريف علمنا وأمرنا فيه بالمتعين، ولتردوا البال لصيانة الديوانات والخزائن، والسلام فى ٢٧ جمادى الثانية عام ١٣٢٥».

وقد عاث المذكورون بأطرافها وقتلوا عددا من النصارى خارجها بسبب جلوس مراقب فرنسى مع أمناء مرسى الثغر المذكور للمراقبة على المداخل المعينة لهم التى هى ستون فى المائة من مدخول المراسى كما ينبئ عن ذلك ظهير شريف عزيزى دونك نصه بعد الافتتاح.

«خدامنا الأرضين أمناء الموضوع بمرسى الدار البيضاء، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فنأمركم أن تكونوا تدفعون للأمين الطالب العربى بن كيران ما يتحصل لجلب المخزن فى مدخول الأربعين فى المائة السالمة له كل يوم بيومه، وأن تكونوا تعلمون جنابنا العالى بالله فى كل أسبوع بقدر ما حازه فيه وأن يكون ابتداء إجرائكم هذا العمل من يوم التاريخ الذى هو الثامن والعشرون من رمضان هذا، والسلام فى ٢٨ رمضان عام ١٣٢٦».

وهذا القدر عليه كانت وقعت المصادقة من الجناح العزيزى والدولة المقرضة له دولة فرنسا، ولم يزل عتو أولئك الغوغاء يتفاحش حتى أوجس القنصل الفرنسى بالثغر المذكور فى نفسه خيفة اضطر بسببها إلى إنزال بعض عسكرهم من مركب حربى كان لهم هناك، فلما نزلوا تعرض لهم بعض أهل الطيش بالضرب، وجرحوا منهم كبيرا وخمسة أنفار من العسكر، على ما سيمر بك إيضاحه.

وكانت المدة التى وقع الاتفاق بين السلطان مولاى عبد العزيز وبين الدولة الفرنسية على جلوس أحد الفرنسيين مع أمناء الديوانة بصفة كونه مراقبا خمسة أعوام حسبما وقع التصريح بذلك فى ظهير عزيزى شريف دونك لفظه:

بعد الحمدلة والصلاة والطابع الكريم:

«خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فلأجل مصلحة تحسين خدمة المرسى وزيادة الضبط فى عملها اقتضى نظرنا الشريف على وجه الاختيار تنفيذ إجراء عمل المراقبة بالفعل على يد أرباب القرض الفرنسوى الجارى بجلوس أحد الأعضاء منهم بالديوانة السعيدة مع أمنائها لمدة خمس سنين من تاريخ الشروع فى العمل، وقد أصدرت شريف أمرنا للأمناء المذكورين بقبوله للجلوس معهم وتمكينه من التصرف على مقتضى ضابط خدمته وعليه فنأمرك بقبوله لذلك والكون منه على بال وشد عضه فيما يتوقف عليه من أمور تكليفه الراجعة لخدمة المرسى، وضبط جميع أعمالها، والسلام فى ١٠ جمادى الأولى عام ١٣٢٥».

ثم ثار كمين الفتن ولم يزل شرر شره يتطاير إلى أن عمد ذات يوم لفيف من تلك القبيلة الباغية المتمردة لشاطئ البحر، حيث بينى المرفأ لمرسى ثغر الدار البيضاء الذى كان وقع الاتفاق على بنائه بين السلطان أبى فارس عبد العزيز وإحدى الشركات الفرنسية، وذلك لما رأى السلطان أن من المصلحة العائدة على بلاده وتوسيع نطاق تجارة رعيته وغيرها ممن يتجر بها من الدول الأجنبية الأوربية النازلين بإيالته، بناء المرفأ لتلك المرسى بناء نظاميا على الطراز العصرى، وبكل أسف فإن القابض على زمام إدارة الحكومة لم يتخذ فيما رامته الاحتياطات اللازمة لردع المفسدين وكسر شوكتهم بترشيح رجال حنكتهم التجارب للوقوف على تنفيذ ذلك الأمر المهم كما يجب، بل عزلت باشا ذلك الثغر الذى كان يعرف من أين تؤكل الكتف، وعينت خلفا عنه أبا بكر بن بوزيد السلوى، فحققت المنزوع وتجرد لإغراء إخوانه على إيقاد نيران الفتن وتشويش راحة البلد فأجابوه لذلك، والباشا الجديد أخلد إلى العجز، وأظهر غاية الجبن، وأبان عن عدم لياقته وكفاءته لما رشح له.

ولما تم الاتفاق على الوجه المذكور شرعت الشركة المذكورة فى مد السكك الحديدية لسير القطار المعد لحمل الأنقاض اللازمة للبناء رفقا بالعمله وتسهيلا عليهم فاتخذ أولئك الرعاع الأخساء مكايده توصلهم لتكسير ذلك القطار شأن العتاة الأغبياء الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، المقرون تديرهم بتدميرهم وأعانهم على سوء فعلهم قرينهم اللعين .

ولما وقع القطار فى شبكة مكرهم بجعلهم أحجارا وأعوادا فى ممره انقلب وتكسر ومات بسبب ذلك تسعة من العملة الفرنسيين وأسبانيين وإيطاليين ، فمن الفرنسيين سائق القطار وهو المسمى (ربات) ورئيس الخدمة بمعدن الحجر ثم ذهبوا للمعدن وقتلوا من وجدوا به من العملة وذلك يوم الثلاثاء التاسع عشر من جمادى الثانية عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف موافق ٣٠ من يوليو سنة ١٩٠٧ .

ثم إن أولئك الهمج لم يقفوا بخبثهم عند ذلك الحد بل دخلوا البلد ومدوا يد النهب والقتل وجاسوا خلال الديار والأسواق ، وعززهم من استهوته الشياطين ممن هو على شاكلتهم من العسكر المخزنى المنظم الذى كان هنالك وأخلط أهل البلد ، فلم يتركوا بابا من أبواب الفحش إلا وطرقوه ، ولا نهجا من مناهج الفسوق إلا سلكوه ، نهبوا الديار والدكاكين والأبنك والملاح وأوقدوا النار فى جميع تلك الأمكنة ، وبالأخص جهة باب الرخى ، وذلك بعد نهب ما بها من أموال ومتمول ، ودام القتل والهرج والمرج بالبلد ثلاثة أيام بلياليها فعظم الخطب ، واشتد الكرب ، والولة الذين بيدهم السلطة المخزنية أغلقوا عليهم أبواب بيوتهم وناموا وتركوا عيون العدا ساهرة .

ولما تلاطمت أمواج الفساد ، واضطربت نيران الفتن وماج الناس بعضهم فى بعض وبلغت القلوب الحناجر ، واختلط الحابل بالنابل ، وجهت الدولة الفرنسية إحدى بوارجها المعدة للمياه المغربية المسماة (كليلى عدد ٦٦) حاملة لفرقة حربية

لحراسة قنصليتها طبق ما أشرنا إليه تنتظم تلك الفرقة من ستة وستين جنديا، فأخبر القنصل الذى كان تم عامل البلد إذ ذاك وهو بوبكر بن زيد السلاوى المذكور بنزول الفرقة المذكورة للصدد الذكور وحذره من التعرض لها بسوء وأعلمه أنها إذا مست بسوء، فإن البارجة الفرنسية لابد من أن تضرب البلد فتكون العاقبة وخيمة.

فاستشار العامل المذكور فى ذلك مولاي الأمين بن الأمير مولانا عبد الرحمن بن هشام الخليفة السلطانى فى ذلك الحين هنالك، فأجابه بأنه لا دخل له فى صعود ولا هبوط، وإنما هو مكلف بحماية البلد من عيث فساد الشاوية، ثم جمع العامل المذكور بعض أعيان البلد وفاوضهم فى الأمر فأشاروا عليه بغض الطرف عنهم تحرزا من وقوعه فى ورطة المسئولية النى لا تحمد عقباه مع السلطان.

فاستحسن رأيهم الفاسد، ونظرهم الكليل الكاسد، فأمر أحد أعوانه المدعو البدوى بأن يأذن للمكلف بفتح باب مرسى الثغر قبل الوقت المعتاد لفتحه، والمكلف إذ ذاك المدعو محمد - فتحا - ابن القلوبى، فامثل ما أمر به، ولما فتح الباب وجد القارب الحامل لتلك الفرقة على الشاطئ والعسكر شاكى السلاح فرام سد الباب فى وجهه ثم التفت أحد البوابين الذين كانوا هناك قيل لم يعرف وقيل هو محمد الحيانى المسفيوى لمن حوله من حرس وقال قوموا اضربوا على أنفسكم وأولادكم يا كلاب، فإن النصارى جاءت لأخذ بلادكم فقام بعض من لا يبصر رشده من الحمقى وأطلق بندقية، فى وجهه تلك الفرقة. ثم عزز فعلة المشتوم أحد المكلفين بحراسة الصقالة من رماة المدافع وهن محمد وشت - بانتح الواو وسكون الشين المعجمة والتاء المثناة - الحداد حرفة بكورة إذ كان العامل المذكور أوعز لهم ضرب تلك الدارعة، إذا هى ابتدأت الضرب.

فعند ذلك تراصت تلك الفرقة على صف واحد وأطلقت بنادقها على من

رام مقاومتها واقتحمت باب المرسى ودخلت البلد عنوة بعد أن تركت المبتدئين لها بالضرب صرعى، وجرح بعض الضباط منهم وهو الفسيان (بلاند) السمى باسمه الشارع الممتد من ضريح أبى الليوث إلى الباب المجاور للسقالة القديمة المقابل الآن للبيستان العمومى الكائن بحومة أبى الحسن علال القروانى صاحب المزاراة الشهيرة إلى الآن بذلك الشجر، واثنان من البحارة، ثم إن الفرقة المذكورة توجهت لدار قنصليتها شاهرة سلاحها تطلق بنادقها على كل من صادفته فى طريقها.

ولما وصلت دار القنصلية وجدت الحرس المخزنى المعد لحمايتها على الباب فقام وأدى التحية العسكرية، فأطلقت فيه تلك الفرقة مكاحلها وارتقت على سطوح الدار وصارت تتابع طلقاتها النارية على سائر المارة من جميع الجهات حيث كانت تعتقد عداء الكل، كما أن الدارعة المذكورة صات تمطر البلاد بوابل كور مدافعها المدمرة وذلك قبيل بزوغ شمس يوم الاثنين خامس عشرى جمادى الثانية من العام المذكور، موافق خامس غشت سنة سبع وتسعمائة وألف.

وفى زوال اليوم نفسه وردت على الشجر المذكور دارعة أخرى تسمى (دوشيلة) حاملة لفرقة عسكرية أخرى أنزلتها تعزيزا للأولى تنتظم من مائة وعشرين جندي يرأسها الكمندان (مانجان)، وشاركت الدارعة كليلى فى إطلاق القنابل على المدينة، وفرق الكمندان المذكور العس على دور القناصل الأجنبية كالسويد والإنجليز والبرتغال وأسندت إليه قيادة الجيش النازل ونظم البوليس فأحسن التنظيم والإدارة.

هذا والمخزن باذل جهده فى تطمين قلوب الرعية ونشر المكاتب لعمالة وولاية أمره بتحقيق الحقيقة وتقريرها لأولى العصبة من القبائل.

قرأت فى ظهير سلطانى عزيز بالتاريخ المذكور مخاطب به باشا الرباط فى وقتنا الحاضر، حبنا السيد عبد الرحمن برকাশ باشا الصويرة إذ ذاك بعض ما يتعلق

بما شرحناه جلبنا نصه هنا تتيما للفائدة ودونك لفظه بعد الحمدلة والصلاة والطابع
المتيف:

«خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بركاش وفقك الله، وسلام عليك
ورحمة الله، وبعد فإن بعض الرعاع من القبائل المجاورين لثغر الدار البيضاء مدوا
يد العداء بخارجه بسبب جلوس المراقب الأجنبى مع أمناء الثغر المذكور، وصاروا
يتحدثون فى ذلك بأقوال غير مقبولة ولا معقولة لجهلهم بحقيقة الأمر وعدم
معرفتهم إياه، لأن جلوس هذا المراقب مع من ذكر تقدمت له نظائر عديدة فى
عهد سيدنا الجد رحمه الله، وفى حياة سيدنا المقدس بالله للمراقبة على مال
السلف الذى كان بحوزته من المراسى فى السلف الذى اقترض منهم وقتئذ، ولما
توصلوا به انصرفوا لحالهم وهكذا هؤلاء المراقبون الذين جلسوا الآن بالمراسى فإنهم
فإنما جلسوا للمراقبة على مال سلفهم الذى اقترضه منهم المخزن على القاعدة
الجارية فى ذلك من قديم الأعصار، وبمجرد ما يتوصلون به ينهضون لشأنهم
كذلك ولا ضرر على المسلمين.

ولو كنا نعلم حصول أدنى ضرر لهم من ذلك ونحوه لدفعناه عنهم بأى وجه
أمكن، نعم إن حدث عندهم ما فهموا فيه ضررا فليرفعوه لحضرتنا الشريفة على يد
عاملهم للنظر فيه، فإن ظهر وجه لكلامهم ينفذ الأمر فيه بما يتعين، وإلا يجابون
بما يرفع عنهم الإيهام والإشكال، وعليه فنأمر أن تكون على بال من القبائل
الذين بناحية ذلك الثغر إن حركوا معك كلاما فى ذلك لتجييهم بما قرر لك على
الوجه الذى يفهمون منه المقصود ولا يبقى عندهم إشكال فى حقيقة الأمر بحول
الله، وها نحن كتبنا لهم بذلك أيضا حسبما يصلك لتتركه تحت يدك احتياطا إن
حدث ما يوجب دفعه لهم تجده تحت يديك، وإلا فاتركه عندك -حتى تنكشف تلك
العوارض ورده لحضرتنا الشريفة والسلام فى ٢٥ جمادى الثانية عام ١٣٢٥».

ثم فى اليوم نفسه فى الثانية بعد الزوال وردت بارجة إصبانية صغيرة من جزر كنارية على الثغر المذكور حاملة لفرقة عسكرية لحماية قنصليتها أيضا، وعززت الدارعتين الفرنسيتين فى صب هاتل الكور على البلد، وكان الضرب بالغاً حده فضج الناس وافتنوا ولم يجدوا ملجأ ولا منجى وظل بعضهم يموج فى بعض كأنهم سكارى يعربدون ونار الفتى تتوقد وشرر زفيرها يتطاير فى قلوب العجزة من الرجال والنساء والصبيان.

ولما جل الخطب وطم أمرهم الخليفة المولى الأمين المذكور بعد الموافقة مع القنصلية الفرنسية بالخروج للمحل المعروف بالسور الجديد الذى كان محل تخييمه بالقوة التى كانت إلى نظره من عساكر وخيل ورماة، وصرح لهم بأن كل من حل به فهو آمن على نفسه وماله فانقسم الناس قسمين:

قسم ائتمر بما أمر به الخليفة المذكور فخرج مسرعاً إلى السور الجديد حيث القوة المخزنية ومثوى الخليفة السلطانى الذى جاء لحياطة البلد وذويها.

وقد كان هو دخل المدينة يوم الجمعة بقصد إطفاء نار الفتى وإجلاء البادية عن البلد ونزل بدار المخزن هناك وأقام بها يوم السبت والأحد وفى صبيحة يوم الاثنين وقعت الواقعة.

ولما خرج من خرج للسور الجديد حيل بين مولاى الأمين الخليفة المذكور وبين ما أراد من اللحق بعائلته والقوة التى كانت معه لتفاحش عيى المفسدين فى الطريق ولم يبق معه بالمدينة غير وصيف وطباخ.

وفى عشية يوم الأربعاء سابع عشر موافق سابع عشر جمادى المذكور أطلقت الدارعتان الفرنسيتان قنابلهما على المتجئين بالسور الجديد حيث رأت أحزاب العتاة المسدين تجمهرت حوله ورامت الهجوم على من به وقصدهما تبديد

جموعهم وتشيتتهم حتى لا يلحق من بالسور منهم أدنى أذى وعززتهما الدارعة الإصبانية فسار الكور ينزل على المفسد والمصلح وعم البلاء واشتبك واربتك لعدم إمكان التحرز ولأن الخبث إذا كثر هلك الصالح والطالح فهلك عدد عديد من أولئك البؤساء المرعوبين الجياع العطاش المسلوبين المنهوبين الذين كانوا بالسور الجديد، وولى الثوار ناكصين على الأعقاب ولم يبق واحد منهم يروج بالمدينة ولا يحوم حول السور.

وفى عشية ذلك اليوم نزل بالبلدة المذكورة القائد الجنرال (درود) واحتل البلد بخيله ورجله، وتم الأمر على يده وانتشر الهدوء والسكون.

ثم بعد ذلك نزلت فرقة من العسكر الإصباني لاحتلال أيضا واتخذت المساجد أروية لربط بهائمها وألواح الصبيان الذين يقرأون القرآن خطبا وبالغت فى الإفساد والتدمير داخل المدينة وخارجها.

أما القسم الآخر فإنه انقسم إلى قسمين: قسم خرج ناجيا بنفسه إلى البادية للاستيجار بمن له به صداقة وسابقة مودة عساه أن يؤمن روعته، ويرحم لوعته، وقسم التجأ بدور بعض القناصل فانقلب على الحضرى الناجى بنفسه البدوى الأجلف الذى كان صديقا حميما عدوا ميينا فكان الحضرى يلقي صفيه البدوى فيحن له ويرتاح لرؤيته فيبادره بجفائه الغريزى المركوز فى طبعه الخشن ويقابله بكل شدة وقساوة ويجرده من كل ما عسى أن يكون عليه من الثياب أو بيده من المتاع قل أو جل، ويتركه مكشوف العورة صفر اليدين ويقول له أنا أولى بسلبك من غيرى بلغ بهم الإفراط فى الخبث والدناءة إلى أن شقوا بطن امرأة حامل وأخرجوا جنينها منها ظنا منهم أنها ابتلعت نقودا، ومخضوا شريفا مخضبا ذريعا لاتهامهم إياه ببلع نقود كذلك.

وكم افتضوا من أبكار واسترقوا من أحرار، فمن جملة من استرق وبيع



الخليفة مولاي الأمين رئيس لجنة التعويضات ببيزته الرسمية بالوسط وعن
يمينه الأمين الصديق احرضان الطنجي وعن يسره الأمين بناصر غنام
الرياضي مع نواب الدول والتراجمة والكتاب.

عبد الكريم نجل صديقنا ناظر الأحباس فى ذلك الحين بذلك الثغر السيد إدريس الفيلالى، ثم بعد أخذ ورد أدى والده لمن كان اشتراه قبل مائة ريال سكة حسنية .

ثم بعد انجلاء غياهب هذا الحادث المدلهم جمعت أكداس تلك الجثث المتننة وذلك ثامن غشت وألقيت فى أخدود وصب عليها الكاز وأطلقت النار وردم رمادها ورقاتها بالمحل الذى صار الآن جنانا عموميا مقاومة لتلك الروائح الكريهة المؤذية، وتحفظا عما ينشأ عنها من الأضرار الفتاكة المعدية المعدمة، وكان المكلف بجمع تلك الجثث والأشلاء المعين (بريط) الفرنسى الولوع بجمع الآثار العتيقة والنقود الثمينة الشهير إلى الوقت الحاضر بالدار البيضاء .

أخبرنى أنه مات من اليهود نيف وأربعون، وجرح منهم خمسون، واختطف من فتياتهم مائه وخمسون كما اختطف من المسلمات عدد عديد .

وبعد إطفاء نيران الفتن بالدار البيضاء قام أهل الحمايات بطلب تعويض ما ضاع لهم فى الواقعة ومن نهبت له عشرة ادعى بالآلاف وشددوا فى ذلك وأفرطوا، فأصدر السلطان ظهيرا بتشكيل لجنة تنظر فى الخسائر وعين أعضاء من الوطنيين والأجانب وإليك نص الظهير .

بعد الحمدلة والصلاة .

«يعلم من كتابنا هذا أعلى الله مقداره، وثبت على الهدى مزاره، أننا أذنا بتشكيل جمعية بثغر الدار البيضاء للنظر فى الخسائر الحاصلة بالثغر المذكور وقت حادثته للأهالى والأجانب وتحقيق الحق عنها وإبطال الباطل وتقدير التعويضات اللازمة فى ذلك بموجباتها، وعيّننا من قبل جانبنا الشريف عمنا الأرضى مولاي الأمين للرياسة عليها وخديمتنا الطالب بناصر غنام معتمدا أولا والطالب الصديق احرضان معتمدا ثانيا والطالب الحسن كاتبنا ليقوموا بالمتعين فى ذلك مع الأعضاء

المعينين من قبل الدول المحترمين ذوى العلاقة بالموضوع ويجروا فى تحريرهم كذلك على طريق العدل والإنصاف ويعينوا المختبرين والمفتشين المحليين لأعمال الأبحاث الابتدائية، وأضفنا لأعضاء المخزن المحامى والمستشار إبراهيم بمنى والترجمان كرم والسلام، صدر به أمرنا الشريف فى ٢٧ ربيع الثانى عام ١٣٢٦ .

والأعضاء الأجانب المشار إليهم فى الظهير هم: معتمدا ألمانيا وإصبايا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والبرتغال وهؤلاء مع نواب المخزن هم الذين لهم الحق فى النظر فى كل دعوى تعرض على بساط اللجنة، بخلاف النواب الخصوصيين، وهم نواب أميركا والنمسا وبلجيكا والسويد والدانمرك وهولندا، فلم يكن لهم حق فى سن ضابط ولا إيداء رأى فى غير دعاوى تابعيهم، وقد ناب عن السويد معتمد دولة الألمان وعن الدانمرك المعتمد البريطانى .

أما الدولة العلية العثمانية فكان ابتداء بمباشرة دعاوى تابعيها وهى أربعة دعاوى معتمد فرنسا بصفة نائب الرئيس ثم بعد أن أعلنت قنصلية إنجلترا بالشعر أنها كلفت رسميا بحماية رعايا تركيا رجع إلى مباشرة الدعاوى المذكورة معتمد إنجلترا (المستر تورون).

فكان عدد الدعاوى التى عرضت على البحث ٣٥٠٦، والقيمة المدعى بها فرنكات ١٧،٣٦٦،٤٧٨،٢٦ والقيمة التى حكمت بها اللجنة فرنكات ٥٧،٦٤٢،٠٦٩،١٣ .

ثم أضيف لذلك دعاوى تقدمت على المواضع والأماكن التى احتلتها الجنود الفرنسية الإصباية وعدد دعاويها ٦١ والقيمة التى حكمت بها اللجنة الدولية فرنكات ٨٥،٧١٠،١٩٥ .



رئيس اللجنة التنجيزية لأداء غرامة الدار البيضاء الخليفة السلطاني سيدي محمد الأمراني عن
يساره الحاج عبد الرحمن لحلو وعن يمينه الأمين السيد العربي بن كيران هؤلاء الثلاثة مغاربة
وعن يسار الحاج عبد الرحمن لحلو طيطوتي نائب إيطاليا وبينه وبين الخليفة السلطاني ثورن
الإنجليزي وريو الفرنسي ولابليخا الإصباتي وبين الخليفة السلطاني وابن كيران شامبير ونفرو
ومكري الفرنسي كاتب اللجنة.

ولم يتم أمر ذلك حتى جاءت الدولة الحفيفية، وتخلّى الخليفة المولى الأمين عن وظيف الخلافة، وولى مكانه أبو عبد الله محمد الأمراني آتى الترجمة، وفي مدة توليته تمت المسالة ووقع الأداء بطنجة.

هذا وأما أبو زيد عامل البلد المذكور فقد ألقى عليه القبض وثقف على ظهر الدارعة «كليلي» عقوبة له على ما أجرم ثم سرح بعد.

ووقع القبض على بعض النهاب، وأعدم البعض منهم حيناً ودفن ما يزيد على ثلاثمائة من المسلمين، ووجد بين الأسوار وتحت أطلال الهدم والردم والجهة التي خرقت عدد عديد من الجثث.

ثم بعد التطهير بالحريق ابتدئ في تنظيم أمور الديوانة، وكان المتولى للأمر إذ ذاك (الكمندان منجان) وعلال بن عب الطنجي خليفة الخليفة السلطاني المذكور.

وأما السور الجديد - الذي ذكرنا أن الناس التجأوا إليه لما دهاهم من ضرب الدوارع الحربية ما دهاهم - فهو عبارة عن فسيح يحتوى على عدة هكتارات محاط بالسور من جهاته الأربع، بها أبراج محكمة البناء كان بناه السلطان المقدس مولاي الحسن وقصده أن يتخذ قصبة تخطط بها دور الأجانب الأوروبيين النازلين بذلك الشجر من قناصل وتجار وغيرهم سعياً وراء جلب الراحة إليهم، وإبعاداً لهم عمن يخالفهم في العوائد وبياباتهم في الذوق، إذ لا تتم الراحة للإنسان إلا بجعله مع مجانسه وملائمه وتمكنه مما اعتاد على الطراز الذي ألف من غير متقصد ولا مشغب وكان بناؤه إياه على يد الأمينين محمد بن سعيد المعروف بالكدر، ثم الحاج عبد الخالق فرج محتسب الرباط الشهير بالمواقف والمناقب والغيرة الوطنية والصدق والإخلاص والأمانة، ثم لما مات السلطان الباني ولم يتم ما كان أراد بقى المحل معداً لتخيم الجيوش المخزنية وقتما مرت بذلك الشجر، وقد تتفصح فيه أهل

البلد عند فراغه من الجيوش وبالأخص فى زمن الربيع، وتقام به نزهة سلطان الطلبة، ثم بعد الواقعة أحدث فيه شارع عمومى .

واتخذ بجانب منه مستشفى عسكرى لا زال قائم العين إلى الآن .

ولقد كان لهذه الحادثة الخالكة دوى ورنه فى العالم تناقلتها السنة الجرائد الرائجة فى ذلك العصر عربية وعجمية وذهب الكتاب فى أسبابها كل مذهب كل على حسب أغراضه الشخصية ومغامزه السياسية والحقيقة وراء جل ما حبروا وخبروا .

ومدينة الدار البيضاء هذه هى المعروفة فى كتب التاريخ قديما باسم آنفا، وهى واسطة بلاد تامسنا وإحدى عواصم برغواطة، قد كان بعد تقلص ظلمهم أنزل بها يعقوب المنصور الموحدى عرب جشم بن معاوية وسليم وبنى هلال بن عامر، وقد هلك أكثر هؤلاء بالأندلس فى واقعة الناصر الموحدى فى قضيه العقاب، فقل عددهم ووقع الفراغ المحسوس فى وطنهم، فلما كانت دولة بنى مرين عمد يعقوب ابن عبد الخالق لنقل طوائف من أهل المغرب الأوسط لما غلب على بنى زيان واستولى على جنوب بلادهم إلى جنوب الزاب، فكان ممن نقلهم لضواحي آنفا قبيلة المذاكرة من عرب سويد الهلالين إخوة رباح، ومن المذاكرة قبيلة صبيح كان منهم فى دولة بنى مرين الوزراء وأرباب الدولة، ونقل معهم أوزاعا من توجين ومزاب من زناتة ومغراوة من زناتة أيضا، وأشغلهم بالقيام على إبل الدولة وشائها، فأطلق عليهم اسم الشاوية وذلك سنة ست وسبعين وستمائة وجعلوا مقر رياستهم مدينة آنفا، فلم يلبسوا أن خالفوا على الدولة وقطعوا السابلة وأساءوا الجوار مع غيرهم، فزحف إليهم أبو ثابت بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى سنة سبع وسبعمائة فأرغمهم على الطاعة وقبض على ستين رجلا من شيوخهم وأودعهم سجن قصبة آنفا، وقطع رؤوس عشرين من عتاتهم قاطمى السبيل وصلبهم على أسوار آنفا .



باشا الدار البيضاء بويكرابن بوزيد على ظهر الباخرة أسيرا

وفى سنة ست وسبعين وستمئة نزل عليها أسطول البرتغاليين فهد أسوارها
وخرب أبنيتها وصيرها أثرًا بعد عين وذهب لحال سبيله، ثم نزل إليها سنة عشرين
وتسعمائة فأسس بناءها وسماها بلغته الدار البيضاء، وكان اسمها فى القديم
البيضاء كما ذكره أبو عبيد.

ولم يزلوا بها إلى أن أخرجهم منها السلطان سيدى محمد بن عبد الله سنة
أربع وخمسين ومائة وألف، وعمرها بقبائل الشاوية أهل الناحية، ولم يزل للملوك
دولتنا من حفدته وبنيه اهتمام بها وبنظائرها من الثغور المغربية وحياطتها شرعا
وسياسة إلى الدولة العزيرية.

ولنذكر لك جزئيات على سبيل التمثيل ليقاس عليها.

فمن اهتمامها أى الدولة العزيرية بحياطتها لو وجدت على ذلك أعوانا
وأكفاء ما وقفت عليه فى ظواهر عديدة دونك لفظ أولها بعد الحمدلة والصلاة
والطالع العزيرى الشريف.

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء، وفقكم الله، وسلام عليكم
ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر الأمين الطالب عبد السلام والزهاء الرباطى بأن
المهراسين الذين بالبرج اليزيدى أحدهما ملقى على الأرض والأخر بمحل الإشارة
خارج البرج على سرير مكسر، وكانت له طبلتان تلاشى فراشهما واندثر بناؤهما
بإهمالهما وتراكم الأزبال حولهما من النوائل والبناءات، وعليه فنأمركم بالوقوف
على عين المحل الذى به مهراز الإشارة وتنظيفه وتصوينه وردد لحالته القديمة
وتجديد سرير المهراسين كما كانا بما يحتاج إليه ورد البال لذلك فى المستقبل، وقد
أمرنا العامل بالوقوف معكم وشد العضد فى ذلك والسلام فى ١٧ جمادى الثانية
عام ١٣٢٥».

ونص ثانيها:

«خدامنا الأرضيين أمناء مرسى الدار البيضاء حرسها الله، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد بلغ لعلنا الشريف أن محل ترسية الفلائك بتلك المرسى مفتقر للتحسين و الإصلاح، وأن صائر حصول المقصود من ذلك قوم بنحو سبعة آلاف فرنك وعليه فنأمركم أن تشرعوا فى إصلاح ذلك بما تحسن به هيئته من الصفات المرادة والسلام فى ٣٢ شوال الأبرك عام ١٣٢٥».

وينضاف إلى ما ذكر من حياطتها اهتمامها بحياطة الطرق والأطراف، ويكفى فى التنبيه فيه ظهيران شريفان وقفت عليهما دونك لفظهما بعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف :

«خدامنا الأرضيين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر القائد قاسم 'الأودى أن المئونة مقطوعة عن إدالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات من وقوع الحادثة هناك، وعليه فنأمركم أن تبينوا ما توفر لهم من المئونة فى المدة التى لم يتوصلوا بها وتكونوا تؤدونها لهم على العادة والسلام فى ٥ قعدة عام ١٣٢٥».

«خدامنا الأرضيين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد أخبرنا القائد قاسم الأودى إدالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات يسألون للأمناء قبلكم من قبل مئونتهم واجب أربعة أشهر كما يسألون لكم واجب ستة أشهر دفعتم لهم منها واجب شهر واحد وعليه فنأمركم أن تدفعوا لهم ما يسألونه لكم وللأمناء قبلكم من قبل ذلك والسلام فى ٢٢ حجة الحرام عام ١٣٢٥».

ونص آخر بعد الحمدة والصلاة:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر القائد إدريس بن العربى الأودى أن إدالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات يسألون من قبل مئونتهم المنفذة لهم بالمرسى هنا كم واجب عشرة شهور وقد لحقهم الضرر من ذلك وعليه فنأمركم أن تبنوا الواقع فى ذلك وذمة من توفرت لهم هذه المدة وقدر ما توفر لهم فيها والسبب فى عدم تمكينهم منها لئرى فى ذلك السلام فى ٣٢ حمادى الأولى عام ١٣٢٦».

وكذا اهتمامها بضبط الصادر والوارد الذى يكفى فى التنبيه عليه ظهيران شريفان وقفت عليهما ودونك لفظهما بعد الحمدة والصلاة والطابع السلطانى:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد طلب من على جنابنا الفريلية الصبنيوليون إتمام الإنعام عليهم بعد بحث حوائجهم الخاصة بهم المسرح لهم دخولها بدون أعشار واستظهروا بظواهر شريفة لأسلافنا الكرام مصرحة بعدم فتح صناديقهم التى ترد لهم، وقد ساعدناهم على طلبهم ونأمركم أن تجروا حوائجهم مجرى حوائج القناصل فى دخولها من غير فتح ولا تفتيش والسلام فى ٢١ حجة عام ١٣٢٥».

لفظ الثانى:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فالسلاح الذى تسرحون إدخاله للمرسى على مقتضى ضابطه نأمركم بأن تكونوا تقبضون من صاحبة ما يلزمه فى أعشاره بحسب عشرة فى المائة، لأن مضمن ما يأتى به إليكم من طنجة هو التسريح فقط لا إسقاط الأعشار، والسلام فى ٢٢ ربيع الثانى عام ١٣٢٦».

ومن اهتمامها بالملاجئ الخيرية فيها وأمر المسجونين ما وقفت عليه فى ظهائر شريفة عزيزة نص أولها:

نأمر خديمنا الأرضى ناظر أحباس الولى الصالح سيدى أبى الليوث بحروس ثغر الدار البيضاء أن يكون يدفع الأجرة المتعارفة للمعلمين الذين يختانون الصبيان اليتامى وأولاد الضعفاء بالزاوية القادرية هنالك، وأن يكسوهم بما يناسب حالهم كل عام وقت الاختتان من فتوحات الولى المذكور والسلام فى ٨ ربيع الثانى عام ١٣١٦ .

ونص الثانى:

«خديمنا الأرضى ناظر الشيخ أبى الليوث بحروسة ثغر الدار البيضاء، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد بلغ علمنا الشريف أن المرضى من الأفاقين وأهل البلد الذين لا مأوى لهم يمرضون فى الطرقات وينقلون لبيوت خارج المدينة ويبقون هنالك حتى يموتوا جوعا وعطشا، وقد اقتضى نظرنا الشريف جمعهم بالبيوت التى قرب ضريح الشيخ المذكور، فنأمرك أن تجمعهم فيها وتخص الرجال بيوت منها والنساء بيوت منها كذلك بعد أن تصلح ما لا بد من إصلاحه منها وتزيد ما يتوقفون عليه من البيوت وتكون تدفع لكل مريض خبزتين أو ثمنهما فى كل يوم، ومن توفى منهم يقوم بتجهيزه ناظر المواريث، ومن حصلت له العافية بتوجه لحاله وتسقط مئنته، ومن زاد تزايد له مئنة أمثاله، وهكذا وقد أمرنا الخديم أحمد المديونى بالوقوف فى ذلك وشد العضد فيه حتى ينفذ شريف أمرنا على مقتضاه، والسلام فى ٦ قعدة عام ١٣١٨» .

ونص الثالث:

«خديمنا الأرضى ناظر أبى الليوث وأحباس الدار البيضاء الطالب إدريس

الفيلالى وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد وصل جوابك عما أمرت به من تنفيذ الخبز للمرضى والأفقيين وجعل البيوت لهم، بأنك نفذت ترتيب الخبز لهم من مستفاد الضريح المذكور غير أن العامل أطلعك على كتاب شريف بأن الصائر يكون من ربيعة الشيخ مع أن الربيعة تفتح على يد أمناء المرسى والقاضى ويفرق ما يوجد فيها، فالثلث على الضعفاء القاطنين بجوار الشيخ، والباقي يصير فى ختان اليتامى وأبناء الضعفاء، وتعين عليك أن تصير على المرضى بما تحت يدك من المستفاد مبادرة لامثال ما أمرناك به والعمل على ما يصدر لك فى المستقبل، وعليه فإن الذى يكون عليه عملك هو أن الصائر يكون ثلثاه من وفر الأحباس الكبرى، والثلث الواحد هو الذى يكمل من فتوحات الولى المذكور، وما عداه من بقية الفتوحات ينفذ فى مصالحه ووظائفه المعهودة فيه، فليجر عملك عليه، وقد كتبنا للقاضى والأمناء والعامل بمثله، والسلام فى ١٥ قعدة عام ١٣١٩.

ونص الرابع:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله ثم الطابع الشريف بداخله عبد الحفيظ بن الحسن وفقه الله.

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فنأمرك بتنفيذ عدد الخبز الذى كان يدفعه أمين المستفاد كل يوم للأفقيين الذين بسجن البلد بعد تسرادهم مرتين فى كل شهر، وصير ذلك من جملة صوائر الأحباس، وقد كتب لعامل البلد بذلك، والسلام فى ٢٨ محرم عام ١٣٢٩ استقل».

ونص الخامس:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة ونقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

فقد أخبرنا باشادور الفرنسي أن المقبرة المعدة لدفن الأجانب هنالك ضاقت عليهم وطلب زيادة بقعة أخرى بجوار المقبرة المذكورة وبمحل آخر يكون طولها خمسين مترا وعرضها كذلك ليجعلوه مقبرة لذلك، وقد ساعدنا ونأمركم أن تجتمعوا مع عمنا مولاي الأمين وأمين المستفاد والناظر وتتفاوضوا في تعيين بقعة هنالك تصلح لما ذكر في مجاورة المقبرة القديمة أو بمحل آخر وتبينوا قدرها وتوجهوا لشريف حضرتنا صورتها ليظهر، وقد كتبنا لعمنا المذكور والخدام المذكورين بمثله، والسلام في ١١ قعدة ١٣٢٥».

ونص السادس:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس ثغر الدار البيضاء المحروسة، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر باشادور الفرنسي أن المقبرة المعدة لدفن الأجانب هنالك ضاقت عليهم وطلب زيادة بقعة أخرى بجوار المقبرة المذكورة أو بمحل آخر، يكون طولها خمسين مترا وعرضها كذلك ليجعلوها مقبرة كذلك، وقد ساعدنا ونأمركم أن تجتمع مع عمنا الأرضى مولاي الأمين والخدام المديونى وأمناء المرسى وأمين المستفاد وتتفاوضوا في تعيين بقعة هنالك تصلح لما ذكر في مجاورة المقبرة القديمة أو بمحل آخر، وتبينوا قدرها وتوجهوا لشريف حضرتنا صورتها ليظهر، وقد كتبنا لعمنا المذكور والخدام المذكورين بمثله، والسلام في ١١ قعدة عام ١٣٢٥».

ونص السابع:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله، وفقكم الله،
وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: وصل جوابكم عن أمرنا الشريف الصادر لكم
بالاجتماع مع عمنا الأمين والخديم المديونى وأمين المستفاد والناظر للمفاوضة فى
تعيين البقعة التى طلب باشادور الفرنسيس زيادتها لدفن موتى الأجانب بها بجوار
مقبرتهم القديمة ثمة، بأنكم اجتمعتم لذلك وبعد المفاوضة خرجتم لتعيينها صحبة
القبطان نائب الفرنسيس ثمة وترجمان قنصلهم، فاختاروا البقعة التى سميت ونفذ
لهم القدر المطلوب منها وميزوه وشرعوا فى الدفن فيه وصار بالبال والسلام فى ٢٦
صفر عام ١٣٢٦».

ومن اهتمامها بالتعليم ونشر العلم ما وقفت عليه فى ظهائر تتعلق بنصب
المدرسين وتنفيذ الرواتب لهم وللخطباء دونك نص أحدها:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء حرسها الله، وفقك الله،
وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن تنفذ للطالبين المدرسين الواردين
ل هناك من فاس بقصد التدريس وبث العلم دارا من دور الأحباس لنزولهما
وعشرين ريالاً للواحد من مدخول الأحباس فى كل شهر حتى تكمل مدتهما وهى
سنة واحدة ليعين بدلها عند انقضائها بحول الله على يد قاضى فاس والسلام فى
١٦ جمادى الأولى عام ١٣٢٦».

ونص الثانى:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء المحروسة بالله الطالب إدريس
الفيلالى وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد أصدرنا أمرنا الشريف
لقاضى فاس بتعيين فقيهين مدرسين وتوجيههما على يد خليفة العامل ثمة واصلين

للثغر المذكور بقصد بث العلم ونشره وتدرسه به والتمشى على الضابط المبين بطرته، وأمرنا أمناء دار عدیل لتوجهه لهم من وفر الأحباس المذكورة بعد بيانه، وعليه فنأمرك أن توجه لهم ما يدفعونه لهما فى ذلك عند تبیینهم ذلك لك بفور وصوله إليك على يد العامل ثمة ليوجهه لهم بواسطة خليفة عامل فاس، فقد أمرناهما به كما نأمرك أن تعين لهما محلا مناسبا لهما للنزول وتنفيذ لهما المئونة التى تحصل لهما للكفاية بها من الأحباس بعد إعلام جانبنا العالى بالله بقدرها والسلام فى ١٣ صفر عام ١٣١٦».

والضابط المشار له هو ما لفظه فى أول النهار نصاب فى المختصر بما يناسب المبتدئين، ومن الساعة العاشرة إلى الزوال نصاب فى التحفة كذلك، ومن الظهر إلى العصر نصاب فى النحو بالألفية، وبين العشاءين نصاب فى الرسالة أو المرشد، وفى بكرة الخميس أو الجمعة نصاب بالجرومية لصغار المتعلمين. انتهى.

ونص الثالث:

«نأمر ناظر الأحباس بالدار البيضاء حرسها الله أن يكون يدفع من مستفادها آخر كل شهر لكل واحد من الفقيهين السيد محمد بن الطاهر بنانى، والسيد محمد بن محمد الصنهاجى ثلاثين ريالاً فى مرتبه الشهرى إعانة له على تدريس العلم الشريف بها والسلام، صدر به أمرنا المعتز بالله فى عشرى رجب الفرد الحرام عام ١٣١٦».

ونص الرابع:

«خديمتنا الأرضى ناظر الأحباس بمحروس ثغر الدار البيضاء، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد أمرنا بإبدال الفقيهين المدرسين هنالك السيد محمد بنانى، والسيد محمد الصنهاجى، ونأمرك أن تدفع لكل منهما خمسين ريالاً من وفر الأحباس صلة، والسلام فى ٢٥ رجب عام ١٣١٨».

ومن اهتمامها بضبط أحباسها ما وقفت عليه في عدة ظواهر تتعلق بضبط أملاك أحباسها والإسراع لتدارك إصلاح ما يفتقر للإصلاح من رباعها وضبط المتصرفين فيها ورفع حساباتها دونك لفظ أولها:

«خديمنا الأرضي ناظر الأحباس بالدار البيضاء حرسها الله، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن تجعل تقييداً لجمع رباع الحبس الذي على يدك هنالك كل محل على حدته، وتقييد ما بإزائه اسم مكتره وإن كان رعية فنبه عليه، وإن كان حماية فكذلك واذكر اسم حاميه، وإن كان أجنبيا فبين اسمه وجنسه، وقيد أمام اسم المكترى الكراء الذي يدفعه في ضلع وما يساويه اليوم كراء في ضلع آخر، ومن كان متقاعدا عن الأداء نبه عليه وبين سبب تقاعده، ثم قيد عقب ذلك المنفذ منها بدون كراء وببد من هو، وهل يعتمره المنفذ له أو يكرهه على يده، وهكذا إلى أن تأتي على جميعها على الوجه المذكور، ووجه التقييد بها واصلا لحضرتنا الشريفة والسلام في ٢٨ جمادى الأولى عام ١٣١٥».

ونص الخامس:

بإمضاء النائب أبي عبد الله محمد بن العربي الطريس:

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله، محبنا الأرضي ناظر أحباس الدار البيضاء: أمنكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فقد دعت الحاجة لمعرفة الأجانب وأهل الحمایات المتقاعدين على أملاك الأحباس هنا كم الممتنعين من إعطاء الواجب عليهم فيها، وعليه فبوصول هذا إليكم بينوا لنا كل من بيده ملك لجانب الحبس وهو متقاعد عليه ممتنع من أداء كرائه مع بيان قدر الكراء الذي يساويه كراؤه الآن، وعجلوا بذلك وعلى المحبة والسلام في ١٠ رمضان المعظم عام ١٣٢٤ محمد بن العربي الطريس لطف الله به».

ونص السادس:

بعد الحمدلة وما يتبعها من السلام والطابع السلطاني العزيزى الكريم:

«خديمنا الأرضى ناظر الأحباس بالدار البيضاء حرسها الله، وفقكم الله،
وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن تشرع فى إصلاح ما لا بد منه من
رباع الأحباس المتهدمة والمتخربة لما تقدم وقوعه هنالك وتتمشى على الضابط الممهد
فى إصلاحها بعد تقديم الأهم فالأهم منها، ومراعاة المصلحة فى كل شيء، وقد
أمرنا العامل بشد عضدك فيه وللسلام فى ١٣ قعدة الحرام عام ١٣٢٥».

ونص السابع:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء، وفقك الله، وسلام عليك
ورحمة الله، وبعد: فنأمرك أن توجه لشريف حضرتنا العالية بالله حساب مدة
خدمتك بالأحباس المذكورة داخلا وخارجا مبنيًا على آخر محاسبة صدر بها أمرنا
الشريف إن كانت، وإلا فمن يوم تصرفك إلى تاريخه مع بيان القدر الموفر الذى
تحت يدك، كما نأمرك بأن تكون توجه لشريف أعتابنا عند استهلال المحرم من كل
سنة نسخة من الحساب داخلا وخارجا مفصلا بكناش خاص والسلام فى ١٧ صفر
عام ١٣٢٣».

ومن اهتمامها بالتجارة والعدل فيها من غير مراعاة الجنسية ما وقفت عليه
من ظواهر تعيين بقعة لنشر التجار الأجنيين ما يشترونه من الجلود فيها، وظهير
إنشاء بنك مغربى، وظهيرى إنشاء البوسطة، وظهير إنشاء المعاملة بالواردين
ودونك نصوصها على التابع، فلفظ الأول:

«خدامنا الأرضين، أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة، وفقكم الله،
وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فقد كان طلب تجار الأجناس بذلك

الثغر البياضوى المحوط تعين بقعة لغسل الجلود ونشرها هنالك، وكنا أصدرنا شريف أمرنا لكم وللعامل والناظر للمفاوضة فى تعيين محل يصلح لذلك من محلات المخزن أو الأحباس، ويكون التجار يؤدون كراءه، ثم جدد الآن باشادور الألمان طلب تجاره ذلك، وعليه فنأمركم أن تجتمعوا مع خدامنا العامل وأمين المستفاد وناظر الأحباس وتتفاوضوا فى تعيين بقعة لما ذكر مما لا ضرر فيه على المخزن ولا على أهل البلد بعد اتفاقكم مع التجار عليها وعلى قدر الكراء الذى يؤديه التجار فيه، وتعلمونا بذلك وقد أمرنا الخدام المذكورين بمثل، والسلام فى ٢٨ قعدة عام ١٣٢٥».

ولفظ الثانى:

«خديمنا الأرضى ناظر الأحباس بالدار البيضاء المحروسة، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد أخبر نائب الألمان بأن التجار هنالك لما طولبوا بعدم نشر الجلود فى المحل الذى ينشرونها به حرصا على تنظيف البلد احتاجوا لمحل آخر ينشرونها به وطلبوا تعيين محل بحومة السور الجديد هنالك لذلك، وقد أجب بكون بقعة السور الجديد حوطها المخزن لغرض مهم ولا يمكن استعمالها فيما طلبوه، وأن أمرنا الشريف صدر بتعيين محل يصاح لما طلبوه وعند اختياره يحوطه ناظر الحبس ويكون التجار الذين ينشرون فيه يؤدون كراءه للحبس، وعليه فنأمرك أن تجتمع مع خديمنا القائد بو بكر بن بو زيد وأمناء المرسى والمستفاد وتتفاوضوا فى تعيين محل مناسب لما طلبوه كالمحل الذى لجانب الحبس قبالة باب الرخى الفاصل عن محل الخزائن التى ستبنى للتاجر لام أو غيره، وإن يكن خارج البلد فهو أولى، ثم بعد اختياركم للمحل اللائق تشرع فى تحويطه ويمكن التجار منه ويطالبون بأداء الكراء عنه للحبس، وقد كتبنا للعامل والأمناء بمثله، ولتعلم بالمال فى ذلك، والسلام فى ١٨ رجب عام ١٣٢٤».

ولفظ الثالث:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس الدار البيضاء المحروسة، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد كان طلب تجار الأجناس بذلك، الثغر البيضاوى المحوط تعيين بقعة لغسل الجلود ونشرها هنالك، وكنا أصدرنا شريف أمرنا لك وللعامل وأمناء المرسى بالمفاوضة فى تعيين محل يصلح لذلك من محلات المخزن أو الأحباس، ويكون التجار يؤدون كراءه، ثم جدد الآن باشادور الألمان طلب تجارهم ذلك، وعليه فنأمرك أن تجتمع مع خدامنا العامل وأمناء المرسى وأمين المستفاد، وتتفاوضوا فى تعيين بقعة لما ذكر مما لا ضرر فيه على المخزن ولا على أهل البلد بعد اتفاقكم مع التجار عليها وعلى قدر الكراء الذى يؤديه التجار فيها وتعلمنا بذلك، وقد أمرنا الخدام المذكورين بمثله والسلام فى ٢٨ قعدة عام ١٣٢٥».

ولفظ الرابع:

«محبتنا الأعز الأرضى الأمين السيد إدريس الفيلالى، أمنك الله، وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فلا يخفى أن من جملة ما تضمنه وفق المؤتمر الدولى تأسس بنك بالمغرب يسمى بالبنك المخزنى مؤلفا رأس ماله من بانكات الدول الذين حضر أعضاؤهم لجمع المؤتمر المذكور، وحيث لم يكن بهذه الدولة الشريفة بنك حالى يتولى دفع ما نابه فى رأس مال البنك المخزنى من السهم المغربى، أنعم سيدنا أيده الله على بعض أعيان تجار رعيته السعيدة ليتولوا دفعه ويكون لهم السهم بالبنك المخزنى، ويستمدون نفعه على قاعدة أرباب السهام بالأبنك وليس من مقتضيات السياسة الوقتية والمصلحة الراجعة لجانب المخزن والرعية تسليم السهم المغربى لبقية الدول والإعراض عنه بالكلية، وقد رشح أيده الله للنيابة عن أرباب السهم المغربى بالبنك المذكور الأمين الحاج إدريس بن

جلون، وتوجه لما هو بصده من ذلك العمل بطنجة ملتزما بواجب السهم المغربى ودفع ربه حالا، وحيث كنت من جملة المقسط عليهم السهم المذكور فى أمرك مولانا أيد الله بمجرد وصول هذا إليك أن توجه للأمين المذكور وأجبك فى ربع السهم وقدره خمسون ابرة سكة الفرنك يجب فرنك ١٢٥٠ وينفس ما يعلمك بتوجيه الربع الثانى وجهه له من غير تأخير، وهكذا إلى أن تكمل له وأجبك فى ذلك وقدره مائتا ابرة، وما توجهه له من ذلك يكون يجيبك عنه بالتوصل وحلوله محله ليكون جوابه حجة لديك كما تكون مصارفتك معه فيما ينوبك من الربح فى ذلك وعلى المحبة، والسلام فى ١٢ حجة الحرام عام ١٣٢٤ محمد التازى».

ولفظ الخامس:

«خديمنا الأرضى ناظر أحباس ثغر الدار البيضاء المحروس بالله، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فلإن سفير الفرنسيس بشريف أعتابنا أخير بأنهم توقفوا على محل متسع لترتيب بوسطاهم هناك به وطلب جعل تأويل معهم فى محل المخزن المعروف بأروى الأمانة ثمة إما بالكراء أو غيره ليجعلوه محلا للبوسة، وعليه فنأمرك أن تقف مع خدامنا أمانة المرسى وأمين الاستفادة ثمة على عين المحل المذكور، وتخطوا صورته على حالته الآن وتوجهوها لشريف حضرنا وتبينوا قدر مساحته وقدر كرائه الآن وما يساويه من الكراء بعد أن يبنى على كيفية البوسطى وقدر ما يصير على بنائه ليظهر، وقد كتبنا لخديمنا المذكورين بمثله والسلام، فى شوال عام ١٣٢٥».

ولفظ السابع:

«الفقيه الأرضى السيد أحمد بن سودة سددك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد اقتضى نظرنا الشريف تأسيس ضابط لعقد المعاملات التى تكون بين تجار الأجناس وبين المشترين منهم بالواردين على وجه يرتفع به الضرر عن

الجانبن، وهو أن لا يبيعوا لأحد شيئاً بـ (الوردن) إلا بشهادة عدول ثقات يعينهم القاضى لذلك بكل بلد، بحيث لا يشهدون إلا بإذنه مع إذن العامل لذلك على شرط أن يكون المشتري ملياً وأن يضمه أربعة من أهل خطته، ومن لم تكن بيده هذه الشهادة العدلية بإذنه وإذن العامل وبهذين الشرطين وادعى على أحد بشيء فلا تقبل دعواه ولا شيء له، نعم من أراد أن يبيع لأحد شيئاً بدون هذين الشرطين بعد تقريرهما له وطلب من القاضى والعامل الإشهاد فقط من غير ضمان ولا ثبوت ملاء فيشهد عليه أولئك العدول أنه رضى ذمة ذلك المشتري بعد أن علم أنه ليس بملى وليس له ضامن وأنه منه إليه ولا يدعى بدعوى فيه إن تعذر له شيء عنده بخسارة أو عدم أو نحو ذلك، وكذلك يكون هذا الضابط بعينه فى المخالطات التى تكون بغير الواردين من سائر المعاملات، وعليه فنأمر أن تحضر مع الباشا حين يستدعيك لتأسيس هذا الضابط المذكور عند ظهور أحد من تجار الأجناس هناك بقصد إرادة المعاملة مع الناس بالواردين أو بغيرهما، وتحضروا تجار مكناش حرسها الله من مسلمين ويهود وعراف الحرف وتقرروا لهم أمره، وتعين أربعة من ثقات العدول وصدورهم وتبين أسماءهم لوصيفنا الباشا المذكور، وتقرر عليهم الإشهاد بما ذكر بعد أن تشترط عليهم أن يستأذنوك فى كل شهادة، وكذلك الباشا لتكون على الشرط المذكور والضابط المحصور وتحذر من عداهم من الإقدام على الإشهاد لشيء من ذلك ومن خالف منهم تلزمه العقوبة الشديدة، وخذ فى ذاك بالجزم ورد البال والتيقظ وعدم التساهل، لأن العدول فى عهدتك وقد كتبنا للباشا بهذا وأكدنا عليه فى الوقوف عنده والاحتياط فيه والمضى معك على مقتضاه، والسلام فى ٢٣ صفر عام ١٣١٣هـ.

ومن اهتمامها بضبط ماليتها ما تقدم من ضبط أمنائها والمراقبين عليها ما وقفت عليه فى ظهيرى تعيين أجور الأميين والعدلين وظهير توجيه حسابات مستفادات المرسى كل أسبوع، ودونك لفظ الأول بعد الحمدلة والصلاة والطابع السلطانى:

«خديمينا الأرضين أميني الموضوع بمرسى الدار البيضاء المحروسة بالله وفقكما الله، سلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فنأمركما أن تكونا تقتصران في أجرتكما على مائتي ريال ثنية مشاهرة لكل منكما وفي أجرة العاملين معكما على مائة ريال مفردة مشاهرة لكل واحد منهما وذلك من شهر تاريخه، والسلام في ٧ صفر عام ١٣٢٦».

ونص الثاني:

بعد الحمد له والصلاة والطابع المنيف:

«خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فلأجل مصلحة تخفيف صوائر المرسى من حيث هي: اقتضى نظرنا الشريف أن يكون قدر راتبكم الشهري وراتب العدول معكم مائتي ريال بالثنية وعشرين ريالاً للأمين الأفاقي معكم، ونصفها وهو مائة ريال وعشرة ريال للعدل الأفاقي معكم، ومائة وخمسون ريالاً للأمين البلدي منكم، ونصفها وهو خمسة وسبعون ريالاً للعدل البلدي معكم، وعليه فنأمركم بأن يكون عملكم في تصيير الرواتب المذكورة على مقتضى ما ذكر ولشبتوا نسخة من كتابنا هذا بمحله من كناش ضابط خدمة المرسى ليطمئن عليه الأمناء بعدكم، والسلام في ١٧ صفر الخير عام ١٣٢٦».

ولفظ الثالث:

بعد الحمد لله والصلاة والطابع السلطاني:

«خدامنا الأرضين أمناء موضوع مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد: وصل كتابكم بمحصل الأسبوع المغيا بسابع شهره وصار بالبال زكاه الله ونماه والسلام في ٢٣ جمادى الثانية عام ١٣٢٦».

فهذه جملة يعتبر بها غيرها استطردها تنبيها على أن أمراءنا كان لهم الشغف بضبط ما ولوا عليه لو أسعدهم الدهر بولاة أهل كفاءة واقتدار مثل صاحب الترجمة .

البيعة الحفيظية:

ولم يزل أمر الدولة ينحل، ونظامها يختل، إلى أن قام بعض رؤساء من أعيان القبائل الحوزية يدبر فى رتق ذلك الفتق عسى أن ترجع المياه لمجاريها، فأداه اجتهاده إلى أن ذلك لا يتم إلا بجمع الكلمة على مبايعة الخليفة السلطاني الذي كان بين أظهرهم بالحضرة المراكشية فى ذلك الحين وهو المولى عبد الحفيظ لحزمه ونجدته ونباهته وتيقظه وعلمه، فأعلنوا بنصره وخلع أخيه المولى عبد العزيز بمراكش صبيحة يوم الجمعة سادس رجب عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، وفى ذلك قال الأديب السيد عبد الله التادلى الرباطى مؤرخا:

قد بدا عبد الحفيظ المرتضى ملكا ما مثله قبل ملك
سأل الإقبال ما تاريخه قلت يا إقبال (بشر بالملك)

١٢٠٢، ١٢٣

١٣٢٥

وأسباب الخلع والبيعة مبنية فى صك بيعتهم التى وقعت بعد أخذ فتوى العلماء فى المخلوع وكفاءته وتلت بيعة مراكش بيعة الجديدة وآسفى، إلا أنهما أعيدتا بعد لطاعة المخلوع .

ولما قدم المخلوع للرباط بنية استرجاع طاعة مراكش إليه أعلن بخلعه أيضا بفاس يوم الجمعة ثانى وعشرى قعدة الحرام عام خمسة وعشرين المذكور بعد استفتاء العلماء فى شأنه وإفنائهم بوجوب عزله ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ومن



السلطان السابق مولانا عبد الحفيظ

الغد ببيع بها للمولى عبد الحفيظ بعد هرج ومرج تركت لغيرى تفصيله، وكان ذلك على شروط مندمجة فى عقد البيعة وهى من إنشاء أبى العباس أحمد بن عبد الواحد بن المواز صدر الكتاب وواسطة عقدهم ودونك لفظها:

الحمد لله الذى جعل كلمة الحق هى العليا، وأرشد المؤمنين من عباده لاتباع مقتضياتها أمرا ونهيًا، وفضل الأمة المحمدية على سائر الملل والأجناس كما فضل آل بيته الكريم على الناس، وشرف هذا الوجود بمن يرقيه الله من خيارهم منصب الخلافة، فيتبع فى الشريعة والعدل والسياسة سنة جده، ويقتفى فى ذلك الكرام أسلافه، تصديقها لقوله ﷺ ولاية أهل بيتى، أمان لأمتى.

نحمده سبحانه أن تفضل على المسلمين بالهداية لقبلة الرشاد، والتمسك بحبل التوفيق والإسعاد، والعدول عن مواضع الزيغ والتفريط والعناد، ونشكره أن هدى خاصة الأمة وعامتها لتقليد من يوفى بالعهود الشرعية، ويقوم بحفظ الدين ومصالح الرعية.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى يؤتى الحكمة من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الشفيح فى أمته يوم يتميز القاسطون من المقسطين، والحافظون للأمانة من المفرطين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اجتهدوا فى كشف غياهب الضلال، وكانوا يميلون مع الحق حيث مال، ولا يحابون من يتساهل فى أحكام الشريعة بحال.

أما بعد: فإنه لما أراد الله تعالى أن يزيح ليل الجهالة عن عباده، وأن يجدد الدين بمن يطلعه شمساً فى أرضه وبلاده، ليعود عز الإسلام لشبابه، ويبقى استناد الإمارة العلية إلى سنته وكتابه، وتعلقها من الشرع بأسبابه، تدارك سبحانه

الوجود، وأعز العالم الموجود، واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنجود، بمبايعة من يُعيد الله به شمس الخلافة إلى برج شرفها، ويرد به نقطة العدل والحلم إلى مركزها، ويحيى به أثر الخلفاء الراشدين، ومكارم الأسلاف الكرام المهتدين، وهو من حاز من الأوصاف الكاملة غايتها، وبلغ من المزايا الجسيمة نهايتها، فاكتمت العلم لباسا، والشجاعة أتراسا، واتخذ العلم أساسا، والحلم شعارا، والكرم دثارا، والدين قواما، والسياسة الشرعية نظاما، مولانا أمير المؤمنين ابن مولانا أمير المؤمنين الذى جعله الله خير آية ناسخة، وأثبت له فى الكمالات قدما راسخة، نخبة الخلافة العلوية، وجوهرة عقد المملكة الإسلامية، المتفائل باسمه، فى حفظ الإسلام ورسمه، أبو المعالى مولانا عبد الحفيظ بن مولانا الامام المقدس بالله سيدنا الحسن ابن ساداتنا الملوك الكرام، المقدسين فى دار السلام، لما ألقى الله له فى قلوب الخلائق من الحب الجميل، والاعتقاد الذى هو بنصرة الدين كفيل فحبذا من إمام تهتز لذكره أعطاف المناير، وتتقلد من شريف دعوته بأبهى من نفيس الجواهر، وتستضىئ البلاد بإكليل شرفه الزاهر، وتسكن العابد تحت ظله التويد الوافر، أبقى الله أيامه، بقاء يستصحب النصر دوامه وخلد له ولأعقابه هذا الأمر الكريم إلى يوم القيامة، فانتدب من وقفت بهم مطية التوفيق، على حضرة الإخلاص والتصديق، وأخذت بهم أزمة السعادة إلى حيث الفوز برضا الله ورسوله حقيق، من جميع أهل فاس الإدريسية، لا زالت مصونة محمية، وسائر أشرافهم ورماتهم وعلمائهم وقضاتهم وكبرائهم ونقبائهم ومرابطيهم وصلحائهم وأعيانهم وخاصتهم وعامتهم وكذلك أهل فاس الجديد، لشمول التوفيق لهم والتسديد، على تقليد الجمع بيعة مولانا أمير المؤمنين المذكور، المختص بالسعد الباهر واللواء المنصور بيعة تؤسس على تقوى من الله ورضوان، ويشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمان.

فبايعوه كلهم على الأمن والأمانة، والعفاف والديانة والعدل الذى يشيد

للمجدار كانه، مبايعة شائعة على عقدها الكريم بحكم الوفاق، وعموم الاتفاق،
والمواثيق الشديدة الوثاق، وبجميع الأيمان، الصادقة الإيمان، أعطوا بها صفقة
أيديهم، ورفع العقيرة بها مناديتهم.

ونذبوا إليها سائر القبائل التي بنواحيهم، عارفين أن يد الله فوق أيديهم
وأَمْضَاهَا الكُلَّ المجموعى والجميعى على السمع والطاعة، والانتظام فى سلك
الجماعة إمضاء يدينون به فى الجهر والسر، والعسر واليسر، والتزموها رغبة منهم
وطوعا، واستوعبوا شروطها أصلا وفرعا، وجنسا ونوعا، خالصة صادقة وعدة
من الله بالخير لهم سابقة، وسعادة بالحسنى لاحقة، أبرءوا عقدها، وأحكموا
عهدا، وعرضوا عليها أفرادا وأزواجا، وزمرا وأفواجا، وناداهم داعى السعادة
إعلانا، لقوله تعالى «فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا».

وكيف لا وهو المتصف بالكفاية الشرعية التى بينت فى كتب الفقه بأن يكون
مهتديا إلى مصالح الأمور وضبطا، ذا نجدة فى تجهيز الجيوش وسد الثغور، وذا
رأى مصيب فى النصر للمسلمين، لا تروعه هواده النفس عن التكنيل لمستوجبى
الحدود. انتهى.

فقد جعله الله زمام الأمور ونظام الحقوق والقطب الذى عليه مدار الدنيا
وهو حمى الله فى بلاده، وظله الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم وينصر
مظلومهم وينقمع ظالمهم ويأمنُ خائفهم قال تعالى:

الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف .
الآية، وقال أبو هريرة رضى الله عنه: «لما نزلت آية أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم قد أمرنا بطاعة الأئمة وطاعتهم من طاعة الله»، وفى الحديث
عن مولانا على كرم الله وجهه: «إمام عادل خير من مطر وابل» وفى الحديث
السلطان ظل الله فى الأرض ورمحه، وفى الحديث من أجل سلطان الله أجله الله

وفى الحديث المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وفى الحديث: «إن الله لينزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وسئل سهل أى الناس خير؟ فقال: السلطان، لأن لله فى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال الناس، ونظرة إلى سلامة أبنائهم فيطلع فى صحيفته فيغفر له ذنوبه

وفى السراج ليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبيٌ مرسل أو ملك مقرب.

وقالت الحكماء: أسوس الناس برعيته من قاد أبدانها بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها ولا غرو أن مولانا أمير المؤمنين، الذى انتظمت بيعته فى أعناق المسلمين، أجل من صدقت فيه ظنونهم ونياتهم، وتوجهت إليه آمالهم وأمنياتهم، ومدت له الرعية أزمعتها، وقدمت إليه الوفود أعتتها، راجين من شريف همته، وكريم عنايته، أن يلبسهم رداء نعمته. وينزلهم ظل كرامته، ويعمهم بسيرة المعدلة، ويشملهم بالحلم والفضل والرحمة المكملة، ويسعى جهده فى رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة فى الخزيرات، حيث لم توافق الأمة عليها ولا سلمتها ولا رضيت بأمانة من كان يباشرها ولا علم لها بتسليم شىء منها وأن يعمل وسعه فى استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية وأن يباشر إخراج الجنس المحتل من المدينتين اللتين احتل بهما ويزين صحيفته الطاهرة بحسنة استخلاصهما، وأن يستخير الله فى تطهير رعيته من دنس الحمايات والتنزيه من اتباع إشارة الأجانب فى أمور الأمة، لمحاشاة همته الشريفة عن كل ما يخل بالحرمة.

وإن دعت الضرورة إلى اتحاد أو تعاقد فليكن مع إخواننا المسلمين كآل عثمان وأمثالهم من بقية الممالك الإسلامية المستقلة، وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب فى أمور سلمية أو تجارية فلا يرم أمرا منها، إلا بعد الصدع به للأمة، كما كان يفعله سيدنا المقدس الحافظ للذمة، حتى يقع الرضا منا بما لا يقدح فى دينها ولا عقائدها ولا فى استقلال سلطانها.

وأن يوجه أيده الله وجهته الشريفة لاتخاذ وسائل الاستعداد، للمدافعة عن البلاد والعباد، لأنها أهم ما تصرف فيه الدخائر والجبايات، وأوجب ما يقدم فى البدايات والنهايات، وأن يقر بفضل العيون والنفوس، برفع ضرر المكوس، ويحقق رجاء خدامه وكافة رعاياه بالذب عن حرمااتهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم وصيانة دينهم وحيطة حقوقهم، وتجديد معالم الإسلام وشعائره بزيادة نشر العلم، وتقويم الوظائف والمساجد، وإجراء الأحباس على عملها القديم، وانتخاب أهل الصلاح والمروءة والورع للمناصب الدينية.

وكف العمال عن الدخول فى الخطط الشرعية، وترك ما أحدث من الجمع المستلزم لاستبداد الرؤساء بتنفيذ مراداتهم فى القضايا والأغراض لما تحقق والحمد لله من كمال أوصاف مولانا الإمام، واعتماد المسلمين على كفايته فى الأمر الخاص والعام.

فهو أيده الله العضب الكافى، ورأيه العلاج الشافى، وما يقتضيه حسن سيرته وكمال وفائه جميل الصنع بشريف القرابة وتقريب الصالحين، واعتبار مقادير الأشراف وأهل العلم والدين وإقرار ذوى الحرمة على ما عهد لهم من المبرات والاحترام، وظهائر الملوك الكرام، وإبعاد الطالحين، وإخساء المفترين والواشين، ومعاملة المؤمنين، بما تعودوه منه من أسلافه المقدسين، من إثارة العفو والحلم والأناة. وتجديد مآثر الخير فى حالة العز والثبات وحسن الظن بسيدنا أيده الله حمل أهل مملكته الشريفة المتيمين بكريم بيعته المنيفة على أن صدعوا لجلالته بما أثرت فيه مضرتة، عالمين أنهم لا يكشف ما بهم إلا عناية مولانا المنصور وهمته، ومستسلمين مع ذلك إلى الله بالقلوب الخاشعة، ومبتهلين بالأدعية النافعة، أن يعرفهم الله خير هذا العقد الكريم بدءا وختاماً ويمنحهم بركته التى تصحبهم حالا ودواماً، لا رب غيره ولا خير إلا خيره، أشهدوا على أنفسهم بما فيه عنهم عموماً

والواضعون أشكالهم عقبه خصوصا وهم عارفون قدره وأكملة وفى فاتح ذى
الحجة الحرام عام خمسة وعشرون وثلاثمائة وألف.

ولما خرج المولى عبد العزيز المخلوع إلى إرجاع مراکش لطاعته انكسر ورجع
إلى الدار البيضاء، فبايعت طنجة أخاه المذكور يوم الأحد ٢٤ رجب ١٣٢٦ ثم
العرائش والعدوتان سلا، والرباط - وكانت بيعتهما فى يوم الثلاثاء ٢٦ رجب
المذكور - ثم الجديدة وآزمور يوم ٢٨ منه ثم الصويرة يوم الأربعاء ١٢ شعبان عامه
وهكذا.

وكانت هذه البيعات مبعث ارتياح واستبشار من الناس بسلطانهم الجديد
العالم فطفقوا يتفاءلون باسمه ويرجون أن يكون له من اسمه نسبة فتحفظ البلاد
من أرزاء التفكك والانحلال، ويعود لها ما انتقص من أطرافها، وقال الشعراء فى
ذلك مظهرين شعور الأمة فكان من جملة ما قيل قول الأديب الكبير السيد أحمد
ابن قاسم جسوس:

بشرى الخلائق لا تزال تزيد	هذا زمان كل أنه عيد
ذهب العناء جميعه وتتابع	زمر الهناء بسيطها ومديد
والبشر باد والسرور موفر	والأنس يبدى ما يشا ويعيد
وهى قصيدة من غرر منشآته.	

وقد حققت الأيام بعض ما كانوا يرجون على يديه، فقبض على أبى حمارة
كما تقدم تفصيل ذلك قريبا، ولجسوس المذكور قطعة فى ذلك يقول منها:

لله من نبأ غدت أفراحه	تترى لدينا بالنعيم الطيب
نبأ الشقى المارق القدم الذى	كم شب من نار بقطر المغرب

نبأ الخبيث أبى حمارة والذي هو فى المنابت لم يكن بالطيب
أشقى الورى فى عصره وقداره وغروره بتمرد وتوثب
ولكن الفتق كان فوق قدرة الراقى فرغما عن هذا كله لم يزل الأمر ينحل،
والرعية تتجراً وتتمرد، إلى أن كان مما لست أذكره.

هذا بعض مما حدث بموت المترجم أحمد بن موسى .

ولو تتبعنا الأحداث التى وقعت بموته وتفاصيلها لاحتجنا لمجلدات،
وبالجملة فترجمة هذا الرجل طويلة الذيل، بعيدة النيل، ما أجدرها بأن تفرد
بالتأليف ولبعض الشاميين نزلاء المغرب فيه تصنيف سماه «الشجر البسام» فى مآثر
الوزير «أحمد بن موسى الهمام» فى مجلد وسط أتى على تفاصيل من أحوله
وسياسته ومزاياه وترجم لعدة من علماء المغرب بفاس والرباط .

٧٤ - أحمد أبو العباس ابن الحاج عبد القادر بن علال العرائشى المكناسى
النشأة والدار والإقبار.

حاله : له معرفة بالفقه والنحو والفرائض، ومهارة تامة فى الحساب والتوقيت
والتعديل، ومعرفة الطوابع وأحكام النجوم والأوقاف والرمل، تولى خطة الكتابة
مع شيخه العلامة الحاج المختار بن عبد الله، ثم الأمانة على أمراس خزن الحبوب
والزيوت المولوية التى تجبى من أعشار الإيالة المغربية ثم الكتابة مع محتسب مكناس
الحاج محمد بن العربى أجانا، ثم انسلخ عن ذلك كله وأقبل على تدريس الحساب
والتوقيت والتعديل، ودرس القلصادى، ومنية ابن غازى، والمقنع وروضة الأزهار،
وعمل الربع المجيب، والرسالة الستينية فى الضرب، والقسمة، وتسهيل الطالب،
ومنهاج ابن البناء، وابن العاشر، والجرومية، والألفية وغير ذلك فنفع الله به
أقواما .

٧٤ - من مصادر ترجمته : إتحاف المطالع فى موسوعة أعلام المغرب ٨ / ٢٨٢٤

مشيخته: اخذ عن العلامة الحاج المختار مختصر خليل والألفية، وعلى غيره من هو فى طبقته من أعلام وقته، وأخذ التعديل والحساب والتوقيت وغير ذلك عن موقت مكناس السيد الجيلالى^(١) الرّحالى، وعن ميقاتى فاس السيد إدريس الحبابى، وبه كان كامل إنتفاعه.

الآخزون عنه: أخذ عنه الأستاذ المعدل أبو محمد عبد القادر بن المعطى دعى الصبيح بالتصغير، والوجيه الميقاتى الطالب العلمى بن رحال والعدل الفقيه ابو على الحسن المنونى، والطالب مصطفى بن موسى وخلق.

وفاته: توفى رحمه الله فى ذى الحجة عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف ودفن بالزاوية الناصرية من الحضرة المكناسية.

٧٥ - أحمد بن الطالب بن سودة المرّى.

قاضىها أبو العباس، وسودة بفتح السين وسكون الواو كما فى شرح القاموس، وضم السين هو الجارى على الألسنة.

حاله: كان أعجوبة الدهر، وفريد العصر، فقيها مشاركا بحرا لا يدرك له ساحل، جبلا راسخا فى العلم والإتقان والتحرير والتعبير، عزيز المماثل، فارس مقدمة الفنون، محيط بعنوان تراجمها وأبواب وأسرار سرها المصون، عارفا بمعانيها وبديع محاسنها مع بيان ما انطوت عليه من فصيح الكلام وبليغة، من غير تنافر ولا مخالفة قياس فى تأديته وتبليغه، حسن الإلقاء والتعبير، لا تكدر قاموس إملأته دلاء الباحثين، جهبذ حلال، بعيد الشأو فى تحرير عويص المسائل.

تولى نيابة قضاء مكناسة الزيتون بطلب من أخيه قاضىها أبى عيسى المهدي حسبما وقفت على جواب الوزير إذ ذاك للقاضى المذكور بإسعاف رغبته ونصه بعد الحمدلة:

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من إتخاف المطالع فى الموسوعة ٢٧٨٩/٨.

٧٥ - من مصادر ترجمته: إتخاف المطالع ٢٨٣٣/٨ فى موسوعة أعلام المغرب.

«محبتنا الأرضي، العلامة الأخطي، السيد المهدي بن سودة، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فقد أنهينا لمولانا أيده الله ما ذكرت لنا في شأن ما أردت من إستنابة أخيك الفقيه السيد أحمد فيما يكون من الدعاوى الصغار، فأذن لك في ذلك أثمر الله غرسه والسلام، في رابع رجب الفرد عام خمسة وسبعين ومائتين وألف محمد الصفار وفقه الله».

ثم تولى خطة القضاء بآزمور مؤقتا عام خسة وثمانين ومائتين وألف على عهد السلطان سيدي محمد، ودونك نص ظهير توليته بعد الحمدلة والصلاة والطابع السلطاني المحمدي:

«أحباؤنا أهل آزمور كافة أعانكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فإننا قلدنا الفقيه السيد أحمد بن سودة خطة القضاء بذلك الثغر السعيد على سبيل قضاء الحاجة مدة محدودة، وأياما معدودة، وأمرنا بفصل الخصوم، ومطالعة الرسوم، والحكم بمشهور مذهب الإمام مالك، أو بما به العمل سالكا في ذلك أوضح المسالك، فعليه بتقوى الله العظيم ومراقبته، في سره وعلانية، وعليكم بالسمع والطاعة، وتنفيذ جهده قدر الاستطاعة، والله ولي التوفيق، والهادي إلى سواء الطريق، والسلام في متمم رجب الفرد عام خمسة وثمانين ومائتين وألف».

ثم طلب الإعفاء بواسطة الحاجب السلطاني إذ ذاك موسى بن أحمد فأسعف السلطان رغبته، وقفت على جواب الحاجب المذكور له عن طلبه ولفظه بعد الحمدلة والصلاة:

«محبتنا الفقيه العلامة القاضي أبا العباس سيدي أحمد بن الطالب بن سودة سلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد: فقد وصلنا كتابك مجددا العهد بنا وسائلا عن أحوالنا، فأنا سائل عنك كذلك ونطلب الله أن يسلك

بنا وبكم أحسن المسالك، وعلمنا أنك تتشفع لنا بمولانا نصره الله فى نقذك مما كلفت به لأنك أتيت على الأمر المحدود وطالبا أن تكون من العلماء الناشرين للعلم بالقرويين إذ هو الأسلم لدينك والأزكى لدنياك، ومستغيثا أن تحشر فى زمرة ورثة الأنبياء لا زمرة القضاة، فقد أنهينا ذلك لمولانا نصرة الله وسر الله فى قضاء الغرض، وكتب مولانا أيدى الله لنجلى وخليفته الأسعد مولانا الحسن حفظه الله بأن ينظر من مراكش فقيها يصلح للغرض المذكور، وقد توجه له كتاب سيدنا أعزه الله بذلك وعلى محبتكم وطالب صالح دعائكم، والسلام فى رابع قعدة عام ١٢٨٥، موسى بن احمد لطف الله به».

ثم عين فى جملة من عين من الأعلام للتوجه لطنجة بقصد فصل قضايا الأجانب مع الأهالى.

ثم فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف ولى قضاء ثغر طنجة فى ثانى ربيع الثانى حسبما يظهر توليته ودونك لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ثم الطابع السلطانى الشريف بداخله الحسن بن محمد ولىه ومولاه:

يعلم من كتابنا هذا أسماء الله وأعز أمره، وجعل فيما يرضيه سبحانه لفه ونشره، أننا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومته، ولينا خطة القضاء بشجر طنجة المحروس بعناية الله الفقيه الأجل الأرضى السيد أحمد بن سودة لما علمناه فيه من الجِد والتحرى والوقوف فى حقوق العباد، واتباع طريق الرشاد، وأسندنا له النظر فى فصل الخصوم، وتصفح الرسوم والحكم بمشهور مذهب الإمام مالك، رضى الله عنه أو ما به العمل، فنعهد إليه أن يراقب الله تعالى فى ذلك، وأن يسلك فيه أحسن لمسالك، وأن يقوم بأمره فى حق المشروف والشريف، والقوى والضعيف،

فنسأل الله أن يسدده ويوفقه لما فيه رضاه أمين، والسلام فى ثانى ربيع الثانى عام ١٢٩٢هـ.

ثم فى ثالث قعدة الحرام عام ثلاثة وتسعين - بتقديم المثناة على السين - ومائتين وألف أسند إليه النظر فى جميع القبائل المضافة لطنجة وفوض له فى قضاة باديتها بالتولية والعزل، ودونك نص الظهير الصادر له بذلك:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، ثم الطابع الشريف بداخله الحسن بن محمد بن عبد الرحمن، الله وليه وبداثرته:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد فى آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الورى شرفا الله حافظه من كل متقم
يتعرف من كتابنا هذا أسمى الله قدره، وأعز أمره، وجعل فيما يرضيه
سبحانه لفه ونشره، أننا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومته.

ولينا الفقيه السيد أحمد بن الطالب ابن سودة خطة القضاء بطنجة حرسها
الله وبجميع القبائل المضافة إليها المحسوبة من عمالتها، وأذنا له فى تصفح
الرسوم، والفصل بنى الخصوم، والحكم من مذهب الإمام مالك بالمشهور أو ما به
العمل عند الجمهور.

وفى تفقد أحوال قضاة بادية العمالة المذكورة، وعزل من لم يصلح منهم،
وتولية من يصلح فعليه بتقوى الله ومراقبته، والتحرى جهد استطاعته، وليتذكر ما
ورد فى حق أهل العدل من الوعد بالثواب والجنة، وفى حق أهل الجور من الوعيد
بالعقاب والمحنة، وقوله عليه الصلاة والسلام قاضيان فى النار وقاض فى الجنة،
ويعلم أن الله تعالى يراه، وأن جميع أحكامه تعرض عليه فى أخراه، ونطلب الله
أن يسدده ويوفقه لما يحبه ويرضاه.

والسلام فى ٣ ثالث قعدة الحرام عام ١٢٩٣ .

ثم ولى ضياء مكناسة الزيتون والخطابة بجامع قصبته السلطانية عام أربعة وتسعين ومائتين وألف، وفق ما بظهير توليته ونصه بعد الحمدلة^(١) والصلاة والطابع السلطانى الحسنى:

يعلم من كتابنا هذا الراقى فى أوج اليمن والسعادة قدره، النافذ بعزة الله فى البسيطة نهيه وأمره، أننا بقوة الله وحوله، ومته وطوله، ولينا الفقيه الأرضى السيد أحمد بن الطالب ابن سودة خطة القضاء بمكناسة الزيتون وزهون، وأذنا له فى تصفح الرسوم، وفصل الخصوم، والحكم بينهم من مذهب الإمام مالك بالمشهور، أو بما جرى به العمل عند الجمهور فعليه بتقوى الله ومراقبته، والتحرى جهد استطاعته، وليتذكر وعدا منجزا ووعيدا، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود له أن بينها وبينه أمدا بعيدا، ويعلم أن الله تعالى سائله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، ونطلب الله تعالى أن يوفقه لما يحبه ويرضاه.

والسلام فى عاشر رمضان عام أربعة وتسعين ومائتين وألف.

وأسند له تولية النظر فى محاسبة نظار جبل زهون ومكناس وقفت على إقرار السلطان المولى عبد العزيز له على ذلك، ودونك لفظه بعد الحمدلة والصلاة والطابع السلطانى:

أقرنا بحول الله وقوته ماسكه الفقيه الأرضى القاضى السيد أحمد ابن سودة على ما تضمنه كتاب سيدنا المقدس الذى بيده من الإذن له فى محاسبة كافة نظار مساجد مداشر زهون على نسق محاسبته مساجد مكناس ومسطرتها عندهم إقرارا تاما، وفى خامس عشرى صفر الخير عام اثنى عشرة وثلاثمائة وألف.

(١) حمدل: قال: الحمد لله.

كما كان تولى قبل ذلك الخطابة بضريح الإمام الأشهر، مولانا إدريس الأزهر، وبقيت بيده إلى أن لبي داعى مولاه ثم صارت لولده من بعده إلى الحين الحالى .

ورحل المترجم إلى الحج عام سبعة وستين ومائتين وألف على عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فى رفقة أنجاله المذكورين فى ترجمة أخيه القاضى أبى عيسى المهدي رحمه الله فحج وزار، ولقى فطاحل مشايخ تلك الديار، ودخل مصر والإسكندرية وتونس وأفاد واستفاد .

مشيخته: أخذ بفاس عن أخويه الحاج المهدي، والحاج عمر، وعن الشيخ الطالب ابن الحاج، والقاضى ابن كيران، والشيخ بدر الدين الحمومى والفقيه الكردودى، والفقيه ابن عبد الرحمن، وسيدى عبد السلام بو غالب وغيرهم .

وبمكة عن الحافظ العارف أبى عبد الله محمد بن على السنوسى الجغبوبى الطرابلسى .

وبالإسكندرية عن الشيخ مصطفى ابن محمد الكبابطى الجزائرى المتوفى بالإسكندرية سنة ثمان وستين ومائتين وألف .

وبتونس الشيخ محمد بن أحمد النيفر وأجازه الثلاثة الآخرون عامة وغيرهم .

الآخذون عنه: أخذ عنه جل بل كل شيوخ العلم بمحروسة فاس ومكناس وغيرهما من بلاد المغرب كشيخنا أبى عيسى المهدي الوزانى العسرانى مفتى الديار الفاسية، وشيخنا العلامة أبى العباس أحمد بن المأمون الشريف البلغيثى قاضى مكناسة الحالى، وشيخنا الناقد الخير أبى العباس أحمد بن الجيلالى^(١) الفيلالى الأمغارى ومن فى طبقاتهم، وشيخنا العلامة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» .

الشریف الطاهرى المکناسى قاضى مکناسة سابقا انتفع به كثيرا، وكان یخصه بدروس بداره کما أخبرنى لذاک قدس الله ثراه شفاهیا، وشيحننا الفقیه العلامة السید الحاج المختار بن عبد الله، وحبنا المعقولى الناظم الناصر الغالى بن المکى الستیسى، وشيحننا ابى عبد الله محمد بن الحسین العرائشى، ووالدنا روح الله روحه، وخلق.

تألیفه: منها حاشیة على صحیح البخارى حکى لى غیر واحد من شیوخى أنها فى أعلى طبقة من النفاسة والتحریر، وتحریر المقال، وشرح على الشمائل، وحاشیة على المنطق لم تکمل، وشرح على الهمزية إلى قوله لیته خصنى برؤية وجه، وختمته لصحیح البخارى وغیر ذلك.

ومن بدیع ما وقفت علیه من استنباطاته ما نقلته من خطه على هامش رحلة العیاشى لما تکلم على تاریخ أخذ السلطان سلیم مصر: قد رام بعض الناس استخراج دولة سیدنا ومولانا وإمامنا المنعم علینا بكل طارف وتلید مولانا الحسن أبقى الله فخره وعلاه، من حدیث: «لا تزال طائفة من أمتى»... إلخ فاستخرج من ذلك ما تمجده الأسماع، ففكرت فى ذلك فألفت على طائفة من أمتى هو عدد دولة الحسن ابنى وبنیه بعد فانتظم الحدیث هكذا: لا تزال دولة الحسن ابنى وبنیه بعد ظاهرين على الحق... إلخ، ولما أطلعتة أعزه الله ونصره على ذلك أثابنى علیه بعطية سنیه لها بال، كثر الله خیره وأدام عزه ونصره ومتعنى والمسلمین بطول حیاته آمین، وذلك فى شوال عام ١٣٠٥ .

ومن مفاداته أيضا الدالة على عنايته بالتقید ما لفظه ومن خطة نقلت:

الحمد لله الذى استقر علیه عمل سیدنا ومولانا أمير المؤمنین، مدة تنیف على العشر سنین، فى سرده لصحیح الإمام البخارى فى الثلاثة الأشهر أنه یقرأه فى ستة وثلاثین نصابا، وبيان أول كل نصاب هكذا، ١ بدء الوحى ٢ الوضوء ٣

التيتم ٤ المواقيت ٥ الصف الأول ٦ أبواب العيدين ٧ فضل الصلاة بمسجد مكة ٨
الزكاة ٩ سقاية الحاج ١٠ فضائل المدينة ١١ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ١٢
كتاب الشرك ١٣ الهبة للولد ١٤ وابتلوا اليتامى ١٥ الجهاد بإذن الأبوين ١٦ بدء
الخلق ١٧ ولقد آتينا لقمان الحكمة ١٨ مناقب عثمان ١٩ هجرة النبي ﷺ ٢٠
غزوة الحديبية ٢١ حديث كعب بن مالك ٢٢ سورة الأنعام ٢٣ سورة لقمان ٢٤
سورة والشمس وضحاها ٢٥ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ٢٦ رهزى اليك بجذع
النخلة ٢٧ الرقى بالقرآن ٢٨ الأدب ٢٩ أحب الأسماء إلى الله ٣٠ الوضوء عند
الدعاء ٣١ الأيمان والنذور ٣٢ فمن لم يستطع منكم طولا ٣٣ تعبير الرؤيا بعد
صلاة الصبح ٣٤ كتاب التمني ٣٥ عالم الغيب والشهادة ٣٦ والله خلقكم وما
تعلمون.

ولادته: وجدت بخطه أنه ولد ليلة الثلاثاء تاسع عشرى رجب عام واحد
وأربعين ومائتين وألف:

وفاته: فى بفاس عن خطته اثر شروق شمس صبيحة يوم الجمعة فى الساعة
السابعة عاشر رجب عام واحد وعشرون وثلاثمائة وألف، ودفن بعد العصر من
يومه بزاوية الشراذى قبالة درب الدرج^(١) من فاس.

٧٦ - أحمد بن إدريس الخطايبى أبو العباس الم رابط الزرهونى.

من زاوية مولانا إدريس.

حاله: فقيه ماجد، تولى نيابة القضاء بزاوية زرهون عن أبى عباس بن سودة
المرجّم قبله يليه واستمر على نيابته إلى أن توفى عنها.

مشيخته: أخذ عن جمع من شيوخ فاس، وسمع البخارى على العلامة
سيدى الفضل الحسنى الشيبهى بزرهون.

(١) فى المطبوع: الدروج، والمثبت من ترجمته فى الموسوعة.

وفاته توفى ببلدة ليلة يوم الأربعاء الخامس أو السادس من جمادى الثانية عام
ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف .

٧٧ - أحمد بن الفاطمي بن محمد بن محمد بن النقيب مولاى عبد القادر
الشريف الإدريسي الشيبهى .

من زاوية زرهون .

حاله : نشأ فى عفاف وصيانة، ومهر فى علم الحساب، وله معرفة بالهيئة
والتعديل والتنجيم والجدول والأسماء حسبما ذلك بخط ولده المولى محمد، تولى
رياسة فن الحساب فى وقته، وأكب فى آخر عمره على العبادة والتلاوة والأذكار،
والتهجد فى الأسحار، والاعتكاف وملازمة الزاوية الدرقاوية والمسجد الجامع ولم
يزل على ذلك إلى أن لبي داعى مولاه .

مشيخته: أخذ عن الشيخ عبد الله ابن الخياط العطار شهر بـ«اسى الخياط»
وعن الإمام النظار شيخ الجماعة بفاس سيدى محمد بن عبد الرحمن الفيلالى
الحجرتى، وأبى العباس أحمد بن محمد المرينسى، وسيدى أحمد بنانى، وسيدى
عبد السلام بو غالب، وسيدى محمد بن حمدون بن الحاج السلمى المرداسى ومن
فى طبقتهم من شيوخ فاس وقاداته، وكان يحضر دروس أخيه العلامة مولاى
الفضيل، وأخذ الطريقة الدرقاوية عن سيدى مالك بن خدة دفين الزاوية .

الآخذون عنه: أخذ عنه علم الحساب ولده سيدى محمد، وجماعة من طلبة
الزاوية الإدريسية

ولادته: كانت ولادته قبل ولادة أخيه سيدى الفضيل بثلاثة أعوام، وذلك
أواسط العشرة الخامسة من المائة الثالثة بعد الألف .

وفاته: توفى رحمه الله بفاس القرويين سادس عشرى قعد، الحرام عام أربعة

وعشرين وثلاثمائة وألف، ودفن بروضة بنونة بسيدى على بو غالب، رضى الله عنه وأرضاه

٧٨ - أحمد بن محمد بن عزوز أبو العباس.

حاله: كان فقيها وجيها عدلا مبرزاً موثقاً فرضياً حيسوبياً ماهراً، له معرفة حسنة بالنوازل، ويحفظ التحفة ولامية الزقاق حفظاً متقناً، من أجل الناس وأتقاهم، يقصده وجهاء بلده وغيرهم فى مهمات إسهاداتهم.

مشيخته: أخذ عن السيد الحاج المهدي بن سودة، وأخيه الحاج احمد، والحاج مبارك، وابن الجيلالى^(١) السقاط، والمفضل ابن عزوز، والسيد المختار الأجرأوى ومن فى طبقتهم من جلة الشيوخ.

وفاته: توفى فى ربيع الثانى عام ثلاثة وعشرون وثلاثمائة وألف ودفن بالزاوية الجيلالية من بلدة مكناسة الزيتون.

٧٩ - أحمد بن شيخ الجماعة فى وقته بمكناس السيد مبارك بن عبد الله السلجلماسى.

حاله: كان فقيها عالماً نحرياً أستاذاً، رحل إلى درعة واستوطنها واستفاد فيها وأفاد.

مشيخته: أخذ عن والده وغيره ممن فى طبقتهم من الشيوخ، يروى عن والده دلائل الخيرات، وهو يرويه عن أبى حفص عمر بن المكى الشرقاوى عن شمهروش الجنى، عن مؤلفه ابن سليمان وبالسند إلى شمهروش عن النبى ﷺ يروى: اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً بقدر عظمة ذاتك فى كل وقت وحين، وأن مرة واحدة منها تعدل بستمائة فدية من النار. انتهى. أجاز له والده عامة.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من ترجمته فى إتحاف المطالع فى الموسوعة

الآخذون عنه: منهم صديقنا المؤرخ الناقد السيد عبد الحفيظ بن الطاهر الفاسى أنه أجازته عامة.

وفاته توفى بدرعة عام خمسة وعشرين وثلاثمائة ألف.

٨٠ - أحمد بن الحاج رحال البخارى.

حاله: لين العريكة رقيق الطبع حسن الخلق والخلق مزحه جد مشتغل بما يعنيه عدل رضى وجيه نزيه، حىي نبيه فقيه، مجود تال ذاكر خاشع ناسك، محب فى آل بيت الرسول، لا يفارق نبهاء أعيانهم حتى كان يعتقد من لا يعرفه أنه شريف النسبة، تولى خطة العدالة عام سبعين ومائتين والف وكان يقرئ الصبيان، وينوب عن أمين أمناء الحضرة المولوية المكناسية السيد بوعزة بن العربى الفشار فى خطة أبى المواريث وغيرها، نسخ بخط يده كتابا عديدة، وكان له إلمام بالحساب والتوقيت، أخبرنى ولده العدل الرضى السيد العلمى أنه أخبره أنهم من ذرية ولى الله سيدى عبد القادر المدعو بوالكرينات - بالكاف المعقوده دفن دار ام السلطان وأحاله فى رفع نسبهم إليه على عمه شقيق المترجم الأستاذ السيد عياد، ومع الأسف فإنه لم يلق بالا للسؤال عن ذلك، وفات استدراك تحقيق ذلك بموت الوالد وشقيقه.

مشيخته: أخذ عن شيخ جماعة القراء فى وقته بالحضرة المكناسية الأستاذ السيد اليزيد والعدل البركه السيد ابن يشو البخارى وغيرهم.

الآخذون عنه: منهم ابن عمنا العلامة الأصيل مولاي إدريس ابن السلطان مولانا سليمان المترجم فيما يأتى كان يكتب له كل يوم نصف حزب من القرآن فى لوحه ويكرر معه كذلك خمسه أحزاب مياومة بضريح سيدى محمد الغمارى المترجم فى المحمدين.

وفاته: توفى أواخر شوال الأبرك سنة تسه وعشرين وثلاثمائة وألف ودفن
بوسعة ضريح سيدى عمرو الحصينى رضى الله عنه .

٨١ - أحمد بن محمد بن المأمون بن هشام بن محمد بن عبد الله بن فخر
الملوك وجد سلاطين المغرب المولى إسماعيل .

حاله: كان وجيه نبيا حيا أريحا تاليا لكتاب الله ذا تودة وصوت حسن
مائلا إلى الأدب ماهرا فى الحساب ومعرفة أحكام الزناتى والرمل والجدول
ومخالطة فن التنجيم .

مشيخته: أخذ عن شيوخنا الجللة منهم السيد محمد القصرى، والسيد محمد
ابن الهادى الفيلىلى، وسيدى حسن بن اليزيد وشيخنا العرائشى، وعن السيد
فضول العرائشى موقت مسجد الضريح العلمى وغيرهم .

وفاته: توفى رحمه الله عام ثلاثين وثلاثمائة وألف ودفن بالضريح
الإسماعيلى .

٨٢ - أحمد بن الجيلالى^(١) الطهّارى .

من أهل الزاوية الإدريسية .

حاله: كان فقيها عدلا تولى نيابة القضاء ببلده مرتين ثم أعفى ومات فجأة
وذلك أنه صبيحة يوم وفاته خرج للتفسيح مع عياله فى بستان له بضواحي الزاوية
وظل به مع أهله فى أنس ونشاط وبعد أن تناول الغذاء معهم تقدمهم فى الرجوع
لمنزله فأدركته منيته فى الطريق فمات من حينه قبل وصوله لمنزله .

وفاته: توفى عشية يوم الخميس سادس عشرى رجب عام ثلاثة وثلاثين
وثلاثمائة وألف .

٨٢ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع فى الموسوعة ٢٨٨٨/٨ .

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من ترجمته فى إتحاف المطالع .

٨٣ - أحمد بن القائد محمد الشاذلى البخارى.

حاله: كان فقيها حيسوبيا ماهرا متضلعا فى جميع أنواعه وله المام تام بمهمات فن الهندسة وجهه السلطان سيدى محمد لقراءة الفنون المذكوره بحاضرة فاس.

مشيخته: أخذ عن الولى أحمد الصويرى المتوفى بمراكش عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف وعمن فى طبقته من المتضلعين المشار لهم فى الفن.

الآخذون عنه: منهم السيد محمد بن المدنى المكلف فى دور الدولة العزيرية بخزائن العدة والسيد محمد الرجراجى وغيرهما.

وفاته: توفى عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف بالحضرة المكناسية.

٨٤ - أحمد بن العالم - اسما - ابن عبد الله الشريف القادرى.

الرباطى النشأة والدار والوفاة.

حاله: كان علامة نقادا أدبيا نزيها وقورا حيا متواضعا ذا سكية وتؤدة بساما فى وجوه الطلبة، صدر لخطبة الشهادة أواخر المائة الثالثة عشرة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى، وكان من ذوى الوجاهة التامة مبجلا عند سائر قضاة بلده وحكامها وكافة أهاليها واستخدم خدمات سلطانية فى بعض البلدان كطنجة والعرائش والحديدية ومراكش ومكناسة الزيتون وكانت خدمته بمكناسة أواخر الدولة العزيرية ورحل لحج بيت الله الحرام، وزيارة روضة الحبيب الأعظم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، أواخر هذه المائة.

مشيخته: أخذ عن شيخ الجماعة برباط الفتح أبى إسحاق السيد إبراهيم التادلى المتوفى بعد غروب يوم الخميس لسبع عشرة خلت من ذى الحجة عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، ودفن بمحل درسه من دار سكناه رحمه الله تعالى ورضى عنه لازمه فى كثير من دروسه الفقهية والحديثية والعربية، وأخذ عن الفقيه المفتى

السيد الجليلي^(١) ابن إبراهيم الرباطي المتوفى فى أواسط جمادى الأولى عام ستة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وعن الفقيه الصوفى العلامة الشهير السيد الحاج عمر عاشور المتوفى فى ذى الحجة عام أربعة عشر وثلاثمائة وألف، وعن العلامة الأجل القاضى السيد على دنية الرباطي المتوفى عام ستة وعشرين وثلاثمائة و ألف.

تأليفه: منها شرح على المرشد المعين من مطولات الشروح أكثر فيه من النقول.

وفاته: توفى رحمه الله أواخر عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، ودفن بزاويتهم القادرية من رباط الفتح، أفادنى بجميع ما ذكر عنه بليديه العلامة النظار أبو حامد المكى البطاورى مكاتبه.

٨٥ - أحمد بن الصديق المعروف بالتواتى.

نسبه لتوات البلدة الشهيرة الشريف الحسنى العلوى.

حاله: شاب نشأ فى عبادة الله عالى الهمة ذو نفس آبية، وأخلاق نبوية مصطفىة، فقيه نبيه، علامة مشارك وجيه نزيه، ذو مروءة وديانة، وعفة وصيانة، رحل إلى الحج عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف، وهاجر لمدينة جده عليه الصلاة وأزكى التسليم، وطاب له بها المثوى، ودرس بمسجدها النبوى وأفاد واستفاد، لقيته أيام رحلتى لتلك الديار المشرفة وكان لى خير رفيق، وأجل صديق، مدة مقامى بالمدينة المنورة على مشرفها أفضل صلاة وأزكى سلام ما فارقتى ولا فارقتة مدة من ثلاثة أشهر كملا.

مشيخته: أخذ بمكناسة عن علمائها الجلة كشيخنا العرائشى، وشيخنا السوسى، وسيدى محمد الشيبهى وغيرهم.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الجيلانى» وصوابه من ترجمته فى إتحاف المطالع فى الموسوعة

وبفاس عن شيخنا العلامة الناسك السيد الفاطمي الشراذى حفظه الله
وغيره .

وبالمدينة المنورة عن عالمها ومسندها شيخنا السيد أحمد البرزنجي، وعن
شيخنا البركة القدوة سيدى محمد بن جعفر الكتانى أبقى الله وجوده، والعلامة
المحدث المفسر شيخنا الشيخ توفيق الأيوبى الأنصارى الشامى، وعن صديقنا
العلامة المفضل الشيخ عمر حمدان المحيرثى التونسى، وخلصنا الشيخ الزاهد الناسك
المعقولى عبد الباقي الهندى وغيرهم من فطاحل أهل العلم الجليلة .

الآخذون عنه : منهم الفقيه النجيب حسن الأخلاق محبنا فى ذات الله حمزة
التكريتى وجماعة .

وفاته : توفى بالأرض المقدسة دمشق الشام بعد خروج المجاورين بالمدينة
وغيرهم من أهاليها فى الحادثة الشهيرة التى تتفطر لها الأكباد .

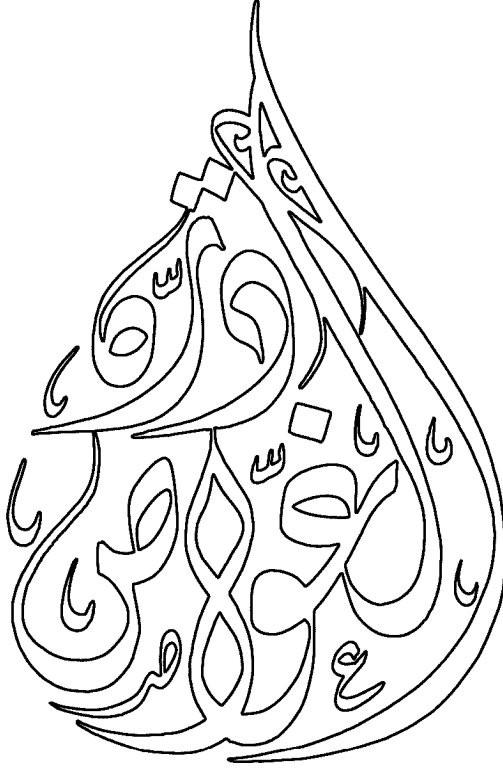
٨٦ - أحمد بن العربى بن الحنفى بن الطالب بن العربى بن الطالب الشريف
الحسنى العلوى الأمرانى يدعى صميم .

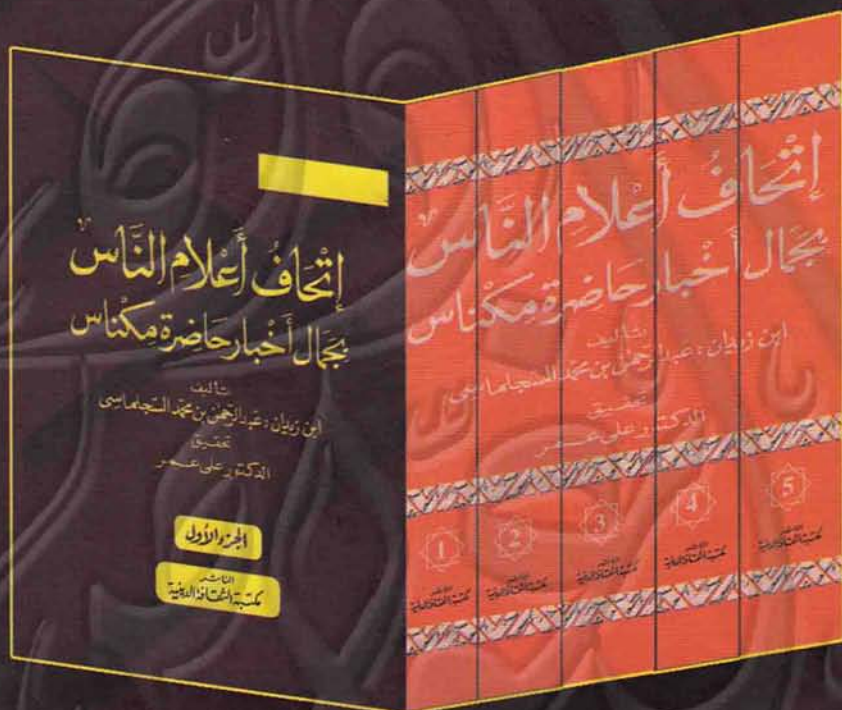
حاله : مجذوب مصطلم ساقط التكليف، ورد من بلدة تافيلات وهو بآتمه
وكان يتعاطى حرفة الدباغة فى أول أمره مشغلا بما يعنيه تاركاً لما لا يعنيه إلى أن
حل به ما حل فسار لا يكلم أحداً ولا يأوى إلى أحد، يسكن دكاناً خرباً متهدماً،
حدثنى غير واحد أنه كان يأتى لمن يبيع الخبز ويأخذ منه ما شاء من غير أن يؤدى
له ثمناً ولا يجد ذلك البائع نقصاً فى مدخوله، دام معه على ذلك أعواماً، وأنه
جاءه يوماً بعض أوباش الأخلاط وسار يهزأ به ويسخر منه وهو يطلب البعد منه
فلما لم يرعو رفع يده يهدده وأوماً لبطنه كأنه يريد أن يطعنه من غير أن يمسه،
فصاح ذلك المستهزئ وخر مغشياً فحمل لمحلّه فمات من حينه .

٨٦ - من مصادر ترجمته : موسوعة أعلام المغرب ٨ / ٢٩٣٠ .

وفاته: توفى عشية يوم الخميس عاشر ربيع الثانى عام واحد وأربعين
وثلاثمائة وألف، ودفن من الغد بالضريح الإسماعيلى بعد أن صلى عليه بالجامع
الأعظم بعد خطبة الجمعة، ولم يتخلف أحد من أهل الفضل والدين عن تشييع
جنازته رحمه الله رحمة واسعة.

تم الجزء الأول





الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١

فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر

E-mail: alsakafa_alDinaya@hotmail.com



الجزء والصفحة

- مقدمة هذه الطبعة ٥ / ١
- تصدير تواريخ المغرب ١٥ / ١
- مقدمة المؤلف ٢٥ / ١
- المقدمة فى علم التاريخ ومبادئه ٣١ / ١
- المطلب الأول فى مكناسة والقبيلة المؤسسة لها والبعد بينها وبين فاس وغير ذلك من الفوائد ٤٤ / ١
- فصل: وفيه الكلام على تازجا وقصر فرعون وخيبر وجبل زرهون والزاوية الإدريسية والفروق التى بين هذه المسميات وغير ذلك من الفوائد والاستطرادات كتعريف المجوسية والنصرانية ٥١ / ١
- فصل: وفيه الكلام على تاورا وأبى العمائر والعيون التى خارجه وعين تاكما ٧٧ / ١
- فصل: وفيه الكلام على قرية الأندلس وتلاجدوت ٨١ / ١
- فصل: وفيه الكلام على تاورا وحوائرهما وفواكهما وسكانها ويساتينها ٨٣ / ١
- فصل: وفيه الكلام على البربر وجبل درن وذى القرنين والدفاع عن البربر مما رموا به وذكر بعض مفاخرهم وما ورد فى فضل إفريقية ٨٩ / ١
- فصل: وفيه الكلام على ورزيغة والروم على اختلافهم وبحث فى الأسد والفهد والنمر ١٠٥ / ١
- فصل: وفيه الكلام على قصر ترزجين وتاجرات وبرج ليلة وسوق الغبار وقبور الشهداء وبحث يتعلق بمهدى الموحدين ١١٣ / ١
- فصل: وفيه الكلام على جامع مكناس الأكبر بأبوابه وذخائره التوقيتية وصفوفه وصومعته وخزائنه ومجلس القراء

الأسبوعى ويبحث فى الوطاسيين والتعريف بالصاعقة ثم
الكلام على مساجد مكناس والمعد منها للخطبة وصوامعها
وسقاياتها

١٢٣ / ١

فصل: فى حماماتها ودورها ودكاكينها وحرماتها وأرحاء مائها
وأفرانها وعدد سكانها

١٣٩ / ١

فصل: فى بناء قصبة مكناسة ومدرستيها وزاويتها وما شيده أو
أسسه أو جدده الملوك العلويون بها إلى الآن من قصبات
وأبواب وقناطر وأضرحة ومساجد وقصور وأجنة وبساتين
ومدارس ومكاتب وغير ذلك من الآثار ثم ذكر أبوابها من
عهد ابن غازى إلى الآن

١٤٢ / ١

المطلب الثانى: فى وصفها شعرا ونثرا بأقلام المتقدمين والمتأخرين
المطلب الثالث: فى تراجم السلاطين والأمراء والأعيان والعلماء
(حرف الألف)

٢٧٤ / ١

٣١٠ / ١

رقم الترجمة

٣١٠ / ١

١ - إبراهيم بن يحيى بن أبى حفاظ .

٣١٠ / ١

٢ - إبراهيم بن موسى المصمودى .

٣١١ / ١

٣ - إبراهيم بن عبد الكريم .

٣١١ / ١

٤ - إبراهيم بن أبى الفضل الحجرى .

٣١٢ / ١

٥ - إبراهيم بن عبد القادر الزرهونى .

٣١٢ / ١

٦ - إبراهيم بن عبد العزيز الخياطى .

٣١٣ / ١

٧ - إبراهيم بن القائد الطبيب .

٣١٣ / ١

٨ - مولاي أحمد الذهبى السلطان .

- علائقه السياسة ٣٤٤/١
- ٩ - أحمد بن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش . ٣٤٦/١
- ١٠ - أحمد بن عبد القادر زغبوش . ٣٤٦/١
- ١١ - أحمد بن عميرة المخزومي . ٣٤٧/١
- ١٢ - أحمد بن علي الزرهوني . ٣٥٣/١
- ١٣ - أحمد بن محمد البكري . ٣٥٤/١
- ١٤ - أحمد الشبلي . ٣٥٤/١
- ١٥ - أحمد بن عبد الرحمن اليفرنى . ٣٥٥/١
- ١٦ - أحمد بن العربي الغمارى . ٣٥٥/١
- ١٧ - أحمد بن عاشر . ٣٥٦/١
- ١٨ - أحمد بن عبد المنان . ٣٦٣/١
- ١٩ - أحمد بن سعيد الحباك . ٣٦٦/١
- ٢٠ - أحمد بن سعيد المكناسي يكنى أبا العباس . ٣٦٨/١
- ٢١ - أحمد بن محمد الحباك المكناسي . ٣٦٨/١
- ٢٢ - أحمد بن محمد بن غازى . ٣٦٩/١
- ٢٣ - أحمد الشبيه . ٣٧٠/١
- ٢٤ - أحمد بن بن ميمون المسطاسي . ٣٧١/١
- ٢٥ - أحمد بن أحمد بن أبى العافية . ٣٧١/١
- ٢٦ - أحمد بن علي المنجور . ٣٧٢/١
- ٢٧ - أحمد بن عمر الحارثي السفينى . ٣٧٥/١
- ٢٨ - أحمد بن إبراهيم الجنان . ٣٧٦/١
- ٢٩ - أحمد بن سعيد المجلدى . ٣٧٩/١

- ٣٠- أحمد الغماز . ٣٨٠ / ١
- ٣١- أحمد بن عمر الحصيني . ٣٨٠ / ١
- ٣٢- أحمد الزناتي الشهير بابن القاضي . ٣٨١ / ١
- ٣٣- أحمد بن بلعيد بن خضراء . ٣٨٤ / ١
- ٣٤- أحمد بن عبد القادر التاستاوتي . ٣٨٤ / ١
- ٣٥- أحمد الخضر زغبوش . ٣٩٠ / ١
- ٣٦- أحمد بن محمد بصرى . ٣٩٢ / ١
- ٣٧- أحمد بن ناجي القاضي . ٣٩٢ / ١
- ٣٨- أحمد بن محمد العربي الغمارى . ٣٩٤ / ١
- ٣٩- أحمد بن يعقوب الولاىلى . ٣٩٥ / ١
- ٤٠- أحمد بن أبى يعزى . ٣٩٦ / ١
- ٤١- أحمد الصيقال . ٣٩٦ / ١
- ٤٢- أحمد الشدادى . ٣٩٦ / ١
- ٤٣- أحمد بن عزو . ٣٩٨ / ١
- ٤٤- أحمد الخزميرى . ٣٩٨ / ١
- ٤٥- أحمد بن سعيد السوسى . ٣٩٨ / ١
- ٤٦- أحمد بن مومو . ٣٩٨ / ١
- ٤٧- أحمد بن مسطار . ٣٩٨ / ١
- ٤٨- أحمد بن عبد الرحمن زغبوش . ٣٩٨ / ١
- ٤٩- أحمد بن العباس . ٣٩٩ / ١
- ٥٠- أحمد بن عبد القادر . ٣٩٩ / ١
- ٥١- أحمد بن مغيث . ٣٩٩ / ١



- ٣٩٩ / ١ - ٥٢ - أحمد بن سعيد العميري .
- ٤٠٠ / ١ - ٥٣ - أحمد بن عبد الرحمن المجاصي .
- ٤٠٠ / ١ - ٥٤ - أحمد بن عبد الملك البوعصامي .
- ٤٠١ / ١ - ٥٥ - أحمد بن علي العلوي .
- ٤٠١ / ١ - ٥٦ - أحمد بن أحمد الحكمي .
- ٤٠٥ / ١ - ٥٧ - أحمد العمراني .
- ٤٠٥ / ١ - ٥٨ - أحمد المكناسي .
- ٤٠٥ / ١ - ٥٩ - أحمد بن عبد المالك العلوي .
- ٤٠٩ / ١ - ٦٠ - أحمد بن عثمان المكناسي .
- ٤١٧ / ١ - ٦١ - أحمد بن علي العلوي .
- ٤١٧ / ١ - ٦٢ - أحمد بن عزوز .
- ٤١٧ / ١ - ٦٣ - أحمد بن محمد المزيان .
- ٤١٩ / ١ - ٦٤ - أحمد بن الطيب بصري .
- ٤١٩ / ١ - ٦٥ - أحمد بن علي السوسي .
- ٤٢٠ / ١ - ٦٦ - أحمد بن عبد الله بن محمد الناصري .
- ٤٢٠ / ١ - ٦٧ - أحمد بن عبد الله الناصري المقرئ .
- ٤٢١ / ١ - ٦٨ - أحمد بن محمد الجبلي .
- ٤٢٢ / ١ - ٦٩ - أحمد بن علي الحسيني العلوي .
- ٤٢٤ / ١ - ٧٠ - أحمد بن مبارك .
- ٤٢٦ / ١ - ٧١ - أحمد بن الطاهر بادو .
- ٤٢٧ / ١ - ٧٢ - أحمد بن عمر بن العربي .
- ٤٣٠ / ١ - ٧٣ - أحمد بن موسى ، وفيها من الاستطرادات :

- ٤٣٠ / ١ إسقاطه وزارة الجامعيين وسبب ذلك .
- ٤٣٦ / ١ وزارته وصدارته العظمى .
- ٤٣٨ / ١ بعث السفارات لأوروبا .
- ٤٤٨ / ١ ثورة الرحمان بزعامه مبارك بن سليمان .
- ٤٥٤ / ١ عبقريته السياسية .
- ٤٥٤ / ١ أمانته .
- ٤٥٦ / ١ متخلفه وما وقع فيه .
- ٤٥٨ / ١ بعث السفارات لأوروبا ونتائج ذلك .
- ٤٦٥ / ١ ثورة أبي حمارة .
- ٤٨٠ / ١ ثورة الريسولى .
- ٤٨٢ / ١ مقتل موشان واحتلال وجدة .
- ٤٨٧ / ١ احتلال الدار البيضاء .
- ٥١٨ / ١ البيعة الحفيظية .
- ٥٢٦ / ١ ٧٤ - أحمد بن عبد القادر العرائشى .
- ٥٢٧ / ١ ٧٥ - أحمد بن سودة القاضى .
- ٥٣٤ / ١ ٧٦ - أحمد بن إدريس الخطابى .
- ٥٣٥ / ١ ٧٧ - أحمد بن الفاطمى الإدريسى .
- ٥٣٦ / ١ ٧٨ - أحمد بن محمد بن عزوز .
- ٥٣٦ / ١ ٧٩ - أحمد بن مبارك بن عبد الله السجلماسى .
- ٥٣٧ / ١ ٨٠ - أحمد بن رحال البخارى .
- ٥٣٨ / ١ ٨١ - أحمد بن محمد بن المأمون .
- ٥٣٨ / ١ ٨٢ - أحمد الطهّارى .

- ٨٣ - أحمد بن القائد محمد الشاذلي . ٥٣٩ / ١
- ٨٤ - أحمد بن العالم القادري . ٥٣٩ / ١
- ٨٥ - أحمد بن الصديق التواتي . ٥٤٠ / ١
- ٨٦ - أحمد بن العربي الأمراني . ٥٤١ / ١
- ٨٧ - إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل . ١١ / ٢
- بحث فى أول من ضرب السكة قبل الإسلام وبعده
وأول من ضرب السكة المركنة
- ٨٨ - إدريس المعروف بإدريس الأنور . ١٩ / ٢
- ٨٩ - إدريس بن السلطان سليمان . ٢٧ / ٢
- ٩٠ - إدريس بن التهامي أجانا . ٣٠ / ٢
- ٩١ - إدريس بن الطيب منون . ٣٢ / ٢
- ٩٢ - إدريس بن الطيب بوعشرين . ٣٥ / ٢
- ٩٣ - إدريس بن أحمد بن مسامح . ٣٦ / ٢
- ٩٤ - إدريس بن أحمد الخطابي . ٣٨ / ٢
- ٩٥ - إدريس بن أحمد البخاري . ٣٩ / ٢
- ٩٦ - إدريس بن المكى البخاري . ٣٩ / ٢
- ٩٧ - إدريس بن حفيد برادة . ٤٠ / ٢
- ٩٨ - إدريس بن القائد محمد الفيضى . ٤١ / ٢
- ٩٩ - إدريس بن اليزيد المقرئ . ٤١ / ٢
- ١٠٠ - إدريس بن إدريس الوزير الأديب . ٤٢ / ٢
- ١٠١ - إدريس بن بوعزة الميسورى . ٥٢ / ٢
- ١٠٢ - إدريس الأمراني . ٥٣ / ٢